الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر 02



كلية العلوم الانسانية

قسم التاريخ

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في التاريخ القديم

الموضـــــوع:

مقومات الوحدة وعوامل التفرقة في تاريخ بلاد المغرب في العصر القديم

إعداد الطالبة:

حفيظة لعياضي

تحت إشراف الأستاذ الدكتور

محمد الهادي حارش

لجنة المناقشة			
أ.د	محمد الحبيب بشاري	جامعة الجزائر2	رئيساً
أ.د	محمد الهادي حارش	جامعة الجزائر2	مقررا
د	نصيرة ساحير	المدرسة العليا للأساتذة -بوزريعة-	عضوا
د	رضا بن علال	المدرسة العليا للأساتذة -بوزريعة-	عضوا
د	عبد القادر دراجي	جامعة الجزائر2	عضوا
د	دليلة بورني	جامعة الجزائر2	عضوا

السنة الجامعية: 2017-2018 م/ 1439-1440 ه

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر 02



كلية العلوم الانسانية

قسم التاريخ

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في التاريخ القديم

الموضـــوع:

مقومات الوحدة وعوامل التفرقة في تاريخ بلاد المغرب

في العصر القديم

إعداد الطالبة: حفيظة لعياضي

تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد الهادي حارش

لجنة المناقشة

أ.د	محمد الحبيب بشاري	جامعة الجزائر2	رئيساً
أ.د	محمد الهادي حارش	جامعة الجزائر2	مقررا
د	نصيرة ساحير	المدرسة العليا للأساتذة -بوزريعة-	عضوا
د	رضا بن علال	المدرسة العليا للأساتذة -بوزريعة-	عضوا
د	عبد القادر دراجي	جامعة الجزائر2	عضوا
د	دليلة بورني	جامعة الجزائر2	عضوا

السنة الجامعية: 2017-2018 م/ 1439-1440 هـ

بسم الله الرحمان

الرحيم

إهداء

إلى كل أحرار بلاد المغرب في كل زمان وكل رقعة من هذه الأرض الواسعة

إلى كل شهداء الجزائر الأبرار الذين ضحوا بالنفس والنفيس ليعيش هذا الوطن حرا أبيا

إلى والداي العزيزين...

أمي نبع الحنان

أبي رمز الكفاح

إلى كل أولئك أهدي ثمرة هذا الجهد المتواضع

شكر وتقدير

أتقدم بجزيل شكري إلى كل من ساعدني لإتمام هذا العمل، وأخص بالذكر المشرف على هذه الأطروحة منذ أن كانت فكرة إلى أن صارت بحثا جاهزا اليوم، أستاذي:

"الأستاذ الدكتور محمد الهادي حارش"

على ما بذله من جهد في إرشادي وتوجيهي وكل نصائحه في طريق إنجازي لهذا العمل

إلى أولئك الذين أمدوا يد العون لي من كافة الجامعات والمكتبات والمراكز العلمية والثقافية الذين لم يتوانوا في خدمتي أثناء فترة بحثي ، وأذكر من بينهم:

عمال مكتبة قصر الرياس، الحصن 23 بالجزائر العاصمة

عمال مكتبة المركز الأسقفي للدراسات والأبحاث "Les Glycines"، الجزائر العاصمة

مديرة الحظيرة الوطنية الثقافية للتاسيلي نازجر السيدة "إساك وقافي عائشة" وكل عمال الحظيرة الذين رافقوني إلى بعض مواقع الفن الصخري التابعة للحظيرة، وكذا عمال مكتبة هذه الحظيرة

إلى عمال مكتبة المعهد الوطني للتراث، تونس العاصمة

إلى عمال مكتبة المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث بالرباط المملكة المغربية

إلى السيد مدير المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية " IRCAM" بالرباط، المملكة المغربية، وعمال هذا المعهد على كل ما بذلوه من جهد في استقبالنا وتوجيهنا، وعلى رأسهم الدكتور "الوافي نوحي"

إلى الدكتور مصطفى أعشي، والدكتورة البضاوية بلكامل من جامعة محمد الخامس على ما قدموه لنا من نصائح وارشادات تخص الموضوع

إلى عمال مكتبة "Saint-Geniviève". université de Sorbonne-Paris، على ما بذلوه استقبالنا وتوجيهنا

إلى الساهرين على مكتبة الدراسات الأسقفية Bibliothèque d’études augustiennse, "université de Sorbonne-Paris"، وكذا عمال المعهد الكاثوليكي لباريس "Institut catholique de Paris –Université de Sorbonne" على حسن ضيافتنا في مكتبة المعهد

إلى الأساتذة الكرام أعضاء لجنة المناقشة على ما سيبذلونه من جهد لإثراء هذا العمل

وإلى كل من ساعدنا وشجعنا على إنجاز وإتمام هذا البحث من قريب أو بعيد وأخص بالذكر شقيقتي "سهام لعياضي"

قائمة المختصرات

Ant. Afr : Antiquité Africaine
B. A. C. T. H. A. N : Bulletin Archéologique du Comité des Travaux Historiques Afrique du Nord
B. S. G. A. A. N : Bulletin de la Société de Géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord
C. E. B : Cahier d'Etude de Berbère
C. N. R. S : Centre Nationale de Recherche Scientifique
C. R. A. I : Comptes Rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et belles-Lettres
C. T. H. S : Comité des Travaux Historiques et Scientifiques
H. A. A. N : Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord
I. E. A : Institut des Etudes Africaines
I. F. A. N : Institut Français de l'Afrique Noir
I. R. C. A. M : Institut Royale de la Culture Amazigh
J. S. A : Journal de la Société des Africanistes
M. A. H : Mélange d'Archéologie et d'Histoire
M. E. F. R : Mélange de l'Ecoles Français de Rome
M. F. I. A. A. N. A. M : Monuments Funéraires Institutions Autochtones en Afrique de Nord Antique et Médiévale
R. Af : Revue Africaine
R. H. C. M : Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb
R. T : Revue Tunisienne

مقدمة

مقدمة

مقومات الوحدة و عوامل التفرقة في بلاد المغرب القديم، موضوع يعالج جوانب مختلفة متعلقة بتاريخ هذه المنطقة منذ فجر التاريخ إلى نهاية الفترة البيزنطية، والهادفة إلى إبراز العناصر الوحدوية أو المفرّقة لهذه الرقعة الجغرافية، ومدى مساهمتها في بناء حضارة بلاد المغرب القديم أو عرقلة البناء الحضاري له.

ومن هنا تكون اشكالية البحث هي معرفة المقومات التي تساعد على الوحدة والتلاحم، والعوامل التي عدّها البعض كعامل تنافر وتطاحن، فإذا كانت الوحدة الجغرافية لبلاد المغرب القديم والوحدة الاثنية واللغوية لم تكن تخفى على الباحثين في تاريخها، يبقى مدى وعي السكان بهذه العناصر ومدى مساهمتها في التوجه الوحدوي، بينما عدّ بعضهم التنافر الاقليمي والنظام القبلي وانقسام السكان إلى زرّاع مستقرين ورعاة رحل كعوامل تنافر وتناحر.

ومن هنا تبرز أهمية هذا الموضوع في كونه محاولة لجمع شتات المادة العلمية المتناثرة في كتب المدرسة الغربية والقائل كله بتجزئة المنطقة وعجزها عن اقامة وحدة سياسية عبر تاريخها . كما تتجلى أهمية الموضوع في محاولته ترتيب تلك المادة العلمية المتناثرة ترتيبا جديدا في موضوع واحد هو هدفنا، وأن النظر لحقائق ونظريات قديمة بنتها المدرسة الغربية، في أسباب جديدة مبنية على المكتشفات الأثرية أو الحقائق التاريخية المتوصل اليها حديثا من طرف أقلام المدرسة التاريخية الأثرية المغاربية الناشئة هو هدفنا كذلك، مما يعطي للموضوع الأهمية العلمية.

ولاشك أن دراسات سابقة قد حاولت دراسة الموضوع من هذا الجانب أو ذاك، فهذا ايميل فليكس قوتييه(E-F. Gautier) في كتابه "ماضي شمال افريقيا" قد ركز على الجغرافيا والنظام القبلي، وتوزع السكان إلى مزارعين مستقرين ورعاة رحل، وما نجم عن ذلك من الصراع الأبدي الذي لا يسهل في رأيه على نمو الشعور الوحدوي، وكذا من تتبع خطاه في هذا المنحى أمثال شارل أندري جوليان في كتابه "تاريخ افريقيا الشمالية"، الذي أشار بدوره إلى عجز المنطقة عن اقامة وحدة سياسية، وأنها لم تتمكن من ذلك إلا مرتين في تاريخها: الأولى في عهد ماسينيسا، والثانية في عهد الموحدين، كذلك نلاحظ إقرارا ضمنيا عند ستيفان قزال، وإن لم يكن مباشرا في " التاريخ القديم لإفريقيا الشمالية" بكل أجزائه، وتساؤله بين الحين والآخر، مثلما فعل في خضم بحثه عن أصل اللغة الليبية متسائلا: هل يمكن للبربري فعلا أن "يبتكر الكتابة الليبية؟. هذا على سبيل المثال لا الحصر في مختلف الجوانب التي عالجها هذا الأخير.

يضاف اليها الدراسات الأثرية المتنوعة عند غابريال كامبس مثل كتاب " في أصول بلاد البربر ماسينيسا أو بدايات التاريخ"، وكذا كتاب "Monuments et rites funéraires protohistoriques" وغيرها من الدراسات، التي وإن كانت أبحاثا جادة، فإننا نلمس فيها دائما نظرة الاحتقار إلى البربري وعجزه عن اقامة مقومات حضارية بنفسه. يمكننا أيضا أن نرى اشارات حول موضوعنا في ما كتبه كورتوا في " les vandales

et l'Afrique"، حيث أن الملاحظ غالبا هو نظرة العجز لدى الانسان المغاربي عن اقامة وحدة في مختلف مراحل التاريخ القديم.

هذا عن المدرسة الغربية، أما مدرسة التاريخ المغاربي الناشئة، فقد بدأت بها أقلام المؤرخين وإن لم تعالج هذا الموضوع بشكل مباشر، فإننا نجد بها صدى لمحاولة نفض الغبار عن تلك النظريات الاستعمارية، مثلما هي دراسات الباحث "محمد حسين فنطر" المختلفة، ومثلا كتاب "مجمل تاريخ المغرب "ل عبد الله العروي، وكذا مختلف الدراسات الأثرية والتاريخية للباحث "مصطفى أعشي"، وكذا كتابات "محمد البشير شنيتي" في مختلف الدراسات التي قدمها مثل كتاب "التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب" وغيرها، كذلك نجد دراسات الباحث "محمد الهادي حارش" في مقال له عالج فيه مقومات الوحدة المغاربية في القديم، فكان دافعا لطرق هذا الموضوع، وكذا كتابه "التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري"، وأيضا دراسات الباحث "محمد الصغير غانم"، ودراسات "محمد العربي عقون" وغيرها من الأبحاث الجادة، وإن لم يعالجوا الموضوع بشكل مباشر، الأمر الذي دفعنا إلى البحث في هذه الفرضيات التي قدمتها المدرسة الغربية، وأصبحت كأنها مسلمات في تاريخنا، والتساؤل إلى أي مدى تبقى هذه الفرضيات صالحة عبر تاريخنا، وهل فعلا للجغرافيا كل هذا التأثير؟ وهل كان المغاربة القدامى فعلا لا يشعرون بالانتماء إلى هذه الأرض، ولا يشعرون بوحدتهم الاثنية واللغوية؟

ولعل تلك النظرة الاستعمارية حول تاريخ بلاد المغرب القديم هي التي قادتنا كباحثين ناشئين، في مدرسة التاريخ المغاربي القديم إلى محاولة البحث في مدى صحة هذه الفرضيات من عدمها التي أصبحت وكأنها مسلمات في تاريخنا، وهي محاولة منا للبحث في أسباب ذلك العجز عن اقامة وحدة من مختلف الجوانب، الجغرافية ، الاثنية، اللغوية والسياسية، وتتبع تطورها ومدى استمرارية تلك العوائق لبناء وحدة المنطقة والعناصر المفرّقة دون الانطلاق من مبدأ المناظرة والوقوف منذ البداية مع وحدة المنطقة والدفاع عنها. تضاف إلى هذه الأسباب أهمية الموضوع كونه جديدا برأينا في مجال البحث العلمي للتاريخ المغاربي القديم، وأنه خطوة في سبيل دراسات أخرى أكثر عمقا ومنهجية لمعالجة جوانب أخرى انطلاقا من هذا الموضوع، وكذا تشجيع المشرف لنا الأستاذ الدكتور "محمد الهادي حارش" على معالجة هذا الموضوع وتتبعنا في كل خطوات البحث فيه.

وقد رأينا معالجة هذا الموضوع في قسمين، تناول القسم الأول مقومات الوحدة في بلاد المغرب القديم، من خلال ثلاث فصول، علاجنا في أولها الوحدة الجغرافية للمنطقة، من خلال التضاريس، المناخ والغطاء النباتي، وكذا شبكة المياه، أما الفصل الثاني فقد تناولنا فيه الوحدة الاثنية لسكان بلاد المغرب من خلال معرفة السكان في المصادر الكلاسيكية، وكذا أصولهم من خلال الآثار والأنثروبولوجيا. واضافة إلى هذين الفصلين، تناول هذا القسم في فصل ثالث الوحدة اللغوية للمنطقة من خلال دراسة اللغة والكتابة الليبية ومعرفة دور

الفن الصخري في تحديد أصالتها. أما القسم الثاني من هذا الموضوع، فقد خصصناه لدراسة عوائق الوحدة السياسية والثقافية من خلال فصلين، درسنا في الفصل الأول منهما البيئة والانسان في نقطتين، كانت الاولى حول التنافر الاقليمي وانعدام مركز حيوي، أما النقطة الثانية فقد درسنا بها امتداد السهوب والصحراء وكذا ثنائية البدو والحضر. كما عالجنا في الفصل الثاني من هذا القسم دور العامل الاثني واللغوي في تحقيق أو افشال الوحدة السياسية من خلال ثلاث نقاط، أردنا في الأولى منها معرفة مدى انعدام الشعور الوحدوي لدى المغاربة في التعدد العرقي وكذا تعدد المفردات اللغوية، اضافة إلى انعدام الشعور بالوحدة بسبب خصائص البداوة. أما النقطة الثانية فقد درسنا فيها النظام القبلي في بلاد المغرب القديم، من خلال مفهوم القبيلة ودورها في بناء هيكل المملكة النوميدية والمورية، وكذا قبائل العهدين الوندالي والبيزنطي ومقاومتهما للأجانب. وأما النقطة الثالثة من هذا الفصل فقد درسنا فيها التدخل الأجنبي في بلاد المغرب القديم ودوره في إفشال الوحدة السياسية، وذلك بتتبع محاولات الملوك النوميد في اقامة وحدة سياسية، مثل سيفاكس وقرطاجة، واصطدامهما بقرطاجة حينا والرومان حينا آخر، وكذا محاولات يوغرطة من بعدهما، وهيرباص ويوبا الأول، وكذا أرابيون وتدخل الاحتلال الروماني في ذلك. كما تطرقنا اضافة إلى محاولات الملوك النوميد، إلى تلك الثورات التي عمّت كامل بلاد المغرب طيلة فترة الاحتلال الروماني، كثورة تاكفاريناس، ايدمون، وكذا ثورتي فيرموس وجيلدون.

اضافة إلى هذه الفصول الموجودة في قسمين، استعرضنا في الخاتمة ما بدا لنا من نتائج مهمة، كما أرفقنا الموضوع بمجموعة من الملاحق المتمثلة في أشكال، صور، خرائط ونقوش.

وبالنسبة للمادة العلمية التي خدمتنا في هذا الموضوع فنذكر جملة من المصادر، أولها المصادر الأثرية المتمثلة في بعض النقوش المنشورة في مختلف الدراسات، وثانيها المصادر الأدبية المتنوعة، وعلى رأسها هيرودوت في كتابه "التواريخ"، حيث وظفناه في كل فصول البحث، فقد كان أول من أشار في كتابه إلى تسمية ليبيا على أنها القارة الافريقية محددا الاطار الجغرافي للمنطقة كما سمع ذلك من الليبيين، كما أنه أشار إلى تضاريس ليبيا القارة كالجبال، وكذا إشارته لمناخ ليبيا في الكتاب الرابع والثاني، ولا ننسى حديثه عن الغطاء النباتي وخصوبة الأراضي من عدمها في الكتاب الرابع كذلك، وما أورده من ثنائية المستقرين المزارعين والبدو الرحل، وكذا إشارته لبعض أنهار ليبيا، كما لا ننسى اعتمادنا عليه في التسميات المطلقة على السكان ورسم خارطة بشرية للقارة ليبيا خلال القرن الخامس قبل الميلاد في كتابه الثاني والرابع على التوالي.

كما يتوضع على رأس المصادر التي أثرت الموضوع، بلينوس الكبير في الكتاب الخامس من مؤلفه "التاريخ الطبيعي"، ، حيث أفادنا في كل فصول الموضوع، بدءً بتسمية افريقيا التي أطلقها على بلاد المغرب القديم بدل ليبيا الذي كان مستعملا عند الكتّاب الاغريق، والاطار الجغرافي لهذه المنطقة، ثم إشارته لجبالها

ومناخها وكذا خصوبة تربتها وتنوع غاباتها، وصولا إلى شبكة الأنهار بها، وكذلك تحدث عن الخريطة البشرية للمنطقة بعد هيرودوت، وعن لغة سكان المنطقة المغاربية قديما.

كما أن هناك الجغرافي سترابون في مؤلفه "الجغرافيا"، الكتاب السابع عشر، الذي عدنا اليه في مختلف فصول الموضوع، من إشارته إلى مناخ المنطقة وتربتها، ثم ثنائية البدو والحضر ببلاد المغرب القديم، وكذا تحدثه عن بعض أنهار بلاد المغرب وساحلها. كما أن سترابون أعطانا إشارات عن أهم القبائل والخارطة البشرية للمنطقة في عهده، ووجود قبائل المور كسلطة ملكية.

يضاف إلى هذه المصادر، مصدر مهم آخر، وهو اللاتيني سالوست في كتابه "حرب يوغرطة"، الذي أفادنا في كل فصول الموضوع كذلك، من تسمية افريقيا إلى تضاريسها وخصوبة سهول بلاد المور، وإلى إشاراته حول مناخها ونباتها وثنائية البدو والحضر، وكذا عن شبكة المياه بهذه المنطقة. لكن خصوصية سالوست وحرب يوغرطة تكمن في ما أورده عن أصل سكان بلاد المغرب القديم وأسطورته حول الميد والأرمن والفرس، على ما فيها من بعد عن الحقيقة التاريخية، مثلما تبرز أهميته أكثر باعتباره المصدر الوحيد لحرب يوغرطة ودور هذا الأخير في مجابهة أولى خطوات الاحتلال الروماني في المنطقة، على ما في كتابه من ذكر لمفاسد مجلس الشيوخ الروماني أكثر من هدفه في إعطاء الحقائق التاريخية حول ثورة يوغرطة وما كان فيها.

يأتي مصدر آخر مهم بعد سالوست، وهو ديودور الصقلي و مؤلفه "المكتبة التاريخية" الذي اعتمدنا عليه في أغلب الفصول أيضا، مثلما أورده من إشارات حول جبال بلاد المغرب القديم في الجزء الثالث من كتابه، وفي حديثه عن تربتها ونباتها، وكذا عن نمط معيشة السكان من مزارعين رحل، وصولا إلى إشاراته حول أنهار المنطقة ، وكذلك ما أشار اليه من وجود سلطة ملكية في بلاد المور التي وظفناها في الفصل الرابع من الموضوع.

ولن ننسى في ذكرنا لأهم المصادر التي أفادتنا، بروكوبيوس القيصري في كتابه "Les Edifices"، الجزء السادس منه، الذي أفادنا في معرفة تضاريس بلاد المغرب ومناخها وكذا تربتها وغاباتها وأنهارها. وتبقى خصوصية هذا المصدر في كتابه "الوندال"، الجزء الثاني منه، الذي أبرز نظرية الأصول العبرية لسكان بلاد المغرب القديم وقصة ذلك، اضافة إلى إشاراته حول قبائل المنطقة، وكذا خصوصيته في سرد أحداث الثورات في المنطقة عشية الاحتلال الوندالي والبيزنطي، لكونه مرافقا للحملة البيزنطية على بلاد المغرب، فهو يعتبر أهم مصدر يعتمد عليه لمعرفة أحداث الثورات خلال الفترة الوندالية والبيزنطية.

هناك مصدر آخر لا يقل أهمية، وهو كوريبوس وكتابه "Johannide " الذي أورد فيه معلومات عن سواحل بلاد المغرب القديم في أشعاره، وكذا إشاراته إلى الخارطة البشرية والسكان، وكذا لغتهم، اضافة إلى ما أورده من مقتطفات حول ثورات القبائل خلال فترة الاحتلال الوندالي ثم البيزنطي، لكن أهميته تكمن في كونه من القلائل الذين تناولوا الحياة الاجتماعية في بلاد المغرب كالأسرة. كذلك هنا أميانوس ماركيلينوس وكتابه "

"Histoire de Rome" الذي استفدنا منه في الفصل الأول حول المناخ، وحول الخريطة البشرية في الفصل الثاني، اضافة إلى ما أورده من تفصيلات عن ثورتي فيرموس وجيلدون. كما أن هناك مصدران مهمان لما لهما من اشارات حول الفصل الأول والرابع، وهما: تاكيتوس ومؤلفه "Les Annales"، وديون كاسيوس في كتابه "Histoire romaine"، حيث استفدنا من هذا الأخير في تسميات بلاد المغرب وفي ثورات فترة الاحتلال الروماني، أما تاكيتوس فقد خدمنا في الفصل الأول حول المناخ وشبكة المياه، أما خصوصيته فتبقى في كونه أهم مصدر لثورة تاكفاريناس.

واضافة إلى هذه المصادر الكلاسيكية، لا يفوتنا التنويه بأهمية المصادر الوسيطية –العربية التي استفدنا منها في دراسة أصول السكان، وأهمها ابن خلدون في كتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر في مجلده السادس.

بالإضافة إلى هذه المصادر الأدبية، استفدنا كثيرا في معالجة هذا الموضوع من الأبحاث الأثرية المنشورة في الكتب والدوريات، ومنها تلك الخاصة بفترة ما قبل التاريخ ببلاد المغرب القديم، مثل أبحاث ليونال بالو (الجزائر في ما قبل التاريخ)، ك. ابراهيمي (تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر)، محمد سحنوني (ما قبل التاريخ)، وكذا مصطفى أعشي (جذور بعض مظاهر الحضارة الأمازيغية خلال عصور ما قبل التاريخ)، يضاف اليها أبحاث فجر التاريخ في بلاد المغرب القديم، وعلى رأسها أبحاث غابريال كامبس (Monuments et rites funéraires protohistoriques)، وما قدمه الباحث عزيز طارق ساحد حول المقابر وطرق الدفن وآثار فجر التاريخ بالجزائر خصوصا (آثار فجر التاريخ في الجزائر). وأما النقوش الليبية أو النوميدية، فقد استفدنا من أعمال J-B. Chabot (Recuiel des inscription libyques) ، و Faidherbe (Collection complète des inscriptions numidiques)، ومارسال سولينياك(Les pierres écrites de la Berbèrie orientale) ، وكذا الباحثين المغاربة أمثال حليمة غازي (نقائش لاتينية لماوريطانيا التنكية)، مها عيساوي (النقوش النوميدية)، ومصطفى أعشي (نقائش معاهدات السلام بين الباكوات الأمازيغ والرومان في موريطانيا الطنجية، أيضا منصور غاكي (M. Ghaki) في عدة ابحاث منشورة في عديد الدوريات، منها(la répartition des inscriptions libyques) ، و (une nouvelle inscription libyque à Bordj Hellal).

أما الأبحاث الأثرية المختصة في الفن الصخري في بلاد المغرب القديم والنقوش الليبية –البربرية، والتي أفادتنا في هذا الجانب من الفصل الثالث حول الكتابة الليبية والفن الصخري، ومحاولة منا للبحث عن الأصل المحلي للأبجدية الليبية، فقد اعتمدنا على G. B. M. Flamand (Les pierres écrites (hadjarat maktouba) gravures et inscriptions rupestres du nord africain) ، وأبحاث Maurice Reygasse

(Contribution à l’étude des gravures rupestres et inscription tifinar du Sahara centrale)، وكذا الباحثة مليكة حاشد في مختلف دراساتها (les premiers Berbères entre Méditerranée. Tassili et Nil)، وكذا عباسي عبد الجبار (الكتابات الليبية البربرية في إطار الفن الجداري الصخري –دراسة أثرية لمجموعات الكتابات الصخرية في محيطها الطبيعي الأثري بالتاسيلي نازجر)، اضافة إلى تنقلنا إلى بعض مواقع الفن الصخري المحتوية على كتابة التيفناغ بالتاسيلي نازجر (الجزائر)، وأخذ نظرة قريبة عن خصوصيات تلك الكتابة.

أما عن أهم المؤلفات التي اعتمدنا عليها في معالجة هذا الموضوع، فتتمثل العربية منها في كتاب غابريال كامبس (في أصول بلاد البربر . ماسينيسا أو بدايات التاريخ) الذي اعتمدنا عليه في كل فصول البحث، وكذا (تاريخ افريقيا الشمالية) في جزئه الأول، لصاحبه شارل أندري جوليان. هذا عن المؤلفات المترجمة، أما الأبحاث المغاربية الأصيلة، فهي دراسات الباحث محمد البشير شنيتي، وأهمها كتاب (الجزائر في ظل الاحتلال الروماني) بجزأيه الأول والثاني الذي أفادنا في أغلب فصول الموضوع، وكذا كتاب (الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة) الذي اضفى إشارات كثيرة في كل الموضوع كذلك. يضاف اليه كتاب (التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الاسلامي) للباحث محمد الهادي حارش، الذي استخدمناه كذلك في أغلب فصول الموضوع، اضافة إلى كتاب (مقالات وآراء في تاريخ الجزائر القديم) للباحث محمد الصغير غانم، والذي أفادنا في الفصل الرابع من الموضوع حول مقومات الوحدة السياسية، وكذا كتاب (الاقتصاد والمجتمع في الشمال الافريقي القديم) للباحث محمد العربي عقون، حيث استفدنا منه في رسم الخريطة البشرية وأهم القبائل والتسميات المطلقة على السكان، ونقاط أخرى. وإلى جانب هذه المراجع، نجد كتاب (قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي القديم والمعاصر) للباحث عبد الكريم غلاب، والذي أفادنا في معرفة الخصوصية الجغرافية لبلاد المغرب القديم، وكذا خصوصية المقومات السياسية للمنطقة، اضافة إلى كتاب (مجمل تاريخ المغرب) للباحث عبد الله العروي، الذي وظفنا قراءته للتاريخ المغاربي القديم في الفصل الرابع خصوصا.

هذا عن الكتب العربية، أما عن أهم المؤلفات الأجنبية، فقد اعتمدنا فيها على ستيفان قزال (Histoire ancienne de l’Afrique du Nord) بجزئه الأول في الجغرافيا، والثالث في المقومات الاثنية واللغوية، أما الجزء الخامس فقد وظفناه في المقومات السياسية، وكذا كتاب "G. Camps" (Les Berbères mémoire et identité) في أغلب فصول الموضوع، وكتاب "M. Bénabou" (la résistance africaine à la romanisation) في الفصل الثاني، الثالث والرابع. اضافة إلى كتاب " F. Decret" و "M. Fanter" (L’Afrique du nord dans l’antiquité) الذي وظفناه في كل فصول الموضوع، وأيضا كتاب "E-F. Gautier" (le passé de l’Afrique du Nord) الذي عدنا اليه بين كل فصل وفصل لأنه على رأس القائلين بعجز بلاد المغرب عن اقامة وحدة، وكذا "Ch. Courtois" في

كتابه(Les vandales et l'Afrique)، الذي وظفناه كذلك مثل كتاب قوتييه في أغلب فصول الموضوع. هذا بالإضافة إلى كتب تعمقت في فصل دون آخر، مثل كتاب "A. Bernard" (L'Afrique septentrionale et occidentale) الذي وإن وظفناه في الفصلين الثاني والثالث، فإن خصوصيته تبقى في الناحية الجغرافية لبلاد المغرب القديم، مثلما كتاب "E. Albertini, G. Marçais, G. yves" (L'Afrique du Nord française)، وكتاب "J. Despois, R. Raynal" المعنون بـ (Géographie de l'Afrique du nord ouest)، و "J. Despois" في (La Tunisie orientale. Sahel et basse steppe) التي وظفناها بكثرة في الفصل الأول حول جغرافية بلاد المغرب القديم.

القسم الأول: مقومات الوحدة في بلاد المغرب القديم

الفصل الأول: الوحدة الجغرافية

أولا: تضاريس بلاد المغرب القديم

1-الاطار الجغرافي والتسميات المطلقة على البلاد

2-التضاريس

ثانيا: المناخ والغطاء النباتي

1-المناخ

2-التربة والغطاء النباتي

ثالثا: شبكة المياه

1-التساقط في بلاد المغرب القديم

2-المياه السطحية والجوفية

إذا كانت البيئة هي ذلك المجال الحيوي، الذي يتكون من مجموعة ظروف وعوامل طبيعية وبيولوجية تحيط بالبشر، وتضمن لهم استمرارهم وتواجدهم في هذا المجال وذاك، بشرط أن يضمن لها الانسان هو كذلك شروطا ومؤهلات النمو والاستقرار والحياة.(1) ، فإنه يحق لنا أن نبحث عن العلاقة التي ربطت بيئة بلاد المغرب القديم من تضاريس ومناخ ونبات ومياه بالإنسان الذي عاش عليها في العصر القديم. ودعونا بغية إدراك إلى أي حد ساهمت هذه الظروف في تطور المنطقة وبنائها، أو أنها كانت حاجزا في وجه بناء الانسان الذي عاش بها لكيانه وحضارته. دعونا نلقي نظرة فاحصة على كل من التضاريس، المناخ والمياه في بلاد المغرب القديم.

أولا: تضاريس بلاد المغرب القديم

1- والتسميات المطلقة على البلاد والاطار الجغرافي:

قبل الخوض في معرفة تضاريس بلاد المغرب القديم، ومدى مساهمتها في دفع الانسان قدما نحو رسم صورة له على خارطة العالم القديم، علينا أن نعرف الاطار الجغرافي الذي كان حيزا شاملا لهذه الصورة، والتسميات التي أطلقها مؤرخو العصر القديم على الشمال الافريقي.

أ-التسميات المطلقة:

انبنى تصور العالم القديم على وجود ثلاث قارات: آسيا، أوربا وليبيا، حيث قدمت الجغرافيا القديمة شمال افريقيا قارة مستقلة بمجالها وساكنتها وحاضرتها دون أن تضم حواجز طبيعية بارزة بينها[2]. وقد أعطى الاغريق تسمية "ليبيا" للقارة الافريقية ككل في بداية الأمر، حيث كانت "ليبيا" معروفة لدى "هوميروس" (Homère) بأنها البلاد المجاورة لمصر، وأنها كانت تمتد في الغرب جنوب "كريت"، حيث لم يكن يجهل بأن الفينيقيين القادمين من "صور" (Tyr) يقومون بالتجارة فيها[3].فهذا هيرودوت[4] يقول: "أنا مستغرب كثيرا من أولئك الذين وصفو ليبيا (Libye)، آسيا وأروبا، والذين عينوا حدودها بأن هناك اختلاف كبير بين هذه الأجزاء الثلاثة من الأرض، لأن أوربا تفوق في الطول القارتين الأخريتين..."[5] واستعمل

(1) محمد عناوي:" البيئة في المغرب من خلال بعض المصادر الجغرافية العربية في العصر الوسيط الاسلامي"، كتاب البيئة بالمغرب معطيات تاريخية وافاق تنموية: منطقة درعة نموذجا، تنسيق محمد حمام واخرون، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2005، ص 40.

(2) خديجة قمش: "صورة مجال شمال افريقيا من خلال الجغرافية الاسطورية القديمة"، كتاب أضواء جديدة على تاريخ شمال افريقيا القديم وحضارته، ط1، المملكة المغربية، 1428هـ/2007م، ص 34.

(3) H.Tauxier, « Géographie libyenne », Re. Af, Volume. 30, office des publications universitaires, Alger, 1886, p. 138.

(4) "يعتقد قزال بأن هيرودوت قد أخذ من الجغرافي "هيكاتايوس" في وصفه لـ ليبيا، وأن هذه الشذرات التي أخذها كانت مهمة جدا في كتاب هيرودوت الرابع، حتى أن هناك أشياء مأخوذة مباشرة من هيكاتايوس" (للمزيد أنظر:
S. Gsell, Hérodote. Textes relatifs à l'Histoire de l'Afrique, Alger, 1915, p. 36

(5) Hérodote, Histoires, IV, 42, traduction de Larcher, Charpentier. Libraire-Editeur, Paris, 1850.

مصطلح الليبيين على كل ساكنتها قائلا: " وهكذا يكون كل الليبيين من مصر حتى بحيرة تريتون بدوا رعاة..."[1]، وفي فقرة أخرى: "لكن الليبيين غرب البحيرة التريتونية ليسوا بدوا رعاة ولا يمارسون العادات نفسها..."[2].

ولا تتوقف تسمية "ليبيا" عند هيرودوت، بل أشار اليها مؤرخون من العصر القديم بعده، أمثال سترابون الذي اعترف بوجودها كقارة رغم تحفظه بمقارنتها بآسيا وأوربا من ناحية الخصوبة قائلا: " ما سنقوم بملاحظته أولا هو أن أولئك الذين زعموا تقسيم الأرض المأهولة قد قسموا العالم يم إلى ثلاث أجزاء غير متساوية، حيث أن ليبيا تكون ثلث الأرض المأهولة، لأننا لن نصل إليها بالصعود من أوربا، وبمساواتها بـ آسيا، وأننا نخاطر حتى بمقارنتها بأوربا أين نجدها أسفل هذه الأخيرة، في الامتداد الذي هو بالضرورة أقل وفق عامل غنى خصوبتها..."[3]. كما أننا نجد "سليوس ايتاليكوس" (Siluis Italicus) يشير في معرض حديثه عن الحروب البونية إلى الليبيين، دلالة على أن المنطقة التي كانوا يقطنونها قد تسمت بذلك الاسم قائلا: "...من بين الليبيين بالسترة المتشدقة، ووسط هذه الشعوب الغدارة، الملكة الجريئة "أسبيت" (Asbyte) قد قادت راياتها من عمق المارماريك لمحاربة الرومان..."[4].

وهذا ديون كاسيوس (Dion Cassius) يقول عنها: " في مناطق ليبيا، المنطقة التي تحيط بـ قرطاج، والتي نسميها أيضا "إفريقيا"..."[5] .وتواصلت التسمية إلى غاية بروكوبيوس القيصري القائل:" وأما الأرض التي تقع على يسار النيل فإنها تحمل اسم ليبيا حتى تبلغ الأوقيانوس الذي يبين الحد في الغرب بين القارتين.."[6]. ثم سرعان ما تحولت تسمية "ليبيا" إلى أفريقيا على لسان المؤرخين اللاتين، وأطلقوه على كل القارة الافريقية أيضا. فهذا بلينوس الكبير يؤكد ذلك في قوله: " افريقيا كانت تسمى ليبيا من طرف الاغريق، والبحر الذي يغمرها البحر الليبي، لها مصر كحدود"[7]، كما يقول في مكان آخر: " الكرة الأرضية بكاملها مقسمة إلى ثلاث أجزاء، أوربا، آسيا، وإفريقيا."[8].

---

(1) هيرودوت: التواريخ، IV، 186، نقلا عن: علي فهمي خشيم، نصوص ليبية، ، منشورات دار مكتبة الفكر، طرابلس-ليبيا، 1967،ص83.

(2) هيرودوت: IV، 187.

(3) Strabon, Géographie, XVII , III, 1,traduction française Amédée Tardieu, libraie de L. Hachette et Cie, Paris, 1865.

(4) Silius Italicus, guerres puniques, II, 63,traduction française de M. Nisard, chez Firmin-Didot et Cie, libraire imprimeurs de l'institut de France, Paris.

(5) Dion Cassius, Histoire romaine, XLIII, Tome premier, traduction en français par R. Gros, Didot-frères libraire, Paris, 1845.

(6) بروكوبيوس القيصري: كتاب العمائر، IV ، 12، نصوص ليبية، ص 212.

(7) Pline l'ancien, Histoire naturelle, V , 1, édition d'Emil Littré, Paris, 1848-1850.

(8) Pline l'Ancien, Histoire naturelle, III, 4.

لكن علينا أن نلاحظ هنا بأن الاغريق قد أطلقوا اسم ليبيا على القسم الشمالي من افريقيا الآهلة بالبيض، وقابلوا بينه وبين الصحراء بلاد السود(1)، كما علينا أن ندرك بالمقارنة بين مختلف المصادر الاغريقية التي ذكرت لفظ ليبيا، أنه ليس هناك اختلاف حول مدلولها من مؤلف إلى آخر، حتى وإن تنوعت الأماكن التي ذكروها لأنها تقع كلها في "ليبيا". ففي حين نجد "هيكاتي الميلي" (Hécaté de Milet) وهو من القرن السادس قبل الميلاد، يذكر "Thinke" بأنها مدينة قرب أعمدة هرقل، ثم يذكر "Thinge" و "Milessa" بأنهما مدينتان ليبيتان، يأتي بعده هيرودوت ليطلق اسم "ليبيا" على جميع الجهات الليبية، من حدود مصر إلى ساحل المحيط. أما سكيلاكس (Scylaxe) (عاش خلال القرن الرابع ق.م)، فيتفق مع هيرودوت، إذ يذكر في رحلته أن أعمدة هرقل تقع في ليبيا. ولكن الشاعر الاغريقي "بندار"(Pindare) (القرن الخامس ق. م)، الذي يبدو أنه زار مدينة "قورينة"، فيطلق تسمية ليبيا على قسم خاص من ليبيا الحالية وهو "برقة"، كما يذكر بأن أهلها ليبيون. بينما نجد بوليب و ديودور الصقلي(*) يجعلان من الليبيين الأهالي الذين يقطنون المنطقة القرطاجية(2).

كما علينا ألا نغفل جانبا مهما في تسمية ليبيا عند الاغريق، وهو اقترانها بالأسطورة. إذ تظهر ليبيا كشخصية أسطورية في أشعار بندار (Pindare)، كما تحدث عنها "بوزينياس" (Pausinias) بهذه الصفة. وتقدم الأساطير أحيانا "ليبيا" ابنة الاله "ايبافوص" (Epaphos) الذي يعتبر ابنا للإله "زيوس" (Zeus) و"يو" (Io)، مما يرجح أن هذه الأسطورة التي نسبت ليبيا إلى "زيوس" قد تكون من نسج خيال الاغريق الذين أرادوا نسبها إلى كبير آلهتهم. وربما تدوينها من طرف "بيندار" راجع إلى كونه سمعها من إغريق "قورينة". كما تحدث أبولونيوس الرودسي (Apollonios de Rhodes)، عن ليبيا كشخصية أسطورية، وجعلها زوجة الإله "بوصيدون" (Poseidon)، الذي نعلم من هيرودوت أنه إله ليبي أخذه الإغريق بدورهم عن الليبيين، وفي هذا تجسيد لمجال ليبيا في شخصية أسطورية، مثلما تجسدت قارتي آسيا وأوربا. كما أن المصادر اليهودية القديمة قد أشارت إلى أن "بوت" (Put) أحد حفدة حام (Cham) ابن نوح، هو الذي أعطاها اسم ليبيا، وكانت في البداية تسمى باسمه، أي "بوتي" (Putie)، ثم أضافت هذه الأساطير اليهودية أن اسم "ليبيا" له علاقة بـ "لهب" أحد أبناء "مصراييم"(3).

ومن المؤرخين اللاتين الذين أوردوا تسمية افريقيا بدل ليبيا نجد "صولينوس" (Solin) الذي يقول: "أعطينا إلى ليبيا تسمية إفريقيا، في حين أن بعض الكتاب اعتقدوا بأن ليبيا أخذت اسمها من "ليبيا" ابنة

(1) شارل أندري، جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية، ج1، تعريب محمد مزالي والبشير بوسلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1969، ص 11.

(*) ديودور الصقلي: المكتبة التاريخية، الكتاب الثالث، نصوص ليبية، ص 192.

(2) محمد التازي، سعود: صفحات من تاريخ المغرب القديم، ط1، منشورات فكر، الرباط–المملكة المغربية، 2008، ص 10.

(3) مصطفى، أعشي: أحاديث هيرودوت عن الليبيين، ترجمة وتعليق وشرح مصطفى أعشي، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2009، ص 106.

"ايبافوس" (Ipaphos)، وافريقيا من " Afer" ابن هرقل الليبي"[1]. فهذا الأخير يربط كلا التسميتين بالأسطورة، وهو في كلتا الحالتين يعترف بالتسميتين: ليبيا وإفريقيا. أما سالوست فيذكر أنه " في تقسيم الكرة الأرضية، معظم الكتاب جعلوا من إفريقيا جزءا ثالثا من العالم، البعض لا يحسب سوى آسيا وأروبا، ويضع إفريقيا في أروبا..."[2]، فهو يضفي هنا صفة القارة على إفريقيا، مثلما فعل بومبونيوس ميلا (Pomponius Méla) حينما أشار بأن إفريقيا يحدها من الشرق النيل، ومن الجهات الاخرى البحر، إنها أقل طولا من أوروبا، كما أنها لا توافق في كل طولها الساحل الاسيوي، ولا بالنتيجة الى كل امتداد سواحل أوروبا..."[3].

إن مصطلح إفريقية (Africa) قد استعمله الرومان في البداية للدلالة على الأراضي القرطاجية، التي حولها الرومان إلى مقاطعة رومانية باسم "مقاطعة إفريقيا" والموافقة لشمال شرقي البلاد التونسية، ثم أصبحت كلمة "إفريقيا" تعني القارة كلها عوض "ليبيا" سابقا[4]. فكلمة إفريقيا يمكن أن تطبق على حقيقتين مختلفتين، كونها في البداية أطلقت على شمال شرق الملكيات الافريقية لروما، أي إقليم قرطاجة القديم، حيث سميت"Africa"، وفيما بعد ضم اسم " أفريكا" كل من مقاطعتي " Africa Vetus" و " Africa Nova"[*] (نوميديا) منذ سنة 27 ق.م[5]. ما نلاحظه أن المؤرخين اللاتين قد أطلقوا تسمية أفريكا في البداية على جزء ليصبح فيما بعد الكل، أي كامل القارة الافريقية، وهو ما فعله سالوست وغيره عندما ذكروا " افريقيا" كقارة مستقلة واقعة مقابل أروبا، وتمتد من مضيق جبل طارق إلى غاية السرت الكبرى وإلى غاية التخوم الأخيرة لمنطقة طرابلس[6]، على عكس تسمية ليبيا التي بدأت وهي تعني القارة بكاملها ثم تقلصت الى ليبيا، الجزء الذي شهد تأسيس المستوطنات الاغريقية[7] .

وهناك من يعتقد بأن تسمية إفريقيا ظهرت في فترة مبكرة عن احتكاك الرومان بالشمال الافريقي، وهو اشتقاق الكلمة من "إفرنيم" أو " فرانم"، لفظ أطلقه الكنعانيون ومن بعدهم القرطاجيون على سكان بلاد

---

(1) Solin, Polyhistor, XXV, traduction n français par M. A. Agnant. C. L. F. Panckoucke, Paris, 1847.

(2) Salluste, Guerre de Jugurtha, XVII, traduction Garnier, éd de François Richard, 1933.

(3) Pomponius Méla, Géographie de la terre, I, IV, traduit par M. Louis Baudet. C. L. F. Panckoucke. Editeir, Paris, 1843.

(4) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 11 ; أنظر أيضا: E. Mercier, Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française, T. 1, Ernest Leroux-éditeur, Paris, 1888, p. IX.

(*) "المقاطعة الجديدة أفريكا نوفا أطلقت سنة 46 ق. م على إقليم نوميديا بعد هزيمة البومبيين ويوبا الأول على يد قيصر، وكان سالوست أول حاكم لها باسم بروقنصل " (للمزيد أنظر: André Berthier. Jaques Juillet et Abbé René Charlier, le Bellum jugurthinum de Salluste et le problème de Cirta, Attali imprimeurs, Constantine, 1949, p.10.

(5) Jean-Marie Lassère, Ubique populus. Peuplement et mouvement de population dans l'Afrique romaine de la chute de Carthage à la fin de la dynastie des sévères (146 av Jc- 235 p.Jc), édition du centre national de la recherche scientifique , Paris, 1977, p.22.

(6) Anatole. Toulotte, géographie de l'Afrique chrétienne. Proconsulaire, topographie oberthur. Renne- Paris, 1892, p. 6

(7) Yves. Janvier, « La géographie de l'Afrique du Nord chez Orose », Bulletin archéologique de C. T. H. S, nouvelle série. 18, Année 1982, fascicule. B, Afrique du Nord, éd du C. T. H. S, Paris, 1988, p. 136.

المغرب القديم أو على طائفة منهم، اتصلت بهم على هذه الأرض عندما قدموا من المشرق ثم استمروا يطلقونه عليهم، مع عدم وضوح اسم الأرض المشتقة من "إفرنيم" أ, "فرانم". والرومان أسموا السكان باسم "أفري" بصيغة الجمع اللاتيني لمفرد "أفر" (Afer)، وبذلك صارت أرض هؤلاء هي "أفريكا"، واللغة الليبية (الأمازيغية) تعرف وتستعمل حتى اليوم "إفري" في المفرد و "إفران" في الجمع بمعنى كهف وكهوف. فإذا جعلنا هذا الجذر الليبي أصلا في الاستعمال، كان مصطلح "أفري" في اللاتينية مرادفا لـ لفظ "تروقلوديت" (Troglodytes) الدال على سكان الكهوف والمغارات الذين أشار اليهم القدامى في عدة جهات من شمال افريقيا. غير أن الرومان اتصلوا لأول مرة بلاد المغرب القديم وهي تعج بالمدن وآهلة بالسكان والمباني، ولم يروا الكهوف والمغارات في أول ما رأوا، فكيف أطلقوا اسم "الأفري" على أهل المدن واسم "افريكا" على أرض آهلة بالمدن والمباني؟. فأصح ما يمكن افتراضه هو أن لفظ إفريقيا أصلي (ليبي)، كان الفينيقيون أول من استعمله، وبقي دائرا على ألسنتهم حتى أخذه الرومان عنهم وخصصوه للدلالة على سكان المقاطعة الخاضعة للنفوذ القرطاجي دون اعتبار لمعناه الأصلي الذي لم يكن يعنيهم في شيء، ومع الزمن تسع مدلول لفظ "أفريكا" ليصبح القارة بأكملها[1].

هذا عن مصطلحي ليبيا وافريقيا، هناك مصطلح آخر أطلق على جزء من المنطقة وهو "نوميديا" الذي امتد وتقلص من فترة إلى أخرى، إذ لم يتكلم المؤرخون والجغرافيون عنها بنفس الطريقة. ففي حين نجد بلينوس الكبير لم يعط اسم نوميديا سوى للبلاد الواقعة بين الواديين "Tusca" (الوادي الكبير في تونس) و"لامبساقا" (l'Ampsaga)، نجد بطليموس يضيقها أيضا لأنه يفصل المنطقة السيرتية عنها. أما بومبونيوس ميلا فيدعي أنها تمتد من نهر مولوشا إلى حدود إفريقيا التي يضعها بجوار مدينة سيرتا. سترابون هو من بين كل الجغرافيين القدامى من وضع حدودها بشكل جيد عندما أشار اليها في أقصى اتساع حدودها، حيث تضم نوميديا مملكتي الماسيل والمازيسيل، وتنتهي الأولى في"Tusca" شرقا والثانية عند نهر مولوشا غربا، شمالا البحر المتوسط، وفي الجنوب بلاد جيتوليا والقمم الأخيرة للأطلس ومنطقة الرمال كحدود لها[2].

وإلى جانب تسمية نوميديا، نجد مصطلح موريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية، حيث يرى سترابون أن ما يسمى بمقاطعة موريطانيا القيصرية هو في الواقع بلاد المازيسيل (Masaessyles) الممتدة من نهر الملوية غربا إلى رأس تريتون (بوقرعون)[*] شرقا. وإن ما وراء الملوية إلى المحيط الأطلسي، أي موريطانيا

(1) محمد التازي، سعود: المرجع السابق، ص ص 10، 11.

(2) M. Louis Lacroix, l'univers esquisse générale de l'Afrique ancienne. Carthage. Numidie et Mauritanie, T. III, 1844, p. 3.

(*) "**رأس بوقرعون** (**cap Bougaroun**): جبل بوقرون أو سبع روس، يحمل تسميتين في النصوص القديمة، إذ يوافق أيضا اسم "رأس ميتاغونيوم (promuntorium Metagonium) التي أشار اليها يومبونيوس ميلا. وأعلمنا أيضا بأن نوميديا التي منها تتبعها افريقيا قد امتدت في الشرق إلى غاية نهر Ampsacus : وهذا الأخير هو الوادي الكبير، حيث يتواجد مصبه على مسافة صغيرة في الجنوب الغربي لرأس بوقرعون. ويخلص قزال في الأخير إلى أن رأس بوقرعون نميز فيه مسميان لـ ميتاغونيوم نفسه وهما: 1- Le cap de l'Agua حسب سترابون وبطليموس.

الطنجية، هو المعروف عند الرحالة والجغرافيين الإغريق ببلاد المور (موريزي) (Maurisi). حيث يلاحظ أن مملكة موريطانيا الجديدة (القيصرية) التي شكلها الرومان، ومنحوها لـ يوبا الثاني وورثوها ابنه بطليموس من بعده، ثم استرجعها منه الامبراطور "كاليقولا"، قد ساهموا في صنع مصيرها منذ ما يقرب من قرن ونصف، أي منذ سقوط يوغرطة 105 ق. م، حيث منح القنصل "ماريوس" بلاد المازيس إلى بوخوس الأول صهر يوغرطة الذي أوقع به في أيدي أعدائه. وأن تجزئتها إلى مقاطعتين انطلاقا من نهر الملوية هو عودة بها إلى حدود طبيعية كانت معروفة منذ تاريخ قديم جدا يتعذر تحديده، وأن الرومان قد أدركوا خصوصية هذا الفاصل الجغرافي بين قسمين هامين من بلاد المغرب القديم، فاستفادوا منه قصد التحكم الفعال في الوضع المترتب عن احتلالهم لبلاد المور وإلحاقها بالمقاطعات الامبراطورية. وهكذا فإن موريطانيا القيصرية كانت من الناحية التاريخية جزءا من مملكة نوميديا الواسعة حسب خريطة بلاد المغرب القديم السياسية السابقة للاحتلال الروماني[1].

بعد انهيار السلطة الرومانية وخضوع بلاد المغرب القديم للوندال الجرمانيين القادمين من الشمال، ثم البيزنطيين القادمين من الشمال الشرقي، ومن بعدهم العرب الذين أتوا من الشرق، وفي ظل المواجهة التي أبداها سكان بلاد المغرب القديم لهذه التحديات، التي أثرت في تكوين جغرافي جديد للمنطقة وفي تسمياتها. فمن ايجابيات هذا التنوع الجغرافي وأثره على صياغة التاريخ، أن دفعت ببعض الباحثين إلى تصميم تقسيم جغرافي آخر للمنطقة لا يعتمد على الجغرافيا وحدها ولا المناخ، بل يعتمد على التفاعل التاريخي والتطورات الحاصلة في بلاد المغرب[2]. فقد ظل اسم إفريقيا خلال الفترة الوسيطية (الاسلامية) في كتابات القروسطيين، الذي يعني أحيانا كل شمال إفريقيا، وإن كان المقصود به منطقة تونس الحالية. إذ جاء عند صاحب كتاب الاستبصار، وهو مؤلف مجهول ، أن اسم افريقية –الذي يستعمله هنا بمفهومه الواسع– هو اسم ملكة حكمت تلك المنطقة[3].

وبعيدا عن الأسطورة، فإن كلمة إفريقية التي أطلقها المؤرخون العرب، مستنسخة من أفريكا اللاتينية التي تحدثنا عنها. فالبكري عنى بها كل المنطقة الممتدة من الشرق إلى غاية طنجة، هذا من ناحية الطول، أما عرضا فمن البحر المتوسط إلى غاية الرمال التي تسجل بداية البلاد السوداء، وهذه "الافريقية" للبكري ليست شيئا آخر سوى ما قصده ابن خلدون بالمغرب. وبالمقابل تتفق تسمية إفريقية الوسيطية مع مفهوم أقل امتدادا وهو

2- رأس بوقرعون حسب Timosthènes وعلى الأرجح بلين القديم. فبالنسبة للبعض كان بوقرعون، وبالنسبة للبعض الآخر le cap Agua. إشارة بلين القديم ستكون خاطئة في هذا المعنى بأن ميتاغونيوم لا تمتد مقلما اعتقد في شرق لامبساقا، لكن في غرب هذا النهر الذي هو مجاور لرأس بوقرعون أو ميتاغونيوم: إذ يتوجب عليه في الواقع أن يتبع رأس ميتاغونيوم في اتجاه أعمدة هرقل" (أنظر: S. Gsell, Atlas archéologique de l'Algérie, Feuille n. 1, édité par agence nationale d'archéologie et de protection de sites et monuments historiques, Alger, 1997,

(1) محمد البشير، شنيتي : الجزائر في ظل الاحتلال الروماني بحث في منظومة التحكم العسكري (الليمس الموريطاني) ومقاومة المور، ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون–الجزائر، 1999، ص ص 15، 16.

(2) عبد الكريم، غلاب: قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي القديم والمعاصر، ج1، دار الغرب الاسلامي، بيروت– لبنان، 2005، ص 30.

(3) مصطفى، أعشي: المرجع السابق، ص 107.

الجزء الشرقي من بلاد المغرب ككل (تونس)، فالبكري في وصفه لم يترك "بونة" (عنابة) خارجها، أما الإدريسي، على العكس، فيضم لها حافة مقاطعة قسنطينة (بونة، عين البيضاء (Miskiana)، باغاي، تونس وطرابلس الحالية إلى غاية رأس مصراتة). أما ابن خلدون فيضم اليها ليس فقط الأوراس، تبسة، عنابة، ولكن بجاية أيضا وقلعة بني حماد ، أما القيرواني بعد أن يربط المعنى الواسع لكلمة "إفريقية" يضيف قائلا : " بالنسبة لي، أنه في وقتنا نعني بكلمة إفريقية البلاد التي تمتد من واد التين إلى باجة"[1]. لكن التسمية الأكثر تداولا بين المؤرخين العرب لكل البلاد الواقعة غربي مصر هي: "جزيرة المغرب"[2].

فالعرب هنا لم يقوموا سوى بالتذكير بحقيقة جغرافية، وهي كون شمال إفريقيا محدودة شمالا بالبحر المتوسط، وفي الغرب بالمحيط الأطلسي، جنوبا وشرقا بالصحراء، فهي بهذا الشكل تكون "كلا معزولا" أو شبه جزيرة[3]. قد تبدوا عبارة "جزيرة المغرب" غير معقولة للوهلة الأولى، ولا تعطي حتى للناظر إلى الخريطة في أن يفكر في "جزيرة" أو شبه جزيرة[4]. لكن النظر إلى ما يحيط بها يجعلها في نظر أولئك المؤرخين تأخذ هذا الاسم، كما أنهم أسموها بـ "المغرب"، أي الغرب بالنسبة لهم[5]، حيث طبقوه على كل جزء إفريقيا الشمالية الممتدة غرب مصر والذي يضم حتى برقة وطرابلس[6]، ليتوضح لفظ المغرب فيما بعد إلى: المغرب الأدنى الذي تمثله تونس، والمغرب الأوسط (الجزائر)، ومغرب الغرب (المغرب الأقصى)[7]. كما عرفت القرون الوسطى والعصور الحديثة تسمية "بلاد البربر"[8] لكون البربر يشكلون أغلب ساكنتها[9].

---

(1) Ch. Monchicourt, la région du Haut tell en Tunisie (Le Kef, téboursouk. Mactar. Thala). Essai de monographie géographique, thèse pour le Doctorat es Lettres, présenté à la faculté de l'université de Paris, Librairie Armand Colin, Paris, 1918, p p. 4. 5.

(2) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 11- E. Albertini, G. Marçais, G. Yves, l'Afrique du nord française dans l'histoire, éd- Archat, Paris, 1937, p. 9. ;

(3) Charles. Tissot, exploration scientifique de la Tunisie :géographie comparée de la province romaine d'Afrique, T. 2, Imprimerie Hachette et C[ie], librairie Editeur national, Paris, 1888, p.1 ; E-F. Gautier, « considération sur l'Histoire du Maghreb »,Rev.Afr, Vol. 68, office des publications universitaires, Alger,1927, p. 47.

(4) Ahmed. Esslimani, Carthage et les libyens, thèse de Doctorat d'histoire ancienne, sous la direction de Ms.Combet-Farnoux, 1980-1981, U. E. R de lettres et sciences humaines, Section d'Histoire, Université de Nice, France, p. 1.

(5) E. Mercier, Op. Cit, p. IX. ; Alfred. Bel, la religion Musulmane en Berbèrie, T. 1, libraire orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1938, p. 38.

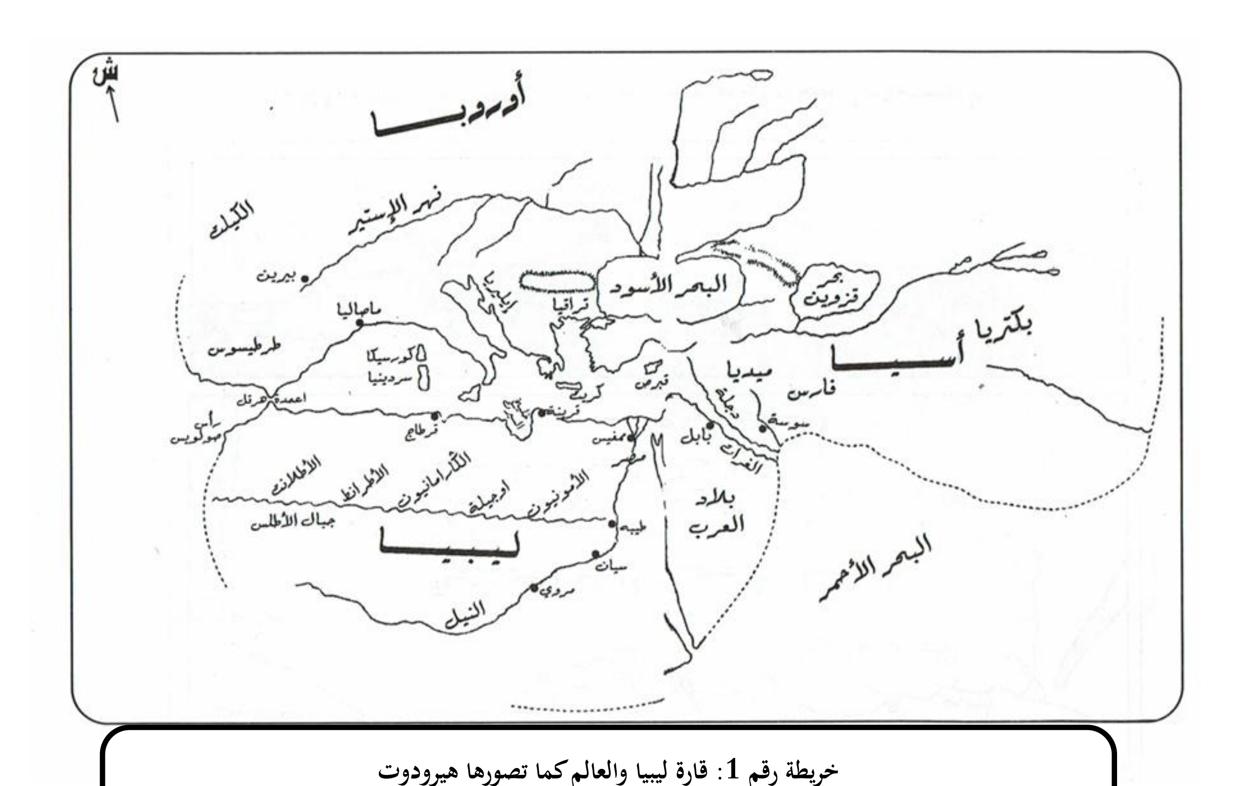
(6) E-F. Gautier, le passé de l'Afrique du Nord. Les siècles obscures, éd. Payot, Paris, 1937, p.7.

(7) E. Albertini. G. Marçais. G. Yves, Op. Cit, p p. 10. 11.

(8) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 11.

(9) ألبير، عياش: تاريخ شمال إفريقيا القديم، ترجمة عبد العزيز بل الفايدة، منشورات أمل، ط1، المملكة المغربية، 2007-200_، ص 20. (أنظر أيضا: Auguestin. Bernard, Afrique septentrional et occidentale, T. XI, libraire Armand Colin, Paris, 1937, p. 29.)

وفي القرن التاسع عشر أطلق الجغرافيون تسمية "افريقيا الصغرى" للدلالة على وجود قارة صغيرة واقعة ضمن قارة كبيرة[1]، أو لأنها جزيرة صغيرة في المجال الكبير، و أن علاقاتها مع إفريقيا القارة هي في بعض النواحي، مشابهة لعلاقات آسيا الصغرى مع القارة الآسيوية الكبرى[2]، أو " إفريقيا الداخلية" لأنها محاطة بالبحر من الغرب، من الشمال ومن الشرق، أما من الجهة الرابعة جنوبا، فهي مفصولة عن بقية القارة الافريقية بالصحراء الكبرى[3]. كما سميت "بلاد الأطلس"[4] لأنها بلاد جبلية [5]. هذا عن التطور التاريخي للتسميات للتسميات التي مرت بها منطقة بلاد المغرب، وبقي أن نعرف الحدود الجغرافية التي أشار إليها مؤرخو العصر القديم والتي طابقت هذه التسميات.



خريطة رقم 1: قارة ليبيا والعالم كما تصورها هيرودوت

عن: مصطفى، أعشى، أحاديث هيرودوت عن الليبيين، 2009، ص 133

---

(1) شارل أندري، جوليان: نفسه، ص 11.

(2) A. Bernard, Op. Cit p. 29 ; E. Albertini, G. Marçais. G. Yves, Op. Cit, p. 9.

(3) Alfred. Bel, Op. Cit, p. 58.

(4) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 12.

(5) E-F. Gautier, le passé de l’Afrique du Nord, p. 7

ب- الإطار الجغرافي:

يبدو أن تصور المؤرخين القدامى لإطار الشمال الافريقي كان يدور في ثلاث مستويات، يجعلها المستوى الأول محاطة بالبحر من ثلاث جهات (شبه جزيرة)، والثاني يقدمها على شكل مثلث قائم الزاوية، أما التصور الثالث فقد جعل من مجالها وحدة جغرافية متكاملة[1]. فبالنسبة للمجال الأول الذي يرى منطقة إفريقيا الشمالية أراضي مطوقة بواسطة المحيط الأطلسي، البحر المتوسط و رمال الصحراء[2]، ها هو هيرودوت يرى في " ليبيا أنها تبين هي نفسها بأنها محاطة بالبحر إلا من الجهة التي تحاذي آسيا"[3]. وهذا ما أكده بومبونيوس ميلا بقوله: " إفريقيا في الشرق يحدها النيل، ومن الجهات الأخرى البحر... البحر الذي يحدها يسمى ليبي في الشمال، إثيوبي في الجنوب، أطلسي في الغرب..."[4]. أما سترابون فيجعل من ليبيا شكل مثلث حينما يقول: " نحن نعلم في الواقع المظهر الذي تقدمه ليبيا، ليس فقط في منطقتها الداخلية، فمظهرها الخارجي قاعدته كل الساحل، خصوصا من البحر الداخلي (المتوسط) الذي يأتي من مصر ومن النيل إلى موريزيا وإلى أعمدة هرقل، من أجل جهة عمودية في قاعدة مجرى النيل حتى إلى غاية إثيوبيا، وانطلاقا من إثيوبيا خط مستقيم مسحوب بطريقة ممتدة إلى غاية حواف المحيط الأطلسي... فيما تبقى، عندما نقول بأن جزء ليبيا المجاور لقمة المثلث فإنه يجب أن يكون موجودا في حدود المنطقة الحارة"[5]. فهذا المثلث قائم الزاوية[*]، قاعدته الساحل المتوسطي الممتد من مصب واد النيل إلى أعمدة هرقل، ويشكل هذا الواد مع الامتداد إلى المحيط الضلع العمودي لهذه القاعدة، ثم يمتد وتر الزاوية القائمة من اثيوبيا إلى موريزيا[6].

ولدى كل المصادر الإغريقية و اللاتينية إجماع على أن ليبيا قارة مستقلة عن بقية العالم القديم، ذات وحدة جغرافية وإن اختلفت تسمياتها. امتدت حسب ما أوردوه، من غرب مصر إلى أعمدة هرقل، مثلما أكده هيرودوت حينما قال: "لقد تحدثت الآن عن كل الليبيين البدو الرعاة الذين ينزلون على ساحل البحر، وإلى الداخل بعيدا عن مواطن أولئك الليبيين يوجد ذلك الاقليم الليبي الذي ترتاده الوحوش الضارية، ويوجد إلى ما وراء ذلك شريط رملي يمتد من طيبة في مصر حتى أعمدة هرقل[7]. وكذلك بلين القديم حينما يورد بأن: " إفريقيا كانت تسمى ليبيا من طرف الاغريق، والبحر الذي يحيط بها هو البحر الليبي، تحدها مصر"[8].

(1) خديجة، قمش: المرجع السابق، ص 34.

(2) Hocine. Abdi, l'or de Jugurtha, 3ème édition, éd. Muller, 2003, France, p. 13.

(3) Hérodote, IV, 43

(4) Pomponius Méla, Géographie, I, IV.

(5) Strabon, Géographie, XVII, 3, I.

(*) Pomponius Méla, Géographie, I, IV.

(6) خديجة، قمش: المرجع نفسه، ص 35.

(7) هيرودوت: التواريخ، IV، 181، نصوص ليبية، ص 77.

(8) Pline l'Ancien, Histoire naturelle, V, 1, 2.

ثم يقول في موضع آخر عن حدودها الغربية: "... نقطة انطلاقنا هي في الغرب، وفي مضيق قادس، من أين ظهر المحيط الأطلسي ليشكل البحار الداخلية. بالنسبة للمحيط، فإننا ندخل من هذا المضيق، لدينا من اليمين إفريقيا، يسارا أروبا بينها آسيا، الحدود هيTanais والنيل"[1].

أما لجغرافي سترابون فلا يكتفي بذكر امتداد ليبيا وإنما يشير إلى قياس طولها وعرضها، وهذا ما نلاحظه في كلامه أولا عن امتدادها: "إنه صحيح القول بأن كل الساحل لبحرنا الداخلي، منذ النيل إلى غاية أعمدة هرقل يشكل خصوصا الاقليم القديم لقرطاج". وبعد أن يحدد شكلها المثلث ويشير إلى أنه بسبب هذا الشكل: "لن نستطيع أن نشير بطريقة دقيقة إلى ما لدى ليبيا من اتساعها الأكبر، لكننا مع هذا سنلجأ إلى ما قلنا سابقا بأن المسافة الواقعة بين الاسكندرية في الشمال و" ميروي" عاصمة إثيوبيا في الجنوب كانت بحوالي 10000 ستاد[*]، وأنه من "ميروي" إلى الحدود المشتركة للمنطقة الحارة والأرض المأهولة، يمكننا حساب أيضا 3000 ستاديوم. يمكننا أن نفترض إذن بأن الاتساع الأكبر لـ ليبيا هو 13000 إلى 14000 ستاديوم وأ، طولها يقيس أقل قليلا من ضعف هذه المسافة"[2]. كما يؤكد سالوست هذه الحدود الطولية لـ ليبيا أو إفريقيا في نظره بقوله: " إفريقيا حدودها من الغرب المضيق الذي يجمع البحر المتوسط بالمحيط، في الشرق هضبة مائلة تسمي من طرف السكان بـ كاتاباتمون (Catabathmon)"[3]. أما صولينوس (Solin) (Solin) فيؤكد وقوع هذه الهضبة الأخيرة التي ذكرها سالوست، على الحدود بين ليبيا ومصر قائلا: "بواسطة رمال كاتاباتمون ندخل إلى مصر، في الجزء المجاور لبرقة"[4].

وفي نفس السياق تتماشى جغرافية بومبونيوس ميلا القائل: " في الجزء الذي يلامس البحر الليبي، نجد أولا على جوار النيل مقاطعة تسمى السيرانييك (برقة) (Cyrène)، ثم تأتي منطقة تحمل خصوصا الاسم العام للمنطقة بالكامل وهو إفريقيا[5] وحيث أن برقة تمتد من حدود إفريقيا الفعلية إلى كاتاباتمون وأن كاتاباتمون هو نهر ينزل إلى غاية مصر أين تنتهي إفريقيا"[6]. فهذه الحدود هي في الواقع ذلك الرباعي الواسع للأراضي المرتفعة الواقعة بين البحر المتوسط في الشمال والصحراء في الجنوب، وبين السرتين (سرت الصغرى

---

(1) Pline l'Ancien, Histoire naturelle, III, 4.

(*) "مقياس للطول قبل أن يتحول إلى ميدان للمسابقات الرياضية، يتكون الستاد من مائة أورجيس أو 400 ذراع أ, 600 قدم. كانت المسابقات الرياضية تعتمد على مقياس يبلغ طوله ستاد. وقد كانت وحدة قياس الطول لدى الاغريق: القدم الذي يختلف طوله حسب المناطق في بلاد الاغريق فهناك: -القدم الايجيني= 328 , 0م -القدم الأولمبي= 320 ,0م -قدم فيليطير (de philataire)=0,226م -القدم المربع= 87سم3 " (أنظر: مصطفى، أعشي: المرجع السابق، ص 99).

(2) Strabon, géographie, XVII, III.

(3) Salluste, guerre de Jugurtha, XVII.

(4) Solin, Polyhistoire, XXVIII.

(5) Pomponius Méla, géographie, I, IV.

(6) Pomponius Méla, géographie, I, VIII.

والكبرى) في الشرق، والمحيط الأطلسي في الغرب"[1]، وهي ما يعكسه الفضاء الجغرافي الممتد بين الدرجتين الـ 18° والـ 39° من خط العرض شمالا، من البحر المتوسط إلى تخوم السودان[2] ، وبين الدرجتين 25° من خطوط الطول الشرقية و19° من خط الطول الغربي. يأخذ ساحل المحيط الأطلسي منها في الغرب أكثر من 1300كم، وفي الشمال وفي الشرق البحر المتوسط بأكثر من 2700 كم[3]، تقابل أروبا وتفصلها عنها من ناحية الغرب على سواحل شبه الجزيرة الايبيرية بـ 13 كم وشرقا بـ 130بين قمة رأس الطيب بتونس وصقلية[4].

وبهذه الحدود أيضا ضمت ليبيا أو الشمال الافريقي داخلها ثلاث مناطق مختلفة، مثلت الأولى مثلما يشرح سترابون، على طول البحر المتوسط منطقة ذات خصوبة كبيرة في معظمها، خاصة في قورينة وفي كل الأراضي التابعة لقرطاجة حتى موريطانيا وأعمدة هرقل، ثم على طول المحيط منطقة أخرى متوسطة الخصوبة، وأخيرا منطقة انتقالية عقيمة لا تنتج شيئا غير السلفيوم، والتي تتشكل من صحاري قاحلة ورملية[5]. حددت هذه الجغرافية مجموعات جبال وسهول وهضاب، علينا تتبعها عن كثب لمعرفة مختلف الروابط فيما بينها التي أدت إلى وحدة أو تجزؤ منطقة الشمال الافريقي.

---

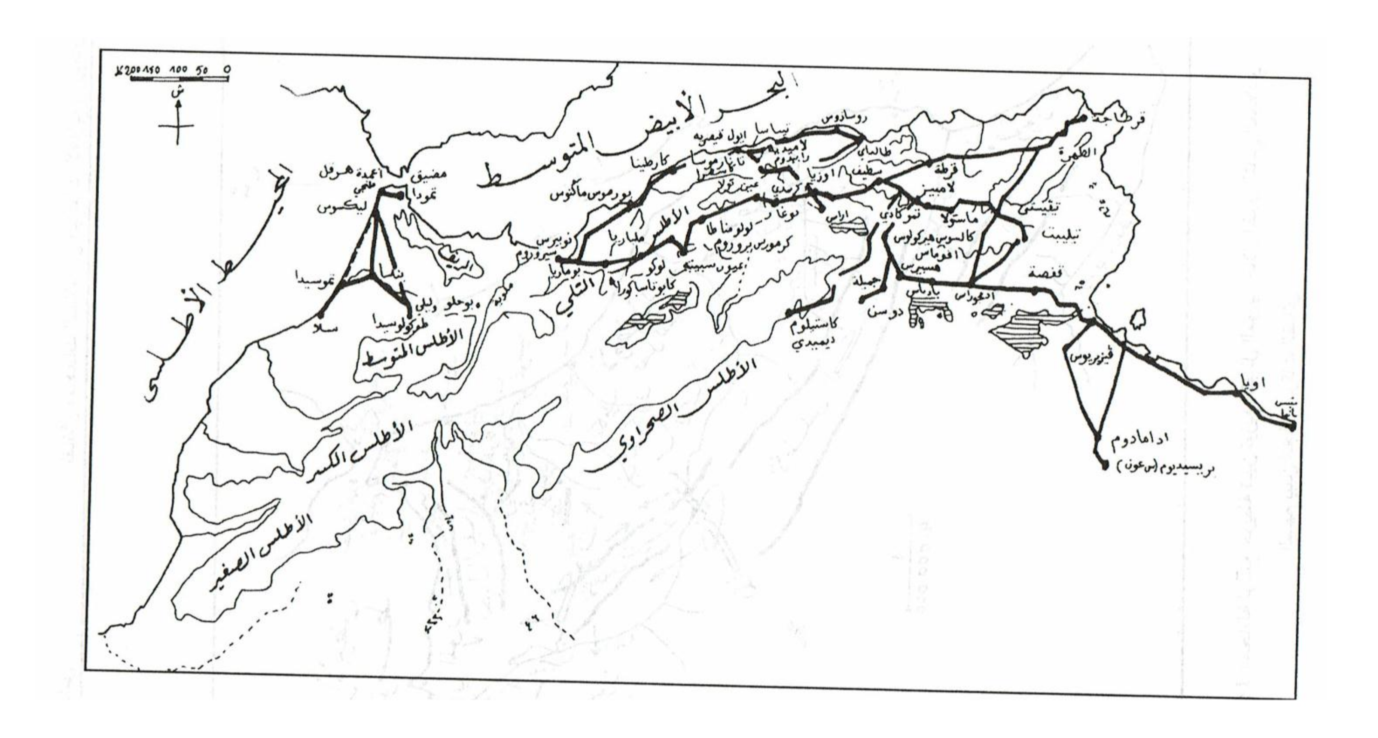
[1] Alfred. Bel, Op. Cit, p. 58 ; S. Gsell, H. A . A. N, T. 1, éd. Hachette, Paris, 1920, p. 1.

[2] René. Lespès, pour comprendre l'Algérie, publié sous les auspices du gouvernement générale de l'Algérie, 1937, p. 9 ; M. Rouissi, population et société au Maghreb, cérès production, Tunis, 1977, p. 19 ; و أنظر كذلك: محمد الهادي، حارش: التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الاسلامي، الجزائر، 1992، ص 14.

[3] محمد البشير، شنيتي: سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا (146 ق. م- 40 م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 5.)

[4] M. Rouisi, Ibid, p, 20.

[5] محمد الهادي، حارش: دراسات ونصوص في تاريخ الجزائر وبلدان المغرب في العصور القديمة، دار هومة، الجزائر، 2001، ص ص 191، 192.



خريطة رقم2 : أهم المعالم الجغرافية لتضاريس بلاد المغرب القديم

عن: مصطفى، أعشي، نقائش معاهدات السلام، 2004، ص 82

2/–تضاريس بلاد المغرب: الجبال والسهول

لم تكن معرفة الكتاب القدامى بالمناطق الداخلية من بلاد المغرب القديم في مستوى معرفتهم بالسواحل، ذلك أنهم لم يخلفوا لنا معلومات وافرة ودقيقة حول الخصائص الجغرافية التي يمكن أن تفيدنا في بناء فكرة واضحة عما كان عليه الحال آنذاك، بل إن الاشارات المقتضبة التي دونها الرحالة اليونان قليلة وباهتة وليست قائمة على مشاهدات مباشرة أو ملاحظات عن كثب لكونهم لم يتنقلوا داخل الأراضي الليبية. وكان اهتمام أولئك الكتاب منصبا على الأخبار الغريبة والروايات المثيرة، زيادة على قلة الدقة في تحديد مواقع المعالم الجغرافية التي ذكروها بسبب النقل وعدم المشاهدة، إضافة إلى غياب أدوات القياس لديهم[1]. ويلاحظ المطلع على بعض تلك المصادر، أن ثلاث وحدات تضاريسية كبرى ميزت المعطيات الجغرافية المقدمة حول الشمال الافريقي: سهول، جبال وصحراء[2]. وقبل أن نفصل في كل معطى علينا أن نعرف بأن العلم الحديث قد رصد التكون الجيولوجي الذي عرفته شمال إفريقيا قبل أن تصبح تضاريسها على هذا التنوع.

ذلك أن شمال إفريقيا بقيت طويلا مجرد حاشية للقارة الافريقية، خضعت لما خضعت له هذه القارة من تغيرات، ولأن هيئة الأرض المتصفة في آن واحد بالتكتل والتجزؤ قد غيرت سلسلة من الحركات الالتوائية في حقبة الزمن الجيولوجي الأول، والتي تلتها أطوار من الانجراف، ملامح هذه الأرض تدريجيا، وعند انخفاض شبه السهل ما بعد الهرسيني (pénéplaine post hercynienne) وغمرته المياه، ظهر موقع شمال افريقيا طوال الزمن الجيولوجي الثاني شبيها ببحر متوسط تتخلله جزر وأغوار عميقة، حيث امتد من الغرب إلى الشرق على حاشية القارة الافريقية التي بقي معظمها خارج المياه. ويمتد طول الترسب الطويل الذي تلا ذلك إلى أوائل الزمن الثالث أين برزت منطقة بلاد المغرب وأصبحت تحت تابعة لأروبا من الناحية الجيولوجية. دعونا نلقي نظرة قريبة على المعالم التضاريسية الكبرى التي ميزت بلاد المغرب القديم بين ما تركته لنا المصادر القديمة، وبين واقعها الجغرافي.

1–الجبال:

يتميز مجال شمال أفريقيا بامتداد جبال الأطلس من شرقه إلى غربه مشكلة حاجزا طبيعيا يفصل السهول الشمالية ذات الخصوبة العالية، والمناطق المتاخمة للصحراء الأقل خصوبة. وقد أولت الجغرافيا القديمة اهتماما كبيرا لهذه السلسلة. إذ لا تكاد تخلو أهم لمصادر من معطيات حول جبل أطلس، والتي مزجت فيها بين الأسطوري والواقعي(*). فقد وصفت المصادر هذه السلسلة بكونها الأعلى في ليبيا، وعبرت الأساطير عن هذا

---

(1) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج1، ص 28.

(2) خديجة، قمش: المرجع السابق، ص 43.

(*) "نستشف أول بوادر هذا المزج بين أطلس البطل الأسطوري وبين أطلس الكتلة الصخرية، وفي الروايات التي تحكي عن الكيفية التي تحول بها هذا البطل إلى جبل. فيحكى أن هذا الأخير رفض استضافة الاله" بيرسي" (Persée)، فسلط عليه غضبه فتحول إلى جبل. بينما فسرت روايات

المعطى الجغرافي بطرق مختلفة، تجعله معظمها عمودا للسماء[1]، مثلما أشار اليه هيرودوت بقوله: " وبعد مسيرة عشرة أيام أخرى من مواطن القرامنتس يوجد أيضا تل ملح وماء، ويدعى القوم الذين يقطنون هناك الأترانتس... وبعد مسيرة عشرة أيام أخرى يوجد تل ملح آخر وماء وقوم يعيشون هناك ويوجد بالقرب من هذا الملح جبل يسمى أطلس ذو شكل رقيق دائري تماما، ويقال أنه يبلغ من العلو حدا لا ترى معه العين ذراه، لأن السحاب يغطيها دائما شتاء وصيفا، ويسميه أهل البلاد "عمود السماء"، وقد اكتسب هؤلاء الناس اسمهم (أطلنتس) من هذا الجبل"[2]. ولكن أطلس الذي يتحدث عنه هيرودوت هنا موجود بعد بلاد الغرامنت، أي في الشريط الذي يلي صحراء ليبيا الحالية، وهو ربما يوافق ما قاله بروكوب فيما بعد عندما أشار إلى أنه: "... يوجد جبل في نوميديا لا مثيل له في بقية العالم، إنه مرتفع جدا وصلب جدا، واسع إلى درجة أنه لات يمكننا أن نقوم بدورة حوله في أقل من ثلاثة أيام..."[3] ، ومع ما وصفه بومبونيوس ميلا كذلك حينما أشار إلى وجوده في عمق صحراء ليبيا القارة قائلا: "المناطق الأولى مأهولة بالاثيوبيين، وفي الوسط منطقة صحراوية بالكامل، إما بسبب الحرارة أو لأنها مغطاة برمال جافة أو تنتشر فيها الأفاعي، مقابل المنطقة المحروقة بالشمس نجد الجزر التي يقال عنها أنها كانت مأهولة بالهيسبيريد[*]. وفي منتصف الرمال يرتفع الأطلس، كتلة جبلية حادة لا يمكن اختراقها وتتناقص كلما ارتفعت، ولارتفاعه فإن قمته تختفي عن الأنظار وتضيع في السحب، وما قيل أنه ليس فقط الأطلس يلمس النجوم، ولكن حتى أنه يحمل السماء"[4]. وهذا ما لا يتفق مع معظم ما أورده المؤرخون الآخرون حول جبل أطلس الذين حددوا موقعه مقابل أعمدة هرقل بمملكة المور، وهي جبال الأطلس المغربية حاليا. فهذا سترابون يقول: " خارج المضيق (مضيق أعمدة هرقل)، نرى على يساره جبلا عاليا ينتصب في ساحل ليبيا، وهو الأطلس عند الاغريق و الديريس (Dyris) عند سكانه". وهو يتفق مع ما أورده ديودور الصقلي حينما يصف الأجزاء الغربية من ليبيا: " وذلك الجبل عند ساحل الأوقيانوس (يقصد المحيط الأطلسي)، وهو أعلى جبل هناك، ويدعوه اليونان جبل أطلس"[5]، وكذلك

أخرى ذلك برؤية أطلس لرأس الإلهة "ميدوزا" (Méduse) التي يتحول كل من نظر اليها إلى كتلة حجرية" (أنظر: خديجة، قمش: المرجع السابق، ص 46).

([1]) خديجة، قمش: نفسه، ص ص 46، 47.

([2]) هيرودوت: التواريخ، IV، 184، نصوص ليبية، ص 82.

([3]) Procope, Edifices, VI, VII.

(*) " الواقع أن اشارته إلى حدائق الهيسبيريد هي من دلتنا على تواجد الأطلس بالمنطقة الشرقية من صحراء ليبيا القارة، وهو ما يتفق مع جبل أطلس عند هيرودوت، ذلك أن هناك من وطن حدائق الهيسبيريد قرب تريتون بسرت الصغرى، على غرار بعض المصادر الأخرى التي جعلتها بنواحي ليكسوس قرب النحيط الأطلسي" (أنظر: خديجة، قمش: نفسه، ص 45).

([4]) Pomponius Méla, la description de la terre, III, 10.

([5]) ديودور الصقلي: المكتبة التاريخية، III، 53، نصوص ليبية، ص 194.

مع نص بلينوس الكبير: "إنه جبل أطلس في وسط الرمال، يرتفع نحو السماء، وعر ومجرد من جهة المحيط"[1]. كما يتفق مع ما أورده كل من صولينوس [2] (Solin) وسيليوس ايتاليكوس[3].

هذا الاختلاف بين المؤرخين حول جبل أطلس هل في المغرب الحالي أم في الصحراء بالشرق، يجعلنا نحدد الكتل الجبلية ببلاد المغرب التي حملت معنى الأطلس. ذلك أن البلاد المغاربية تبدو على شكل رباعي الأضلاع غير منتظم، تحده شمالا جبال ذات قمم مسننة يتجاوز ارتفاعها 2000 م، والمعروفة بجبال الأطلس، التي يمكننا تقسيمها إلى سلسلتين من الجبال إحداهما ساحلية تمتد متواصلة، باستثناء في الوسط بين الريف ومنطقة القبائل، حيث تترك الجبال المكان للهضاب وتشكل الخلجان، وأخرى داخلية تشكل جبال تسالا ومرتفعات الورشنيس والبيبان أهم حلقاتها. هذا حول الحد الشمالي لهذا المضلع، حيث يكون الأطلس الأعلى بمرتفعاته التي تتجاوز أحيانا 4000 م، والأطلس الصحراوي الحد الجنوبي له. ولاكتمال هذا المضلع نجد في الغرب كتلة الأطلس الأوسط التي تشكل حلقة وصل بين الأطلس الأعلى في الجنوب الغربي والأطلس التلي. أما في الشرق، فنجد جبال الظهر التونسي التي تعد امتدادا للأطلس الصحراوي، تجتاز تونس ممتدة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي لتصل في النهاية إلى رأس الطيب[4]. فهذه الأضلاع الأربعة هي الجبال التي شكلت جزءا من تضاريس الشمال الافريقي منذ القديم وإلى اليوم، ولنلق عين الدارس عليها لنعرف مدى نعمتها أو نقمتها على البيئة والانسان الذي عاش فيها.

-الحد الشمالي للمضلع: جبال الأطلس: أ/- السلسلة الساحلية

-سلسلة جبال الريف:

أهم مظهر أثار اهتمام الكتاب الاغريق في بلاد المغرب القديم، وخاصة فيما سمي قديما بموريطانيا القيصرية هو مرتفعات الأطلس(*)، التي يرجح أنهم من أطلق عليها هذا الاسم، حيث أن سترابون كان أول من انتبه إلى الشكل الذي تتخذه هذه الجبال الشاهقة، حينما ذكر بأنها تشكل سلاسل جبلية ضخمة

---

(1) Pline l'ancien, Histoire naturelle, V, 6.

(2) "... قمته دائما مغطاة بالثلج... يبعد هذا الجبل عن « Lix » (يقصد ليكسوس) بمسافة 205 ألف خطوة، وحيث أن قمته لا يمكن لأحد الوصول إليها، ولكن بلغها « Persée » وهرقل مثلما تشهد نقيشة نصب هرقل. بين الأطلس و نهر "أناتيس" (Anatis) وعلى مدى 496 ألف خطوة تنتشر غابات بها حيوانات شرسة, كما تتدفق بجوار الأطلس أنهار أخرى لا يمكن اغفالها" (للمزيد أنظر: .Solin, XXV)

(3) "يدخل سيليوس ايتاليكوس الأسطورة في وصفه للأطلس قائلا: "... هرقل فصل ليبيا عن أوروبا المجاورة بواسطة المضيق، ونكتشف بها ارتفاعات مجاورة. فرأس الأطلس المتوجه نحو السحب يدعم النجوم ويحمل كتلة العالم للأبد. لحيته مليئة بالجليد، على جبهته ينتشر ليل مخيف بتأثير من الصنوبر المتداخل الذي يكسوه، والرياح المستعرة تجتاح أصداغه، ومن فمه العاصف تهرب أنهار شرسة" (أنظر: Silius Italicus, guerres puniques, I.)

(4) محمد الهادي، حارش: التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الاسلامي، ص 13-14 ; F.Decret, M Fanter, l'Afrique du Nord dans l'antiquité, éd. Payot Rivages, Paris, 1998, p. 9.

(*) حول هذا أنظر أيضا: A. de fontaine de Resbecq, Alger et les côtes d'Afrique, Gaume Frères-libraires, Paris, 1832, p p, 14.15 ; T. Shaw, voyage de M. Shaw dans plusieurs provinces de Barbarie et du Levant, T. I, à la Hate, chez Jean Neaulme, 1743,p p. 8. 9.

وشاهقة العلو، وأنها تتفرع إلى سلسلتين متوازيتين، إحداهما ساحلية والأخرى داخلية تنغرس سفوحها الجنوبية في رمال الصحراء[1]. وحيث أن نظام الأطلس يمتد من السواحل الأطلسية مقابل أرخبيل الكناري إلى غاية رأس الطيب بتونس مقابل صقلية. ويبدو أن المغاربة ليس لهم اسم جامع لهذا النظام الجبلي، وأن تسمية أطلس التي عرفها القدامى هو ربما شكل خفيف لكلمة "أدرار" التي تعني الجبل باللهجة الليبية[2].

ونحن نعلم بأن نظام الأطلس يتألف في المغرب الأقصى من ثلاث صفوف من الجبال متوازية، تغير من خصائصها ببلوغ الحدود الجزائرية، أحداها مجاورة للبحر وموازية له، اتجاهها من الغرب إلى الشمال الشرقي[3]. فنظام الأطلس يتكون بالمغرب الأقصى من جبال الريف التي تتصل في الواقع بجبال بيتيكا في شبه الجزيرة الايبيرية (le cordillère bétique)[4]، لأن وجه الشبه كبير بين تضاريس غربي المغرب الأقصى واسبانيا، فلو أمكن ضم تضاريس البلدين لبعضهما البعض في مضيق جبل طارق، لطابقت سلسلة جبال الريف سلسلة بيتيكا. وهذه السلسلة (الريف) مقوسة طولها 300 كم، تجويفها متجه نحو الشمال[5]، فالريف يمتد شمالا في المغرب الأقصى الحالي مقابلا البحر المتوسط بجبهة حادة. في الداخل تتلاحق طيات موازية للساحل على فواصل متقاربة، تنحني نحو الشمال مشكلة مع جبال اسبانيا الجنوبية نصف دائرة كبير يقطعها مضيق أعمدة هرقل[6]. وتعتبر قمة تدغين أعلى قمم جبال الريف بـ 2450 م، وإن كانت تنحدر بالركن الغربي كثيرا عند طنجة، كما تنحدر خلف مدينة المليلية لتطل على نهر ملوية الذي يخترقها، ثم تنحدر سلسلة الريف جنوبا لتطل على ممر تازة الذي يصل فضاءات ملوية بفاس وسهول الغرب[7]. هذه السلسلة الأطلس بشقها الساحلي تمتد متواصلة على ساحل الشمال الافريقي مع الريف في المغرب الأقصى، ثم تتوقف بين هذه الأخيرة وجبال منطقة القبائل بالجزائر لتفسح المجال للهضاب وتشكل الخلجان.

-سلسلة جبال جرجرة:

إن من بين الكتل الجبلية لنظام الأطلس التي جذبت انتباه القدامى مثلما الكتاب المعاصرين، نجد السلسلة الساحلية التي كانت تسمى Mons Ferratus وهي جبال جرجرة، حيث عرفت منذ أوائل الاحتلال الروماني لموريطانيا، إذ نجد الرومان قد شيدوا على سفحها مستعمرة تكلات (Tubusuptus) في

---

(1) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج1، ص 28-29.

(2) A. Bernard, Op. Cit, p. 33.

(3) E. Cat, Essai sur la province romaine de Maurétanie césarienne, Ernest Ceroux. Editeur, Paris, 1891, p. 19.

(4) A. Bernard, Ibid, p. 33 ; Marguerite. Rachet, Rome et les berbères. Un problème militaire d'Auguste **à** Dioclétien, Latomus. Revue d'études latines, Bruxelles, 1970, p. 13.

(5) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 21.

(6) S. Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, (8 Vol), T. I, éd. Libraire Hachette, Paris, 1920, p. 2 ; M. M. Rouissi, Op. Cit, p. 22.

(7) محمد التازي، سعود: المرجع السابق، ص 13.

عهد الامبراطور أغسطس (August)، رغم أن اسم Mons Ferratus الذي أعطوه لها بسبب قممها الشجرية التي تشبه رؤوس رماح، فإن هذا الاسم لم يظهر سوى عند مؤلف من القرن الرابع ميلادي وهو أميانوس ماركيلينيوس (Ammien Marcelin) وفي لوحة Peutinger. حيث يظهر الأول لنا (أميان) يرتفع فوق حصن Tubusuptus (تكلات)، أما الثاني (لوحة Peutinger) فتصوره ممتدا بين "يسر" و الصومام، أي تماما في المكان الذي تحتله جرجرة اليوم[1]. هذا المرتفع الجبلي يشغل جنوب ووسط منطقة القبائل[*]، يمتد من الغرب إلى الشرق بين الرقبة المسماة "تيزي" أو "جابوب" بارتفاع يصل إلى 1185 م وتلكم المسماة "تيوي نشيرية" في الشرق، بعلو 1231 م. تحتوي جبال جرجرة على سلسلتين متحدتين بشكل ضيق بطول 60 كم. السلسلة الرئيسية الأضخم والأوسع بقممها المسننة وصخورها الناتئة، يحدها شرق عنق "تيروردة" بـ 1760 م[2]. وجبال جرجرة أو القبائل الكبرى كما تعرف، هي المنطقة الطبيعية الأكثر تفردا من الناحية الجغرافية والأكثر وضوحا، يحدها شمالا البحر المتوسط وخط الانخفاض الذي يلي ساحل الصومام، واد جمعة و واود يسر، أما من ناحية الغرب فتنتهي في بوزقزا، نقطة الاتصال بالأطلس البليدي[3]. وتجدر الاشارة أن أعلى قمة لجبال جرجرة موجودة بـ لالة خديجة، بارتفاع يصل إلى2308 م[4]. م[4]. لكن المرتفع الحقيقي يتكون من كتل: "فليسة"، معتق و زواوة(، يزداد ارتفاعه تدريجيا من الغرب إلى الشرق من 600م إلى 1300 م. وسلسلته الكبرى تمتد على مدى 60 كم، في طريق يتضاعف فيه ارتفاع القمم بـ 2000 م في كل مكان تقريبا، ابتداء من تلال "هيزور" بـ 2133 م و "أكوكر" بـ 2305 م إلى لالة خديجة[5].

هذا عن نظام الأطلس الذي عكسته جبال الريف وجبال جرجرة التي تصل إلى جبال الأطلس البليدي أو الأطلس المتيجي، التي تشرف على ارتفاع 1400 م على مدينة البليدة الواقعة أسفلها[6]، والتي يمكن أن نعدها أيضا جزء من هذه السلسلة الساحلية للأطلس، أما سلسلته الداخلية فقد عكستها كل من جبال تسالا، الورشنيس والبيبان.

---

(1) E. Cat, Op. Cit, p. 22.

(*) "منطقة القبائل يمكننا أن نميز فيها كل من قبائل جرجرة (القبائل الكبرى)، قبائل البابور (القبائل الصغرى)، قبائل شولو التي نجد أقصى ارتفاع لها 1183 م في جبل قوفي، وأخيرا الإيدوغ بـ 100 م الذي ينتهي عند رأس الحديد، ومنطقة عنابة" (أنظر: M. Daumas. M. Fabare, grande Kabylie. Etudes historique, éd. L. Hachette et Cie libraires de l'université royale de France, à Alger., 1847,p. 129).

(2) Bujega, « le Djurdjura », B. S. G. A. A. N, 28ème année. 1er trimestre 1923, N° 93, Alger, p.273.

(3) A. Bernard, Afrique septentrional et occidentale, p. 203.

(4) E. Mercier, Op. Cit, p. X ; E. Cat, Ibid, p.20 ; S. Gsell, H. A. A. N, T. I p. 7 ; Hocine. Abdi, Op.Cit, p. 14

(4)

(5) A. Bernard, Ibid, p. 208.

(6) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 14.

ب- السلسلة الداخلية: الأطلس التلي

من بين الكتل الجبلية الموازية للساحل نجد السلسلة المتوسطة أو الأطلس التلي، الذي يعتبر مجموع جبال وتلال مختلطة محززة بواسطة مجاري مائية مثلما من الغرب نحو الشرق واد الشلف، وادي الصومام ، والوادي الكبير، إضافة إلى وادي سيبوس[1]. تبرز الأرض بالأطلس التلي التواءات عنيفة وتقلبات كبيرة. ففي الغرب الجزائري نجد جبال ساحل وهران، الظهرة، وجبال تسالا، خاصة منها جبل الورشنيس، وهو أعظم جبل يحف وادي الشلف في غربي الجزائر[2]. في هذه الناحية الغربية من الجزائر، ارتفاعات الأطلس التلي متوسطة وهي: "ترارا"، تسالا، ببني شقرون (نحو 1000 م)، لا ترتفع سوى جنوب الشلف عند مرتفع الورشنيس (200 م)، قبل أن تمتد جنوب الصومام، أي الجزائر الشرقية بواسطة جبال التيطري، جبل " ديرا"، والبيبان إلى غاية حدود السهول العليا القسنطينية[3].

-الظهرة وكتلة مليانة:

الظهرة مشتقة من الكلمة العربية "الظهر"، وهي المنطقة الواقعة جنوب الانخفاض الكبير للشلف والتي تمتد شرقا إلى غاية "واد الداموس". والظهر يبدو منتظما كسد كبير، مظهره من الشمال أكثر تنوعا، ورغم أن ما يغلب عليه هو الهضاب والتلال إلا أنه يتجزأ بشكل حاد بواسطة وديان شديدة الانحدار. من واد الداموس ترتفع الكتل الكلسية لـ "زكار" و "مليانة"، "شنوة". كتلة مليانة تبلغ أعلى ذروتها عند "زكار الغربي" أو "زكار مليانة" بـ 1579 م، و"زكار الشرقي" أو ما يعرف بـ "زكار مرغريت" بعلو 1532 م، أما مرتفع شنوة فيبلغ 905 م فقط[4].

-الورشنيس:

كانت في الغالب تدعى "أنشورايوس"(Anchorarius) حيث وردت في النصوص اللاتينية مقترنة بحوادث تاريخية هامة، مثل ثورة فيرموس وحملة القائد الروماني تيودوز ضده، فقد اخترق الجيش الروماني مرتفعات الورشنيس أثناء تتبعه للثوار المور. كما أشار اليها بلينوس الكبير باسم « Mons Anchorarius » كأحد أجزاء موريطانيا ذات الحمضية، نظرا لسعة انتاج الحمضيات بها [5](Citrus)، الذي قد يصل ارتفاعه إلى 2000 م[6].

---

(1) François. Bertrandy, « Approche géographique et historique de la Numidie antique », L'Algérie au temps des royaumes numides (V^{ème} siècle av-J.c-1er siècle après J. c), édition d'art, Paris, 2003, p. 16.

(2) René. Lespès, Op. Cit, p. 10.

(3) Yves. Lacost, André Noushi, André Prenant, l'Algérie passé et présent, édition sociale, Paris, 1960, p. 14 ; E. Albertini, G. Marçais, G. Yves, Op. Cit, p. 16.

(4) A. Bernard, Op. Cit, p p. 189. 190 ; L. Louis Lacrois, l'univers. Esquisse général de l'Algérie. Carthage. Numidie et Maurétanie césarienne, p. 3.

(5) E. Cat, Op. Cit, p.21.

(6) E. Mercier, Op. Cit, p. X.

-مرتفعات البيبان:

السلسلة القديمة للبيبان هي مجموعة جبال مشكلة بواسطة تتابع من المخانق الضيقة، وأخرى نادرة ذات مظاهر متقطعة [1].هذه السلسلة التي تلتحق بجبال البابور (القبائل الصغرى) لكنها تختلف عنها، تبدأ غربا من مرتفعات الشلف و تمتد الى غاية مغريس بـ1737 م في شمال سطيف، تكون خطا مستمرا يمر بالبرواقية، حيث يحتفظ في الشمال بـ "أوزيا" (سور الغزلان/ Aumale) ويتابع بواسطة "أبواب الحديد التي حصل منها على اسمه (جبال البيبان). ينتشر بعدها في بني عباس بـ 1164 م (قلعة المقراني)، ثم يشكل مرتفع القرقور بـ 1613 م[2]. هذا عن الحد الشمالي للمضلع الذي يشكل مرتفعات بلاد المغرب القديم.

-الحد الجنوبي: الأطلس الأعلى، الأطلس الصحراوي

أ-الأطلس الأعلى:

تشتمل مجموعة الأطلس على سلسلة جنوبية يبلغ طولها 700كم، تسمى الأطلس الأصلي[*]، متجهة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، ومنها يتفرع الأطلس المتوسط نحو الشمال الشرقي، ونجاد الأطلس الجنوبي نحو الجنوب الغربي[3]، لتشكل ما يعرف بالأطلس الصغير. ويعرف الأطلس الأعلى أيضا باسم الأطلس الكبير، وينقسم إلى قسمين كبيرين، يفصل بينهما ممر "تلوات" المؤدي من الناحية الشمالية إلى المجرى الأعلى لنهر "تنسيفت" المعروف باسم وادي رضات، ومن الناحية الجنوبية إلى المجرى الأعلى لنهر درعة المعروف باسم إيمني. فالقسم الواقع غربي ممر تلوات هو الأطلس الكبير الأعلى، وبه تقع أعلى القم مثل طوبقال بـ 4165 م، و إيفروان بـ 4000م، وجبل "وانكريم" بـ 4080م. بينما القسم الواقع شرقي ممر تلوات فينتهي فجأة عند الشمال، لكنه ينزل متدرجا عند جنوبه، وتتخلله منخفضات تتسع لتصبح سهولا داخلية، وأما القمم فهي مرتفعة بهذا القسم كذلك حيث أن جبل "مكون" يبلغ 4070 م، تيفردين 3440 م. ثم لا يلبث الارتفاع أن ينخفض كثيرا، وتصبح الجبال عبارة عن وحدات متقطعة تساعد على المرور مثل جبل الجلابيب بـ 1585م ، وجبل الأرواك بـ 1798م، بوعرفة 1872م، ثم يتصل بالأطلس الصحراوي بالجزائر. ولعل هذه المنطقة من الأطلس الكبير ونظرا لانخفاض ذراها وللممرات التي تتخللها، فهي التي اخترقتها الجيوش الرومانية بقيادة "باولينيوس سويتونيوس"(P. Suetonius) في اتجاه الصحراء جنوبا، عند مطاردتها للمور الثائرين عقب مقتل بطليموس ابن يوبا الثاني آخر ملوك موريطانيا[4].

([1]) René. Lespès, Op. Cit, p. 12.

([2]) A. Bernard, Op. Cit, p.213.

(*) "وردت بأربع إشارات للأطلس في الفصل الجغرافي من كتاب "أوروز" (Orose)، حيث مثلت هذه الاشارات لديه النصف الغربي للأطلس الأعلى. وهو ما أسماه بـ Mons Athlans الذي أعطى اسمه إلى الجزء الموافق للمحيط، نراه في الفقرة 94 المخصصة لموريطانيا الطنجية" (للمزيد أنظر: Y. Janvier, « La géographie de l'Afrique du Nord chez Orose », p.139.)

([3]) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 22 ; M. Rachet, Op. Cit, p. 14.

([4]) محمد التازي، سعود: المرجع السابق، ص 14 ; S. Gsell, H. A. A. N, T. I, p. 3

ب-الأطلس الصحراوي:

إن الجزء الجنوبي من الأطلس الصحراوي كان في نظر الكتاب اللاتين[*] الذين عرفوه في فترة متأخرة بمثابة حاجز بين الأرض الخصبة والصحراء، وأسموه جبال الأستريكس [1] (Mons Astrix)، وهي سلسلة الجبال المتوجهة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي[2]. يتكون من ثلاثة أحزمة رئيسية من الطيات، وهي مرتفع "فقيق"، جبال القصور، جبال عمور، ولاد نايل، وأخيرا جبال الأوراس وامتداداتها، أما سلاسل الجزء الشرقي لقسنطينة فتشكل بداية للسلاسل التونسية[3]. فجبال الأطلس الصحراوي تتتابع منتظمة من المغرب الأقصى إلى الحضنة[4]، حيث تفصل بينها ممرات واسعة تسهل المواصلات، وتشرف هذه الجبال على ارتفاع 1000 م عن الصحراء. إذ أن الأطلس الصحراوي يقطعه انخفاض شط الحضنة[5]، ساهمت طيات كثيرة مختلفة العمر والوتيرة في تكوينها، حيث تشاركتها كل من واد القصب وواد سوبيلة إلى ثلاث أقسام: المعاضيد بارتفاع 1848م،مرتفع ولاد تبان بـ 1740م، وجبال بوطالب بارتفاع 1932م،حيث تستمر سلسلة الحضنة شرق بوطالب في كتلة بلازمة ولا تنفصل عن الأوراس إلا بانخفاض باتنة[6].

فمن المنفذ الواسع للحضنة يرتفع ويتتابع الأطلس الصحراوي في نفس الاتجاه، من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، لكن بارتفاعات مختلفة نجدها في جبال النمامشة[**] التي تحمل أعلى القمم بأكثر من 2000م، لكنها تنتصب في الشمال بحوض كبير نجد عند نهايته شط ملغيغ الذي ينخفض إلى 26م تحت سطح البحر[7]. فالأوراس تتخلله أودية ضيقة وتنفتح بينه من جهة، وبين بلازمة وجبال الزيبان من جهة

(*)"مثلما فعل بطليموس الذي أعطى أسماء جبال عديدة أكثر من أي وثائق أخرى مجتمعة، لكن للأسف يستحيل أن نجد في الجبال التي أشار اليها المرتفعات التي نعرفها، مثلما في الاسم الذي ذكره بـ le Medethubadus الموافق لجبال القصور، و le cinnaba في جبل عمور، le valva في سلسلة ولاد نايل."(للمزيد أنظر: E. Cat, Op. Cit, p. 25)

([1]) وقد ورد ذلك عند Ethicus و Orose، و إيزيدور الاشبيلي (أنظر: محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج1، ص 31 E. Cat, Op. Cit, p. 23. ;)

([2]) S. Gsell, Op. Cit, p. 5.

([3]) A. Bernard, les confins algéro-marocains, Emile Larose. Libraire –éditeurs, Paris, 1911, p. 9.

([4]) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 24.

([5]) M. Rachet, Op. Cit, p. 14.

([6]) A. Bernard, Afrique septentrionale et occidentale, p.220.

(**)"منطقة الأوراس واقعة في رباعي باتنة، بسكرة، خنقة سيدي ناجي وخنشلة، طولها من الشرق إلى الغرب حوالي 100كم، أما عرضها من الشمال إلى الجنوب فهو أيضا بـ 100كم، مرتفعاتها الأساسية: كاف مهمل بـ 2214 م، جبل شيلية الأكثر ارتفاعا في الجزائر بـ 2328 م، جبل أوراس بـ 1551م" (للمزيد أنظر: Lt –Colonnel. Lartigue, « Monographie de l'Aurès », B. S. G. A. A. N, année 1904, Imprimerie typographique et lithographique S. Léon, Alger, p. p. 752. 753.)

([7]) L. Joleaud, « les grandes lignes directives de l'orographie en Numidie », B. S. . A. A. N, 1913, p. 502.

أخرى ممر إلى الجنوب من وادي قنطرة الواصل بين التلال العليا والصحراء[1].وبعد جبال الأوراس يستمر الأطلس في الشمال الشرقي بواسطة جبال الظهر التونسية، ويتراجع في سهول الجنوب التونسي.

-الحد الغربي للمضلع: كتلة الأطلس الأوسط

يشكل الأطلس المتوسط حلقة وصل بين الأطلس الأعلى في الجنوب الغربي والأطلس التلي، إذ يتفرع من الأطلس الكبير (الأطلس الأعلى)، وهو جبل مرتفع متكون من صخور جيرية جوراسية[2]. وتبدأ من الضفة اليمنى لوادي العبيد، بالشمال الشرقي لمدينة مراكش والسائرة بموازاة الأطلس الكبير إلى أن تنحرف كلية في اتجاه الشمال الشرقي.

وينقسم الأطلس المتوسط عموما إلى قسمين كبيرين، أولهما الأطلس المتوسط المتجعد المنثني، حيث يوجد جبل بوناصر بارتفاع 3290م، وجبل بوبيلان بـ 3190م، ثم القسم الثاني وهو الأطلس المتوسط المجدول (tabulaire)، وهو عبارة عن متون أو سطوح عالية متصلة بالقسم الأول من ناحية الغرب، وتستمر من نجد "زايان" حتى ممر تازة[3]. وفي حين نجد ما يشبه السهل للمنطقة الجبلية للأطلس المتوسط غائبا في الشرق، تاركا المكان لنجدي: بني مطير وبني مقليد، فإننا نجد جنوبه أقرب إلى "الميزيتا" (بمعنى هضبة) منه إلى سلسلة جبيلة، حيث تشرف آخر جبالها في الجنوب الغربي على المحيط الأطلسي قرب رأس النون. وما تجدر الاشارة اليه أن بركان "سروا" الكبير يصل جنوب هذا الأطلس بالأطلس الأعلى، ويتحد عند سفحه سهل السوس، أما نجدا الدراع و تافلالت، فإنهما امتداد له نحو الشرق[4].

4-الحد الشرقي للمضلع: جبال الظهر التونسية

إن جبال الظهر التونسية هي امتداد لجبال الأطلس الصحراوي، تشق تونس متجهة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، ثم تنحدر بعدها تدريجيا. هذه السلسلة الظهرية تفصل في الواقع بين تونسين: تونس التل وتونس السباسب[5]، إذ تشكل كل من جبال "بيزاكينا" (المزاق) و"زغوان" (Zeugitane) أهم سلاسلها. وما السلسلة الظهرية في الواقع إلا سيل من التضريسات المتنوعة وغير المستمرة، حيث تمتد أولا جبال تبسة بقمم تفوق 1500م في الشعامبي، ثم طاولات جيرية مثل "كسارا"، وحمادة صغيرة، ثم تصبح جبالها أكثر تجزؤا في كل من: السرج و"جوكر" في زغوان، بوقرنين الذي يعترض أفق خليج قابس، لينخفض في شبه جزيرة رأس الطيب[6]، حيث أن القمم المرتفعة لا تتجاوز 1200م.

([1]) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 25.

([2]) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 22.

([3]) محمد التازي، سعود: المرجع السابق، ص14.

([4]) شارل أندري، جوليان: نفسه، ص 22.

([5]) نفسه، ص 25.

([6]) E. Albertini, G. Marçais, G. Yves, Op. Cit, p. 26.

كما ويمكننا أن نلاحظ عموما أنه بالتل التونسي الذي هو امتداد طبيعي للتل الجزائري، توجد جهتان جبليتان تحيطان شمالا وجنوبا بالسهول التي يشقها واد مجردة وروافده. فنجد من جهة الجبال المشجرة المتوسطة الارتفاع، مثل جبال خمير و مقعد. ومن جهة أخرى نجد جبالا متشابكة عارية ذات أشكال ضخمة وسهولا صغيرة تسمى أحيانا التل العلوي[1]. لكن تضاريس تونس مقارنة ببقية بلاد المغرب تبقى الأكثر بساطة، لأن متوسط الارتفاع بها لا يتجاوز 300م، حيث أن أعلى قمة هي قمة جبل الشعامبي بـ 1590م[2].

2/–السهول:

اتفقت جل المصادر الجغرافية القديمة على غنى وخصوبة بلاد المغرب القديم، الممتد من غرب النيل إلى أعمدة هرقل، وذلك عندما أشارت إلى أنه على طول البحر منطقة خصبة ومأهولة[3]. حيث أجمعت على أنها تعطي غلات وافرة ومتنوعة، وأن هذه الصورة التي قدم بها هذا المجال الساحلي الخصب لا يمكن فصلها عن المعطيات الأسطورية التي عكست هذه الخصوبة، بجعل مجال شمال إفريقيا موطن حدائق الهيسبيريد (Hespérides) المشهورة، والتي اتفقت الروايات في وصف خيراتها. والراجح أن المعطيات الجغرافية المتداولة حول الشريط الساحلي الافريقي الخصب هي التي أفضت إلى التفسير الذي ربط ذلك بمشيئة الآلهة.

إذ يشير هيرودوت إلى خصوبة الساحل الليبي في قوله: "و إلى الغرب من نهر تريتون وبعد موطن الأوسيس، تبدأ بلاد الليبيين الذين يفلحون الأرض ويقطنون البيوت"[4]. فإذا أردنا معرفة هذه السهول بكل بلاد المغرب القديم، نجد بأنه من خصائص تضاريس المغرب الأقصى وجود مجموعتين من السهول، تمتد الأولى من مصب تنسيفت إلى الملوية، وهو ما أشاد به سالوست حينما قال: "غير بعيد عن نهر مولوشا الذي يفصل دولة يوغرطة عن دولة بوخوس، كان ماريوس في وسط بلاد كلها سهل"[5]. إذ تحتوي هذه المنطقة على سهل ما دون الأطلسي، وسهول نهر سبو ومعبر تازة، كذلك نجد سهول الجهة السفلى من نهر الملوية الذي هو الطريق الكبير الرابط بين المحيط الأطلسي والجزائر رغم بعض العقبات. أما المجموعة الثانية من السهول فتتركب من "حوز" الذي يشقه نهر تنسيفت، ومن سهل تادلا الكبير[6].

---

(1) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 25 ; J. toutain, les citée romaines de la Tunisie. Essai sur l'histoire de la colonisation romaine dans l'Afrique du Nord, libraire Torin et Fil Albert fontemoing successeur, Paris, 1896, p.31.

(2) محمد الهادي، حارش: التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الاسلامي، ص 14.

(3) H. Basset, « La Libye d'Hérodote d'après le livre de M. Gsell », Rev. Af, Vol. 59, 1918, p. 296.

(4) هيرودوت: IV، 191، نصوص ليبية، ص 83 S. Gsell, Hérodote textes relatifs à l'Histoire de l'Afrique du Nord, p.56 ;

(5) Salluste, guerre de Jugurtha, XCII.

(6) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 22.

ومن السهول التي نجدها بين التخوم المغربية الجزائرية التي تستمر فيما بعد مع سهول إقليم وهران، نجد أولا على ساحل البحر، السهل الصغير المسمى "تاشقرارت" أو ولاد منصور، وكذا السهل الشبه الساحلي المسمى "تريفا"، الذي يمتد من "كيس" إلى الملوية، وجنوبا على نفس الخط، سهل "أنجاد" أو وجدة[1]. فمن نهر الملوية، عند فوهة تازة إلى غاية سهول مينا و سرسو (تيارت) لا يوجد أي حاجز جاد بين سهول أنجاد، تلمسان، مكارة بسيدي بلعباس، وغريس بمعسكر التي يتراوح ارتفاعها ما بين 400م و 800م. هذا عن الجهة الداخلية، أما بالساحل الغربي للجزائر فنجد منطقة السهول المنخفضة المتفرعة عن الساحل، حيث تتوجه عن طريق سهل سبخة وهران وسيق، والشلف الأطول إلى غاية منفذ قنتاس الذي يفصلها عن متيجة[2]. فسهل متيجة المحاط شمالا بالساحل، وجنوبا بالأطلس البليدي ومرتفع تابلات، يمثل أغنى السهول بالغرب الجزائري، بطول يقدر بـ 100كم، وعرض متوسط بـ 15كم[3]. أما بالشرق الجزائري فنجد سهل عنابة الممتد على شكل هلال في جنوب جبل إيدوغ[4]، حيث أن هذا السهل (عنابة) له عرض بـ 100كم من الغرب الى الشرق و 50كم من الشمال الى الجنوب، خالي من المنحدرات وتنتشر به بعض المستنقعات والبرك[5].

وما يمكن ملاحظته بالجزائر أيضا هو أن جبال التل لا يتجاوز ارتفاع قممها 1800م، حيث تتخللها سهول صغيرة عبارة عن بقايا أحواض داخلية قديمة جفت مياهها مثل سهلي الميلية وقالمة[6] التي من خلالها تبدأ سهول تونس. إذ نجد سهول مجردة والسهول الساحلية الشرقية[7]، ولا ينفتح على الساحل سوى سهل واحد ممتد وخصب وهو سهل طبرقة الذي يسقيه الواد الكبير وروافده، كما أن نهر مجردة ترسم التفافاته في منتصف سهل كبير تحيطه من جميع الجهات تلال عالية، وقديما في العصر الذي لم يكن فيه هذا النهر قد اخترق الحاجز الجبلي الذي ينتصب شرق باجة. كان هذا السهل عبارة عن بحيرة واسعة تراكمت في قعرها ببطئ كل ما حملته معها مياه مجردة[8].

---

(1) A. Bernard, N. Lacroix, l'évolution du nomadisme en Algérie, Adolphe Jourdan, Alger, 1906, p. 3.

(2) E. Albertini, G. Marçais, G. Yves, Op. Cit, p.16 ; A. Bernard, ibid, p. 183 ; Y. Lacost, A. Noushi, Op. Cit, p.18.

(3) A. Bernard, Afrique septentrionale et occidentale, p. 196.

(4) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 24.

(5) A. Bernard, Ibid, p. 211.

(6) شارل أندري، جوليان: نفسه.

(7) محمد الهادي، حارش: التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري، ص 14.

(8) J. Toutain, Op. Cit, p. 42.

ثانيا: المناخ والغطاء النباتي

1/-المناخ

تحدث الكثير من المؤرخين القدامى والرحالة، من إغريق ولاتين عن طبيعة ومناخ الشمال الافريقي، ورغم أمن معلوماتهم في أغلب الأحيان تبقى هزيلة لكون معظمهم لم يزر المنطقة حيث اعتمدوا في كتاباتهم على شهادات التجار والمسافرين والجنود[1]، فإنها رغم هذا تبقى شهادات واضحة عن سمة المناخ آنذاك، وتفيدنا في مدى تغير المناخ من عدمه على مر العصور ومن ثمة معرفة انعكاساته على النبات والانسان.

فمن بين أقدم من أشاروا إلى مناخ ليبيا الجاف والصحراوي نجد هيرودوت يتحدث قائلا: " كل ساحل ليبيا الذي يحاذي البحر الشمالي من مصر إلى غاية رأس صولويس (Soloeis) مشغولة بالليبيين وبأمم متنوعة ليبية، لكن داخل الأراضي، فوق الساحل البحري والشعوب التي تحاذيه هي مملوءة بالوحوش، ووراء هذه البلاد لا نجد شيئا سوى الرمل، وبلد جاف بشكل غير عادي تماما"[2]. مثلما أشار اليها أيضا في كتابه الرابع من انعدام الأمطار بداخل ليبيا: " عرضت أسماء أولئك الذين يسكنون هذا الارتفاع إلى غاية الأطلنتس، هذا الارتفاع يمتد إلى غاية أعمدة هرقل... إنها لا تمطر أبدا في هذا الجزء من ليبيا... وفوق هذا الارتفاع الرملي، نحو الجنوب والداخل من ليبيا لا نجد سوى صحراء مخيفة حيث لا يوجد لا ماء ولا خشب ولا حيوانات متوحشة، وأين لا تسقط لا مطر ولا ندى "[3].

وأن هذه الاشارة حول الجفاف ووجود الصحراء في المناطق الداخلية من ليبيا نجدها كذلك عند سترابون[*] وبلين القديم عندما تحدث عن وصول القائد Suetonius Paulinus إلى الأطلس بعد مسيرة عشرة أيام: " وأنه من هناك إلى غاية النهر الذي يحمل اسم "كير"(Ger) ، نجتاز صحراء مغطاة برمل أسود، في وسطها ترتفع من فاصل إلى فاصل صخور محروقة، إن هذه الأماكن غير مأهولة بسبب الحرارة حتى في

([1]) علي، واحدي: "جوانب من الجغرافية التاريخية لوليلي ومنطقتها في العصور القديمة"، كتاب: التاريخ القديم قضايا وأبحاث، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الدرا البيضاء-المملكة المغربية، 2005، ص 126.

([2]) Hérodote, II, 32.

([3]) Hérodote, IV, 185.

(*) أنظر: Strabon, géographie, XVII, III, 10.

الشتاء"[1]. وهذا ما أورده سالوست في وصف شعوب إفريقيا إلى الداخل، بإشارته إلى الصحراء ومناخها الجاف: "خلف نوميديا نجد الجيتول... خلفهم الاثيوبيون وأخيرا إلى الداخل البلاد المحروقة بالشمس "[2]. وعن هذا الارتفاع في درجة الحرارة نجد سيليوس ايتاليكوس يتحدث قائلا: " ليبيا أولا محروقة برياح الجنوب ونيران الشمس"[3]، وهو كذلك رأي "صولينوس" (Solin) عن الأراضي التي تقع وراء جبل أطلس الذي يحدده في غرب ليبيا وليس بشرقها مثلما فعل هيرودوت، حيث يقول: "بجوار الأطلس تتدفق أنهار لا يمكن إهمالها... وبعيدا هناك نهر حيث أن الأمواج السوداء تتدفق وسط مناطق محروقة ومنعزلة حيث دائما الحرارة نشطة بشمس أكثر ضراوة من النار"[4].

ويبدو أن أميانوس (Ammien) أكد أيضا هذه الحقيقة عن الجفاف وصحراء أراضي شمال إفريقيا في حديثه عن الحملات الرومانية ضد ثورة فيرموس وجيلدون: "...تيودوز (Théodose)ذهب إلى سطيف (Sitifis)، حركته عدة هموم لعقله خلال إقامته في هذه المدينة، ما هي وسيلة التحرك من هذه الأرض الحارقة لجنود اعتادوا على درجة حرارة المناطق الشمالية:" ويقول فيما بعد:" في حين أن تيودوز تتبع حملته الشاقة وسط رمال موريطانيا وإفريقيا"[5]. حتى أن "Juvénal" تحدث عن هذه الصحراء في أبياته الشعرية وهو يمدح حنبعل: "مدفوعا بجنون بعيدا عن سماء إفريقيا التي تضم من ضفاف النيل إلى أسوار قرطاجة، ليس سعيدا بحكم هذه الصحراء القاسية"[6].

كما نجد بومبيوس ميلا يشير أيضا إلى الجفاف:" إفريقيا ذات خصوبة رائعة في المناطق المأهولة، لكنها بجزء كبير صحراوية، لأن معظم مناطقها أقل عرضة للزراعة أ ومغطاة برمال قاحلة، أوغير مسكونة بسبب جفاف السماء والأرض"[7]. وأشار إلى نوع من الرياح يجتاح برقة وساحلها تسمى الأوستر (Auster): "إذا كان أحد يجرأ على وضع اليد هناك، هذا الريح يطلق العنان لغضبه ويقلب الرمال كالأمواج، يحدث في الأرض نفس الاضطرابات التي يحدثها في البحر"[8].

عن هذه الرياح التي تجتاح ساحل طرابلس (بما فيه أويا ولبدة)، تكلم بروكوب كذلك مشيرا إلى اصلاحات الامبراطور "جوستينيان": "قام الامبراطور جوستينيان بوضع جدار جديد لمدينة لبدة بعد أن أصبحت مليئة بالرمال، فقد أراد أن يسهل الحفاظ عليها وتكون أقل عرضة لفيضانات الرياح

(1) Pline l'Ancien, H. N, V, 15.

(2) Salluste, guerre de Jugurtha, XIX.

(3) Silius Italicus, guerres punuques, I.

(4) Solin, XXV.

(5) Ammien Marcelin, Histoire de Rome, XXIX, 5.

(6) Juvénal, Satire, X, 194, traduction française par V. Fabvre de Narbonne, Théophile Berquet. Libraire- Editeur, Paris, 1825.

(7) Pomponius Méla, Géographie de la terre, I, IV.

(8) Pomponius Méla, Géographie de la terre, I, VIII.

المتحركة"[1]. كما تحدث "تاكيتوس"[2] عن الرياح التي تضرب سواحل إفريقيا كذلك، و "lucain" عن رياح ورمال داخل ليبيا: "منذ أن يدفع المجداف الأسطول بعيدا عن الميناء، فإن رياح الجنوب ترتفع محاطة بالغيوم وتستعر ضد المناطق. هذه الرياح تثير البحر وتدفعه بعيدا عن رمال ليبيا، فتصنع له ساحل جديد"[3].

ويمكننا أن نستنتج على ضوء ما أورده هؤلاء المؤرخون والرحالة أن مناخ إفريقيا الشمالية، وخاصة الجهتين الجنوبية والغربية كان جافا، وأن هذه المنطقة كانت مغطاة بالكثبان الرملية وهو الطابع الذي يميزها حاليا[4]. ورغم أننا نلاحظ أن معظم هذه النصوص لا تترك مجالا للشك حول الطبيعة الصحراوية للصحراء في في العصر القديم، إلا أن قزال يرى بأن الصحراء رغم جفافها ربما كانت أقل حدة مما هي عليه اليوم، حيث يشير هذا الأخير إلى أن هناك نقطة من الساحل الأطلسي توافق الساقية الحمراء، بين رؤوس"Juby" و"Bojador"، أين لاحظ حانون القرطاجي في رحلته عند صعوده نهر كبير ينبع من بحيرة واسعة، ويتصل هذا النهر الأخير مع نهر آخر كبير مليء بالتماسيح وأفراس النهر. فهذه الملاحظات التي أوردها حانون تبين أنه في القرن الخامس قبل الميلاد، قدمت منطقة الساقية الحمراء مظهر مختلف عن ذلكم الذي تقدمه اليوم، رغم أن نصوصا تاريخية أخرى تثبت بأن ساحل المحيط الأطلسي في جنوب المغرب الأقصى قد كان صحراء.

وهذا ما يقودنا إلى معرفة مناخ شمال إفريقيا منذ ما قبل التاريخ مرورا بالعصر القديم، ووصولا إلى المناخ الحالي لفهم ما إذا كانت هناك تغيرات حاصلة. في عصر البلايستوسين أو الزمن الرابع، وخلال الفترة التي تنتمي اليها أقدم الأدوات الحجرية التي وجدت بشمال إفريقيا، استوجب أن يكون المناخ على العموم أكثر رطوبة من اليوم، مثلما تشير عظام بعض الحيوانات التي وجدت مع هذه الأدوات مثل الفيلة، وحيد القرن، فرس النهر. فالمناخ الحار والرطب جدا الذي ساد أروبا الوسطى خلال فترة من الزمن الرابع، وعلى طول المرحلتين الجليديتين، حينما ظهر بها (أروبا الوسطى) أقدم بقايا الصناعة البشرية، ثم تلتها مرحلة برد رطبة، متبوعة بمناخ جاف وبارد في نفس الوقت رافقه حيوان الرنة. فموجة البرد هاته انعكست على شمال إفريقيا وسببت اختفاء أو تناقص بعض الفصائل الحيوانية، وهو ما أدى إلى احتباء الانسان بالمغاور، وإنه ليصعب حسب قزال، معرفة ما إذا كان مناخ شمال إفريقيا بالتحديد خلال السلسلة الطويلة من القرون الممتدة بين عصور ما قبل التاريخ والعصر الذي تنتمي اليه أقدم الوثائق التاريخية[5]، أي منتصف الألفية الأولى قبل الميلاد، الميلاد، وما يمكننا أن نشهد به هو أنه في التل من بلاد المغرب القديم، الحيوانات التي رافقت بقايا الصناعة

---

(1) Procope, Edifices, VI, IV.

(2) أنظر: Tacite, Annales, XV, XLVI, traduction en français par J. L. Burnouf, libraire de L. Hachette et C^ie, Paris, 1859.

(3) Lucain, La pharsale,IX, traduction française de M. Nisard, chez Firmin-Didot et C^ie, libraire imprimeur de l'institut de France, Paris.

(4) S. Gsell, « Le climat de l'Afrique du Nord dans l'antiquité », R. Af, Vol. 55, 1911, p. p. 362, 363.

(5) S. Gsell , Ibid, p. p. 356, 357.

الباليوليتية الأحدث والصناعة النيوليتية عاشت أو مازال بإمكانها العيش بالمنطقة. وأن فصائل مختلفة ممثلة بشكل ضعيف. كما أنه قد سجل وفرة مخابئ بيض النعام، وهذا الحيوان لا تلائمه الرطوبة الشديدة، ومن جهة أخرى، المواقع الخاصة بالحلزون الذي لا يتكيف أبدا مع هواء جاف جدا، وهو ما يدل على اعتدال المناخ حينذاك. كما أن مواقع الأدوات المفتوحة على الهواء أو في مخابئ تحت الصخر، والتي وجدت في عدة نقاط من التل، قد شغلت أماكن سمحت ظروفها المناخية بإقامة منشآت دائمة. كما لوحظ بالجنوب الوهراني خاصة، وجود نقوش صخرية منجزة أواخر الصناعة النيوليتية تشير إلى مناخ مختلف كفاية عن المناخ الحالي، والذي غلب آنذاك على الجبال المحاذية للصحراء[1].

وعند العودة إلى البيئة التي عاش فيها انسان الباليوليتي الأسفل، أي انسان الأطلس (تيغينيف)، نجد البحوث تدل على أن المناخ كان مختلفا عما هو عليه الآن، وذلك من حيث التساقط الذي كان منسوبه مرتفعا، وكذلك الغطاء النباتي، حيث استمر إلى الباليوليتي الأوسط الذي عاش خلاله العاتريون، من حيث وفرة الحيوانات الضخمة والمتوسطة والصغيرة التي كانت مصدر قوت الانسان. لكن يبدو أن المناخ كان آخذا في الجفاف مثلما بدأ كذلك تقلص النبات أمام تنامي التصحر، مما دفع بالإنسان الذي زادت كثافته إلى الهجرة إلى أماكن أخرى. والصحراء بدورها شهدت خلال النيوليتي الذي استمر من الألف الثامنة إلى الألف الثانية ق.م تغيرات مناخية شملت ربوعها الواسعة[2]. حيث كانت هناك مرحلتين رطبتين وباردتين خلال الزمن الرابع تفصلهما مرحلة جفاف وحرارة، ثم عاد جفاف من جديد في بداية النيوليتي[3]. هذا الجفاف الذي ما لبث أن عم جميع الأقاليم الواقعة جنوب مرتفعات الأطلس الصحراوي، إذ بينت عظام الحيوانات في موقعي "أميكني" و"أمنيت" (الهقار) مثلا، أن الحيوانات كانت تعيش هناك واستهلكها الانسان، قد انقرضت أو تراجعت بفعل طغيان الجفاف وتقلص النبات ونقص المياه[4].

وبالنسبة إلى مناخ شما ل إفريقيا عموما خلال العصر القديم، يمكننا القول بأنها قد تمتعت بمناخ مماثل أو مشابه على الأقل للمناخ الحالي، وهو جفاف معتاد في الصيف، وأحيانا طول السنة، أمطار غير منتظمة وأقل وفرة بشكل عام داخل البلاد، أكثر مما بجوار المحيط والبحر المتوسط، انطلاقا من مضيق جبل طارق إلى غاية رأس الطيب.

رغم القول بأن منطقة بلاد المغرب كانت أكثر رطوبة من اليوم، فإن تغيره منذ العصر القديم لم يكن سوى ذو اعتبار ضعيف[5] حسب ما ذهب اليه قزال، لأن الإشكال المطروح بين المؤرخين كان بالأساس حول

---

[1] S. Gsell, Op. Cit, p. p. 357, 358.

[2] محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، دار الهدى، عين مليلة- الجزائر، 2013، ص ص 14، 24.

[3] A. Bernard, Afrique septentrionale et occidentale, p. 67.

[4] محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 24.

[5] S. Gsell, Ibid, p. 363.

حول بقاء مناخ شمال إفريقيا مثلما كان عليه في القديم أم أنه تغير، وفي إمكانية تفاقم الجفاف منذ العصر القديم[1]. فالمؤرخون الذين يعتقدون في تغير مناخ شمال إفريقيا خلال العصور التاريخية يعلمون بأن هذه التغيرات كانت ضعيفة. إذ أنه رغم أننا لا يمكننا القول بأنه في العصر القديم، كانت الحافة الشمالية للصحراء منطقة رطبة، لكن يوجد بالمقابل أسباب تجعلنا نعتقد بأن الجبال التي تحاذي الصحراء قد تلقت قليلا من الأمطار.

وإذا كان المؤرخون عموما غير مشجعين لهذه الفرضية لأن شهادات النصوص التاريخية غير حاسمة في هذا الموضوع، فإن علماء الطبيعة قدروا بأن الفونا والفلورا قد قدمت دلائل جدية لصالح ظروف الحياة[2]. ففي المناطق المحاذية للصحراء نجد بأن بعض عشرات الميليمترات من الأمطار لها أهمية حيوية وتسمح أو تمنع تطور الحياة، حيث نلاحظ بها انخفاض مخطط الماء لبعض الآبار القديمة أو لبعض المنابع، أو بكثافة الأثار قرب مصادر هي اليوم ضعيفة جدا، أو اتساع الغابات. كما اعتبر البعض الآخر بأن آثارا مهمة مثل: الجم، تيمقاد ولبدة (Leptis Magna) (طرابلس)، تشهد على وجود تجمعات عمرانية كبيرة تتناقض مع المناخ الحالي. كما أن خصوبة "بيزاكينا" (Byzacium) القديمة بالبذور وبالزيت سيفسر وجود مثل هذه المدن في مناطق هي اليوم فقيرة. كما لاحظ علماء الطبيعة أنه إذا هدم تجمع نباتي من طرف الانسان فلأنه استبدل بمجموعة من النباتات أحسن تكيفا مع الجفاف، ثم كيف نفسر حسبهم (الطبيعيون) أن فيلة قد استطاعت العيش خلال العصر القرطاجي والقرون الأولى للاحتلال الروماني لبلاد المغرب القديم، التي لا يمكنها أن تقدم اليوم التغذية والماء الضروريين لهذه الحيوانات العشبية[3].

أما الحجة المستندة على الآثار والتي توجد في مناطق هي اليوم صحراوية، فهي حجة جدية، حيث لا يمكننا أن ننكر وجود آثار في أماكن لا يمكن للإنسان أن يعيش بها في الوقت الحاضر، وهذا لا يفسر سوى لأن المناخ بهذه المنطقة كان قديما أكثر ملائمة. فبالإضافة إلى كل مناطق التل والهضاب العليا التي وجدت بها آثار وفيرة والحياة بقربها ممكنة إلى الآن، نجد في مواقع جنوبية مجاورة للصحراء آثار رومانية في المقاطعات التي أصبحت اليوم غير مأهولة، حيث في مقاطعة إفريقيا مثلا نجد كل الفضاء الموجود بين قفصة وقابس، وفي نوميديا، كل المنحدر الجنوبي للأوراس، في موريطانيا كل حوض الحضنة وذلكم لواد جدي، وأخيرا منطقة "مينا" العليا. ففي الحضنة توجد سدود عديدة رومانية رغم أنها جافة اليوم. على واد جدي توجد كذلك آثار في 15 نقطة جافة تماما.

---

(1) J. Despois, La Tunisie orientale Sahel et Basse steppe. Etude géographique, société d'études « les belles Lettres », Paris, 1940, p. 239.

(2) A. Bernard, Op. Cit, p. 68.

(3) J. Despois, Op. Cit, p. 239.

هذه الدلائل تؤكد تغير عميق للمناخ، والتي تبدو غير قابلة للطعن، فإنها في الواقع غير حاسمة، لأن الجفاف لم يكن واضحا سوى بالنسبة لمقاطعة بيزاكينا (المزاق)، جنوب تونس وإقليم قسنطينة وكذا جزء صغير من موريطانيا الشرقية (حوض الحضنة ومنطقة سرسو)، أما بقية شمال إفريقيا فيعتقد بأنه قد كان لها تقريبا نفس المناخ مثل الجزائر حاليا. فالباحثون الذين أجمعوا على عكس هذه النظرية، وهي عدم حدوث تغير جذري في المناخ، فإنهم يعزون انخفاض منسوب ماء المنابع أو الآبار إلى عدم الحفاظ عليها وصيانتها أو أنها تعود لأسباب محلية تماما، مثل زيادة الانجراف. حتى أن الكثير من الآبار الرومانية مازالت مستعملة، كما أن كثافة وتنوع الآثار لا تدل دائما على مواكبتها لمناخ ملائم، فقد لا تكون معاصرة. إذ نجد لبدة الصغرى (Leptis Minor) مثلا لم تتغذى من مصادر ومنابع طبيعية، بل إن خزانات المياه كان لها أهمية معتبرة حينها. أما بالنسبة لوجود حيوان الفيل، فيمكننا القول أن الفيل لم يذكر أبدا خلال القرن الثالث ميلادي، وأنه إضافة إلى هذا الحيوان فإن كل من الأسد، والنعامة التي اختفت حديثا، والنمر، ترتبط بالحيوانات التي تراجعت بسبب جفاف الصحراء في ما قبل التاريخ، و أن هذه الحيوانات المتبقية قد استمرت بالعيش في ظروف متدهورة بالتدريج، فقد قل عددها ولم تستطع المقاومة ضد الانسان، فلم يبق منها سوى فيلة ذات حجم صغير عاشت بالشمال الافريقي خاصة بالمغرب الأقصى وتونس، ولكننا نجهل أين ولا كيف. حيث لا يجب أن ننسى بأن الفيلة تنتقل بسهولة، فقد أمكنها السفر لمسافات طويلة بحثا عن العشب والماء وقضاء فصل الصيف في المناطق القليلة السكان في التل، وأن اختفاءها يتزامن مع نمو السكان خلال فترة التواجد الروماني[1]. وهو ما أكدته شهادات المؤرخين التي اطلعنا عليها، حيث لمسنا فيها المظهر العام للمناخ والمشابه للمناخ الحالي، فمنذ ذلك الحين كانت بلاد المغرب القديم منطقة حارة معرضة للجفاف، مشتعلة بالشمس، فقد عانى الانسان والحيوان من العطش. وعلاوة على ما ذكرناه من شهادات النصوص التاريخية في مقدمة هذا الموضوع، نجد أن سالوست قد أورد بأن إفريقيا جافة من ماء السماء وماء المصادر في الوقت نفسه، وكذلك بومبونيوس ميلا الذي أشار إلى أن أجزاء كثيرة من البلاد غير مزروعة أو مغطاة برمال جافة أو غير مأهولة بسبب جفاف الهواء والتربة، كما أن "سيناك" (Sénèque) كتب في هذا الموضوع بأن أنهار إفريقيا ذات أهمية قليلة، لأن الأمطار نادرة ولأن الجو حارق بها، كما أن "يوستينيوس" (Justin) أعلمنا بأن إفريقيا مشتعلة بشمس عنيفة. فالبلاد كانت هكذا جافة منذ ذلك العصر الذي عانى أحيانا من جفاف كبير، وهو ما يتوضح مثلا في سنة 128م عندما قدم الامبراطور "هادريان" (Hadrien) إلى إفريقيا، حيث لم يكن المطر قد نزل حينها منذ خمس سنوات، وعندما بدأت تمطر نسب السكان إلى عظمته هذا الاحسان من السماء. فمناخ شمال إفريقيا لم يشهد تغيرا محسوسا منذ فترة الاحتلال الروماني لبلاد المغرب[2]، لأن معظم تلك المصادر قد أجمعت على أن المنطقة الداخلية من شمال إفريقيا كانت جافة وتغطيها الرمال، بينما أشادت في

(1) J. Despois, La Tunisie orientale Sahel et Basse steppes, p.p, 239, 240.

(2) E. Cat, Op, Cit, p. p. 45, 46.

أغلبها بخصوبة المناطق الشمالية والغربية، وتسود بين الحين والآخر فترات جافة وأخرى مطيرة تسبب وقوع فيضانات مهولة وتودي بحياة البشر وتدمر المزارع والمباني، كما أن هناك بعض الدلائل المادية تدعم عدم حدوث تغيرات جذرية في المناخ والطبيعة، ومنها ظاهرة انتشار معاصر الزيتون ومطاحن الحبوب في "وليلي" مثلا ، بالمغرب الأقصى، التي تدل على أن المنطقة كانت ملائمة لزراعة الحبوب وغراسة الزيتون–على سبيل المثال– أن هذه المنتجات لا تزال إلى اليوم تكون المورد الأساسي لسكان جبال زرهون مثلا، أي أن شجرة الزيتون التي لازالت تغطي معظم جهات هذه المنطقة، كانت خلال فترة الاحتلال الروماني أيضا موردا هاما لسكان "وليلي" بدليل العثور على أزيد من 56 معصرة، وهذا ما يؤكد أن المناخ الذي كان ملائما لغراسة الزيتون آنذاك، هو نفس المناخ السائد اليوم مادامت هذه الشجرة تعرف ازدهارا ونموا كبيرين في هذه النواحي[1].

فإذا كان المناخ لم يتغير بشكل كبير منذ العصر القديم فإنه يمكننا رسم معالمه الأساسية انطلاقا من أهم سمات المناخ الحالي لمنطقة الشمال الافريقي. وإذا كانت التضاريس تنتمي إلى مجموعة التضاريس المتوسطية الغربية، فإن مناخ بلاد المغرب عموما يمتاز بالازدواجية التي تتجاذب قوة التأثير في المنطقة حسب الفصول، وهذه الازدواجية تتمثل في المناخ المتوسطي الرطب والمناخ الصحراوي الجاف، ومعنى هذا أن بلاد المغرب عبارة عن جبهة لتلاقي المناخين المتباينين. فالمناخ المتوسطي المتصف بالرطوبة والاعتدال في حالة الطقس، والتهاطل الشتوي يسود السواحل ثم يأخذ في التناقص كلما اتجهنا جنوبا، ليترك المجال للمناخ الصحراوي المتميز بالجفاف والتفاوت الحراري، وندرة التساقط والعواصف الرملية[2].

ولأن بلاد المغرب هي أرض تضريس حاد ومتنوع فلا يمكن أن يكون له مناخ منتظم، إذ يجب أن نتوقع فروقا دقيقة وعديدة وحتى تباينات تتخلله. فالارتفاع وكذا الجوار أو البعد عن البحر، إضافة إلى هيئة التضاريس هي العوامل الثلاثة التي تحدد المناخ[3]. فشمال إفريقيا واقعة في الجزء الجنوبي من المنطقة المعتدلة الشمالية، بين خطي عرض 29° شمالا (الحد الأقصى الغربي للأطلس الصغير)، وخط العرض 37° (وهو الحد الأقصى لشمال تونس)[4]. فالامتداد الكبير للساحل يؤثر فيه البحر بانتظام وينتج عنه مناخ لا يظهر اختلافات كبيرة في الحدود القصوى للحرارة والبرودة[5]. إذ نادرا ما ينزل الترمومتر تحت الصفر، على الأقل على مدار اليوم، وأنه يرتفع إلى أكثر من 30° مئوية.كما يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أنه حتى بقرب الساحل فإن تناقصا لدرجة الحرارة يحدث بالليل بسبب الاشعاع في الطقس الواضح المتكرر بشمال إفريقيا الذي يؤثر على الطبقة السفلى من الغلاف الجوي إلى غاية ارتفاع حوالي 1م، حيث يحدث غالبا في الشتاء

(1) علي، واحدي: المرجع السابق، ص 129–130.

(2) محمد البشير، شنيتي: سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا (146 ق.م–46م)، ص 7–8.

(3) R. Lespès, Op. Cit, p.14.

(4) S. Gsell, « Le Climat de l’Afrique du Nord dans l’antiquité », p. 344 ; Marguerite. Rachet, Op. Cit, p. 15.

(5) A. de Fontaine de Resbecq, Op. Cit, p. 16.

وأحيانا حتى في الربيع، أين تنزل درجة الحرارة خلال فترة من الليل إلى أقل من 0° بجوار التربة. وبالمقابل نجد رطوبة معتبرة في فصل الصيف، رغم أنها تخفف من حرارة الشمس وتعدل التبخر. ولكون بلاد المغرب في مجموعها أراضي مرتفعة، فإننا كلما ابتعدنا عن الساحل يتزايد الاختلاف بين درجات الحرارة القصوى، إذ ينزل الترمومتر في اليوم إلى -9° في تيارت، -11° في سطيف، -13° في باتنة، -5° في الكاف، -6° في مكثر. فالبرودة الليلية التي يسببها الاشعاع على سطح التربة هي غالبا قوية حتى في فصل الربيع، أين يخشى الصقيع خصوصا على الزراعة.

أما في فصل الصيف فأن شفافية الغلاف الجوي تترك كل قوتها على أشعة الشمس، فتكون الحرارة والتبخر شديدين تبعا لذلك. ولحسن الحظ فأن الاشعاع ينتج الندى الذي يصلح إلى حد ما آثار التبخر النهاري، فتنعكس عذوبة الليالي بنشاط كبير على الانسان والحيوان[1].

ومن بين الأسباب الطارئة التي يمكنها أن تزيد من جفاف المناخ، هي الرياح. فرياح الغرب هي الأكثر تواترا في كل بلاد المغرب كلما تقدمنا أكثر نحو الشمال. وجبهة الرياح التجارية (Alizés) تنتقل نحو الشمال، في الصحراء الشمالية عل حافة الأطلس، كما أن تسخين جنوب بلاد المغرب يدفع الضغوط المرتفعة نحو الشمال الغربي، فالرياح عوض أن تتوجه نحو الضغوط المتوسطية (للبحر)، فإنها تتدفق باتجاه الصحراء. والرياح لها مجرى قاري خصوصا، كما أنها جافة في معظم الحالات، وإذا كانت تحتوي على بعض الرطوبة فإن التقاءها بأراضي حارة جدا يحدث تكثفات مهمة. الرياح العامة ليس لها أبدا في إفريقيا الشمالية الانتظام الذي يؤثر في مناخات الرياح التجارية (Alizés) أو الرياح الموسمية (Mousson)، باستثناء العواصف الكبيرة المترددة والمتغيرة، ذات المساحة القصيرة[2]. ومن بين التيارات الجوية التي يمكن لمسها في بلاد المغرب والتي تستحق إدراجها بسبب الآثار التي تحدثها، وهي السيروكو (Le Sirocco)، هذه الرياح الحارة والجافة من نوع الرياح النازلة، تعصف من الجنوب إلى الشمال[3]، ويرافقها الغبار والتبخر القوي، إضافة إلى رطوبة منخفضة جدا. والأسباب الدافعة للسيروكو ليست فقط جوارها للصحراء، ولكم أيضا ترتيب كتلة الأراضي المرتفعة لبلاد المغرب التي تضفي إليه ميزة الرياح الجبلية الدافئة للألب. ذلك أن الانخفاضات التي تتكاثر من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي أو من الغرب إلى الشرق تجعل الرياح الاستوائية تصطدم بالأطلس، وعندما تتراجع في السفح الآخر، فإن تأثير الضغط يضاف إلى اكتساب الحرارة التي يسببها تكاثف بخار الماء، مما يعطيها

(1) S. J. Despois, R. Raynal, Géographie de l'Afrique de Nord-Ouest, éd. Payot, Paris, 1975, p. p. 25, 26 ; Gsell, « Le climat de l'Afrique du Nord dans l'antiquité », p. 345.

(2) A.Bernard, Afrique septentrionale et occidentale, p. p. 40, 41.

(3) R. Lespès, Op. Cit, p. 15.

درجة حرارة مرتفعة. كما أن شدة ومدة السيروكو(*) متغيرة جدا، من الدوامات الخفيفة وصولا إلى العواصف الرملية الكبيرة التي تلقي بظلالها على الأجواء خلال عدة أيام[1]. يعرف في الجزائر باسم "القبلي" بسبب اتجاهه من الجنوب، وهو نفسه ما يعرف في المغرب الأقصى بـ "الشرقي" [2](Chergui). وما تجدر الاشارة إليه أن السيروكو كارثي على موسم الحصاد عند هبوبه فترة الإنبات وفي بداية النضوج[3]، وليست الرياح وحدها من تؤثر على النبات، لكن كل عناصر المناخ كان لها انعكاسها على الغطاء النباتي ببلاد المغرب القديم.

2/- التربة والغطاء النباتي

أ-التربة:

تعتبر ظواهر المناخ وجريان المياه ونوعية التربة من العوامل الأساسية التي تتحكم في الغطاء النباتي، الذي يتنوع على ذلك الأساس. فوضعية الحياة النباتية اليوم بشمال إفريقيا هو نتيجة ظروف طبيعية، ودور الانسان، كما هو الشأن في جميع الحضارات، ويصعب في كثير من الأحيان معرفة بدقة إلى أي حد أثرت هذه العوامل على الأخرى طوال آلاف السنين. ومهما بلغ بنا الخيال، فلا يمكن أن نتصور أن هذا الفعل قادر على تغيير معطيات التضاريس والمناخ تغييرا جوهريا[4].

وإذا عدنا إلى العصر القديم، نجد الكثير من القدامى من تحدث عن خصوبة أرض إفريقيا وخاصة المنطقة الساحلية[5]، من سواحل ليبيا الحالية إلى غاية سواحل المحيط الأطلسي. فهذا هيرودوت يشير إلى أنه على طول البحر منطقة خصبة ومأهولة[6]، ويشيد بخصوبة الأراضي الشرقية من ليبيا ككل قائلا: " يتمتع إقليم قورينا –وهو أعلى جزء من ليبيا- يسكنها البدو الرعاة بنعمة رائعة، وهو أن له ثلاث مواسم للحصاد[7]، وهذا دليل على خصوبة تربتها العالية، كما يشير في فقرة أخرى إلى خصوبة الأراضي المحيطة بوادي كينيبس(Cinyps) ، إذ يقول: "وفي ظني أنه ليس هناك جزء من ليبيا ذو ميزة عظيمة تؤهله لأن يقارن بآسيا وأوروبا فيما عدا المنطقة التي تدعى بنفس اسم نهرها (كينيبس)، فإن هذه المنطقة نظيرة لأخصب أراضي

(*) " السيروكو أسماه الرومان بـ « Africus » ، حيث هب منذ العصور القديمة، أطلق عليه تاكيتوس (Tacit) اسم "Gravis" (أنظر: E. Cat, Op. Cit, p. 47). ويبدو أن هذه الكلمة اشتقت من الاغريقية من كلمة تعني "جفف"، ويعني في بلاد المغرب عموما رياح شتاء رطبة وحارة. (أنظر: S. Gsell, Ibid, p. 346)

(1) A. Bernard, Op. Cit, p. 41.

(2) Y. Lacost, Op. Cit, p. 15 ; O. Bates, Op. Cit, p. 19.

(3) R. Lespès, Ibid, p. 15.

(4) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 17.

(5) علي، واحدي: المرجع السابق، ص 127.

(6) H. Basset, « la Libye d'Hérodote d'après le livre de M. Gsell », p.296.

(7) هيرودوت: التواريخ، IV، 199، نصوص ليبية، ص 99.

القمح بالعالم، وتختلف تماما عن بقية ليبيا، إذ أن التربة فيها سواد وتمدها الينابيع بمياه وفيرة"[1]، ثم يشير بعدها إلى أن الأراضي الواقعة غرب نهر تريتون كذلك خصبة وصالحة للزراعة عندما يقول: " وإلى الغرب من نهر تريتون، وبعد موطن الأوسيس، تبدأ بلاد الليبيين الذين يفلحون الأرض ويقطنون البيوت"[2].

كما نجد ديودور الصقلي يشيد أيضا بخصوبة هذا الاقليم الشرقي من ليبيا القارة بقوله: "يتميز ذلك الجزء من البلاد الذي بالقرب من قورينا بتربة خصبة"[3]، ويقول في مقام آخر: " أربعة أمم إفريقية تشغل الأرض المغلقة خلف « Cyrène » (قورينا) والسرتين النسامون في الجنوب، الأوخيس في الغرب، المارماريد يزرعون هذا الامتداد الطويل للسواحل الواقعة بين مصر وقورينا[4]. كذلك أشاد سالوست بخصوبة هذا الجزء من إفريقيا: " في الشرق هضبة مائلة تسمى من طرف السكان "كاتاباتمون" (Catabathmon)، البحر بها عاصف، الساحل بدون موانئ، الأرض خصبة، مناسبة بالخصوص للتدجين"[5]. ولم يخف بومبونيوس ميلا إقراره بخصوبة كل أجزاء إفريقيا المأهولة حينما قال: "إنها ذات خصوبة رائعة في المناطق المأهولة"[6]. وهو نفس نفس ما ذهب اليه "سيليوس ايتاليكوس" قائلا: " إفريقيا أرضها سعيدة في الأجزاء الأخرى، ذلك أن درجة حرارة معتدلة تخصب بها الأرياف الوافرة"[7]. كما لا ننسى بعض المصادر التي نوهت بخصوبة قرطاجة والأراضي القريبة منها مثلما فعل يوستينيوس وهو يحكي عن أسطورة عليسا ديدون: " عندما بدأت بحفر أساسات قرطاج، وجد رأس بقرة والتي تبشر بارض خصبة"[8]، وكذلك "صولينوس" في حديثه عن إقليم المزاق المزاق قائلا: " بيزاكينا (Byzacium) الذي له 200 ألف أو أكثر من الامتداد الأرض به خصبة"[9].

سترابون بدوره وصف بأن أراضي موريزيا خصبة وصالحة للزراعة: "موريزيا (Maurusie) باستثناء بعض الأراضي الصحراوية قليلة الامتداد، لا تضم سوى أراضي خصبة"[10]. فقد اتفقت جل الكتابات القديمة على خصوبة أراضي شمال إفريقيا بصورة عامة وموريطانيا خاصة. هذه الأخيرة التي اختارتها الأساطير كموطن لحدائق الهيسبيريد. وهذه الخصوبة هي التي جعلت البعض يتحدث عن كروم العنب التي لا يستطيع شخصان الاحاطة بجذع كرمة واحدة ولو مدا يديهما إلى أقصاها. إذ شملت خصوبة الأراضي جميع المناطق المجاورة للبحر الداخلي، الممتدة من النيل إلى أعمدة هرقل. وقد استعملت أحيانا المناطق التي نسجت حولها

(1) هيرودوت، IV، 198، نصوص ليبية، ص 98.

(2) هيرودوت، IV، 191، نفسه، ص 85.

(3) ديودور الصقلي: المكتبة التاريخية، III، 50، نصوص ليبية، ص 184.

(4) Diodore de Sicile, Bibliothèque historique, III, XXV.

(5) Salluste, Guerre de Jugurtha, XVII.

(6) Pomponius Méla, Géographie de la terr, I, IV.

(7) Silius Italicus, I.

(8) Justin, Histoire universelle, XVIII.

(9) Solin, XXVIII.

(10) Strabon, Géographie, XVII, III, 3.

الأساطير أثناء تحديد مجال الأراضي الخصبة بليبيا، إذ يقول بوليب في ذلك أن المناطق الخصبة تمتد بين أعمدة هرقل ومذابح الفيلاني، فاستحضار المغزى العام للروايتين الأسطوريتين يبين صحة هذا التحديد إلى حد كبير. فأسطورة مذابح الفيلاني لها علاقة برسم حدود قرطاج من جهة قورينا، ةأعمدة هرقل ترمز إلى نهاية موريطانيا. ولذلك فإن الأسطورة تجعل أخصب الأراضي في المنطقة الممتدة بين السرت وطنجة، وهي كذلك في الوقت الحاضر[1]، مثلما هي بعض الأقاليم الممتدة من طبرقة إلى غاية السرت الكبرى، التي تتقارب نحو البحر بشكل بشكل غير منفصل. حيث احتفظت بخصائصها الخصبة خلال فترة الاحتلال الروماني، كسهل طبرقة (Tabarka) الذي ينفتح على الساحل بشكل ممتد وخصب، لأن الواد الكبير وروافده يسقونه[2].

لكننا بالمقابل نصطدم عند بحثنا عن الأراضي الخصبة ببلاد المغرب القديم بتغير تربتها في بعض المناطق منذ العصر القديم. وقزال الذي أكد عدم تغير المناخ منذ ذلك الحين، يشير إلى أن التغيرات الحاصلة على التربة محلية ومحدودة للغاية سببها نقل الرياح والمياه لمواد التربة[3]. لكن « Shaw » الذي جاب شمال إفريقيا في بداية القرن الثامن عشر، على العكس من ذلك، تفاجأ عندما لاحظ بأن المزاق (Byzacium) التي طالما اشتهرت بخصوبتها قد أصبحت قاحلة تماما، وهو ما أدى إلى الاعتقاد بحدوث جفاف وتغير للمناخ. ولكن بالعودة إلى الوثائق التاريخية، نجد بأن قانون الامبراطور "هونوريوس" (Honorius) المؤرخ بـ 20 فيفري[*] يبين بأن بيزاكينا (المزاق) قد احتوت على مساحة كبيرة من الأراضي القاحلة. فالبروقنصلية قدمت في بداية القرن الخامس ميلادي مساحة تقارب أكثر من 176، 455 هكتار من الأراضي الخصبة، وحوالي 288،225 هكتار من الأراضي القاحلة، وكذلك المزاق قدمت حوالي 377،222 هكتار من الأراضي الجيدة و 426،441 هكتار من الأراضي القاحلة. كما نجد في هذه الأخيرة أيضا أن المساحة غير المنتجة فاقت تقريبا 50000 هكتار من المساحة الزراعية، في حين أنه في المقاطعة المجاورة (البروقنصلية) التي كانت سمعتها أقل في أواخر العصر القديم، فامتداداها المنتج فاق 166،951 هكتار من مجمل المساحة الجافة. وبهذا فإن نسبة الجفاف الكبرى قد أخذت نسبتها الأعلى في بيزاكينا. وبعد 128 سنة من ذلك، نلاحظ ساحل نفس المقاطعة غير منتج تماما، لأن "كوريبوس"(Corippus) يصور لنا الجيش الروماني المرابط في بيزاكينا، مجبر على تلقي مؤونته من القمح والخمر وغيرهما عن طريق البحر. وهنا تتأكد ملاحظة « Shaw » حول جفاف المزاق، بأنها كانت في الأصل كذلك خلال العصر القديم، وليس نتيجة تغير وجفاف المناخ[4].

---

(1) مصطفى، أعشي: المرجع السابق، ص 111.

(2) J. Toutain, Op. Cit, p. 31.

(3) S. Gsell, « le climat de l'Afrique du Nord dans l'antiquité », p. 343.

(*) " هذا القانون هدفه تحديد الأراضي المنتجة فيكل من مقاطعة البروقنصلية ، وهو إقليم قرطاجة الفعلي، وفي بيزاكينا (المزاق)، والتي يجب أن تبقى خاضعة للضرائب، وكذلك الأراضي غير المنتجة التي تكون مجانية" (أنظر: F. Lacroix, « L'Afrique ancienne. Produits végétaux », Rev. Afr, Vol. 14, 1870, p. p.5, 6.)

(4) F. Lacroisc, Ibid.

من جهة أخرى نجد بأن الكتاب القدامى الذين لم يتكلموا أبدا عن قمح موريطانيا، أنه في هذا الاقليم لا تشير الوثائق الجغرافية إلا مرة واحدة لـ "Horrea"، وهو مكان واقع في المنطقة بين سطيف وبجاية. كذلك أن منطقتي مجردة وسهل سطيف كانت دائما مغطاة خلال فصل الصيف بحصاد إلى مالا نهاية، وهو ما يشهد على أن التربة هنا مازالت خصبة إلى حد فائق وأن حبيبات قمح هذه الأرض تغطي مئات الغلات. وإذا كانت نقاط أخرى فقدت فيها التربة خواص قوتها القديمة، فيجب أن ننسبها إلى تدهور حاصل خلال قرون، بسبب الانسان وإلى الارهاق الذي تسببه خصوبة الأشجار الصغيرة (الأدغال). فمنطقتا شرشال وسطيف مثلا اللتان كانتا الأكثر ازدهارا لموريطانيا القديمة، تسترجع شيئا فشيئا وضعها المزدهر التي كانت عليه قديما، وهو ما ينفي تغير المناخ في مجمل البلاد منذ العصر القديم، وأن المناطق التي تعرضت للجفاف هي تلك المجاورة للصحراء، خاصة منها التي لا تحميها أي سلسلة جبلية أو رمال الصحراء. فمنطقة الحضنة مثلا ليست محمية من الجنوب سوى ببعض التجاعيد من التضريس قليلة الأهمية، وهي جبال الزاب، كما أن حوض واد جدي ليس له كومة تحميه من الصحراء، لأنه هو نفسه يمثل المنحدر الجنوبي للأوراس ولقفصة. فالصحراء لم تتقدم سوى في المناطق المجردة من كل سلسلة جبلية تكون كحاجز يصد رمالها. وما أفلت منها من أراضي كان منطقة التل والهضاب العليا بفضل السلاسل الجبلية التي تحميها رياح الشمال الحاملة للأبخرة(1).

تلك الأراضي الخصبة أو حتى الجافة في القديم نجدها بشمال إفريقيا تتوزع على مجالين، التل والصحراء، الأولى ذات طبيعة متوسطية تختلف عن الثانية بانتظام نسبي لمحاصيلها والمحافظة على جزء من مراعيها خلال الأشهر الجافة والحارة في فصل الصيف. فهي تلك السهول العليا السهبية بجنوب وهران، جنوب الجزائر العاصمة بالنسبة للمجال الصحراوي، وهي مجموع السهول العليا القسنطينية والتونسية بالنسبة للمجال التلي(2).

إن تربة التل لبلاد المغرب هي عموما فقيرة من ناحية الدبال، فالطمي المترسب للسهول يختلف كثيرا من نقطة إلى أخرى حسب طبيعة الصخور التي تعتبر أصلا له، وحسب حجم المواد التي تكونه. والطمي القديم عموما متكون من حصى صغير مناسب للنبات والزراعة، أما الطمي الحديث المترسب في قاع البحيرات القديمة أو بمستودعات الأنهار مثل ما نجده في سهول السبو، الشلف، متيجة، مجردة. فهي كلها في الأصل أكثر خصوبة، في حين أنها أحيانا مملحة مثلما في سهول منطقة وهران، أو ذات سمك ضعيف جدا ومتغير مثلما في سهول سطيف(3).

(1) E. Cat, Op. Cit, p. 42-45.

(2) J. Despois, « La bordure saharienne de l'Algérie orientale », Rev. Af, Vol. 86, 1942, p. 197.

(3) A. Bernard, Afrique septentrionale et occidentale, p. 56.

فتربة إفريقيا الشمالية هي في الغالب ذات لون فاتح وذات طبيعة رملية، توجد أيضا أراضي حمراء مماثلة المعروفة جيدا في كل البلدان المتوسطية، وأخيرا نجد أراضي سوداء مؤهلة لأن تكون "تير" [*](Tirs) (جمع Touares)، التي نجدها واسعة الانتشار بالمغرب الأقصى، في مقاطعات "أبدى"، الدكالة، والشاوية، لكن لا الكلمة ولا التربة معروفة في بقية بلاد المغرب (الجزائر وتونس)، فالتير (Tirs)لا تعني الأرض السوداء فقط، بل الأرض الموحلة الطينية التي لا تتشقق عند تجفيفها، فهي أراضي صلبة ومنسجمة، فقيرة بالبوتاس لكنها غنية بملح الحديد.

والملاحظ أن قلة الأمطار ينتج عنها تربة سهبية أو شبه سهبية. فالتربة في الأنهار والسهول ذات لون فاتح جدا، غني ببقايا الجبس وكربونات الجير. أما التربة الرملية فهي فقيرة في المناطق الرطبة لأنها متكونة فقط من حبيبات الكوارتز، وهي مناسبة أكثر للزراعة في المناطق الجافة أنها تحتوي على كل عناصر الصخور التي تمثل أصلا لها. فهذا ما أثبتته تحاليل التربة الرملية بتونس الشرقية. أما غبار الرياح الذي يترسب على حافة المناطق الجافة والمناطق الرطبة ينوب عنه الطمي في سهول مراكش، والذي تأتي به سيول الأطلس الأعلى. ونجده أيضا في سهل بسكرة، وهو ما يفسر بدون شك خصوبة منطقة "سرسو".

وعلى العكس من ذلك، يجب أن نعرف أنه في سهوب بلاد المغرب لا تملك التربة دائما هذه الخصوبة وهذا العمق لها، إذ نجد في الغالب قشرة حجر كلسية، أو أبعاد كبيرة جدا بين العناصر، كما أن تملح التربة يجعلها أقل خصوبة[1]. إذ نلاحظ في السهول العليا الجزائرية–الوهرانية مثلا، ظهور تلك القشرة الكلسية على السطح، فلم تترك مكانا سوى لغطاء معشب متقطع[2].

ولو جئنا إلى معرفة مختلف هذه أراضي الخصبة بأقاليم شمال إفريقيا، نجد بأنه في تونس –على سبيل المثال– أن أرضها في السهول والوديان والتي تشكلت في الزمن الرابع، ذلت تركيب موحد، باستثناء بعض الأماكن، كما أن الرمال قد سيطرت عليها بوجود عنصر الكلس بأحجام كبيرة. هذه التربة مصبوغة لعدة مرات باللون الأحمر عن طريق أكسيد الحديد. كما ان مادة البوتاسيوم متوفرة بها كثيرا في أغلبية أراضي تونس، لكننا نجد بالمقابل كل من الدبال (Humus)، الآزوت وحمض الفوسفور بكميات قليلة في كل مكان. فالتربة فقيرة إذن، لكنها تبقى خصبة بفضل السقي المنتظم لها. فحول سوسة مثلا نجد دائما حصادا وفيرا للحبوب عدا بعض السنوات التي يغلب عليها الجفاف. لكننا كلما تقدمنا نحو الجنوب وابتعدنا عن البحر، تقل الأمطار ويصبح الانتاج غير وفير. ففي جوار صفاقس لا يوجد بالنسبة لزراعة القمح والشعير سوى سنة جيدة

(*) "على طول ساحل المغرب الأقصى وعلى عمق متوسط بـ 70 كم، هذه المنطقة مسقية جلدا بفضل أمطار تقود معها رياح الغرب، حيث توجد ها أراضي ممتازة، خاصة التربة السوداء التي تسمى محليا بـ "التير". ورغم أن أصل الكلمة مازال محل نقاش، إلا أن هذا الجزء من المغرب الأقصى جيدا لزراعة الحبوب، كما تقدم مراعي غنية للماشية الكبيرة مثل الأبقار والأحصنة" (للمزيد أنظر: S. Gsell ; H. A. A. N, T. I, p. 4)

(1) A. Bernard, Op. Cit, p. p. 56, 57.

(2) Y. Lacost, Op. Cit, p. 21.

خلال ثلاث سنوات، وأن الأقاليم الداخلية لا يمكن أن يتم الحصاد بها عدا مرة واحدة كل أربع أو خمس سنوات[1].

في الجزائر نجد من بين أراضيها المنطقة الممتدة شمال قسنطينة مثلا، تشغل حوض بحيرة قديمة تشكلت خلال الزمن الثالث جنوب السلسلة النوميدية مملوءة بالطين والجبس. ويشكل هذا الطين تلال رتيبة ذات صبغة رمادية، وأخاديد حمراء داكنة أحيانا. فهذه المنطقة متوسطة الخصوبة تصلح لزراعة الحبوب والكروم. كما أن أجزاءها الجبلية تبدو وكأنها مغطاة في الماضي بأشجار الزيتون خلال العصر القديم.

إضافة إلى هذا نجد حوض قالمة لا يفصله عن سهل بونة سوى بعض التلال. نشبه في نباتها منطقة الساحل الذي يتناقض مع حوض قسنطينة، إذ تصلح فيها زراعة الخضر والفواكه. ثم نجد بعدها سهول سطيف التي شكلت خلال عصر البليوسين حوض مغلق، تشغله بحيرة كبيرة ممتدة على الأرجح بدون انقطاع نحو الغرب إلى غاية عين تاغروت، نحو الشرق إلى غاية عين البيضاء وحتى إلى غاية مداوروش. إن سطح هذه السهول تحتله اليوم ترسبات توضعت في البحيرة مشكلة من طين وطمي أحمر، تكتلات وحجر رملي خشن على الحواف، وحجر كلسي في المركز. فسهول سطيف هي خصبة خاصة على الطمي الحديث والغروي، لأن المناطق المشغولة بالطمي القديم نجدها حجرية أكثر. إضافة إلى هذا نجد حول مرتفع سلسلة الحضنة، سهول "زاما"، سريانة ، وبلزمة، تحتوي أراضي جيدة للزراعة والرعي[2]. وفي غرب الجزائر نجد سيدي بلعباس ذات الأراضي الخصبة طينية ومتزايدة الخصوبة بفضل وجود نسب من فوسفات الكلس الطبيعي، فهذا السهل هو بامتياز منطقة زراعة واسعة للحبوب[3]. هذا عن أهم ملامح التربة قديما وحديثا ببلاد المغرب، وعلى أساس خصوبتها توزعت وانتشرت مختلف النباتات.

ب– الغطاء النباتي:

على عكس المناخ، فإن الغطاء النباتي قد اعتراه الكثير من التغير والتحول على مر العصور. ولا يعرف على وجه التحديد متى بدأ الانسان المغاربي ممارسة الزراعة والاستقرار[4]، فالشواهد الأثرية تدل على معرفة سكان بلاد المغرب القديم للزراعة أواخر عصور ما قبل التاريخ. إذ نجد –على سبيل المثال لا الحصر– في الأدوات القفصية ، وفي المناجل التي اكتشفت مثلا في مناطق متفرقة من الجزائر الحالية الدليل على أن الانسان القفصي قد مارس عملية جني الثمار، فيما يبقى تنظيم الزراعة في أوائل التاريخ، وذلك بتهيئة الأرض عن طريق إقامة المدرجات والمنشآت المائية بهدف الاستغلال ، وذلك قبل عهد الملك ماسينيسا حتى الذي اعتبرته

(1) J. Toutain, Ibid, p. 38.

(2) A. Bernard, Op. Cit, p. p. 213, 220.

(3) Ibid, p. 187.

(4) محمد التازي، سعود: المرجع السابق، ص 16.

بعض النصوص التاريخية مدخل الزراعة إلى نوميديا[1]، مثل بوليب[*]، بفضل دوره في المجال الزراعي، لكن الآثار تشهد على أنها في وقت أبكر من ذلك.

وإذا عدنا إلى أقدم المصادر التاريخية[2] التي تتحدث عن هذا المجال، نجد في أسطورة الهيسبيريد على أن سكان بلاد المغرب القديم قد عرفوا الزراعة في وقت مبكر كذلك. فقد ارتبط توظيف هذه الحدائق في شمال إفريقيا في بعض الروايات بمجال بعض المجموعات البشرية، حيث أشار سيليوس إيتاليكوس إلى الماسيل الذين وطنهم في أدغال الهيسبيريد، ويتزعمهم الاله باخوس، حيث الأشجار المورقة والمزدهرة بأغصانها التي تثمر بالفواكه الذهبية، إذ يظهر من هذه الأسطورة أن أراضي الماسيل كانت خصبة. وربما ايراد اسم باخوس في هذه الأسطورة دليل على نمو أشجار الكروم بهذه المناطق باعتباره اله الخمر، لأن الأساطير ربطت اختراع باخوس الليبي للخمر بعصر عنب الكروم البرية التي تنبت في ليبيا. كما حاولت بعض الأساطير أن تنسب لهرقل الاغريقي دورا في جعل الأراضي الليبية خصبة، أو على الأقل جزء منها، لأن الأسطورة تذكر أنه عمل على زرع بعض المناطق الصحراوية التي كانت خصبة قبل ذلك. قد نرى في هذه الأسطورة محاولة لتفسير خصوبة بعض الواحات الصحراوية المتناثرة في صحراء شمال إفريقيا. وقد أثرت أساطير الهيسبيريد بليبيا وعلاقاتها بهرقل في الشعر القديم، ولذلك تغنى بها العديد من الشعراء مثل "هوراس" (Horace) وفرجيل (Virgile)، وكذلك لوكريس (Lucrece) الذي تغنى بالتفاحات الذهبية. وقد اختلف حول ماهية التفاحات الذهبية التي تنتجها حدائق الهيسبيريد[*] حتى في المصادر القديمة. إذ اعتبرت تفاحا أو برتقالا أو ليمونا، لأن هذه الأخيرة من سمات ازدهار الفلاحة التي تحتاج إلى أراضي خصبة[3].

وبعيدا عن الأسطورة وماهية التفاحات الذهبية لدينا في النصوص التاريخية إشارات واضحة حول الزراعة ومختلف المنتجات الزراعية للمجال الليبي في القديم، كالقمح الذي أشار اليه هيرودوت في قوله: "وفي ظني أنه ليس هناك جزء من ليبيا ذو ميزة عظيمة تؤهله لأن يقارن بآسيا وأروبا فيما عدا هذه المنطقة التي تدعى بنفس اسم نهرها (كينيبس).فإن هذه المنطقة نظيرة لأخصب أراضي القمح في العالم، وتختلف تماما عن بقية ليبيا،...وأن محصولها من القمح لهو بنفس معدل محصول أرض بابل"[4]. فالمقارنة بين معدلات الانتاج بين

(1) محمد الهادي، حارش: " أصول الزراعة في بلاد المغرب القديم"، الجزائر، 2009،، ص ص 4، 6.

(*) Polybe, XXXVII, 36, 16.

(2) هيرودوت، IV، 191، نصوص ليبية، ص 83.

(*) يقول بلين القديم في هذا الصدد: " على بعد 25000 خطوة من Tingi، على ساحل المحيط، هناك أعمدة هرقل، على بعد 32000 خطوة من هذه الأخيرة نجد ليكسوس (Lixus)،... هنا كانت حدائق الهيسبيريد (Hespérides) "، حيث أن بلين يضع حدائق الهيسبيريد في الجزء الغربي من ليبيا. ويكمل قائلا في الفقرة 4: " عند مذبح هرقل، الخشب المشهور الذي ينتج تفاحات الذهب لم يبق منه سوى زيتون بري" (أنظر: .Pline l'Ancien, H. N, V, 3, 4 وقارن أيضا مع : Lucain, IX)

(3) مصطفى، أعشي: المرجع السابق، ص 112-113.

(4) هيرودوت، IV، 198، نصوص ليبية، ص 99.

منطقتي كينيبس و بابل يتضمن نوعا من الاعتراف الضمني بأهمية الزراعة في كينيبس مثل بابل. ولأن المقارنة بين شيئين لا يمكن أن يتم إلا إذا كانت هناك أشياء كثيرة تجمع بينهما، وبما أنه لحد الآن يؤكد جميع الباحثين أن بداية استئناس النبات والحيوان بدأت في الشرق الأدنى وخاصة بلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى ومصر، وبما أن هيرودوت يقارن بين محصول منطقة كينيبس وبابل، فإن هذا يعني قدم الزراعة أيضا في كينيبس، وبالتالي فإن المحصول الوفير فيها، ليس فقط نتيجة للظروف المناخية الملائمة، ولكن نتيجة المعرفة الدقيقة والخبرة الطويلة. هذه الخبرة والمعرفة جعلت منطقة كينيبس تعطي محصولا لا يتجاوز المنتوج العادي بـ 300 مرة[1].

ولم يكتف هيرودوت بالتنويه إلى القمح فقط، بل أفادنا في معرفة وفرة الانتاج في ذلك الوقت، على الأقل بساحل ليبيا الشرقية ككل، إذ يواصل حديثه عن خصوبة ساحل قورينا قائلا: "أولا تكون ثمار الأرض على ساحل البحر قد نضجت للحصاد والقطاف، وعندما تجمع هذه المحاصيل تكون محاصيل المنطقة الوسطى أعلى الساحل، تلك التي يدعونها التلال، يانعة للجمع، وما إن يجمع نتاج البلاد الوسطى حتى تكون حاصلات المنطقة العليا ناضجة. ولذلك فإن آخر ثمار الأرض تفد حين تكون أولاها قد استنفدت في الطعام والشراب، وهكذا فإن الحصاد عند القورينيين يدوم ثمانية أشهر"[2].

إضافة إلى الحبوب، أشارت المصادر إلى فواكه مثمرة أخرى مثلما فعل ديودور الصقلي وهو يتحدث عن إقليم قورينا كذلك: " الأرض بها (قورينا) جيدة وتنتج كمية من الفواكه لأنها تحمل فقط القمح، لكن أيضا الكروم، شجر الزيتون وكل أنواع الأشجار"[3]، وهو ما ذكره سالوست متحدثا عن الجزء الشرقي من نوميديا قائلا: " يوجد في جزء من نوميديا التابع لـ أذربعل نهر يسمى الموثول (Muthul)، له منبعه في الجنوب،... لكن في الوسط تنتصب تلة مغطاة بأشجار الزيتون ونباتات الآس (Myrtes)"[4].

هذا وتكلمت مجموعة من المصادر على اختلاف رؤيتهم لموقع جبل أطلس بشرق ليبيا أو غربها، عن ما يحتويه من فواكه، مثل بروكوب: " وعندما نصل إلى القمة (قمة جبل أطلس) نجد مزدرع خصب، ذو مراعي وفيرة، ذات أشجار جميلة وفواكه هي أحيانا أكثر من تلك التي تنمو في بقية إفريقيا"[5]. أما بلين القديم الذي يضع هذا الجبل في الغرب، بالمغرب الأقصى الحالي: " من هنا (يقصد بعد نهر Asana الذي يبعد عن سلا بـ 150000 خطوة)، من هنا نحسب 200000 خطوة إلى غاية "ديريس" (Dyris): إنه الاسم الذي يعطونه في لغتهم (الأهالي) للأطلس، حيث قالوا بأنه حول الأطلس نرى إشارات تبين بأن الأرض كانت مأهولة قديما، إنها بقايا كروم ونباتات ونخيل". وفي فقرة أخرى يقول: " إنه جبل أطلس... مليء بالظل،

([1]) مصطفى، أعشي: المرجع السابق، ص 114.

([2]) هيرودوت، IV، 199، نصوص ليبية، ص 100.

([3]) Diodore de Sicile, Bibliothèque historique, III, XXV.

([4]) Salluste, Guerre de Jugurtha, XLVIII.

([5]) Procope, Edifices, VI, VII.

مغطى بالخشب ومسقي بمصادر متدفقة من الجهة التي تواجه إفريقيا، خصبة بالفواكه من كل الأصناف"[1]. وسترابون يشير في وصفه لأراضي موريزيا إلى غناها بالفواكه قائلا: " البلاد التي تنتج نوع من الكروم ضخمة إلى درجة أن رجلان يحتضنان الجذع بصعوبة، فكل الأعشاب عالية جدا بها، مثلما هو حال بعض النباتات البقولية مثل اللوف(l'arum) (نبات من فصيلة القلقاسيات) "[2]. كما تكلم هو نفسه عن الغابات الكثيفة التي تغطي هذا الجبل، مما يدل على الثروة الغابية لبلاد المغرب القديم في ذلك الوقت[*]، مثل بلين القديم في كلامه عن بالقنصل "Suetonius Paulinus" (سنة 66م)، واجتيازه لجبل أطلس: " أضاف (القنصل) بأن القمة كانت مليئة بالغابات الكثيفة والعميقة التي تشكلها فصيلة أشجار غير معروفة، ارتفاع هذه الأشجار مدهش، الجذع بدون عقد، الأوراق مشابهة لشجر السرو، تعطي رائحة قوية"[3]. وهو رأي سيليوس ايتاليكوس ولو بإعطائه هذه التلميحات في صبغة أسطورية:" على جبهته (يقصد الجبل) ليل مخيف قد انتشر عن طريق تأثير الصنوبر المتكاثف الذي يغطيه"[4]. كما أنه رأي صولينوس أيضا عن نفس الجبل المقابل للساحل الأطلسي: " جبل أطلس يرتفع بين أحضان هذه السهول الواسعة من الرمال... من جهة المحيط لا توجد سوى غابات داكنة، لكن بنظرة إلى إفريقيا فإنها تبسط منتجات غنية تنمو من تلقاء نفسها، أشجار مرتفعة وكثيفة تفوح برائحة نفاذة، حيث أن أوراقها مشابهة لأوراق السرو"[5].

نستشف من هذه النصوص أن غابات جبال الأطلس قد حظيت بمكانة متميزة في النصوص التاريخية القديمة، حيث تمكننا من تكوين صورة واضحة عن هذه المجالات. وتعود هذه الأهمية إلى مكانة جبال الأطلس كفضاء طبيعي يفصل المناطق الصحراوية الجنوبية عن المناطق الداخلية الشمالية، وكذا الخواص الطبيعية التي تتميز بها أشجار هذه الغابات. فهذه الغابات كانت تتموقع في المنطقة الفاصلة بين الحدود الأمنية المتمثلة في الليمس السلاوي والحدود الطبيعية الجنوبية والمتمثلة في الأطلس الكبير. ويمكن أن نميز بين غابات الأطلس المتوسط التي تحتوي على أشجار مختلفة من النوع المتوسط، والتي تكسو أقدام جبالها مروج خضراء تجعلها قبلة القبائل الرحل خلال موسم الصيف، وكذا جبال الأطلس الغربية المغطاة بغابات ذات الأشجار الكثيفة والفواكه المتنوعة والتي تدل على وجود أشجارها من النوع الطويل الذي يترك مستوى سطح الأرض فارغا ويؤدي إلى انتشار أشجار ثانوية مثل العرعار البري، بالإضافة إلى هذه الثروة الخشبية فإن هذه المجالات الغابية تنتج العاج والعصفية، وبها صخور جيتوليا لاستخراج المريق والأرجوان، مما يجعلها محمية طبيعية تجمع الثروة

---

(1) Pline l'Ancien ; H. N, V, 13, 6.

(2) Strabon, Géographie, XVII, III, 4.

(*) "تغنى Juvénal أيضا بأخشاب غابات طبرقة، مما يدل على وفرتها في العهد القرطاجي، وذلك في مدحه للاله جوبتر. (أنظر: Juvénal, Satire, X, 195).

(3) Pline l'Ancien , H. N, V, 14.

(4) Silius, I.

(5) Solin, XXV.

الخشبية والحيوانية والمعدنية، وتمتد هذه الغابات إلى جبال الأطلس الجنوبية التي تتميز بانتشار أعشاب القربيون (Euphorbe) الذي يقوي البصر. وتستمر هذه المجالات الغابية إلى جنوب الأطلس الصغير وحدود نهر "أناتيس" حيث تعيش فيها الحيوانات المفترسة[1].

إضافة إلى الغابات والأشجار المثمرة، نجد المصادر القديمة تذكر بعض الأعشاب التي تستعمل لعلاج بعض الأمراض، مثلما وضح ذلك بلين القديم قائلا: " وتنتج إفريقيا أيضا في أجزائها التي تتجه نحونا شجرة هي اللوتس[*] (Lotus) والتي تسمى باللغة الدارجة "كلثيس" (Celthes). ويوجد أفضل اللوتس حول السرت ومنطقة النسامون"[2]. كما يشير في موضع آخر إلى نبات السلفيوم[**]: " وبعد هذا سنتكلم عن عصير السلفيوم، وهو نبات مهم مشهور، والسلفيوم هو الاسم الاغريقي لهذا النبات. وقد وجد أصلا في مقاطعة قورينا، ويدعى عصيره "لازرا"، وهو يحتل مكانة عظمى في الاستعمال العام وكذا في العقاقير"[3]. كذلك ذكر نبات آخر عند بلين القديم وغيره، وهو القربيون(l'euphorbe). فعند بلين نجده كالآتي: " والد بطليموس يوبا الثاني أعطى نفس التفاصيل حول الأطلس (مثل القنصل الروماني " Suetonius". لقد أضاف بأنه نمت فيه نبتة تسمى Euphorbe، من اسم طبيبها الذي اكتشفها، وقد أعطى إطراء رائعا حول العصير الحليبي لهذه النبتة كونها فعالة في توضيح الرؤية ومكافحة لدغة الأفعى وكل أنواع السم"[4]. وهو نفس ما ذكره صولينوس :"نجد بكثرة على أجنحة الجبل (أطلس) القربيون، حيث أن عصارته رائعة، سواء لتوضيح الرؤية وإما ضد السموم"[5].

([1]) سعيد، البوزيدي: "دور المجال الغابوي في حفظ التوازنات البيئية والاقتصادية في المغرب القديم"، كتاب البيئة في المغرب معطيات تاريخية وآفاق تنموية: منطقة درعة نموذجا، ص 29-30.

(*) " اللوتس (Lotus) كان موجودا في منطقة قورينة (Cyrène) اتجاه الغرب، وعلى الشاطئ بين السرتين وبحيرة تريتونيس. فهو عبارة عن شجرة شوكية فاكهتها غليظة الحجم ذات طعم لذيذ. كان اللوتوفاج يعيشون عليها فقط ويصنعون منها الخمر. أما الماكلييس جيران اللوتوفاج فقد كانوا يأكلونها، إلا أنها ليست القوت الوحيد الذي يعتمدون عليه. النبتة شوكية وتعطي في قورينة أجود أنواع الخشب، ويذكر تيوفراست (Théophraste) أن فاكهة اللوتس لها مقياس الفول أو حبة العنب، ويتغير لونها كلما نضجت. وهناك من يرى أن اللوتس المنتشر في شمال إفريقيا عبارة عن العناب (السدرة) البري، وخاصة في الواحات ومنطقة طرابلس بليبيا" (للمزيد أنظر: مصطفى، أعشي: المرجع السابق، ص 51)

([2]) بلين القديم: التاريخ الطبيعي، XIII، 32.

(**)" السلفيوم (le Silphium) نبتة من ذوات الفلقتين، ذات جذور سميكة ومتعددة، أوراقها يواجه بعضها البعض الآخر. لم يتمكن أحد من التعرف عليها بدقة، وقد اشار "Rainand" في معجمه أن السلفيوم عبارة عن نخلة عملاقة قدي يصل طولها إلى 40م ، لها ساق طويل وفاكهتها قلبية الشكل. وهذا النوع من النخيل لا نصادفه الآن إلا في جزر السيشيل شمال شرق جزيرة مدغشقر. كان يستخرج من جذور ساقه بواسط الحز عصارة يحتفظ بها بعد خلطها مع الدقيق، هذه العصارة كانت مطلوبة كدواء للعديد من أنواع المرض, أما مجال وجود السلفيوم، فيذكر هيرودوت أنه يمتد من أراضي القيليقام من جزيرة بلاطية (Platée) بومبا (Bomba)إلى فتحة السرت" (للمزيد أنظر: مصطفى، أعشي: نفسه، ص ص 38، 39).

([3]) بلين القديم، XIX، 15، نصوص ليبية، ص 153.

([4]) Pline l'Ancien, H. N, V, 16.

([5]) Solin, XXV.

وهكذا فإن النصوص القديمة لم تخلو من الاشارة إلى مختلف النباتات التي غطت بلاد المغرب القديم. فكل البلاد من قرطاج إلى طنجة كانت مغطاة بالغابات والأدغال الكبيرة التي بقيت موجودة إلى غاية القرون الأولى ميلادية. فنوميديا ازدهرت بزراعة الحبوب، ثم لاحقا بزراعة الزيتون[1]. إذ عرفت في فترة الاحتلال الروماني بـ خزان روما، لأن روما التي ضمنت للعامة "الخبز والسيرك"، قد تحصلت على الخبز بواسطة ضريبة عينية على بعض المقاطعات (الأنونا)، وإفريقيا الرومانية كانت تخضع لهذه الضريبة بكمية من القمح المحسوب لتغذية نصف العامة من الرومان. هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد بأنه في روما وفي نقاط متعددة من بلدان البحر المتوسط، أي على اتساع الامبراطورية الرومانية، قد وجدت أمفورات (amphores) كثيرة، وحطامها احتوت قديما على الزيت أو كان يصدر بها الخمر الشمال إفريقي إلى كثير من المناطق المتوسطية. وهي قادمة من شمال إفريقيا مثلما تشهد علامات الخزف. ففي الآثار الرومانية بشمال إفريقيا نجد مطاحن كثيرة للزيت[2]، مما يدل على وفرة انتاج شجرة الزيتون وزراعته الواسعة في البلاد، خاصة في فترة الاحتلال الروماني.

فقد تكون أولى الحجج الأثرية التي تدعم ما جاء في الأساطير من أن بعض الشعوب المتوسطية قد استفادت من تقنيات ساكنة بلاد المغرب القديم في مجال الزراعة، سواء من ناحية الانتاج أو طريقة تصنيع المنتجات الفلاحية وتخزينه، مثلما جاء عند ديودور الصقلي أن الأطلسين يحكون أن ربهم ديونيسوس (Dyonysos) علّم المصريين غرس العنب واستخلاص الخمور منه، وكيفية المحافظة عليه، كما علمهم كيفية جني ثمار الأشجار وباقي المزروعات. لم يكن بوسع ديونيسوس الليبي أن يعلم المصريين الفلاحة وتقنياتها لو أن سكان شمال إفريقيا كانوا يجهلونها. وبالفعل، ففي رواية أسطورية أخرى نجد أب أطلس، أي الرب أورانوس (Oranus) الذي عاش قبل ديونيسوس قد علم رعاياه الأطلسيين كيفية الاحتفاظ بالحبوب وخزنها. ونجد الشاعر هوراس (Horace) يتحدث عن مخازن الحبوب في بيادر ليبيا. أما الاغريق، فتقول الأساطير أن بطلهم أرقوس (Argos) هو أول من زرع الحبوب بعد أن جاء بها من بلاد الليبيين. إذا كانت هذه الأساطير تسمح بالقول أن الليبيين أثروا في غيرهم من الشعوب المتوسطية وعلموهم بعض التقنيات الفلاحية، فإن تأخر البحث الأثري في هذا الجانب لا يسمح بدعم هذه الفرضية. ومع ذلك ألا يمكن أن تكون هذه المعطيات الأسطورية نبراسا للأثريين المهتمين بتاريخ الفلاحة وتقنياتها، ليس في شمال إفريقيا فقط، وإنما في كل حوض البحر المتوسط؟[3]

كما أنه يجدر بنا القول بأن جمود المناخ لا يعني بأن النبات لم يتغير، إذ يتواجد هذا الأخير تحت تأثير مباشر للإنسان والحيوان. فالمظهر الهزيل للنبات الطبيعي لا يخفى على أحد، لأن السهوب السدر

---

(1) François. Bertrandy, Op. Cit, p. 16.

(2) E-F. Gautier, le passé de l'Afrique du Nord, p. p. 14, 17.

(3) مصطفى، أعشي: المرجع السابق، ص 114.

(Zizyphus) بخلاف بعض ما تبقى من شجر الفستق (Betoum)، والنادر جدا من الصمغ العربي (Acacias gommiers)، قد اعتبرت من طرف علماء النبات كتجمع متدهور بفعل الانسان، كما أننا نجد اختفاء المصطكي (Le lentisque) تقريبا بشكل كامل من الساحل. وليس هذا فحسب، فمساحة الغابات تناقصت خلال عصور التاريخ. ذلك أن انتشار المزروعات وحاجة البشر إلى الوقود أو إلى مواد البناء وما قضمته أسنان الحيوانات، إضافة إلى تعويضها بحقول القمح، كل ذلك يفسر تناقص الغابات ولو بصورة نسبية. وفي كثير من الأحيان حلت فعلا النباتات الشوكية والأراضي القاحلة محلها[1].

وإذا عدنا إلى هذا الغطاء النباتي اليوم، نجد في المجال الغابي مثلا بالمغرب الأقصى شجر البلوط الفليني (Quercus Suber) الممتد على طول السواحل الغربية من طنجة إلى الدار البيضاء، وإن كانت مساحته قد تفاقمت حاليا إلى 1400000 هكتار، مما يوحي أن هذه الغابات كانت متصلة فيما بينها قديما، وأن عمليات الاجتثاث حولت هذه المجالات الغابية المتصلة إلى فسيفساء تتداخل فيها بقع من الغابات مع الأراضي الفلاحية، تنتشر أيضا أشجار البلوط الأخضر (Quercus ilex)خاصة في السفوح الجبلية الداخلية مثل الأطلس المتوسط والأطلس الكبير والرف الأوسط. وكلما اتجهنا نحو العالية في اتجاه المناطق التي يفوق ارتفاعها 300م، نجد أشجار العرعار التي تمتاز بها غابات المغرب القديم.أما أشجار الأرز (cedrus) فتغطي قمم المرتفعات الأطلسية والريفية[2].

والملاحظ أن الغطاء النباتي بشمال إفريقيا يتدرج من الغابات إلى الأدغال، أو أشواك غابية. ومن بين فصائل هذه الشجيرات الشوكية نجد شجر الزيتون، المصطكي[*]، الخلنج، وأنواع أخرى مثل الرند (الآس/ ريحان شامي/ Le myrte)، كذلك الوزال (le genet)، شجر النحل (Le cytise). أضافة إلى أدغال العناب (Jujubier) التي لها بعض خصائص نبات السهوب، ينمو تجمعها في مناطق من شمال إفريقيا ذات التساقط ما بين 30 و40 سم، خاصة في سهول المغرب الأقصى الغربي، فيحتل بذلك المنطقة الداخلية التي تلي الشريط الساحلي المسقي بشكل جيد، كما يغطي شبه سهوب منطقة الملوية[3]. والملاحظ أنه في سهول المغرب الأقصى الجنوبي، أدغال العناب والنخل القزمي يمران تدريجيا إلى السهوب التي تظهر شيئا فشيئا كلما تقدمنا نحو الداخل، حيث تحتل المنطقة الموجودة بين أم الربيع الوسطى من جهة، والمنحدرات الأولى للأطلس المتوسط والأطلس الأعلى من جهة أخرى.

([1]) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 19.

([2]) سعيد، البوزيدي: المرجع السابق، ص 30-31.

(*) "إن تركيب شجر الزيتون والمصطكي صنف من طرف المختصين في علم النبات في فئة التشكيلات الغابية. في الواقع أنه عندما تكون سليمة فإنها تظهر في شكل غابة منخفضة أو أدغال مرتفعة (أشجار شائكة)، لكنها في الغالب في تناقص شديد" (أنظر: A. Bernard, Op. Cit, p. 63)

([3]) A. Bernard, Ibid, p. 63.

هذه السهوب تمتاز بخصوصية لافتة للنظر، وهي وجود الخشب المسمى Stipa Tortilis، وعشب "سنط صمغ الشجر" (l'acacia gummifera)، وكذلك بالأرقان (Argania Sideroscylon) المتواجد في الجنوب الغربي للمغرب الأقصى، منحصرا بين الجبل، المحيط والصحراء. والأرقان لا يمثل آخر مظهر للنبات الغابي بالجنوب المغربي، إذ يظهر "سنط الصمغ" الذي نجده في منطقة "تانانت" مرافقا تركيبة من القربيون الكبير[1]. هذا عن بعض ملامح الغطاء النباتي –الغابي خصوصا- بالمغرب الأقصى.

أما في الجزائر فإننا نجد تقريبا نفس البساط النباتي تحدده طبيعة التربة، التضاريس، والظروف المناخية. فالتل هو مجال الشجرة والزراعات الذي يقابل السهوب المكشوفة والجافة أحيانا[2]، لأن التل يحتوي كل خصائص النبات المتوسطي، خاصة سيطرة أشجار وشجيرات ذات أوراق خالدة متكيفة مع جفاف الصيف. تعد شجرة الزيتون الأكثر تميزا بها، إضافة إلى أدغال النخيل القزمي وشجرة العناب ذات الانتشار الواسع. كذلك شجرة الحياة (Thuya) التي تتطلب تربة جافة وحارة تميز الكتل الساحلية وجبال فرندة، وعلى المنحدرات المكشوفة على الجنوب. وحدها كتل الورشنيس، زكار، وجنوب غرب تلمسان نجدها مغطاة بتشجير البلوطيات الخضراء وصنوبر الألب. أما منطقة الهضاب العليا فهي سهوب واسعة، تصبح الشجرة فيها استثناء، ولا نصادفها إلا في بعض المنخفضات الأكثر رطوبة، في الداياس، حيث شجرة الفستق. وفي كل الأماكن الأخرى تغلب التشكيلات النباتية المسماة مفتوحة، تحتل فيها الحلفاء المرتبة الأولى في التربة الطينية، إضافة إلى الأرطماسية (المرارة) (L'armoise)التي تغطي بدورها التربة الطميية (الغرينية). و الشطوط هي منطقة مغلقة طبيعيا على الزراعة، فهي مجال مفتوح للرعاة الرحل. كذلك، الملاحظ في الجزائر، أنه مع الأطلس الصحراوي، وبفضل رطوبة أقوى، تظهر الشجرة من جديد[3]. فواحات الصحراء عبارة عن جزر صغيرة خضراء، نجد بها النخيل إلى جانب أشجار مثمرة وزراعات مسقية[4].

ما وجدناه بالجزائر يتكرر في تونس باختلاف فقط في أسماء المواقع. فبفضل التربة والأمطار نجد منطقة الشمال مجال الغابات مثل البلوط والفلين، أما شجرة الزيتون والمصطكي فتميز الأجزاء المنخفضة التي تحيط من ثلاثة أطراف السهول العليا للوسط. لكن في الغرب، السهوب بالحلفاء وذات نبتة المرارة (الأرطماسية) ذات التربة الغرينية تدفع السهوب برأس متقدم نحو الشمال الشرقي إلى غاية ضواحي الكاف. فالتضريسات الكلسية للحافة الشمالية والجنوبية تجعل الصنوبر الألبي يظهر ثانية، وشجر العرعر، وأحيانا حتى شجر الأرز. جنوب الظهرة هناك السهوب حيث تسيطر الحلفاء في الغرب، في حين أن الساحل مغطى بالأدغال الشائكة ذات التشكيل المفتوح. والجدير بالذكر أنه إذا أمكن ممارسة الزراعة في السهول العليا وفي سفح الظهرة بواسطة الري،

---

(1) Supra , p. p. 63, 64.

(2) René. Lespès, Op. Cit, p. 17.

(3) E. Albertini, G. Marçais, G. Yves, Op. Cit, p. 21.

(4) René. Lespès, Op. Cit, p. 17.

فإن منطقة الجنوب موجهة لانتجاع الماشية[1]. هذا الانتجاع الذي رسمت معالمه نمط حياة اعتاد الإنسان المغاربي إلى العيش في ظله منذ العصر القديم.

ثالثا: شبكة المياه في بلاد المغرب القديم

1/- التساقط في بلاد المغرب القديم وعلاقته بالمناخ:

منذ العصر القديم لم يلاحظ تغيير كبير في مناخ بلاد المغرب إذ تتلاءم الإشارات المناخية للنصوص القديمة حول المنطقة مع ما نجده سائدا اليوم، مع تقلبات فصلية أو سنوية، إما زيادة في الأمطار أو الجفاف، فهناك سنوات جافة وأخرى ممطرة وجيدة لم يتغير فيه شيء كبير[2]. ومن بين عناصر المناخ التي لها التأثير الأكبر على ظروف عيش الانسان هو بالتأكيد مقياس المطر[3]، فالتساقط في بلاد المغرب يتميز بخاصيتين أساسيتين هما عدم الانتظام والتوزيع السيء، الموسمي والاقليمي على حد سواء. إذ لا يوجد بهذه المنطقة نقص في المياه، ولكن هناك أكثر من اللازم أو أقل من اللازم[4]، وهذا راجع إلى التنوع –المتناقض أحيانا– لإفريقيا الشمالية، فهناك علاقات أساسية تتواجد في المعطيات المناخية من منطقة إلى أخرى فتعطي خصائص متنامية لمعالم المناخ والتساقط[5].

فدراسة خريطة التساقط في شمال إفريقيا لا يمكن أن تعطينا سوى فكرة عامة عن هذه الظاهرة، إذ يجب أن نأخذ بعين الاعتبار دراسة أنماط المعيشة والاقتصاد وعدم انتظام التساقطات من سنة إلى أخرى، ونفعيتها

---

(1) E. Albertini, G. Marçais, G. Yves, Ibid, p. 28.

(2) إدريس أبو إدريس: "أثر عنصر الماء في مغرب القرنين 17 و 18 (المناخ والتساقطات والأنهار)، البيئة في المغرب.معطيات تاريخية وآفاق تنموية: منطقة درعة نموذجا، ص 86.

(3) E. Albertini. G. Marçais, G. Yves, Op. Cit, p. 20.

(4) F. Decret, M. Fanter, Op. Cit, p. 11.

(5) J. Despois. R. Raynal, géographie de l'Afrique du Nord, p. 24.

بمعرفة توزيعها على مدار السنة. لأننا نلاحظ تباينا للتساقط أكثر تباينات درجة الحرارة، وهذا راجع إلى التمايز بين مفاهيم التل والصحراء، بين بلاد المغرب الرطبة وبلاد المغرب الجافة[1]. لأن مناخ بلاد المغرب قاري وقاسي، وأن التساقط القوي للمطر ضعيف كلما تقدمنا نحو الجنوب، باستثناء السفوح الشمالية الغربية للكتل الجبلية وبعض المناطق الساحلية[2]. فمناخ بلاد المغرب القاسي والمفرط، أي البارد جدا أو الحار جدا حسب الفصول، متميز في مجمله بفصل طويل حار يوافق الصيف أو الخريف، من جوان إلى أكتوبر، وبفصل ممطر رطب يوافق الشتاء وبداية الربيع[3].

ولعلنا نلاحظ عدم انتظام التساقط منذ القديم في نصوص بعض المؤرخين القدامى الذين تحدثوا عن فيضانات مهولة عرفتها المنطقة، وعن فترات جفاف متوالية، مثلما هي السمات التي يتميز بها مناخ شمال إفريقيا اليوم. إذ ورد عند سالوست :" نزل المطر من السماء فجأة"، حيث حدث ذلك عند حصار الجيش الروماني بقيادة "ميتيلوس" لمدينة "تالة" بتونس. فكلمة" فجأة" تعني أن الأمطار لم تكن منتظمة، وهي إحدى خصائص المناخ المتوسطي. كما أشار صاحب الحروب الافريقية (Bellum Africum) (قيصر)، إلى "أن المطر والبرد نزلا بعنف شديد مما أدى إلى اقتلاع الخيام"، حيث حدث ذلك في "سوسة" سنة 46ق.م. ويمكننا الاستفادة أيضا في هذا الصدد مما أورده "تارتيليان" (Tertulien) :" أن فيضانات مهولة وقعت سنة 211م. وبالمقابل فإنه في حالة سقوط الأمطار، فإن البلاد كانت تتعرض حسب النصوص التاريخية للجفاف والمجاعة مثلما عبر عنه "أرنوب" (Arnobe) قائلا: " عرفت موريطانيا الطنجية الجفاف في أواخر القرن الثالث ميلادي، بينما حقق ليكان كل موريطانيا القيصرية ونوميديا محصولا هاما"[4]. كما تركت النصوص كذلك إشارات أخرى حول الجفاف الذي كان يجتاح أحيانا بلاد المغرب القديم، فعند قدوم الامبراطور "هادريان" (Hadrien)إلى إفريقيا سنة 128م لم يكن حينها قد نزل المطر منذ خمس سنوات، وعندما بدأت تمطر خلال فترة إقامته. فنسب السكان هذا الاحسان والنعمة من السماء إلى عظمته. وهناك إشارة أخرى نجدها في حوالي منتصف القرن الثالث للميلاد، حينما شكى « Saint-Cyprien » أسقف قرطاج من أنه لم تسقط كمية كافية من الماء لتتغذى البذور. وكذلك في القرن الخامس ميلادي، حسب "فيكتور دي فيتا" (Victor de Vita) ، كان هناك جفاف طال أمده، نقصت الحبوب، ومجاعة رهيبة تبعته، ومات سكان إفريقيا بأعداد كبيرة[5]. فمناخ شمال إفريقيا –مثلما قلنا سابقا- لم يتغير تقريبا منذ القديم، وكذلك التساقط. دعونا نلقي نظرة عن العوامل المتحكمة فيه بالشمال الافريقي، ومن ثمة معرفة كمياته وتوزيعه لفهم آثاره على النبات والمياه.

---

(1) M. Rachet, Op. Cit, p. p. 15, 16.

(2) A. Esslimani, Op. Cit, p. p. 3, 4.

(3) Alfred. Bel, Op. Cit, p. 58.

(4) علي، واحدي: المرجع السابق، ص 127. 128.

(5) E. Cat, Op. Cit, p.,47.

1-1/العوامل المتحكمة في التساقط:

إن التساقط بشمال إفريقيا متوقف على ثلاث مؤثرات هامة تعكسها تيارات البحر المتوسط الشرقي والغربي، وتيارات المحيط الأطلسي، الصحراء، ونضيف تأثير الارتفاع[1]. إذ تتفاوت كميات الأمطار النازلة من مكان إلى آخر حسب الموقع الجغرافي بالنسبة لخطوط العرض أو القرب والبعد عن المحيط أو البحر، أو للموقع بالنسبة للجبال إذا ما كانت في مواجهة الرياح والسحب الممطرة، أو الرياح القارية الداخلية الساخنة. أما في أقصى الجنوب والشرق حيث الصحراء، فتمثل نسبة التساقط، إذ يسود تلك المناطق عادة صيف طويل حار، بينما يكون التفاوت واضحا في درجات الحرارة بين الليل والنهار لاسيما في فصل الشتاء[2].

فإذا كانت تضاريس المغرب الأقصى تشبه مسرح مدرج يسمح للمؤثرات الأطلسية بالتوغل داخل البلاد، فإن وضعية التضاريس بالجزائر أو تونس، تمكن رقعة ساحلية ضيقة من التمتع بكمية كافية من المطر[3]. فالساحل والسهول المحاذية له تتمتع بتساقط أحسن، بفضل الرياح البحرية من الشرق، كما أن الرطوبة الجوية ثابتة بها طوال السنة بفضل جوارها للبحر، فالتكاثفات الخفية والندى يجعلان التربة تحافظ على نداوة وبرودة لوقت أطول[4]. وإذا كانت التيارات الجوية الوحيدة القادرة على تحقيق تساقط جيد للأمطار في بلاد المغرب هي تلك التي تنتشر على مساحات واسعة من الماء، كالمحيط الأطلسي أو البحر المتوسط، والتي تؤدي بالهواء إلى نقطة التشبع، فإن الرياح الشمال غربية، والغربية ، وللجنوب الغربي هي التي تحقق بشكل جيد هذه الشروط. فبلاد المغرب تقدم في مجملها سدا واسعا تضربه التيارات الجوية، تكون أجزاء هذا السد المرتفعة أولى الأماكن التي تعترض مباشرة الرياح الرطبة وبالتالي عي التي تتلقى التساقط الأكثر غزارة[5]. فالرياح فالرياح تعتبر عاملا مهما في التساقط لأنها تنقل مع التيارات الجوية اللازمة للتساقط، مثلما تسيطر رياح الشمال الغربي على تونس الشمالية، حيث تمر هذه الرياح فوق البحر المتوسط وتتحمل برطوبة كافية تجعل الأمطار وفيرة بها[6]، كما أن نسيم البحر يخفف من حدة رياح السيروكو الجافة التي تجتاحها[7]. ولأن الأمطار الأمطار تقاد إلى شمال إفريقيا بواسطة رياح الجنوب الغربي والغرب والشمال الغربي —كما ذكرنا-، فإن هذه الأخيرة بعد أن تمر على مساحات بحرية واسعة، تأتي محملة ببخار الماء، فإننا نجد التساقطات الأوفر بالجزائر، والأكثر تكرارا وامتدادا استوجبتها رياح الشمال الغربي.

---

(1) E. Albertini, G. Marçais, G. Yves, Op. Cit, p. 28.

(2) محمد التازي، سعود: المرجع السابق، ص 15.

(3) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص ص 17، 22.

(4) E. Albertini, G. Maçais, G. Yves, Op. Cit, p. 28.

(5) A. Bernard, Afrique septentrionale et occidentale, p. 44.

(6) J. Toutain, Op. Cit, p. 43.

(7) A. Esslimani, Op. Cit, p. 5.

وعموما فإن السواحل الغربية والشمالية للمغرب الأقصى، وكذا سواحل الجزائر، والساحل الشمالي لتونس هي أولى المناطق التي تلقى الرياح الآتية من الغرب أو من الشمال الغربي، والتي تمر على المحيط الأطلسي أو البحر. لذلك فإن الأمطار تكون بها أكثر من أي مكان آخر، ولكنها تتفاوت من ساحل إلى آخر. فمقابل المغرب الأقصى ووهران نجد البحر المتوسط أضيق بكثير من واجهة الجزائر العاصمة وقسنطينة وتونس، مما يجعل مجال التبخر بها أقل اتساعا. لكن هذه المساوئ تعوضها في شمال غرب المغرب الأقصى رياح قادمة من المحيط الأطلسي. هذا عن رياح الغرب، أما رياح الجنوب الغربي التي تصل إلى غاية وهران فنجدها قد جردت من الجزء الأكبر من رطوبتها على الأطلس المغربي. ومن جهة أخرى نجد الرياح المطرية للشمال الغربي تصل إلى الساحل الافريقي بعد أن تكون قد تخلصت تقريبا من بخار مائها في الجبال المرتفعة لجنوب اسبانيا، وبدون أن تكون قد تمكنت من تعويضها بشكل كافي خلال عبورها من البحر المتوسط، لكنها رغم هذا تتحمل -هذه الرياح الشمال غربية- بالرطوبة فوق سطح البحر الداخلي عند مصب نهر الشلف، وتتسع شيئا فشيئا حتى تبلغ جبهة الساحل باتجاه عمودي، مما ينتج عنه ارتفاع لنسبة الأمطار خاصة في سفح المرتفعات الجبلية بالقبائل الصغرى والكبرى(1).

إضافة إلى الرياح، هناك عامل آخر يتحكم في كمية التساقط ويجعلها تختلف من منطقة إلى أخرى، وهو عامل الارتفاع. فالمناطق التي تتلقى تساقطا أكثر هي الارتفاعات التي تضربها الرياح الرطبة القادمة من المحيط الأطلسي أو البحر المتوسط. فهي إذن جبال الريف بالمغرب الأقصى، الأطلس الأعلى الغربي، الأطلس المتوسط، وكذلك الأطلس التلي من الجزائر إلى بنزرت(2). فسواء بجوار البحر أو داخل الأراضي يجب أن نأخذ بعين الاعتبار الارتفاعات لتفسير اختلاف التساقط، فالجبال تسبب نزول لأمطار لأن التيارات القادمة تصطدم بها، و يتم تبريدها عن طريق حركة التصاعد التي تخضع لها بواسطة تلاقي درجة حرارة أكثر انخفاضا من درجة حرارتها هي، وهذا ما يؤدي إلى تكثف البخار الذي تحتويه، وبالتالي يحدث تساقط للمطر، أو حتى الثلوج إذا كان الهواء تحت الصفر، فكلما كان الجبل عاليا كلما كان الحاجز الذي تمنحه للرياح الرطبة قاسيا، وكلما كان التساقط وفيرا(3).

لكن بالمقابل هذه الارتفاعات، كالأطلس الأعلى والمتوسط تشكل شاشات تحبس السحب المحملة بالرطوبة. فوراء هذه الجبال الحياة —الزراعية خاصة- ليست ممكنة سوى على طول الأنهار التي تنبع منها، حيث يمكن للمياه أن تسقي الزراعات(4). فحينما نلاحظ مثلا الخط الرابط من وجدة إلى قسنطينة والموافق للحافة الشمالية للهضاب العليا جنوب وهران، وجنوب الجزائر العاصمة، فإننا نجد شمال هذا الخط يسمح

(1) S. Gsell, «Le climat de l'Afrique du Nord dans l'antiquité », p. p. 347. 352.

(2) M. Rachet, Op. Cit, p. 15.

(3) S. Gsell, Ibid, p. 353.

(4) S. Gsell, H. A. A. N, T. 1, p. 4.

التساقط به بالزراعات المتوسطية، في حوالي ثلث مساحة البلاد، لكنها موزعة بطريقة غير متساوية بسبب التضاريس، باستثناء تونس التي تستفيد من التيارات التي تنقلها رياح الشرق[1]. فسهول سطيف مثلا، الأمطار بها غير منتظمة تماما بسبب الستار الذي تشكله جبال القبائل الصغرى (البابور) في وجهها، مما يجعل المناخ يعكس تغيرات حرارية كبيرة[2].

فمناخ بلاد المغرب غير منتظم بسبب وقوعه في منطقة انتقال بين المنطقة المعتدلة والمناطق الاستوائية، وكذلك بسبب الارتفاع. في معظم الحالات نجد بأن السحب القادمة من المحيط الأطلسي تصطدم عند اقترابها من السواحل بالتأثير المعتدل للبحر الذي كسرته هذه التضاريس. وكمثال على ذلك نجد مدينة الشلف الواقعة على بضع كيلومترات فقط من البحر، لكنها منفصلة بواسطة السلسلة الساحلية للظهرة التي لا تتجاوز 1000م ارتفاعا، لكن هذا يكفي لينقطع عن سهل الشلف التأثير البحري ويصبح مناخه قاريا[3]. فالجبال هي إذن شاشات حقيقية توقف المطر بطريقة كاملة تقريبا على حساب المناطق التي تمتد خلفها، خاصة إذا كانت هذه المناطق منخفضات عميقة، ذلك لأن التيارات التي أفرغت من جزء كبير من رطوبتها بتسلق المنحدرات، ترتفع حرارتها في حركتها النازلة، وبخار الماء الذي مازالت تحتويه لا يتكثف إلا بصعوبة كبيرة. لكن علينا ألا نضخم دور هذه المرتفعات وكأنه لا توجد معابر لتلك الرياح المحملة بالرطوبة لتلج إلى الداخل خلف تلك السلاسل. فإلى الداخل نجد نقصان الأمطار يتناسب مع المسافة التي تفصل مختلف المناطق عن البحر، حيث تأتي التيارات الرطبة إذا كان الارتفاع وهيئة التضاريس تحدد اختلافات مهمة. فالتضاريس عندما تكون معرضة بشكل مخططات متتابعة تتطابق، فإنها تمثل جبهة للرياح المحملة ببخار الماء عندما تفتح ممرات مائلة باتجاه الساحل، فتفتح بذلك لرياحها مسارات عبور نحو الداخل، ومن ثمة يمكن للأمطار أن تصل إلى أمكنة بعيدة[4]، مثلما ينفتح نهر السبو وممر تازة كقمع للرياح الرطبة وتسمح للتأثير المحيطي من أن يتوسع جدا في الداخل إلى غاية فاس ومكناس[5].

1-2/ فترات التساقط:

يبدأ التساقط في بلاد المغرب من نهاية الخريف وبداية الربيع[6]، فبعد حرارة الصيف والجفاف المطلق الذي يرافقها وما ينجم عنه من تغير النبات أو فساده، لأن المياه اللازمة له قد نفذت، تبدأ الأمطار الأولى مع نهاية الخريف أو بداية الشتاء[7]، فأمطار الخريف المتأخرة تسوي البذر[8]، كما أنه ليس استثنائيا أن تمتد

---

(1) M. Rachet, Ibid.

(2) A. Bernard, Afrique septentrionale et occidentale, p. 219.

(3) A. Esslimani, Op. Cit, p. 3, 4 ; René Lespès, Op. Cit, p. 15.

(4) S. Gsell, « Le climat de l'Afrique du Nord dans l'antiquité », p. p. 353, 354.

(5) A. Bernard, Op. Cit, p. 46.

(6) E. Albertini. G. Marçais, G. Yves, Op. cit, p. 24.

(7) F. Decret, M. Fanter, Op. Cit, p. 11.

(8) M. Rachet, Op. Cit, p. 16.

الأمطار منذ بدايتها بالخريف إلى غاية أفريل وأحيانا حتى الأيام الأولى من شهر ماي(1). لكن الشيء الخطير هو أن توقف التساقط في أفريل قد يقضي على محصول جميل مخضر بخريف وشتاء رطبين، يخفض من المراعي إلى القليل من الأعشاب(2). فالفصل الممطر يضم إذن النصف الثاني من الخريف وبداية الربيع، بين شهور أكتوبر–نوفمبر وأفريل–ماي، وهي الفترة من السنة أين تسيطر الرياح التي أشرنا اليها، وأين نجد بخار الماء الذي تحتويه فوق أراضي بلاد المغرب ذات درجات حرارة باردة، فتجبرها على التكثف. ويوجد غالبا على طول الفصل الممطر مرحلتين من التساقط وفيرتين تصلان إلى الحد الأقصى، تفصلهما مرحلة من الجفاف. وبين ماي وأكتوبر نادرا ما تسقط الأمطار وتكون ذات مدى قصير في شكل عواصف(3).

يوجد في التل الجزائري الحد الأقصى الوحيد للتساقط في ديسمبر–جانفي، بينما في المغرب الأقصى الغربي يوجد عموما حدين قصويين له، أحدهما في البداية والآخر في نهاية الفصل البارد، أي في نوفمبر ومارس، حيث نلاحظ الارتفاع المفاجئ للتساقط في مارس بشكل كبير في المناطق الجبلية. في الداخل، وخاصة بالسهوب، نجد بأن الحصة المتناسبة لأمطار الشتاء أقل، بينما تلكم الخاصة بأمطار الربيع أكثر، وتبقى أمطار الصيف استثنائية. وإذا كانت درجة الحرارة المنخفضة في فصل الشتاء تؤدي إلى تكوين ضغط جوي أقصى، فإنه في الصيف على العكس من ذلك، تتشكل العواصف به بسهولة وتسبب بعض التكاثفات(4). أما بالنسبة للثلوج، فهي تسقط من نوفمبر إلى أفريل، وأحيانا حتى في ماي، لكن التساقطات المتكررة والوفيرة له تكون في أشهر جانفي، فيفري، وبالمقابل يمكنها أن تكون أبكر أو متأخر. إذ يمكن أن تثلج في فصل الصيف في القمم المرتفعة للأطلس المغربي نتيجة الاختلاف الكبير للضغط بين الصحراء والمحيط. كما أن الثلج يبقى محافظا على كسوته لأيام أو لأسابيع في الارتفاعات الواقعة ما بين 1000-1500م، وقد يبقى من ستة إلى تسعة أشهر (أكتوبر– جوان) في المرتفعات القصوى سواء بطبقات مستمرة أو فقط على شكل لوحات. إذ يظهر ابتداء من أكتوبر–نوفمبر على قمم الأطلس ومراكش، وفي المنطقة الجبلية جنوب مكناس وفاس، المنحدرات الشمالية ابتداء من ارتفاع 2000م تحافظ على الثلوج من ديسمبر إلى مارس، أمكا المنحدرات الجنوبية فابتداء من 3000م فقط يمكنها أن تحتفظ به. والملاحظ أن بعض الكومات الثلجية تستمر طويلا في أماكن محمية من الشمس وفي نقاط مغطاة بالحصى التي تحميها. فبعد فصول الشتاء ذات الثلوج الوفيرة، يمكن لهذه الكومات أن تبقى طيلة الصيف. في الجزائر نجد جبال جرجرة تحتفظ بمجموعتها البيضاء التي تكون في خليج الجزائر العاصمة إطار رائع من نوفمبر إلى غاية أفريل أو ماي(5).

1-3/ كمية التساقط:

(1) J. Toutain, Op. Cit, p. 43.

(2) M. Rachet, Ibid.

(3) S. Gsell, Ibid, p. p. 347, 348.

(4) A. Bernard, Afrique septentrionale et occidentale, p. 50.

(5) A. Bernard, Ibid.

بما أن المناخ لم يتغير منذ العصر القديم، فيحتمل أن كمية الأمطار التي كانت تسقط ببلاد المغرب القديم[1] كانت مثلما هي اليوم ورغم أن التساقط كافية في المناطق الساحلية وفي الجبال، فإنها تبقى غير منتظمة، وغير موزعة بشكل جيد على السنة فهي تسقط على شكل زخات قصيرة وقوية في الخريف والربيع، بينما جافة في فصل الصيف[2]. فكميات التساقط تختلف من منطقة إلى أخرى، على أنه إجمالا تبقى أراضي شمال إفريقيا تعاني من نقص المياه لأنه إذا كان المغرب الأقصى يحظى بفوائد المحيط الأطلسي-كما ذكرنا- فإنه في الجزائر وتونس لا يوجد شريط ساحلي ضيق يفلت من الجفاف. وبموازاة الساحل لا يتجاوز عمق هذا الهامش من 100 إلى 200كم وراء ذلك تسيطر السهوب من متوسطات تساقط سنوية، أحيانا أدنى من [3] 100 ملم[3]. فالأمطار تتوزع بطريقة غير متكافئة حسب المناطق، فالشريط الساحلي إلى أقل من مئات الكيلومترات من البحر تتلقى في الشمال والغرب منها أكثر مما تتلقاه الأراضي العليا لمركز رباعي بلاد المغرب، وهذه الأخيرة تعد أكثر حظا بدورها من تخوم الصحراء التي لا تتلقى غالبا خلال سنوات عديدة متتالية أي تساقط[4]. فتقابل التل والصحراء ببلاد المغرب عموما يفصل المناطق التي تتلقى خلال السنة الزراعية من أكتوبر إلى ماي أكثر من 300 إلى 350 ملم من التساقطات وتحمل تربة زراعية، عن تلك التي لا تتلقى ولا تحمل شيئا[5]. حتى أن مجمل التساقطات تتركز في عدد منخفض من الأيام والساعات خلال السنة. ففي ففي كل مكان يمكن أن كتل من الماء معادلة لأكثر من عشرات الميليمترات تسقط في بعض الدقائق فقط، بعد سلسلة طويلة من أيام الجفاف. ففي "وجدة" مثلا بسهول الشمال الشرقي المغربي تتساقط 50ملم في 24 ساعة هو حدث مألوف بالمنطقة ، في حين أن الاجمال السنوي يصل بالكاد 350 ملم في المتوسط وكما أنه في الريف وبلاد القبائل تستقبل من 1000 إلى 2000ملم في بعض الأسابيع فقط، ما يشكل مجموع عشرات فقط من تساقطات غزيرة تتذبذب مدتها حسب الحالة، من بضع ساعات إلى 3 أو 4 أيام[6]. فحتى في الفصل الممطر نجد الأمطار غير منتظمة تماما، فمن غياب كلي لها خلال أسابيع نجد أمطار طوفانيه خلال بضع أيام[7]. ويمكننا إجمالا تمييز خمس مناطق للتساقط بشمال إفريقيا: منطقة ممطرة جدا تتلقى تتلقى سنويا أكثر من 800ملم، منطقة ممطرة تتلقى من 600-800ملم، منطقة قليلة التساقط من 400-600ملم ثم منطقة قليلة تتلقى من 200 إلى 400ملم، وأخيرا منطقة جافة مع أقل من 200ملم. وإن

([1]) محمد التازي، سعود: المرجع السابق، ص 15.

([2]) ألبير، عياش: المرجع السابق، ص 20.

([3]) F. Decret, Op. Cit, p. 11.

([4]) Alfred. Bel, Op. Cit, p. 58.

([5]) Y. Lacost, A. Noishi, Op. Cit, p. 20.

([6]) J. Despois, R. Raynal, Op. Cit, p. p. 24, 25.

([7]) Alfred. Bel, Ibid, p. 59.

الخط الموافق لـ 400ملم للتساقط مهم جدا لأنه يوافق حدود التل والسهوب ببلاد المغرب ككل، أما منحنى 200ملم فيسيطر على المناطق الصحراوية[1].

الأمطار إذن تتناقص كلما ابتعدنا عن البحر المتوسط أو المحيط، مع ارتفاع مفاجئ على الكتل الجبلية وتناقص في السهول المحمية من الرياح الرطبة والتأثيرات البحرية. حتى أنه في السفح المكشوف للرياح الرطبة يحدث تباينا مع السفح الذي يحميه، فبعد صعود السفوح الشمالية والغربية أين تحدث التكاثفات الأقوى، فإننا نلاحظ تناقصا شديدا في المكان نفسه مع السفوح الجنوبية والشرقية. كما أننا نلاحظ كذلك أنه بين شرق الجزائر وغربها -مثلا-، التناقص ليس بنفس الترتيب ولا بنفس الطبيعة مثلما هو التناقص بين المغرب الأقصى الشرقي والمغرب الأقصى الغربي، فالأمطار لا تنقسم أبدا إلى حصتين، إحداهما على حافة البحر والأخرى على جهة الكتل الجبلية، وهو حال المغرب. لكنها تتساقط على شريحة واحدة وهي حافة البحر المتوسط بالنسبة للجزائر[2]. فكميات المطر المتنوعة جدا يمكن ملاحظتها مثلا في "عين دراهم" بـ كروميري بمتوسط سنوي يقدر بـ 1641ملم^3، سكيكدة بـ 766ملم^3، قسنطينة بـ 632 ملم^3، باتنة بـ 399ملم^3، تبسة ب، 344ملم^3، وبسكرة بـ 170ملم^3. فعدم التساوي هذا يرجع إلى أسباب عديدة، كالقرب أو البعد من البحر، واختلافات الارتفاع، وكذلك الاختراق الأكثر أو الأقل سهولة الذي تقدمه منطقة عن أخرى بتعرضها للتيارات الهوائية المحملة ببخار الماء[3].

فإذا عدنا إلى متوسطات كل منطقة من بلاد المغرب، نجد أنه في المغرب الأقصى من النادر ألا تبلغ درجة الأمطار المتساقطة شمال الأطلس 200ملم[4]. ذلك أن تأثير مناخ المحيط الأطلسي يظهر في الفصل البارد بشدة، حتى أنه يصل من 40 إلى 50سم (أي 400 إلى 500ملم)، ويؤثر في الفصل الحار بحالة رطوبة الجو وندى يحافظ على رطوبة كبيرة لتوزيع السقي[5]. لكن مجموع الأمطار تتناقص على الساحل الأطلسي من الشمال إلى الجنوب، من طنجة إلى ماغادور، بسبب أن جزء من رياح الغرب يتناقص وأن جزء من رياح الشرق يزداد. لكن لا يجب أن نبالغ في استفادة المغرب الأقصى من المحيط الأطلسي في وفرة الأمطار، فهذه الميزة حقيقية في شمال المغرب الأقصى، حيث مناطق طنجة، العرش، وزان، لها أمطار وفيرة، لكن بالمغرب الأقصى الجنوبي يصبح التساقط شيئا فشيئا نادرا بسبب أنه إذا تقدمنا نحو الصحراء فاتجاه الرياح والمياه الباردة التي تغرق الساحل هي أقل ملاءمة لأمطار شديدة. وفي نفس الوقت نلاحظ أن اتساع المنطقة الساحلية المسقية جيدا تضيق كلما تقدمنا نحو الجنوب، حيث تبلغ حوالي 100كم في الشاوية و50 كم

---

(1) A. Bernard, Op. Cit, p. 47.

(2) A.Bernard, Op. Cit, p. p. 44, 178.

(3) S. Gsell, Op. Cit, p. 351.

(4) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 23.

(5) E. Albertini, G. Marçais, G. Yves, Op. Cit, p. 15.

فقط شرق ماغادور، وعندما نبتعد عن المحيط الأطلسي تظهر السهوب. فالمنطقة التي تتلقى أقل من 40ملم من الأمطار تنتشر بشكل أوسع في مراكش وتمتد إلى غاية الساحل، ابتداء من الدار البيضاء[1].

أما بالجزائر، فإننا نلاحظ بأن شرقها يتلقى تساقطا أوفر مما بالغرب منها، إذ أن المنطقة الساحلية الوهرانية هي الأقل تساقطا حيث لا تسقط بوهران سوى 463ملم، لأن هذا الجزء من شمال إفريقيا يتعرض لتأثيرات صحراوية لا نجدها في مكان آخر، وكذلك بسبب أن الكتل الجبلية فيها ذات ارتفاع معتدل، ولأن رياح الغرب والشمال غربية تتجرد من جزء من رطوبتها على اسبانيا والمغرب الأقصى وليس لها اوقت لأن تتحمل ببخار الماء على ذراع ضيق من البحر. فإذا كانت تسقط في العاصمة 733ملم، فإنها تسقط في بجاية 923 ملم، وفي جيجل 1221ملم.ففي الفصل البارد نجد رياح الشمال الغربي المحملة بالرطوبة على البحر المتوسط، تصبها في الاتصال مع جبال الساحل والكتل الجبلية المتقدمة أكثر نحو الشمال هي التي تتلقى كمية أكثر من الأمطار، فقد سجل قرب "شولو" (Collo) 1798ملم. وإذا كانت الأجزاء العليا مغطاة بالثلج شتاء، فإنه من الطبيعي أن يكون خلف هذه الشاشات انخفاض مهم للتساقط. ففي قسنطينة نلاحظ أكثر من 590ملم، وفي سطيف 485ملم. هذه الكميات تنخفض في السهوب، أو عند أطراف الحضنة. ف"بريكة" لا تتلقى سوى 209 ملم، لكنها ترتفع في سفح الأوراس (القنطرة) بـ 491ملم[2]. حيث نجد الهضاب العليا في المنطقة التي تتلقى أقل من 300ملم، في جزئها المركزي الموافق لأحواض الشطوط، نسبة الأمطار تتناقص إل أقل من 200ملم، أي في الجنوب والجنوب الشرقي للشاشات التي تشكلها جبال الداخل، فتناقص الأمطار يبدو واضحا بـ 398ملم في سيدي بلعباس خلف سلسلة "تسالا"، 453ملم في سطيف خلف مرتفع البابور، 269ملم في بوسعادة عند انخفاض الحضنة الذي يحاذيه من الشمال حلقة من الجبال العالية لتصل إلى الضعف تقريبا في الأطلس الصحراوي الذي يشكل الحافة الجنوبية للسهوب لأن الكتل الجبلية تسبب ارتفاعا مفاجئا للأمطار، وهو 389ملم في البيض، و 380ملم في الجلفة[3].

وإذا كانت الأمطار ترتفع بانتظام أولا على الساحل، من وهران إلى بجاية، فإنها تتناقص من بجاية إلى تونس العاصمة، لأن الكتل الجبلية الواقعة بين البليدة وبنزرت هي المناطق الأكثر وفرة بالتساقط في شمال إفريقيا ككل، بدون استثناء للأطلس المغربي، فالرياح البحرية تضرب الارتفاعات الحادة والمتقدمة نحو الشمال. وإذا كانت كمية الأمطار أضعف في شرق بنزرت، فلأن الكتل القبائلية (الصغرى والكبرى) تلعب بالنسبة لتونس نفس دور الشاشة الذي تلعبه الكتل المغربية بالنسبة لوهران[4]. ففي تونس نجد بأن المنطقة الأكثر ارتفاعا وهي كروميري تتلقى كميات من المطر أعلى من 1م (1000ملم)، لكن خلف هذا الستار أو الشاشة

(1) A.Bernard, Ibid, p. 46.

(2) E.Albertini, G. Marçais, G. Yves, Op. Cit, p.p. 15, 20.

(3) S. Gsell, Op. Cit, p. 355.

(4) A. Bernard, Op. Cit, p. 47.

يوجد انخفاض محسوس لمعدل التساقط الذي ينقص في الدخلة إلى 500ملم، ويتذبذب في سهل باجة وماتور بين 500 و 600ملم. تونس والمورناق تتلقى أكثر من 400ملم. وأما منطقة السهول العليا في الوسط، فيجب أن تكون مسقية بشكل كافي بحكم ارتفاعها. ففي الكاف تسقط 540ملم، في مكثر 500ملم. لكن التساقطات القوية للمطر تنخفض كما لو أنه يمكننا انتظار سقوط 300 ملم جنوب الظهر[1]. فهذه التساقطات عل اختلاف توزيعها وكميتها لها تأثير قوي على النبات والمياه.

1-4/ انعكاسات التساقط:

إذا كانت الأمطار إحدى عناصر المناخ المهمة على كل الأحياء، فإن وتيرتها الغزيرة والمتكررة في شمال إفريقيا قد تحدث آثار سلبية، وهذا ما يفسر مثلا أنه في الجزائر العاصمة نلاحظ أنه خلال مدة 100 يوم من التساقط نحصل على كمية مياه أكثر من الكمية التي تحصل عليها باريس، حيث أن معدل التساقط هو 140 يوم، إذ نلاحظ أنه بدل مطر ناعم وطويل الأمد الذي يرطب التربة دون إغراقها وقلبها، فإن المياه تلج إلى الأعماق وتشكل أغطية تتدفق منها منابع وتندفع خراطيم حقيقية للمياه. هذا ونلاحظ أنه لاسيما بالأراضي الطبيعية المتعددة في شمال إفريقيا، تقطر المياه بسرعة على الترابات المائلة والأرضيات التي جعلتها الشمس صلبة تنتفخ تيارات وتلتف مع مزيد من القوة على منحدرات صلبة غالبا واختلافات المستويات الوعرة. ورغم أنها تفيد مساحات واسعة من الأراضي النباتية إلا أنها تسبب انهيارات أرضية وتحفر شقوق عميقة، وقد تسبب حتى فيضانات وخرابا كبير. والملاحظ أن الأراضي المستوية قليلة النفاذ لمياه الأمطار التي تسقط مباشرة من السماء أو تندفع من الجبال، تتحول فجأة إلى بحيرات. هذه الأخيرة تختفي بسرعة بسبب التبخر القوي الناجم عن درجة حرارة الشمس المرتفعة وبسبب عنف الرياح[2].

كذلك ما يمكن أن يؤخذ على التساقط في بلاد المغرب هو عدم الانتظام، فحتى في المناطق التي تتلقى كمية وفيرة من الأمطار، فإن هناك شك دائما في محصول مضمون خاصة بالنسبة للحبوب بسبب تناقص الأمطار المطلوبة خلال أسابيع عدة في نهاية الشتاء أو الربيع[3]. وعلى العكس من ذلك، إذا كانت غزيرة على الأراضي المزروعة في فصل الربيع، فإنها تكون مضرة بالنسبة للنبات[4]. وإلى هذا نضيف أنه انطلاقا من خط التساقط المحدد بـ 200ملم باتجاه الجنوب، فإنه في المناطق الصحراوية تصبح الزراعة مستحيلة بدون سقي[5]. ففي السهوب أدى نقصان الرطوبة وفقدانها تدريجيا إلى تحولها إلى صحراء خاصة مع الأضرار الناجمة عن قلع الأشجار. فزيادة الجفاف وتوسع المناطق الصحراوية لإفريقيا الشمالية في تطور مستمر منذ العصر القديم[6].

---

(1) E. Albertini, G. Marçais, G. Yves, Ibid, p.28.
(2) S. Gsell, Op. Cit, p. 28.
(3) Alfred. Bel, Op. Cit, p. 60.
(4) S. Gsell, Ibid, 351.
(5) A. Bernard, OP. Cit, p. 47.
(6) Jérome. Carcopino, Le Maroc antique, 11ème éd, Gallimard, 1943, p. 18.

هذا عن تأثير التساقط على التربة والنبات، لكن للتساقط انعكاس آخر على الشبكة الهيدروغرافية. فعدم انتظام الأمطار وسوء توزيعها يؤثر على منسوب ونظام مجاري المياه. حيث نجد تبعا لذلك بعض الأودية دائمة الجريان مثل السبو، أم الربيع، الملوية، الشلف، مجردة وغيرها. لأنها تتلقى كمية كافية نظرا للفيضانات العنيفة للشتاء والربيع التي تتعارض مع الجفاف المتنامي لفصل الصيف، حيث تخفف من مياهها وطميها عندما تصل إلى البحر[1].

كما أن للثلوج أهمية كبيرة في بلاد المغرب لأنها تشكل احتياطات الرطوبة للفصل الجاف وتمتد بطريقة او بأخرى إلى فصل الأمطار. ورغم أنها تذوب بسرعة بسبب رياح السيروكو، إلا أنها تغذي الوديان وقنوات الري بداية الصيف[2]، وهذا ما يساهم نوعا ما في إثراء شبكة المياه ببلاد المغرب.

2/– المياه السطحية والجوفية

شكلت البحار المحيطة بالقارة الليبية في العصر القديم خصوصا البحر الداخلي (البحر المتوسط) مجالا حيويا لسكان المنطقة وهمزة وصل مهمة بينها وبين باقي ساكنة ضفافه، ولأن أول التاريخ المدون للإغريق كانت تغلب عليه الأسطورة، فإن المعرفة الجغرافية الإغريقية بالمجال المتوسطي الشمال إفريقي تجلت في أساطير عدة جعلت سواحله ممرا أساسيا في الرحلات البحرية الأسطورية، وقد تحدثت تلك الأساطير القديمة عن السواحل المتوسطية أكثر من مثيلاتها الأطلسية، مما يبين أهميتها وقدم استغلال الانسان لها.

2–1/سواحل بلاد المغرب في العصر القديم:

اعتبرت الرحلات الإغريقية الأولى لسواحل المنطقة بمثابة المحاولات الأولى لهم للتعرف على المجال الشمال الافريقي. فقد لاحظ أحد الباحثين المهتمين بالرحلات الأسطورية القديمة أن الأماكن الوارد ذكرها في تلك الأسفار هي أماكن معروفة ارتادها الانسان وأرخ لأحداث هذه الرحلات بحوالي 1500ق.م. فمنذ ذلك التاريخ تداولت الأسطورة الإغريقية معطيات جغرافية حول السواحل المتوسطية الليبية، وبفضل هذه الروايات انتشرت تلك المعطيات في البحر المتوسط[3]. ثم أشارت النصوص الإغريقية واللاتينية فيما بعد إلى بعض المرافئ والمحطات الساحلية والخلجان التي كانت تتراءى لهم بعيدا وهم في عرض البحر أو زاروا بعضا

(1) F. Decret. M. Fanter, Op. Cit, p. 11.

(2) A. Bernard, Ibid, p. 47.

(3) خديجة، قمش: المرجع السابق، ص ص . 37، 38.

منها مثلما فعل بوسيدونيوس وسكيلاكس وبوليب والتي كشفت الدراسات الأثرية عن كثير من بقاياها وتأكد الباحثون أنها تقع على مسافات منتظمة[1].

والملاحظ في كتابات القدامى حول سواحل ليبيا هو تحدث الكثير منهم عن سواحل السرتين – الكبرى والصغرى- الخطيرة بسبب الرياح التي تجتاحها. فقد كان القدامى يخشونها ومشهورة بحطام سفنها، فأخطر خلجانها كانت معرضة لرياح الشمال التي تدفع السفن إلى الساحل، أو رياح الجنوب التي تجوب بحرية تامة الأراضي المنخفضة ومن ثمة تفاجئ الأمواج[2]. فهذا Lucain تحدث عن شدة رياح الجنوب ووصف تأثيرها على السفن قائلا: " منذ أن يدفع المجداف الأسطول بعيدا عن الميناء وهو يشق الأمواج فإن رياح الجنوب ترتفع محاطة بالغيوم وتستعرض ضد أماكن خاصة، هذه الرياح تثير البحر وتصطاده بعيدا عن رمال ليبيا، حيث أنها تصنع له ساحل جديد. ويل للسفينة التي تنزل الشراع، رغم كل جهود الحبال فإنه يجعلها تطير من خلال مقدمة السفينة ويحملها منتفخة إلى الوراء"[3]. ولعل هذا ما قصده سالوست حينما تكلم عن ساحل الجهة الشرقية من إفريقيا قائلا: "البحر بها عاصف"[4]، وسيليوس ايتاليكوس حينما قال: "والسواحل الخطيرة للسرت"[5]، وما عبر عنه بروكوب كذلك في قوله:" عنما ترتطم سفينة بالرياح العنيفة والعواصف، فإنه من المستحيل إزالته. إنه مثلما أني متيقن ما كان سببا في تسمية هذا المكان بـ السرت، لأنه يبدو بأن السفن مدفوعة بالموجات، فالسفن الكبرى لا يمكنها الرسو إلى بالساحل بسبب المزالق التي تحيط بها والتي تسبب بها غالبا حطام السفن"[6]. كما أن بومبونيوس ميلا أشار بدوره إلى خطورة ساحل سرت الكبرى بليبيا: "تبدأ من cap Borion وتمتد إلى غاية cap Phycus هذا الساحل كان مأهولا من طرف اللوتوفاج، وسواحله خطيرة أيضا"[7].

فعند الاقتراب من سواحل بلاد المغرب عموما–وليس السرتين فقط– فإن بعض التيارات الهوائية الناجمة عن الرياح تزعج البحارة، مثل أولئك الذين يتعثرون حول رأس الطيب، فالقادم من جهة المحيط الأطلسي على طول ساحل المغرب الأقصى، الجزائر وتونس، إذا كانت الرياح تشجع إبحاره من الغرب إلى الشرق بفضل الرياح الشمالية، فإن هذه الأخيرة تعطل الإبحار في الاتجاه المعاكس (أي من الشرق إلى الغرب). كما أن هناك نقطة أخرى تجعل الابحار كذلك صعبا بسواحل بلاد المغرب، وهي الهدوء الشديد الذي

---

(1) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج1، ص 25.

(2) S. Gsell, H. A. A. N, T. 1, p. 33.

(3) Lucain, IX.

(4) Salluste, Guerre de Jugurtha, XVII.

(5) Silius Italicus, Guerres puniques, II, 63.

(6) Procope, les Edifices, VI, III.

(7) Pomponius Méla, I, VII. قارن أيضا مع تاكيتوس وهو يصف إحدى الرحلات البحرية قائلا: " الربان أرادوا أن يذهبوا من "Formies" رغم العاصفة، وعندما كانوا يجهدون أنفسهم في اجتياز طنف "Misène "، فإن الرياح العنيفة لأفريقيا دفعهم إلى السواحل "Cumus" (أنظر: Tacite, Annales, XV, XLVI).

يكتنف البحر المتوسط أحيانا خلال أيام عديدة، مما يشكل حاجزا في وجه الابحار[1]. أما الملاجئ الموجودة عل طول هذا الساحل فهي قليلة، جعلت سالوست يبالغ بقوله: "بحر بدون موانئ"[2]. فالساحل لا يقدم تجزؤ عميق لتشكيل مآوي محمية بشكل جيد، لأن الجزء الأكبر من الساحل الشمالي يوازي الجبال المحاذية له، فيجعل الخلجان الممتدة نادرة.

فسواحل الجزائر مثلا تنفتح بشكل أوسع جدا في الشمال، بينما تلكم لتونس فتنفتح جهة الشمال الشرقي الذي تهب لاتجاهه رياح عنيفة. إذ لا يوجد سوى شقوق منحوتة بفعل تحديات البحر على أراضي قليلة المقاومة مما يجعل هذا الساحل معروضا على الفضاء الواسع للبحر وللرياح. كما أن خاصية هذا الساحل هو تشكله على منحدرات حادة مدفوعة بالرياح التي قد تكسره، وفي النقاط التي ينخفض بها نجد الكثبان تحاذيه. وإذا كانت السواحل الشرقية لتونس معرضة لرياح الشرق والشمال الشرقي، فإنه بالغرب وعلى طول المحيط الأطلسي تتتابع شقوق وكثبان حفرت ساحلا رتيبا مجرد تقريبا من النتوء القوية والخلجان، فتكون بذلك غير محصنة ضد رياح الغرب والشمال[3]. فشواطئ بلاد المغرب القديم اتصفت عموما بكونها صخرية خالية من الخلجان الكبيرة، كما أنها غير محمية برؤوس أو جزر تساهم في تكسير الأمواج قبل ارتطامها بالشاطئ، إذ لا توجد بتلك السواحل سوى أشباه رؤوس اهتدى اليها البحارة منذ القدم وأنشأوا بها مرافئهم[4]، فلا يجب أن نبالغ في عبارة "شاطئ غير مضياف" لأننا نجد مقابل هذا في بعض النصوص التاريخية ما يدل على وجود مرافئ آمنة للرسو، مثلما يتحدث كوريبيوس قائلا: " على سواحل بيزاكينا (Byzacène) ، البحر الذي يغرق الساحل يقدم مظاهر مختلفة، أحيانا تقدم الأمواج مساحة متحدة معه وهادئة. هنا تمتد مراسي ملائمة للسفن بأذرع مستديرة، والمياه المريرة تشكل ملاجئ هادئة. هنا لا يمكن أبدا لقوة "Notus" أن تقلب الأمواج الهادئة ولا يمكن للرياح أبدا أن تقلب السهل السائل، لكن في مكان آخر الساحل تضربه الأمواج وترتطم ضد الشاطئ، ونسيم البحر يطفو على الصخور"[5]. فرغم اعتراف كوريبوس بصعوبة الساحل الليبي في أمكنة عديدة إلا أنها تقدم بعض الأماكن الآمنة للرسو. ففي سواحل طرابلس المنخفضة والرملية، في الغالب تحاذيها بحيرات وتسقيها مياه ضحلة، نجد الملاجئ لها خلفية آمنة[6]، مثلما هو مرسى مطروح (Marsa Matru) بساحل ليبيا المحمي بشكل رائع من كل الرياح، ورغم أن مدخله صعب، فإنه لا يمكن أن يكون حتى نصف

(1) S. Gsell, Op. Cit, p. 33.

(2) Salluste, Guerre de Jugurtha, XVII.

(3) S. Gsell, Ibid, p. 34.

(4) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص23.

(5) Coripp, Johannide, chant I, VII, Revue tunisienne, Tunis, 1900.

(6) S. Gsell, Op. Cit, p. 34.

ملجأ جيد مثلما كان في القديم " Paraetonium" الميناء الذي هو اليوم بحيرة ساحلية عميقة مباشرة غرب الميناء الحديث(1).

يضاف إلى الرياح ونقص الملاجئ الآمنة بساحل بلاد المغرب القديم ظاهرة المد والجزر القوية والتي كانت تخترق الساحل الليبي، خاصة في السرتين الصغرى والكبرى، أين يرتفع المد إلى غاية ثلاثة أمتار، ويزيد الجزر من مخاطر جنوح السفينة(2)، إذ نجد أن الكتاب القدامى قد تكلموا عن هذه الظاهرة أمثال بروكوب الذي يصفها بدقة قائلا: " هذه البلاد التي احداها تسمى "Tacane" والأخرى "Gigéri"، في الوسط لدينا سرت الصغرى أين يحصل كل يوم شيء رائع للغاية ومماثل لما يحدث في سرت الكبرى. البحر يتوزع بها على امتداد أكبر من الأرض بحيث أن شخصا لا يمكنه أن، يعبره في يوم واحد. ثم ينسحب في المساء ويترك الساحل جاف، عندما يكون البحارة في هذا المكان الذي غمره البحر ويرون بأن الليل يقترب، اليك ما يفعلون: منذ أن يشعروا بأن البحر يتراجع فإنهم يأخذون دعامات في أيديهم ويقفزون إلى الماء، أولا يسبحون ثم يقفون باستقامة عند المشي، بعد هذا يضعون مقدمة الدعامات في الأرض، إما قد أصبحت جافة أو أنها بدأت في ذلك ثم يدعمون قواربهم على كلا الجانبين على الطرف الآخر خوفا من أن تكسر ضد الأرض. و في الغد منذ الفجر تعود الأمواج، ترتفع القوارب، يقفز البحارة داخلها، وهذا التغير في العناصر يحدث كل يوم ولا غنى عنه"(3).

ويحدثنا صولينوس عن خطورة هذه الظاهرة كذلك بقوله: " بين السرتين مد وجزر يجعلها غير قابلة للاختراق، إنه يصعب تفسير المد والجزر في هذا البحر الذي بحركات غير أكيدة، أحيانا يرتفع ويغطي الصخور، وأحيانا يطغى بعنف. Varron قال بأن الرياح عندما تصطدم بالساحل، فإن تأثيرها الشديد هو الذي يجبر البحر على الخروج من سريره أو إلى الدخول اليه"(4). وهذا ما فسره "Lucain" ولو بطابع أسطوري(*).

ورغم كل هذا، فإن البحارة القدامى الذين ولو لفترة طويلة كانوا يخافون من الابتعاد عن السواحل وتجنب السفر بالليل، قد كانوا بحاجة إلى موانئ عديدة. فالملاحة الساحلية البدائية اقتضت أن يقوم البحارة

(1) O. Bates, The Eastern libyans, published by Frank Cass and company Limited, London, 1970, p. 7.

(2) S. Gsell, Op. Cit, p. 34.

(3) Procope, Edifices, VI, IV, libraire de Firmin Didot frères, Paris, 1856.

(4) Solin ; XXVIII.

(*)" عندما أعطت الطبيعة إلى العالم شكله الأول، تركت السرتين سجالا بين البحر والموجة لأنها ليست أبدا لا تحت المياه ولا فوقها. حدود غير أكيدة، ومن الجهتين غير قابلة للاختراق، إنه بحر تتخلله الصخور، إنها أرض تتقاطع فيها تيارات بحر عميق. وقد تركت الطبيعة هذا الجزء العديم الفائدة من نفسها، ربما قديما كانت السرتين مغمورتين بالكامل، لكن الشمس السريعة التي تغذي في البحر نيرانها الملتهبة تستنزف المياه باستمرار التي هي الأقرب من المنطقة الملتهبة، والبحر لازال يتشاجر معها حول الأراضي التي تريد الشمس تجفيفها. سيأتي الوقت الذي ستكون فيه السرتين أرضا مغلقة، لأنه منذ الآن حتى العمق ليس مغطى فيها سوى بسطح خفيف من الماء، وهذا البحر الذي يجب أن يجف يوما، بدأ بالاختفاء" (أنظر: Lucain, IX).

باستراحات كثيرة، فإبحارهم كان بالنهار بعد أن يقوموا بتوفير الماء. لكن فيما بعد غامرت السفن بسهولة في قلب البحر وفي الموانئ ظلوا في المرسى، فبقيت ملاحتهم محتشمة وخاضعة لتقلبات الرياح بحثا عن ملجأ. لذلك أقيمت موانئ خلف جزيرة أو عدة جزر قريبة من الساحل. فالميناء كان محمي برأس أو قمة على صخور صلبة تقاوم الانجراف أكثر من السدود المجاورة. فعلى الساحل الشمالي تواجد الميناء بوضعية جيدة شرق الرأس الذي يحميه من الرياح الخطيرة للغرب وللشمال الغربي[1]. ويبدو أن الفينيقيين ومن أتى بعدهم من القرطاجيين قد مارسوا الملاحة بانتظام على طول سواحل بلاد المغرب القديم، بفضل تقدم علم الملاحة لديهم[2] ورغبتهم الشديدة لمقاومة عوائق البحر في سبيل هدفهم في اكتشاف الساحل المغاربي. فرغم اتصاف تلك الشواطئ بعدم القابلية لاحتماء الملاحين بها من العواصف، فإن امتدادها المنتظم من الشرق إلى الغرب وانعدام النتوءات الصخرية قربها، أعطاها ميزة خاصة أثارت انتباه البحارة الفينيقيين، فحطوا الرحال بها وأنشأوا على خلجانها الصغيرة المتقاربة محطات استراحة وإيواء على مسافات منتظمة متوسطها مسيرة يوم واحد في البحر. أما في العهد الروماني فكانت تلك المحطات والموانئ عبارة عن منافذ للتغلغل نحو الداخل، وذلك منذ بداية الاحتلال الروماني، ثم تطورت بعد تلك المحطات فأصبحت موانئ هامة حولها مراكز عمرانية كبيرة منفتحة على البحر، كما نشطت الحركة التجارية بها، فكانت بمثابة مخازن للبضائع الصادرة والواردة نظرا للطابع الاقتصادي الذي اتسم به الرومان في بلاد المغرب القديم[3].

ومن بين إشارات القدامى حول أهم الخلجان التي أقيمت عليها المحطات والموانئ نجد ما ذكره صولينوس حول ساحل السرت وساحل تونس(*) قائلا: " في زغوان (Zeugitane) تبدأ إفريقيا مقابلة لـ سردينيا بواسطة "Cap Appollon" في صقلية. إنها تمتد على طنفين أحدهما يسمى الرأس الأبيض (Cap Blanc) والآخر الموجود في السرانييك (برقة) هو "Cap Phyconte"[4]"، وهو يتوافق مع ما ذكره بومبونيوس ميلا في قوله: " البلاد الممتدة من طنف ميتاغونيوم (Métagonium) إلى مذابح الفيليني(**)، لها

---

(1) S. Gsell, Op. Cit, p. 35.

(2) Ahmed. Esslimani, Op. Cit, p. 3.

(3) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 24- 25.

(*) " هناك اعتراض أقيم حول تحديد بحيرة تريتون القديمة وبحيرة "كلبيا" (Kelbiah) الحالية. هذا الاعتراض يتعلق بالموقع الجغرافي المقارن لبحيرة تريتون وسرت الصغرى، يمكن تلخيصه في أن سرت الصغرى كونها خليج قابس، والكتاب القدامى أقروا بتواصل خليج تريتون مع سرت الصغرى، يجب علينا أن نخلص إلى أن خليج تريتون يتواصل مع خليج قابس. ولا أي مؤرخ لم يجعل تواصل خليج تريتون مع خليج قابس. سترابون، صولن،و بروكوب الذيم أسموه سرت الصغرى لم يلمحوا إلى هذا التواصل، وهناك ثلاث مؤرخين فقط تكلموا عن الموقع الجغرافي لبحيرة تريتون بربطه بالموقع الجغرافي للسرتين، وهؤلاء الكتاب هم: سكيلاكس (Scylax) ، بومبونيوس ميلا وبلين القديم" (للمزيد أنظر: M. le docteur Rouire, « situation géographique comparé du lac triton et des Syrtes », C. R. A. I, 28ème année, N. 3, 1884, p. 394. 401.).

(4) Solin ; XXVIII.

(**)" مذابح الفيلاني (autels des Philènes) سموا هكذا من اسمي أخوين اختارهما القرطاجيون وفاء لاكتمال اتفاقية قامت بين سكان برقة (les Cyrénéens) ، والتي كان هدفها وضع حد لحرب قاسية منذ زمن برسم الحدود بين الطرفين. فقد اتفق على تثبيت المكان الذي سينطلق منه

فعلا اسم إفريقيا... نجد بها ثلاثة أطناف نسميها رأس الطيب، رأس أبولون، و cap de Mercure، حيث تشكل في فواصلها خلجان كبيرة، الأول منها يسمى خليج عنابة"[1].

ففي العهد الروماني –كما ذكرنا- تعددت الموانئ[*] التي كانت جزر صغيرة قريبة جدا من الساحل، مثل طبرقة (Tabarca) تمكنت من حماية تلك الموانئ عن طريق أعمال صغيرة. ومن جهة أخرى لوحظ أن الرؤوس الصخرية المرمية نحو الشمال الشرقي تغطي مرافئ من جهة الغرب، في وجه الرياح الأشد عنفا في الشتاء. ومن بين الجزر المهمة التي احتوت على خلجان بسواحل الشمال الشرقي والشرق، والتي تمتد أرضيتها تحت البحر ، من 200م عمقا إلى أكثر من 20 ألف ميل. وعلى اتساع خليج تونس وفي خلجان الحمامات نجد من بين تلك الجزر: كركنة وجربة الامتداد الطبيعي للقارة. فهذه البنية قد ساعدت على تكديس الرواسب الرملية التي حملتها مجاري الماء والتيارات، فخليج أوتيكا القديم قد طمر، أما مجردة فيعمل على تكوين دلتا. كما نلاحظ أيضا أنه وراء الرمال قد تشكلت بحيرات شاطئية مثل بحيرة تونس[2].

أما على ساحل الجزائر القديمة فنجد من أشهر الخلجان خليج بجاية (Saldae) الآمن نسبيا وخليج وهران المحتمي بجبل مرجاجو، حيث كانت له شهرة كبيرة لاحتوائه على ميناء استراتيجي هو المرسى الكبير الذي كان يسمى في عهد الاحتلال الروماني " Portus Divini". أما خليج مدينة الجزائر فلم تكن له شهرة تذكر على الرغم من مميزاته الأكثر ملاءمة من خليج تيبازة، إضافة إلى خليج أيول –قيصرية. هذه الأخيرة التي استمدت اسمها شهرتها من خصوبة الأراضي التي تمتد شرقيها مكونة ظهيرا حيويا لها[3].

وفي ساحل المغرب الأقصى تحدثت أقدم المصادر عن بعض الرؤوس، فعلى طول الساحل الممتد غرب قرطاجة إلى غاية المناطق الأبعد من ليبيا القارة نجد نقطتين فقط معروفتين لدر هيرودوت يمكنها أن تكون أعمدة هرقل ورأس صوليس(Soloeis) وبدون شك رأس cantin، أين يؤكد هيرودوت بأن السواحل عند هذه النقطة مائلة، إذ تتوقف فجأة بالامتداد نحو الغرب وتتجه جنوبا[4]. كما تجلى بعض الاشارات عن هذا الساحل في ما ورد في رحلة حانون (القرن الثاني ق.م). فقد عرف رأس صوليس كأنه مرتفع مغطى بالأشجار، وكذا رأس كانتون (le Cap cantin) الذي يعتبر جزء من صوليس والذي نجده اليوم منطقة جرداء، وعلى

عدائين من كل جهة في وقت محدد. تحديات رفعت حول تنفيذ هذه المعاهدة. الفيلاني قبلا بأن يدفنا حيين في المكان الذي يريدان اقامة حدودهم فيه: تفاني بطولي يستحق الذاكرة" (أنظر: .Pomponius Mela, géographie de la terre, I, VII)

(1) Pomponius. Méla, géographie de la terre, I, VII.

(*) " المتفحص للمواقع المكتشفة من هذه الموانئ والمراكز العمرانية يلاحظ أنها تقع على مصبات أنهار أو وديان وخلجان صغيرة، تمتد حولها مساحات زراعية كافية لتسد حاجيات سكانها من الغذاء، كما يدرك أنها مفتوحة على الداخل بواسطة تلك الوديان التي تمثل مسالك تؤدي بها إلى الداخل مخترقة سلسلة المرتفعات الساحلية المتصفة عموما بالعلو والانحدار الشديد" (أنظر: محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 26).

(2) E. Albertini, G. Marçais, G. Yves, Op. Cit, p. p. 25, 26.

(3) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 24.

(4) H. Basset, « La Libye d'après Hérodote », p. 296.

مقربة من رأس صوليس أشارت رحلة حانون إلى وجود امتداد بحري توجد بقربه اشجار القصب الكثيرة والعالية[1]. كما أن سترابون أعطى إشارات حول الساحل الذي يشمل أعمدة هرقل حينما قال: " فيما يخص خليج يخص أمبوريك (Emporique) بالتحديد المؤرخون صرحوا بأننا نراه ينفتح على حوافه كهف من أين يخترقه البحر بالمد والجزر العالي والذي يصل إلى مسافة 7 ستاد، وأنه في مقدمة هذا الكهف يوجد مكان منخفض ومتحد، وعليه أقمنا مذبح هرقل الذي تحترمه الأمواج ولا تجتاحه أبدا"[2].

وعلى هذا المضيق الذي ذكره سترابون يحدد لنا بلين القديم خليجا: " على الحد الأقصى للمضيق وعلى المحيط هناك طنف (رعن) كان يسمى "Ampelusia" من طرف الاغريق"[3]. وهو نفس ما أشار اليه بومبونيوس في قوله: " ساحل موريطانيا يمتد إلى غاية مولوشا" من طنف القصدير الذي يسميه الاغريق "Ampélusie" اسم مختلف عن ما أعطاه له الافريقيين، رغم أن لكليها نفس المفهوم. هذا الطنف يحتوي على كهف مخصص لـ هرقل، ومن ورائه هناك نجد "Tingi" (طنجة)، مدينة قديمة جدا من طرف"Anté" "[4]. ويذكر بومبونيوس ميلا أن هذا الرأس يشكل على المضيق الحد الأقصى للساحل الأطلسي[5].

والجدير بالذكر أن أعمدة هرقل ارتبطت بالحقل الجغرافي القديم لحوض البحر المتوسط، ويبدو واضحا حضور الأسطورة في التسمية التي حملها هذا المضيق الاستراتيجي الذي يفصل ليبيا عن أوربا. فمن المعلوم أن اسم أعمدة هرقل أخذ من أسطورة هذا البطل، لكن تضارب الروايات حول المكان الذي وضع فيه هرقل الأعمدة غرب أم شرق المضيق، عقد فهم جوانب عدة من الجغرافيا القديمة المرتبطة بضبط المواقع والقياسات، خاصة إذا استحضرنا ما لاحظه بعض الباحثين من أن هذه الأعمدة كانت إحدى المحطات البارزة في الرحلات البحرية القديمة التي تعتبر إحدى المراجع الأساسية للمعرفة الجغرافية المرتبطة بشمال إفريقيا قديما، كما أن هذا المضيق شكل مرجعا جغرافيا مهما باعتباره نقطة أساسية في الحدود الغربية للعالم القديم، ونقطة استدلال ملاحية[6].

2-2/ السواحل اليوم:

إلى تلك الاشارات القديمة، يمكننا أن نضيف وضعية سواحل بلاد المغرب الحالية بتفصيل أكثر. فساحل المغرب الأقصى الحالي المنفتح جدا على المحيط الأطلسي، منغلق على جهة البحر المتوسط، لأن سلسلة الريف الوعرة على هذا المنحدر والمرتفعة في مركزها بأكثر من 2450م تمثل حاجز حقيقي لاختراق أمواج البحر. ففي داخل الهلال الذي ترسمه هذه السلسلة إلى غاية جبل طارق، فإن نتوءها جزأ أودية عميقة

---

(1) J. Carcopino ; Op. Cit, p. 18.

(2) Strabon ; Géographie, XVII, III, 3.

(3) Pline l'Ancien, H. N, V, 2.

(4) Pomponius Méla, Géographie de la terre, I, V.

(5) Pomponius Méla, description de la terre, III, 10.

(6) خديجة، قمش: المرجع السابق، ص40- 41.

منفصلة بواسطة أعناق جبلية ضيقة يشكل سقوطها في البحر ارتفاعات صخرية داخلة ويرمي جزرا صغيرة وصخورا. فهذا الساحل غير مضياف ولا يسهل الدخول اليه، ولهذا نادرا ما نجد مخبأ ذو قيمة محدودة إلا في أقصى الطرفين[1]. فالساحل الأطلسي إذن الأقل ارتفاعا، لا يقدم شروطا جيدة للملاحة، فتموج البحر وضغط التضاريس التلية الممتدة من غرب-جنوب-غرب إلى شرق-شمال-شرق، مما يجعل الرؤوس الصغيرة والقصيرة جدا للجزر بالكاد تبرز مشكلة خلجانا نصف دائرية مفتوحة بشكل قوقعة على مصراعيها، والسطح الضيق الساحلي المحاذي لها نجده ينكسر فجأة بواسطة أعماق بحرية كبيرة، كل هذا يجعل الساحل صعب الاختراق نوعا ما[2]. وحتى نجد مخبأ طبيعيا علينا الصعود إلى غاية طنجة، حيث نجد المرسى مغطى بواسطة رأس سبارتيل[3](Cap Spartel).

وإذا كان المغرب الأقصى ينفتح بشكل واسع في الغرب على المحيط الأطلسي وتونس في الشرق على البحر المتوسط الشرقي، فإن الجزائر ليس لها واجهة بحرية سوى من الشمال على البحر المتوسط، وهذه الواجهة هي تقريبا مستمرة ومغلقة بسبب تداعيات التضريس الساحلي النصف مفتوح فقط على المنفذ الضيق للسهول المجتمعة بين هذه التلة والسلاسل الكبرى التلية، ولا تمتد فيما بينها سوى نحو الداخل[4]. فساحل الجزائر الحالي الحالي نجده مكون من الانخفاض الحاد للجبال وللمنحدرات المجزأة بواسطة انهيارات، وبدون شك مفككة إلى جداول وإلى خلجان، فتشكل بذلك القليل من الموانئ الطبيعية المحمية بما يكفي، تتمثل بالأساس في المرسى الكبير غرب وهران، أرزيو، بجاية وبونة التي كانت معزولة عن بعضها في القديم، لكن الطرق الحديثة ربطتها ببعضها. من جهة أخرى، هذه الخلجان المقطوعة إلى فصوص، وحتى عندما تضمن حمايته بواسطة رؤوس، فإن ضربات رياح الشمال الغربي المتكررة والخطيرة عليها في الشتاء. هذه الخلجان التي تكزن مفتوحة بشكل واسع على الرياح بالشمال والشمال الشرقي يمكنها أن تكون مهيبة عليها أيضا[5].

وبالساحل التونسي الحالي، نجد في المناطق الواسعة الممتدة من طبرقة إلى غاية السرت الكبرى عدة مناطق طبيعية تتقارب كلها نحو البحر. فشمال السهل الكبير الذي يغمر الطمي تجتازه المجردة نحو "Ghardimaou"، ورافد واد باجة تمتد إلى غاية البحر كتلة جبلية تتوجه حوافها المرتفعة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. فلا ينفتح على الساحل سوى سهل واحد ممتد وخصب، وهو سهل طبرقة المسقي بالواد الكبير وروافده. فمنه يتوضح أن الساحل صعب المنال، لأن المهماز (éperon) الصخري الذي يسيطر على طبرقة إلى غاية قمة الرأس الأسود (Le cap négre) تتوالى الكثبان الواسعة، حيث أن الرمال المتحركة تتوقف

---

(1) E. Albertini, G. Marçais, G. Yves, Op. Cit, p. 11.

(2) M. Rachet, Op. Cit, p. 14.

(3) E. Albertini, G. Marçais, G. Yves, Ibid, p. 14.

(4) Y. Lacost, A. Noushi, Op. Cit, p. 15.

(5) René. Lespès, Op. Cit, p. 13.

تاركة واد "بوترفاس" وواد "زوارة" يصلان إلى البحر، وبين الرأس الأسود والرأس الأبيض المجاور لبنزرت، نجد الشقوق الجافة ترفع جدارها فوق أمواج البحر كأطناف خطيرة، فلا يستدير أي خليج مضياف[1].

وعلى طول ساحل بلاد المغرب الحالي، ابتداء من شط الجريد حيث البحيرة المالحة السطحية تتوسط المسافة بين الحد الأقصى الشرقي لنظام الأطلس والجبال الصغرى لمنطقة السرت، نلاحظ بأن الساحل الليبي يملك هنا هيئة تواصل مع خليج قابس ولو لمرة واحدة. فالقناة الرابطة بين الاثنين مازالت موضحة في واد العكاريت مباشرة شرق شط الجريد. خط الساحل الليبي باستثناء المارماريك (Marmaric)، مهجور وجاف في كامل البحر المتوسط. فبعد مغادرة جزيرة جربة، الجزيرة الوحيدة الآهلة في ساحل شرقي ليبيا، فإنا نرى على طول الساحل تتابع ممل للكثبان الرملية مع باقة عرضية من النخيل على الشاطئ. وعلى الجوار المباشر لمدينة طرابلس يتعدد النبات على نمط واحد بالحدائق الغنية التي تنتصب بالقرب من البحر، لكنها سرعان ما تتخلى عن تلك الحدائق بقية الشاطئ الغربي لخليج الكبريت في سرت الكبرى بجوار "ملفع"، على هذا الساحل توجد خلجان للسفن الصغيرة مثلما في مرسى زفران، الحامة، لكن هذه الخلجان ليست كافية لكسر ثبات الساحل على نمط واحد، فعلى هذا الساحل الليبي نجد على بنغازي أحسن الموانئ الطبيعية التي بإمكانها استيعاب سفن ساحلية صغيرة وتحتوي على خلجان صغيرة مثل خليج بومبا (Bombah)، وفي تيكرا (Tukrah)، رأس الحمادة، مرسى سوزا، رأس الهلال. فهي كلها تمثل أماكن آمنة لرسو السفن، لكنها مع هذا معرضة لخطر الرياح. أما على ساحل السيرانييك فلا توجد موانئ طبيعية، ولرسو سفينة يتوجب خفض الحواف التي استعملت سابقا كحائل للأمواج، وبما أنه لم تظهر بقاياها على الخرائط، فإنه يمكن افتراض بأنه حتى المستوطنات اليونانية في هذه المنطقة قد حسنت هذه المراسي. فالساحل كان قديما مثلما هو اليوم غير مضياف[2]، ورغم صعوبة اختراق كل هذه السواحل من شرق بلاد المغرب إلى غربها بالمحيط الأطلسي، فإننا نجد أنها تنفتح بها لتسهل العبور إلى داخل البلاد.

2-3/ الأنهار:

انعكس التنوع وسوء توزيع الأمطار على المجاري المائية منذ العصر القديم، فنجد بعض الأودية دائمة الجريان[3] والبعض الآخر لا نلاحظ جريانه إلا في الفصل الممطر. ولعل الكتاب القدامى لاحظوا هذا الجريان فكان صداه في نصوصهم. فقد أشار سترابون إلى وفرة المياه ببلاد المغرب القديم مشككا في ما أورده "بوسيدونيوس" (Posidonius) من ندرتها قائلا:" إني أشك بأن بوسيدونيوس قد قال الحقيقة عندما ادعى بأن ليبيا لم تكن مسقية سوى بعدد قليل من مجاري الماء أو بمجاري بدون أهمية"[4]. فابتداء من أراضي شرق

(1) J. Toutain , Op. Cit, p. 31.

(2) O. Bates, Op. Cit, p. 3-6.

(3) محمد الهادي، حارش: التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الاسلامي، ص 15.

(4) Strabon ; Géographie, XVII, III, 10.

ليبيا (القارة) تحدثت بعض النصوص عن وفرة المياه بها، على الأقل بالشريط الساحلي، وهو ما نجده عند ديودور الصقلي: " إقليم برقة (Cyrène)... الأرض بها جيدة وتنتج كمية من الفواكه...هذه البلاد مسقية بواسطة أنهار كبرى توفر راحة قصوى للسكان إلا في الجزء الجنوبي التي هي بشكل كلي غير خصبة وتفتقر تماما للماء"[1]. وهو ما أكده هيرودوت قبله حول المنطقة التي يقع فيها نهر كينيبس: " وفي ظني أنه ليس هناك جزء من ليبيا ذو ميزة عظيمة تؤهله لأن يقارن بآسيا وأروبا عدا المنطقة التي تدعى بنفس اسم نهرها (كينيبس)... إذ أن التربة بها سوداء وتمدها الينابيع بمياه وفيرة"[2].

لإعطاء صورة أوضح عن مجاري الماء ببلاد المغرب يجب أن نأخذ بعين الاعتبار المناخ الذي كانت له تداعياته على شبكة المياه. فالسيول الشديدة للأمطار غالبا وراء جعل سرير الوديان الجافة خلال جزء كبير من السنة في جعله متدفقا، فإن بعض الأنهار كانت نتيجة مصادر دائمة تنبع من مناطق جبلية، حيث حافظ ترتيب الطبقات الجيولوجية في باطن التربة على مساحات غذاها تسلل مياه الأمطار والثلوج في الشتاء، فكانت هذه المنابع الدائمة مستخدمة طبيعيا ولقرون في سقي الأراضي[3]. فالدراسة الاقليمية للساحل والسهوب المنخفضة لتونس تؤكد بأن المناخ لم يتغير منذ حوالي 2000 إلى 2500 سنة، ذلك أن منطقة صفاقس مثلا نجد بها الآبار الرومانية التي مازالت مستخدمة وحية مما يثبت أن مستوى المياه الجوفية لم يتغير[4].

وإذا كانت على طول امتداد بلاد المغرب تسيطر الأحواض المغلقة أو الأحواض الصغيرة الساحلية الناضبة بتلك الوديان التي تقاطع المحاور الجبلية فإنه في تونس نجد مجاري مائية مهمة تتدفق بشكل موازي لتجاعيد التربة فتضمن حينها سهولة فردية للتواصل بين ضفاف البحر المتوسط الشرقي وداخل البلاد[5]، فاتجاه الوديان والاتصالات نحو الشرق هو السمة البارزة للتشكيلة الهيدروغرافية لتونس. ومن أهم الوديان نجد "واد الشرق"، الفرع الأعلى للسيبوز، هذا الأخير الذي شكل حدود نوميديا فترة الاحتلال الروماني[6]. كذلك كذلك يمكنا أن نجد واد جرابيا (Jarabia) أحد الفروع الأساسية لواد مليان[7]. وإن أهم وأشهر نهر بتونس كان ولازال المجردة الذي اعتاد المؤرخون اللاتين على تسميته "Bagradas"[8]، الذي نجده دائم الجريان، إذ يعرف فترة مياه عالية المنسوب ما بين شهري نوفمبر-أفريل تصل إلى معدل بـ 1800م^3/ ثا رغم أنه ينخفض

---

(1) Diodore de Sicile, Bibliothèque historique, III, XXV.

(2) هيرودوت: التواريخ، IV، 198، نصوص ليبية، ص 98-99.

(3) Alfred. Bel, Op. Cit, p. 59.

(4) J. Despois, La Tunisie orientale. Sahel et basse Sahara, p. 242.

(5) L. Joleaude, « Les grandes lignes directrices de l'orographie en Numidies », B. S. G. A. A. N, 1913, p. 502.

(6) A. Bernard, Op. Cit, p. 220.

(7) J. Toutain, Op. Cit, p. 33.

(8) J. Gascou, « Le nom de l'oued Medjerda dans l'antiquité romaine », Ant. Afr, T. 17, 1981, p. 15.

إلى 3 أو $4م^3$/ثا خلال فصل الصيف[1]، فمن الأودية التي تصب بهذا النهر نجد واد خالد و واد سليانة اللذان يتدفقان من الجنوب إلى الشمال ويصبان في المجردة[2].

ويبقى علينا الاشارة كذلك إلى أهم مجرى مائي غرب تونس وهو واد ملاق. حيث يعني هذا الاسم "نقطة التقاء"[3]، الذي ذكره سالوست تحت اسم واد الموثول على أنه فاصل بين مملكتي نوميديا التي تقاسمها أذربعل ويوغرطة:" يوجد في جزء من نوميديا التي أصبحت بعد التقاسم لـ أذربعل، نهر يسمى "Muthul" منبعه في الجنوب"[4]. فهو يتدفق موازيا للحدود التي تفصل تونس عن قسنطينة آخذا مصدره في جنوب حيدرة "Haidara". روافده التي تغذيه متعددة تتجه شمال –جنوب، ففي مجراه الأعلى نجد رافده الكبير "واد سرات" (Sarrath)، الذي يتميز بكونه عينة جيدة لواد سهل ذو طريق مستدام ومصبات ترابية ذات ذروة متباعدة احداها عن الأخرى بـ 25 إلى 30م[5]. وإلى جوار تونس، توجد بالجزائر أودية متعددة ذكرت منذ القديم على أساس انتمائها إلى نوميديا الممتدة من الشرق إلى الغرب. فأول مجرى مائي يقابلنا من جهة الشرق هو واد السيبوز ورافده واد الشرف[6] الذي كان معروفا في العصر القديم باسم "Rubricatus"، حيث توجد توجد عند مصبه هيبو ريجيوس (بونة) ثم يليه الواد الكبير ورافده واد الرمال(Rhummel)، أو ما كان معروفا بـ "l'Ampsaga" الذي ترتفع على حوافه مدينة سيرتا[7]، ويصب في خليج جيجلي (Djidjelli) بعد مجرى مجرى 150كم حاد ومتضرر ذو شقوق عميقة أشهرها فج قسنطينة ، حيث نلاحظ أن الصخر الذي يحمل هذه المدينة قسمته سلسلة هامة من المفاصل إلى اثنين مقدمة ممرا للمياه المتدفقة لواد الرمال، وجزء منها إلى تيار التقائه بواد بومرزوق[8]. هذا الواد الكبير أو لامبساقا قديما، نجده كذلك "L'Amsaga" بالنسبة للقدامى للقدامى كان رافد هو واد بومرزوق على عكس ما نعتقد نحن اليوم من أن واد الرمال هو الفرع الأساسي له[9]. ونحو الساحل نجد مجرى مائي مهم للجزائر عرف منذ القديم بسلسلة جرجرة، هذه الأخيرة تضم حوضين مائيين هما الصومام و" سباو"[10]، إذ تتدفق مياه جرجرة من المنحدر الشمالي لحوض إيسر (Isser) وفي الجنوب واد ساهل[11]. هذا الأخير يصب في بجاية ، لأنه بمثابة نهر وليس فقط وادي[12]. وإذا عدنا إلى

---

(1) F. Decret, M. Fanter, Op, Cit, p. 11.

(2) Ch. Tissot, Op. Cit, T. 2, p. 7.

(3) A. Berthier et Autre, Op. Cit, p. 21.

(4) Salluste, Guerre de Jugurtha, XLVIII.

(5) A. Berthier et Autres, Op. Cit, p. 22.

(6) F. Bertrandy, Op Cit, p. 16.

(7) M.Louis Lacroix, Op. Cit, p. 4.

(8) L. Joleaud, « Le canon de Constantine », B. S. G. A. A. N, 12ème année, 1907, p. 238.

(9) E. Cat, Op. Cit, p. 27.

(10) M. Daumas, M. Fabar, Op. Cit, p. 132.

(11) Bujega, « Le Djurdjura », p. 275.

(12) A.Bernard, Op. Cit, p. 209.

أقدم التسميات التي أطلقت عليه نجد لفظ "Savos" أو "Sava" التي أطلقها بطليموس. فهذا الرافد الكبير لواد الصومام هو "Sava" للقدامى، حيث نجده موضح بواسطة طريق "Antonin" بمحطة "Ad Sava" التي تقود إلى واد بوسالم وهو رافد مهم آخر للصومام لكنه بعيد جدا عن واد ساهل. ثم أبعد من ذلك بين رشقون (Rusguniae) و إيكوسيوم (Icosium) يحدد كل من بطليموس وبلين القديم تسمية "Aveus" وهو واد الحراش المذكور عند ليون الافريقي بـ le Sefsaia و Nabar الذي يكون الحميز[1].

لكن يبقى أشهر نهر بالجزائر، على غرار المجردة، هو نهر الشلف في الاقليم القديم للمازيسيل وفي ما بعد أصبح اقليم موريطانيا القيصرية، إنه "Chimilaph" الذي ذكره بطليموس، حيث يصب جنوب رأس أبولون (cap Appolon) بمستغانم وقرب قيصرية (شرشال). فالظاهر أن مياه هذا النهر وفيرة حتى أن العرب أسموا المكان الذي ينبع منه بالسبعين عينا[2]. هذا النهر بعد أن يجري من الجنوب إلى الشمال، جنوب شرشال شرشال ينعطف فجأة ويتدفق باتجاه الغرب على أكثر من 200كم[3]. فنهر الشلف ينبع بالأطلس الصحراوي ويجتاز السهول المأهولة للجزائر الوسطى ويدخل في التل عند بوخاري، لينعطف بعدها باتجاه الغرب –كما قلنا– إلى غاية البحر[4]. لأن نهر الشلف يجمع مياهه الأولى من جبال الأطلس الصحراوي والتلي معا في رافدين كبيرين، أحدهما يدعى الوادي الطويل، والآخر يدعى نهر واصل، ولا يسمى بنهر الشلف إلا بعد أن يخترق جبال الورشنيس في اتجاه سهل الشلف[5]. أما النهر الذي يتبعه إلى الغرب فيشكل انخفاضا طويلا بين مرتفع مليانة والظهرة في الشمال ومرتفع الورشنيس في الجنوب، وهو نهر "المالح" الذي كان يغطيه الطريق العسكري الروماني المقام بعد احتلال موريطانيا[6]، والمعروف أيضا بـ "واد ميلاح" الواقع في الاقليم الوهراني، كما سمي قديما بـ " flumen Salsum"[7].

هذا عن الوديان التي تصب في البحر، فهناك أودية تصب في الداخل، بالجزائر، خاصة بمنطقة السهوب، هذه الأخيرة التي تتصف بالانبساط لكونها أحواض داخلية قليلة الميل وذات صرف داخلي، مما جعلها تحتضن مجاري مائية عادية تكونت بفعل تجمع مياه السيول أثناء مواسم الأمطار، ما سمح للجغرافيين بأن يطلقوا عليها اسم هضبة الشطوط وليس معنى هذا أن جميع وديان الهضاب العليا التي تصب في داخلها، بل أن بعضها يقطع مسافات طويلة مشكلا التواءات ثعبانية بسبب ضعف الانحدار[8]. وكأمثلة عن هذه الوديان نجد بالأوراس تدفق مجاري مائية عديدة على منحدرين متقابلين: المنحدر الصحراوي جنوبا، ومنحدر

(1) E. Cat, Op. Cit, p. p. 28, 29.
(2) M. Louis Lacroix, Ibid.
(3) E. Cat, Ibid.
(4) S. Gsell, H. A. A. N, T. I, p. 9.
(5) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج1، ص 32.
(6) S. Gsell, Ibid.
(7) M. Lacroix, Op. Cit, p. 4.
(8) محمد البشير، شنيتي: نفسه.

سهل السيخ شمالا. ففي المنحدر الصحراوي هناك أربع وديان كبيرة تحفر مرتفع الأوراس وهي واد القنطرة ورافده واد عبدي، واد الأبيض، وواد العرب. فهذه الوديان تصب كلها في شط ملغيغ. ومن المنحدر الجنوبي للأوراس ينزل أيضا عدد من الوديان التي تنبع من جبل "لحمر خدو" وتصب كذلك في شط ملغيغ. والملاحظ أنه على المنحدر الشمالي تنزل الوديان من الأوراس وتختفي في سبخة "جندلي" و "قرعة الطرق"، ومن أهمها: واد المعذر الذي يمر من لامبيز إلى باتنة، واد الشمرة المار قرب تيمقاد ، وواد الحامة الذي يتلقى قرب خنشلة المنبع الساخن لـ عين الحمام. كذلك واد باغاي أو الأبيقاص (L'Abigas) مثلما سماه الرومان، والذي يسقي سهل خنشلة[1].

علاوة على ما ذكرناه عن أهم المجاري المائية بتونس والجزائر، فإن المغرب الأقصى يبقى أهم جزء من شمال إفريقيا الذي يحتوي على حصة الأسد في مجال المياه، فجل الروايات الأسطورية والنصوص القديمة ارتبطت بأودية الجهة الغربية لشمال إفريقيا، وهو ما يعكس واقعا لايزال ماثلا للعيان نجد اليوم بمجرد إلقاء نظرة على شبكة المياه النهرية للمنطقة[2]. فحدود مملكة المازيسيل غربا يمثلها أشهر نهر بهذه الرقعة وهو "مالفا" "مالفا" (La Malva) أو مولوشا (Mulucha) أو (Molochath) الذي مثل فاصلا بين مملكتي نوميديا وموريطانيا. وفيما بعد أصبح الخط الفاصل بين الموريطانيتين، القيصرية والطنجية[3] مثلما ورد في عدة نصوص، نصوص، مثل سالوست القائل: "غير بعيد عن نهر مولوشا (Mulucha) الذي كان يفصل إقليم يوغرطة عن إقليم بوخوس"[4]، وسترابون في جغرافيته: " نرصد على ساحل ليبيا عدد معين من المدن ومن مجاري المياه إلى غاية نهر Molochath الذي يستخدم كحدود بين إقليم المور والمازيسيل"[5]، وهو نفس ما ورد عند بلين القديم[6] وبومبونيوس ميلا[7].

ونهر الملوية يتدفق على مدى 520كم ويصب في البحر المتوسط، لكنه وعلى غرار أنهار أخرى تصب بالمحيط الأطلسي، ينبع من جبال الأطلس. فقيام تلك الكتل الجبلية وسط المغرب الأقصى خاصة منها الأطلسين المتوسط والكبير، كان له أثر كبير على اقتصاد المنطقة وحياة الانسان، فهو بمثابة خزان للمياه تنبعث منه تلك الأنهار التي وإن كان طولها متواضعا فإنها دائمة الجريان[8]. ومن أهم تلك الأنهار التي تصب بالمحيط الأطلسي السبو (Le sebou) أو السبوبوس (Le Sububus) الذي ذكره بلينوس الكبير: " على الساحل، على بعد 50000 خطو من ليكسوس (Lixus) نجد الSubur يتدفق على طول "بنازا" (Banasa)، نهر

(1) Lt. Colonel de Lartigne, « Monographie de l'Aurès », p. p. 753, 754.

(2) خديجة، قمش: المرجع السابق، ص 41.

(3) M. Louis Lacroix, Op. Cit, p. 4.

(4) Salluste, Guerre de Jugurtha, XCII.

(5) Strabon, Géographie, XVII, 3, 6.

(6) Pline l'Ancien, H N, V, 19.

(7) Pomponius Méla, Géographie de la terre, I, V.

(8) محمد التازي، سعود: المرجع السابق، ص 15.

ملاحي رائع"[1]. هذا النهر ينبسط بتأني على تربة محفورة عن طريق فجوجه بين مستنقعات تحاذيها إلى غاية الرصيف الرملي الذي نجد مصبه مسدودا[2]. السبو ينزل من المنحدر الشمال غربي للأطلس، ويتدفق على مسافة تصل إلى 460كم ليصب في المحيط الأطلسي.

ثم نجد نهر آخر مهم ورد عند مؤرخي العصر القديم وهو واد بورقراق (Bou Regreg) الذي لم يغير فقط اسمه، بل حتى مجراه، حيث كان يسمى" سلا" في العصر القديم لأهمية المدينة "سلا" التي كانت في الجهة المقابلة لحافة سريره مثلما أكده بلينوس الكبير في قوله: " على 50000 خطوة من "Subur" نجد مدينة "sala" الواقعة على نهر من نفس الاسم[3]، وهو نهر "سلا " أو بورقراق الذي يقع جنوب السبو مثلما مثلما أوضح بلين ومصبه غير بعيد عنه بامتداد يقرر بـ 180كم[4].

كما ونجد نهر لوكوس (Le Loukos) الذي يبدو التشابه واضحا بين تسميته واسم مدينة ليكسوس(Lixus). فهذا النهر لوكوس حاذى هضبة تشميش (Tchemmich) أين استمرت جدران المدينة القديمة التي تحمل الاسم الشبيه لـ"Lixus" وأن اللوكوس (Loukkos) هو اليوم يبعد بحوالي 1كم ويجري بـ 100م جنوب هضبة رقادة (Rakada) التي كانت قديما مرتفعة كجزيرة في منتصف مصبه[5]. ونجد ذكرا لدى بلينوس الكبير[6] لهذا النهر الذي يصب في المحيط قرب العرايش في قمة المغرب الأقصى[7]. ونهر آخر ذكر عند المؤرخين القدامى ويصب في المحيط الأطلسي بعد مجرى طوله 556كم[8]، حيث يجمع مياه المنحدر المنحدر الغربي للأطلس مجتازا سهول واسعة[9]. فقد عرف عند صولينوس بـ Le Asana :" بجوار الأطلس تتدفق أنهار أخرى لا يمكن أن نهملها رغم أنه على مسافة معينة من هذا الجبل هي من مجاله: L'Asana"[10]، وبلين القديم في قوله: " على الساحل، على 150000خطوة من سلا يوجد نهر Asana، حيث أن الماء مالح لكنه ملفت للنظر بفضل مينائه"[11].

إضافة إلى هذه الأنهار الهامة، فإننا نجد بجانب المحيط الأطلسي بين الأطلسين الأعلى والمتوسط كذلك أودية أخرى منها واد سوس الذي يجري على مسافة 200كم الذي يستعمل خاصة في سقي البساتين المحيطة له. كذلكم واد زيز، وواد "غير"(Guir)، ومجاري مائية أخرى تنضم اليها، تولد على المنحدر

(1) Pline l'Ancien, H N, V, 5.
(2) J. Carcopino, Op. Cit, p. 1.
(3) Pline L'Ancien, H N, V, 5.
(4) محمد التازي، سعود: نفسه.
(5) J. Carcopino, Op. Cit, p.18.
(6) Pline l'Ancien, H N, V, 3.
(7) E. Mercier, Op. Cit, p. XIII.
(8) محمد التازي، سعود: المرجع السابق، ص 15.
(9) E. Mercier, Ibid.
(10) Solin, XXV.
(11) Pline l'Ancien, H N, V, 13.

الجنوبي للمرتفع المجاور للمحيط الأطلسي وتغذي في قلب الصحراء واحات عدة مثل واحة تافيلالت. أما أكثر إلى الغرب فنجد واد درعة الموازي لتلك الوديان والذي ينعطف بعدها فجأة نحو الغرب ويمتد أخدوده إلى غاية المحيط الأطلسي عبر الصحراء. تلك كانت أهم أنهار بلاد المغرب، ,إطلالة على سواحله وما قيل عنها في النصوص التاريخية، ويبقى علنا معرفة ما إن كانت هذه الشبكة المائية بمختلف روافده ومصباتها بالداخل أو على ساحل البحر قد سهلت الحركة على الانسان المغاربي القديم ويسرت له الانفتاح على شعوب العالم وقادته بذلك إلى إثبات كيان له.

الفصل الثاني: مقومات الوحدة الاثنية في بلاد المغرب القديم

أولا : السكان في المصادر

1-تسميات سكان بلاد المغرب القديم

2- الخارطة البشرية

3- السكان من خلال المصادر الكلاسيكية

ثانيا: أصول السكان من خلال الاثار

1-الانتروبولوجيا والسكان

2-السكان من خلال بقايا المقابر

3-السكان من خلال مخلفاتهم الاثرية

أولا: السكان في المصادر

رغم اختلاف التسميات التي أطلقت على سكان بلاد المغرب القديم في أقدم النقوش، خاصة المصرية منها، وكذا في النصوص الأدبية، الاغريقية واللاتينية، اضافة إلى تنوع الخارطة البشرية التي تمثلت في قبائل متعددة سكنت المنطقة من واحة سيوة شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، وتغير خارطتها وتسمياتها حسب الظروف السياسية التي طرأت على المنطقة، ورغم اختلاف رؤى المؤرخين حول أصل أولئك السكان بين المحلي والأجنبي، الشرقي والأوربي، إلا أن ساكنة المنطقة يمثلون أمة واحدة، هي الأمة الليبية منذ أوائل العصر القديم. وهو ما سنحاول معالجته من خلال هذا الفصل، ومعرفة مدى تجذر الانسان الذي عمر بلاد المغرب القديم.

1-تسميات سكان بلاد المغرب القديم:

تداولت المصادر تسميات عدة لساكنة بلاد المغرب القديم حسب الفترات الزمنية، فأقدم تسمية هي الليبيون، فالنوميد، ثم تسمية أفارقة وبربر، وحتى أننا نجد تسمية أمازيغ تطلق على السكان إلى وقت قريب.

الليبيون:

كان المصريون أقدم من استخدم هذه التسمية منذ الألف الثانية قبل الميلاد، حيث قصدوا بها ساكنة غرب النيل. فكل من الريبو (Rebou) أو الليبو كانوا متوضعين في الشمال، وتمثلهم قبائل عدة، حيث استمر هذا التموضع للريبو إلى غاية العصور الكلاسيكية[1]. فالمصريون كانوا لا يعنون فقط بهذه التسمية (ليبو) أقواما تعيش غربي النيل، بل إن تلك الأقوام كانت تقوم بمهاجمة أراضي المصريين من حين إلى آخر، فيقوم الفرعون بصدها مدونا انتصاراته عليها في نصوص احتفظت بها قبور أولئك الفراعنة.

والجدير بالذكر أن تسميات أخرى وردت في تلك النصوص الهيروغليفية، منها التمحو، التيهينو، المشواش[2]. فقد كانت هذه الأخيرة تطلق على أقوام تستوطن الصحراء الافريقية ممارسة ضغطا على بلاد النيل من ناحية الغرب، وخاصة الساحلية التي تسرب من خلالها عناصر المشواش وتمكنوا من الوصول إلى الحكم[3].

وإن أقدم وثيقة أثرية مصرية تخص الليبيين هي لوحة "نعرمر" التي تعود إلى الأسرة الأولى، وسميت باسم الملك الذي وحد شطري مصر القديمة حوالي سنة 3300 أو 3200 ق.م(4). كما وردت اشارات أخرى حول سكان بلاد المغرب القديم لدى المصريين خلال الألف الثانية قبل الميلاد، منها حجر "بلارمو"، ولم تتلاشى الصلة بين مصر الفراعنة واللوبيين على مر العصور، إذ تشير الوثائق الفرعونية إلى وجودهم ضمن

---

(1) G. Camps, les Berbères mémoire et identité, éd. Barzakh, l'Algérie, 2007, p. 97 ; G. Camps, monuments et rites funéraires protohistoriques, éd. S. A. P.H. O, Paris, 1962, p. 46.

(2) O. Bates, Op. Cit, p. 46.

(3) محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 68. عثمان، سعدي: الجزائر في التاريخ من العصور القديمة وحتى 1954، ط1، دار الأمة، الجزائر، 2011، ص 22.

(4) مصطفى، أعشي: أحاديث هيرودوت عن الليبيين، ص 13.

جيش رمسيس الثاني كمرتزقة (1301-1235 ق.م)، وكذا في عهد "مينفتح" (Mineptha) (1235-1224 ق.م)، زحف ملك لوبي يسمى "مريو" (أو أمرياي) إلى منطقة الدلتا على رأس جيش من قبائل المشواش. أيضا في عهد "رمسيس الثالث" (1198-1166 ق.م)، كان اللوبيون ضمن شعوب البحر التي هاجمت مصر وهددت كيانها، ولكن تمكن فرعون من صدها وكبدها شر هزيمة، وأبعد الخطر عن مملكته سنة 1190 ق.م، ورغم هذا الانتصار إلا أن قوى مصر قد أنهكت، حيث استفادت من ضعفها قبائل لوبية فرضت سلطانها على بعض المناطق المصرية، نتيجة عجز رمسيس الثالث عن ردعها، فقد ظل يهادنها. وفي القرن العاشر قبل الميلاد أسس شيشنق اللوبي الأسرة الثانية العشرون بعد غزو الدلتا وفرض سلطانه نهاية النصف الأول من القرن العاشر قبل الميلاد (950 ق.م)[1].

ويصور لنا الفن الشعبي المصري لأول مرة مجتمعا شغوفا بالمعارك مختلفا تماما عن المجتمع المصري القديم[2]، فالليبيون احتفظوا دائما بشخصيتهم المحاربة وتنظيمهم العسكري، مثلما صورت اللوحات المصرية أولئك المشواش الذين لم يتخلوا أبدا عن لباسهم ولا عن سلاحهم الخاص، إذ نعرفهم في تلك اللوحات من خلال الريشة التي يضعونها على رؤوسهم، وكذا تسريحة شعرهم المميزة[3].

فأولئك الليبو (Labou, Libou, lubou, Rebou) الذين نعرفهم تاريخيا عن طريق عدة نقوش هيروغليفية، وعن طريق الرسوم التي تغطي معالم مصر القديمة[4]، هم في نظر المصريين وحدة عرقية حضارية رغم تعدد قبائلهم وتباين أوضاعها وتقاليدها[5]. ولأن عبارة "ليبو" كانت أكثر التسميات شيوعا، فقد سمعها الاغريق واستخدموها[6]. فعلى خلاف مناطق الصحراء التي يقطنها الزنوج الذين سموا عموما بالإثيوبيين، فإن الاغريق أسموا "ليبيا" (La Libye) المناطق التي يسكنها البيض، أي التي تمتد غرب النيل وفي الشمال الغربي للسرتين[7]، فالليبيون هم القاطنون على طول سواحل القارة "ليبيا" الشمالية، من حدود مصر إلى المحيط الأطلسي[8].

([1]) محمد حسين، فنطر: " اللوبيون وحدة أم شتات قبائل وشعوب مختلفة"، Africa ، مجلة الدراسات الفينيقية البونية والآثار الليبية، ع12، المعهد الوطني للتراث، تونس، 2002، ص 46.

([2]) شارل، أندري جوليان: المرجع السابق، ص 72.

([3]) G. Maspéro, Histoire ancienne des peuples de l'Orient, 13ème éd, libraire Hachette, Paris, 1921.

([4]) G. Cauvet, « Que sont devenus les libyens des anciens ? », Rev. Afr, Vol. 79 (1ière partie), 1936, p. 387.

([5]) محمد حسين، فنطر: نفسه، ص 47.

([6]) محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 68.

([7]) L. Foucher. Amoati, Africa. L'Afrique du nord dans l'antiquité, éd. Libraire Hachette, Paris, 1961.

([8]) محمد الهادي، حارش: التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري، ص 22.

فقبل هيرودوت –الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد– واستعمل هذه التسمية وأعطاها مدلولا اقليميا وبشريا، حيث خص بلفظ "ليبيا" قارة افريقيا كلها، وبلفظ "ليبو" معظم سكان هذه القارة القاطنين في الشمال، غرب مصر[1]، عندما قال: " كل ساحل ليبيا الذي يحاذي البحر الشمالي (البحر المتوسط) منذ رأس صولويس(Soloeis) الذي يشغله الليبيون..."[2]، نجد هوميروس قبله يتكلم عن "ليبيا" التي يعتقد بعض الباحثين أنها تتعلق بإفريقيا البيضاء، تلكم التي كان يتردد البحارة الفينيقيون عليها منذ الألف الثانية قبل الميلاد. والجدير بالذكر أن شعوب ليبيا هذه التي تغنى بها الشعراء الاغريق تتكون من رعاة يمثل تدجين الغنم مصدر غذائهم الأساسي، فكلهم كانوا يعيشون على قطعانهم مهما كانت مرتبتهم الاجتماعية، من الأمير إلى الراعي.

فألفاظ ليبيا والليبيون التي نجدها بشكل متكرر في غالب الآداب الاغريقية– اللاتينية إلى نهاية العصر القديم، مثلما تحدث فرجيل عن مدن ليبيا، وعن الدب الليبي، وكما أشار اليهم أوغسطس (Auguste) بأنهم جيش لا يقهر في الحرب[3]، ومثلما ورد عند "أبيانوس" (Appien) من أن حنبعل قد حشد من بين أفراد جيشه في حملته ضد الرومان خلال الحرب البونية الثانية، كل من الليبيين والسلتيين (Celtibères)[4]. وكما ذكرهم بلينوس الكبير[5] وسالوست عندما تكلم عن سكان افريقيا الأوائل بأنهم الجيتول والليبيون[6].

وإلى جانب هذه المصادر المصرية، والاغريقية– اللاتينية، نجد النقوش البونية والبونية الجديدة قد احتفظت لنا ببعض الصيغ التي تذكر الليبيين مثل عبارة: " ل ب ي" للمفرد المذكر، وعبارة: " ل ب ت" للمفرد المؤنث، و "ل ب ي م" للجمع، وهي صيغ تتوافق وصور الاشتقاق في اللغة الكنعانية[7]. وهذه الصيغ قد عثر عليها في نقوش معبد "صلامبو" التي قدمتها على شكل: LBT و LBY [8]، وكذا في

([1]) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 68.

([2]) Hérodote, II, 32.

([3]) F. Decret. M. Fanter, L'Afrique du nord dans l'antiquité, p. 15 ; مها، عيساوي: النقوش النوميدية في بلاد المغرب القديم، ط1، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 31.

([4]) Appien, La guerre d'Hannibal, I, 4.

([5]) بلين القديم: التاريخ الطبيعي، V، 8، نصوص ليبية. ص 129.

([6]) Salluste, Guerre de Jugurtha, XVIII.

([7]) محمد البشير، شنيتي: نفسه.

([8]) F. Decret. M. Fanter , Ibid, p. 15.

معبد الحفرة بقسنطينة أين عثر على مجموعة من النصب تحتوي على مصطلح LBY [1]. كما تمكن جيمس فيفري (J. G. Février) من فك نقيشة ليبية- بونية بـ مكثر في تونس، وهي صيغ: " BSD LBYM" التي ترجمها بـ " في إقليم الليبيين". كما فكت صيغة نقيشة بونية جديدة عثر عليها في طرابلس تحمل عبارة: "RB MHNT BSD LWBYM" التي تعني "قائد الجيوش في أقاليم الليبيين"، وهي تعود للبروقنصل "Lucius Aelius Lamia"[2].

وإذا كان صاحب الاهداء قد وضح بأنه "فارس" أو "قائد جيوش" في بلاد الليبيين، فلأن هذه المنطقة لا تقع بجوار "مكثر" مباشرة، وأن ما يقصده النص بتلك العبارة هو مقاطعة متميزة في المملكة الماسيلية. إذ يرى أحد الباحثين بأن صاحب الاهداء كان مقيما في المنطقة الطرابلسية، في بلاد الأمبوريا (Emporia) التي كانت ضمن مملكة ماسينيسا، ومنه يمكن القبول، حسب كامبس، أن الادارة الملكية تكون قد أبطأت التسمية البونية للمنطقة المسترجعة من البونيين، ويمكن تطبيق التسمية على كل منطقة يستردها ماسينيسا من القرطاجيين، مثل جهة السهول الكبيرة في حوض مجردة الأوسط، ومهما يكن المدلول الصحيح لهذه التسمية، فإنه يمكن استنتاج أن قسما من رعاياه كان يحمل اداريا اسم "ليبيين". فهذه التسمية ستقتصر عند الاغريق والقرطاجيين تدريجيا على شمال شرقي بلاد المغرب القديم، سيما السكان المستقرين في الاقليم الذي تراقبه قرطاجة، وهؤلاء هم الذين سيسميهم اللاتين في وقت لاحق بـ "أفري" (Afri) وبلادهم "أفريكا" [3] (Africa). كما ذهب البعض إلى القول بأن هذا الاسم الذي أطلقه الاغريق قد تشوه مع الاحتلال الروماني والبيزنطي، وحوّلوه إلى Lebathe أو Levathes وأن المسلمين من بعدهم جعلوه بدورهم " لواتة"[4]. وهذا ما أثار فضول الباحثين في معرفة أصل اسم "ليبي". "ليبي".

إذ يشير محمد فنطر إلى أن تسلسل "ليبيون – اثيوبيون" المستشهد به في نصوص العصر القديم، سيجعلنا نفترض مصدر مشترك يكون لليهود والاغريق دور فيه، وأنه ليس بعيدا أن نفكر في مصر التي تردد عليها منذ عصر باكر كل من الاغريق واليهود، فالأساطير العبرية يمكنها أن تصعد إلى غاية عصر

([1]) محمد الهادي، حارش، التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري، ص 22.

([2]) F. Decret. M. Fanter, Op. Cit, p. 16.

([3]) غابريال، كامبس: في أصول بلاد البربر. ماسينيسا أو بدايات التاريخ، ترجمة وتحقيق محمد العربي عقون، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2010، ص ص 32، 33.

([4]) G. Cauvet, Op. Cit, p. 388.

"أبراهام"، وبالنسبة للإغريق يجب التذكير بأن الأيونيين كانت لهم اتصالات مع مصر منذ نهاية الفوضى التي خلفها اجتياح شعوب البحر، بدون أن نستثني علاقات مصر مع العالم ما قبل الهيليني. وأنه إذا كانت الإثنية "ليبو" (Libou) قد استخدمت أولا من طرف مصر الفرعونية، فإنه يجب رؤية انتشارها الواسع عند الكتاب الاغريق والآداب الكلاسيكية.

ورغم هذه الحجج لا يمكن القول بأن اثنية "ليبو" تعود إلى مصر، ذلك أن هناك فرضية أخرى حول أصولها قائمة على تفسير فلولوجي (فقه لغوي)، وهي أن الاثنية "ليبو" قد أطلقها الملاحون الايجيون- الكريتيون[1]. فحسب كامبس الذي اعتمد بدوره على فرضية "L. Deroy" فإن أولئك البحارة الايجو-كريتيين يكونون قد أطلقوا اسما جماعيا على سكان الضفة الجنوبية للمتوسط الغربي، وهو "ليبوز" (Libuse) مقابل اسم "ليفوز" (Liguses) الذي أطلقوه على سكان الضفة الشمالية (Liguses=Ligures)، وكلا الاسمين جماعيان، فهو يمثل مدلولين متقابلين في ذهن الايجيين. فكلمة "Lisues" موجودة في الاغريقية الكلاسيكية ومدلولها: وضّاء، ومن الجذر "Lious" احتفظ الاغريق خلال الفترة التاريخية باللفظ في صيغة "Lioros" بموازاة اللفظ "Ligros" المشتقة بدورها من "Ligus"، وتعني داكن أو أسود، وإذا صحت هذه المقاربة، مثلما يقول كامبس، فإن الايجيين يكونون قد صنفوا سكان السواحل المتوسطية في فئتين: البيض والسمر، أي على أساس لون البشرة. وإذا كانت هذه الفرضية تبدو مغرية، فإن وجود الاسم الاثني "ليبو" أو "ريبو" هو وجود حقيقي لا يحتاج للافتراض، لأنه كان مستعملا منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد من طرف المصريين للدلالة على شعب افريقي[2]. فتسمية "ليبو" محلية الأصل[3] وأن شعوب البحر المتوسط قد أخذتها من سكانها الأصليين ووسعت مجال استعمالها.

الأفارقة:

اعتمادا على الشواهد الكتابية التي لا تتجاوز أواخر القرن الثالث قبل الميلاد، نجد بأن الكتّاب اللاتين قد أطلقوا على سكان بلاد المغرب القديم تسمية "أفري" ثم أطلقوا هذه التسمية على مقاطعتهم التي أنشأوها على تراب قرطاجة سنة 146 ق. م. ورغم أن تسمية "أفري" كانت مرادفة للفظ "ليبو" في

(1) F. Decret. M. Fanter, Op. Cit, p. 18.

(2) غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص ص 31، 32.

(3) Dupart. Pascal, essai historique sur les races anciennes de l'Afrique septentrionale, Jules Labitte. Libraire-Editeur, Paris, 1845, p. 58.

أذهان الرومان الذين أشاعوا استخدامه مثلما أشاع الاغريق قبلهم لفظ "ليبو"، إلا أن التسمية أثارت جدلا كبيرا بين المؤرخين حول جذورها[1]. إذ رأى البعض أنه مشتق من جذر "F. R. G" التي تعبر عن فكرة تفريق المستوطنات، أو من كلمة "Frigi" أو "Pharikia" التي تعني بلاد الفواكه، بينما فكر آخرون في الكلمة اللاتينية "Apricus " و "Aprica" التي تعني المناخ الحار نسبيا. أما العرب في العصر الوسيط فقد جعلوا التسمية مأخوذة من اسم بطل أسطوري وهو "افريقش"[2].

والأرجح حسب رأي فنطر، أن اسم افريقية (أفريكا) يعود إلى مادة لوبية، "أفر" أو "يفر"، فالقاف في إفريقية وافريقي نقل صوتي للاحق لاتيني يشير إلى النسبة ويستخدم لصياغة الأعلام الجغرافية والعرقية. أدخل الرومان على مادة "أفر" لاحق النسبة "قوس" للمذكر و "قا" للمؤنث، فقالوا: أفريقوس، بمعنى أفريقة، واستخدموا صيغة "أفريقا" بمعنى الأرض الافريقية. أما عن مدلول "أفرا" و "يفر" فقيل أنها تعني المغارة، ومنها سكان المغارات[3].

ومهما كان أصله ومدلوله، فإن اللاتين الذين كانوا أول من أطلق لفظ "أفري" قد درجوا على استعماله بدل لفظ "ليبو"، وعمّموه تدريجيا حتى أصبح يعني جميع بلاد المغرب، ثم أصبح يعني القارة كلها (أفريكا) فيما بعد. غير أن هذا لا يعني أن أهل البلاد كانوا يطلقون على أنفسهم أحد الاسمين: ليبو- أفري، أو هما معا، ذلك أنهم كانوا يعرفون عند البعض بأسماء قبائلهم وعشائرهم وانتماءاتهم الاقليمية[4].

النوميد:

وردت تسمية النوميد في النصوص القديمة منذ القرن الثاني قبل الميلاد، كشعب وقوة سياسية تبسط نفوذها على منطقة واسعة، تمتد من حدود قرطاج شرقا إلى وادي مولوشا غربا. وقد أثارت هذه التسمية بدورها نقاشا كبيرا بين المؤرخين حول مدلولها، من خلال عديد المقاربات اللغوية[5]، حيث اعتبر البعض منهم هذه التسمية مشتقة من الاغريقية "Nomades"[6] الذي يعني الرحل[7]، ذلك أن أقدم النصوص

---

(1) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 68.

(2) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 24.

(3) محمد حسين، فنطر: "اللوبيون وحدة أم شتات قبائل وشعوب مختلفة"، ص ص 43، 44.

(4) محمد البشير، شنيتي: نفسه، ص 69.

(5) محمد العربي، عقون: الاقتصاد والمجتمع في الشمال الافريقي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008، ص 158.

(6) E. Mercier,« Ethnographie de l'Afrique septentrionale. Note sur l'origine du peuple berbère », Rev. AF, Vol. 15, 1871, p. 422.

(7) J. Desange, « permanence d'une structure indigène en marge de l'administration romaine : La Numidie traditionelle », Ant. Afr, T. 15, 1980, p. 79.

النصوص وأشهرها حول الليبيين هي رواية هيرودوت، ورغم أنها لا تحتوي على ما يفيد بأن مجموعة من الليبيين القدامى كانت تسمى بالنوميد، إلا أن أكثر الألفاظ شدّا للانتباه في نصوص هيرودوت، وهي كلمة "نوماد" (Nomad) التي تعني البداوة والترحل، حيث قصد بها جميع الليبيين المتهنين للرعي أي البدو، جعلت الجغرافي سترابون لا يفرق بين مدلول عبارة "نوماد" و "نوميد" معتقدا أن التسمية نمطية، فالنوميد تسموا كذلك لأنهم بدو أرغمتهم الحيوانات الضارية على ترك الزراعة وامتهان الرعي[1]. ورغم أن سترابون يعرف جيدا أن الماسيل والمازيسيل الذين يسكنون اقليم نوميديا يزرعون أراضي جيدة، مفسرا ذلك بوجود عدد معتبر من الحيوانات الضارية[2]، وقد حذا سالوست حذوه باعتبار اسم النوميد مشتقا من نوماداس (Nomadas) الاغريقية، حينما تكلم عن نزول أفراد جيش هرقل بموريزيا واختلاط الميديين والفرس بالجيتول، ثم أطلقوا على أنفسهم اسم النوميد، أي المتنقلين[3]. والحقيقة أنه لا يمكن أن يكون الاسم مشتقا من نوماداس، لأن الذين يقصدهم هذا الاسم مستقرون ويمارسون الزراعة.

وإذا كان الاحتلال الروماني قد أزال هذا الاسم من الاستعمال[*]، لأنه يدل على هوية أمة، فإن الكثير من الأشخاص ظلوا متمسكين بانتمائهم النوميدي، وهذا ما يظهر في ألقابهم التي احتفظت بها النقوش، كما بقي يطلق على قبيلة بناحية سوق أهراس، وعلى المدينة المركزية لتلك القبيلة، وهي "تبرسق النوميدية" (Tubursicu Numidarum).[4]

البربر:

من التسميات التي أطلقت على سكان بلاد المغرب القديم، نجد تسمية "بربر" الموازية تقريبا لتسميات "ليبو" و"أفري". ورغم أن أصل الكلمة قد أخذ أيضا حيزا كبيرا من النقاش بين الباحثين، إلا أنه انتقل الينا عن طريق المؤرخين العرب، لأنهم ميّزوا عند وصولهم إلى "افريقية" (تونس)، ميّزوا إلى جانب البيزنطيين أهل البلاد، وهم الذين أطلقوا عليهم تسمية "بربر"[5]، حيث ربطها البعض منهم بالجد الأول "بر"

---

(1) محمد البشير، شنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني ودورها في أحداث القرن الرابع ميلادي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص163.

(2) غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص 179.

(3) محمد البشير، شنيتي: نفسه.

(*) رغم ذلك فقد بقي على ألسنة الكتّاب اللاتين إلى القرن الرابع للميلاد، إذ نجده مثلا عند "كلوديان" (Claudien) الذي يذكر اسم النوميد في حديثه عن ثورة فيرموس" (أنظر: Claudien, sur la guerre contre Gildon, 10)

(4) محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص158، 159.

(5) G. Camps, les berbères mémoire et identité, p. 95.

(Ber) والبعض الآخر نسبها إلى إ"فريقش" الذي قال عندما سمعهم يتحدثون: " ما أكثر بربرتكم" فسموا بالبربر، أي كثرة الأصوات غير المفهومة.

وإذا كان العرب هم الذين نشروا اسم البربر على السكان الأصليين لبلاد المغرب[1]، فإن اشتقاق الاسم يرتبط بالكلمة اللاتينية "Barbarus"[2]، وهي تعني "الخارج عن الحضارة اللاتينية"[3]. لكن كامبس في بحثه عن أصل التسمية، يشير إلى أنه غير مقتنع بهذا التفسير التقليدي، لأنه خلال القرون الأولى التي تواجد بها الاحتلال الروماني في المنطقة، فإن الأفارقة غير المترومنين قد أشير اليهم باسمهم الخاص. فكل شعب (gens) كان له اسمه مصنفا من طرف الجغرافيين ومعروف جيدا عند الادارة الرومانية، فعندما يراد توظيف لفظ جماعي أو استخدام التسميات الشائعة في ذلك الوقت مثل النوميد، الجيتول أو المور، فإن استخدام هذه الأسماء لم يتوقف، بينما تسمية "بربر" توجد بشكل متقطع في الطوبونيميا أو علم الأسماء الذي يرجع أصله إلى المجال الحامي-السامي[4]. وربما يريد كامبس هنا أن يذهب مذهب بعض الباحثين في ربط تسمية "بربر" ببعض الأسماء والمواقع في الهند، أو في وادي النيل[5]، النيل[5]، مثلما فعل "E. Mercier" الذي أراد القول بأنه رغم كون اسم "بربر" غير مطبق بلفظ شامل للسكان الأصليين لشمال افريقيا، فإن مقتطفات عديدة للكتّاب القدامى تثبت بالمقابل أنه لم يكن مجهولا في البلاد[6].

فهيرودوت الذي زار مصر يقول: " المصريون يسمون "barbares" كل أولئك الذين لا يتكلمون لغتهم"[7]. اضافة إلى الوثيقة المجهولة العائدة إلى العشرين سنة أو 25 سن ق. م والمعنونة بـ "رحلة البحر الإيريتري (Erythrée) تعطي تسمية "barbarie" (Barbariké épeiros)إلى الساحل الافريقي للبحر الأحمر وخليج عدن. كما أن هونوريوس "Julius Honorius" يذكر شعب من البربر قرب نهر "مالفا" (الملوية). فالجغرافيون الاغريق كان لديهم إذن معرفة بشعب بربري يسكن جنوب (ظهري) مصر

([1]) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 26.

([2]) A.Bernard, Afrique septentrionale et occidentale, p.70 ; E. Albertini. G. Yves. G. Marçais, Op. Cit, p. 34.

([3]) Ch. Gilbert-Picard, les religions de l’Afrique antique, libraire Plon, Paris, 1954, p. 2.

([4]) G. Camps, les berbères mémoire et identitée, p. 95-96.

([5]) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 25.

([6]) E. Mercier, « Ethnographie de l’Afrique septentrionale », p. 423.

([7]) Hérodote, II, 158.

وعلى حواف النيل، وهو ما جعل "Mercier" يربطها بالقبائل التي توجد في الوقت الحاضر بنفس المكان، وتدعى "برابرة"(Brabra) التي قد يكون لها صلة بتسمية بربر شمال افريقيا[1].

ومهما اختلفت فرضيات مدلول وأصول هذه التسمية، فإن لفظ "برابرة" يكون قد اشتق من لفظ "باربار" الذي كان شائع الاستعمال لدى الرومان والبيزنطيين بعدهم ببلاد المغرب، إذ قصدوا به المجموعات البشرية الليبية الفالتة من سيطرتهم، ومنهم انتقل إلى اللغة العربية التي ورث أهلها كثيرا من المصطلحات والمفاهيم عن البيزنطيين و طوّعوها للنطق العربي[2].

الأمازيغ:

تشكل هذه التسمية انتشارا واسعا في كل أرجاء بلاد المغرب، وهي تعني الحر أو النبيل[3]. وإذا كان المؤرخون العرب أمثال ابن خلدون، ينسبونها إلى كون جد البربر هو "مازيغ"، مثلما يستنتج من تصريح الوفد البربري الذي ذهب لمبايعة الخليفة "عمر بن الخطاب" بعد فتح مصر، حيث سأل الخليفة أعضاء الوفد عن نسبهم فأجابوه بأنهم من أولاد مازيغ[4]. وإذا كان بعض الباحثين يعتقد بأن هذا اللفظ لم يرق إلى مرتبة الاستعمال في العصر القديم كاسم علم دال على الأقوام والشعوب التي استوطنت بلاد المغرب في تلك الفترة، سوى ما نسب إلى الأمير "وزمار بن صولات المغراوي" في صدر الاسلام من أنه قال أن قومه يدعون "أمازيغ"، فإنه لا يعثر على ما يدل على أن هذا اللفظ قد استعمل من طرف القوم المعنين به أنفسهم، ومن ثم فغياب هذه التسمية "أمازيغ" من الاستعمال في الفترة القديمة يعني أنها لم تكن موجودة، أو أنها لم تكن ذات شأن، مما يدعو إلى القول بأن التسمي بالأمازيغ من طرف الأمير "وزمار" كان ربما من باب إطراء الذات والافتخار أمام العرب المسلمين[5].

إذا كان هذا رأي البعض، فإن كامبس يعتبر لفظ "أمازيغ" التسمية الحقيقية للبربر بدليل اتساع مجال استخدامها وتطبيقها على الطوبونيميا، لأنها تتوافق والجذر MZK أو MZG التي توجد في أسماء Mazices خلال فترة الاحتلال الروماني، وكذا Mascyes عند هيرودوت[6]، والمازيس (Mazyes) عند

([1]) E. Mercier, Op. Cit, p. 423.

([2]) محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 69.

([3]) M . Rachet, Op. Cit, p. 18.

([4]) عبد الله، استيتينو: التاريخ الاجتماعي والسياسي لقبائل آيت عطا (لله) الصحراء إلى نهاية القرن الـ 19، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2011، ص 15.

([5]) محمد البشير، شنيتي: نفسه، ص 70.

([6]) هيرودوت: التواريخ، IV، 191، نصوص ليبية، ص 89.

هيكاتايوس، والمشواش (Meshwesh) في النقوش المصرية، كذلك عبارة الايموشاغ Imushagh أو Imouchar غرب فزان، واضافة إلى Imagighen في الآيير (L'Air)و Imzighen بالأوراس والريف والأطلس الأعلى، كلها تحافظ على هذه التسمية ومدلولها وان اختلف نطقها. ولأن التماشاق (Tamasek) أو (Tamachek) في لغة التوارق الذين يسمون أنفسهم بـ الايموهاغ Imuhagh.

واضافة إلى هذا، يشير كامبس إلى ألفاظ مازيك أو مازيكا (Mazic ou Mazica) التي عرفتها النقوش الجنائزية.كما أن تطبيق لفظ مازيس (Mazices)من طرف الكتّاب القدامى على شعوب متباينة في نمط المعيشة، فبعضها رحل والبعض الآخر جبليون مستقرون على فترات مختلفة، وفي مناطق بعيدة جدا احداها عن الأخرى، يبين أن هذه التسمية أصلها محلي ولها قبول واستخدام في كل أرجاء بلاد المغرب[1].

([1]) G. Camps, Op. Cit, p. 98.

2–الخارطة البشرية لبلاد المغرب القديم

طرأت على بيئة بلاد المغرب القديم أشكال من التغير، منها ظاهرة التصحر التي تسارعت وتيرتها في الفترة السابقة للعصور التاريخية، مما أدى إلى نزوحات بشرية متعاقبة، اتخذت مسارات مختلفة انطلاقا من الصحراء الكبرى التي حفلت بازدهار كبير للحياة فيها خلال النيوليتي، حيث كانت وجهة النازحين نحو الأقاليم المتوفرة على الكلأ والماء والتربة الخصبة، باعتبارهم رعاة أو مزارعين. فتزاحم بذلك البشر القادمون من مناطق مختلفة على الأنهار في جنوب الصحراء (نهرا النيجر والسينغال)،واتجه بعضهم إلى ضفاف النيل، واستقر الكثير منهم حول الواحات المنتشرة في منخفضات الصحراء وبالقرب من منابع المياه، إلى جانب اجتياز البعض منهم للصحراء باتجاه التل شمالا، فاستوطنوا بذلك سفوح الجبال وانتشروا عبر الهضاب العليا[1]. وبذلك برزت الخريطة البشرية لسكان بلاد المغرب القديم منذ أوائل العصر القديم، وهو ما وجدته أولى الشعوب التي احتكت بالمنطقة، كالإغريق والفينيقيين ودونت أقلام كتّابها أهم المجموعات البشرية التي اتصلت بها أو سمعت عنها، مثلما فعل هيرودوت

أ–قبائل القرن الخامس قبل الميلاد:

أورد هيرودوت في تاريخه عددا كبيرا لأسماء المجموعات القبلية في ليبيا القارة –كما أسماها– مشيرا إلى بعض التفاصيل حول عاداتها ومعتقداتها، وكذا عن نظمها الاجتماعية[2]. وفي شرحه لهذه المظاهر القبلية نجد مؤشرات توحي بوحدة اثنية بين سكان شمال افريقيا. فنجده في أحاديثه يطلق كلمة الليبيين على كل المجموعات البشرية التي تخص المنطقة الممتدة من مصر شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، وهذا المصطلح ليس من باب الصدفة، بل هو اثنونيم يشف عن أواصر القربى التي تربط بينهم. فهم أمة واحدة تتجلى وحدتهم العرقية الحضارية بشكل واضح عندما يناظرهم هيرودوت بشعوب أخرى هاجرت إلى بلاد المغرب القديم، وأسسوا مستوطنات فيها، كالفينيقيين والاغريق[3].

والبارز في شرح هيرودوت لتلك المجموعات أنه قسمها حسب نمط معيشتها إلى بدو رعاة، منتشرين من غربي النيل إلى رأس تريتون وشط الجريد بتونس، ومستقرون مزارعون غرب بحيرة تريتون. فمن المجموعة الأولى المعتادة على الرعي والبداوة نجد من الشرق إلى الغرب ذكرا للقبائل التالية:

الأدروماخيداي (Adyrmachidae): يذكر هيرودوت أن موطن هذه القبيلة هو الأقرب إلى مصر، فقد اقتبست هذه القبيلة معظم عاداتها من المصريين، غير أن ملبسها يماثل لباس القبائل الليبية الأخرى. والجدير بالذكر أن موطن الأدروماخيداي يمتد من مصر إلى المرفأ المسمى "بلونوس"[4].

([1]) محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 41.

([2]) محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص 177.

([3]) مصطفى، أعشي: أحاديث هيرودوت عن الليبيين، ص 23.

([4]) هيرودوت، IV، 168، نصوص ليبية، ص 63.

الجيليغام(Giligamae): تلي قبيلة الأديرماخيد، تسكن هذه القبيلة البلاد التي تتجه نحو الغرب إلى غاية جزيرة "أفروديسياس" (Aphrodisias)، وتماثل بقية القبائل في عاداتها[1].

الأسبست(Asbystae): تقطن إلى الداخل وراء قورينا، ولا يصل موطنها لساحل البحر، لأن الساحل جزء من إقليم قورينا. يستخدم الأسبست العربات ذات أربع جياد أكثر من أي قبيلة أخرى، وقد دأبوا على تقليد أغلب عادات القورينيين[2].

الأوخيس (Aushisae): تقطن هذه القبيلة إلى الداخل وراء برقة، ويلامس موطنها ساحل البحر عند "يوسبريدس"[3] (Euhesperides). (بنغازي حاليا)

النسامونس(Nasamouns): يذكر هيرودوت بأن اقليمهم زاخر بالسكان وأنهم في فصل الصيف يتركون قطعانهم بجانب البحر ويذهبون إلى منطقة في الداخل تدعى "أوجلة" ليجمعوا التمور من أشجار النخيل التي تنموا هناك[4]. ويبدوا أن النسامون كانوا يشغلون منطقة السرت الكبرى والمناطق الجافة التي تحيط بها، سيما السواحل الشرقية والجنوبية منها[5].

البسول (Psylles): يذكر هيرودوت بأن موطنهم يقع على حدود موطن النسامون، وأنهم اندثروا بفعل الرياح الجنوبية التي ردمتهم، وهكذا انقرضوا تماما واستولى النسامون على اقليمهم[6]. كما أشار اليهم سترابون في جغرافيته بأنهم يقيمون في الاقليم الواقع فوق السرتين[7].

القمفزانتس(Gamphazante): يشير هيرودوت إلى أنهم يسكنون إلى الداخل، صوب الجنوب، وأنهم يتحاشون رؤية الناس، ولا يملكون أسلحة للحرب[8].

المكاي[9] (Macae)أو الماس(Maces): عرفهم هيرودوت كجيران للنسامون في الغرب، ويشير إلى أن نهر "كينييس"(Cinyps) يجتاز اقليمهم[10]. لقد كان شعب المكاي من الرحل ولكنه مع هذا مارس الزراعة بين منطقة مصراته وطرابلس. فقد امتد اقليمهم من مصراته إلى الحدود التونسية الحالية[11].

---

(1) هيرودوت، IV، 169، نصوص ليبية، ص 63-64.

(2) Hérodote, IV, 170.

(3) هيرودوت، IV، 171، نصوص ليبية، ص 64.

(4) هيرودوت، IV، 172، نصوص ليبية، ص65 .

(5) M. Bénabou, la résistance africaine à la romanisation, libraire François Maspéro, Paris, 1976, p.104.

(6) هيرودوت، IV، 173 ، نصوص ليبية، ص 67. أنظر أيضا: بلين القديم: التاريخ الطبيعي، V، 4، نصوص ليبية، ص 113.

(7) Strabon, Géographie, II, V, 33.

(8) هيرودوت، IV، 174، نصوص ليبية، ص68.

(9) هيرودوت، IV، 175، نصوص ليبية، ص69.

(10) M. Rachet, Op. Cit, p. 41.

(11) J. Tixeron, « Reflexion sur l'implantation antienne de l'agriculture en Tunisie », Karthago, T. 10, 1959-1960, p. 5.

الجيندانس (Gindanes): أوردهم هيرودوت[1] فقط. كانوا جيران الماس (المكاي) في الغرب وقريبين من اللوتوفاج، متموضعين على حافة رأس[2].

اللوتوفاج (Lotophages): يشير هيرودوت إلى أنهم يلون موطن الجيندانس، على رأس يبرز في البحر، وأن اللوتس كان غذاؤهم الوحيد[3]. والواقع أن اللوتوفاج ظهروا في عهد هوميروس الذي يذكر بأن "Ulysse" قد جذبتها العاصفة إلى ضفاف جزيرة يسكنها أكلة اللوتس. وإذا كان هيرودوت يضعهم شرق الماخليس، على القارة، في شبه جزيرة، فإن بوليب وسترابون يضعانهم في جزيرة جربة بالسرت الصغرى. أما بومبونيوس ميلا فيضعهم بعيدا إلى الشرق، في برقة (السيرانييك)، وبلينوس الكبير[4] يجعلهم بجوار النسامون جنوب شرق سرت الكبرى أين تنبت اللوتس أيضا[5]. ورغم أن هيرودوت يعددهم من بين الليبيين الرحل، إلا إلا أنهم كانوا مزارعين[6].

الماخليس (Macheloes): يقع موطنهم على امتداد الساحل بعد الجيندانس، ويمتد إلى نهر كبير يدعى تريتون ويصب في بحيرة تريتونيس[7].

الأوسيس(Auses): مثلما ذكر هيرودوت[8]، فإنهم كانوا يجوبون بقطعانهم حواف بحيرة تريتون، حيث يفصلهم نهر تريتون عن الماخليس الواقعين في الشرق فسيكونون بهذا يتجمعون شمال شرق شط الجريد، إذا كان التريتون يصب فعلا في السرت الصغرى على حواف "Tacapae"[9].

هذا عن القبائل الرحل التي ذكرها هيرودوت والمقيمة على ساحل البحر، ثم يشير في فقرات كتابه اللاحقة إلى الليبيين القاطنين إلى الداخل، أين تعيش الوحوش الضارية، ومنهم يذكر هيرودوت كل من:

الغرامنت (Garamantes) : يضعهم هيرودوت بعد مسيرة عشرة أيام من "أوجلة"[10]. كان هؤلاء الغرامنت متمركزين في المنطقة الممتدة ما بين جبل نفوسة وجهات فزان الحالية إلى التاسيلي نازجر[11]،

---

(1) هيرودوت، IV، 175، نصوص ليبية، ص70.

(2) M. Rachet, Ibid.

(3) هيرودوت، IV، 177، نصوص ليبية، ص 71.

(4) بلين القديم: التاريخ الطبيعي، V،4، نصوص ليبية، ص 115.

(5) M. Rachet, Loc. Cit.

(6) J. Tixeron, Op. Cit, p. 6.

(7) هيرودوت: IV، 178، نصوص ليبية، ص 171. "ويذكرهم بلين القديم باسم Machroas ، ويخلط بينهم وبين أكلة اللوتس، كما يحدد موطنهم شرقي موقعه الحقيقي بكثير، وهو يخالف بهذا هيرودوت وبطليموس. (أنظر: بلين القديم: V، 4، نصوص ليبية، ص 115).

(8) هيرودوت، IV، 180، نصوص ليبية، ص75.

(9) M. Rachet, Ibid, p. 39.

(10) هيرودوت، IV، 183، نصوص ليبية، ص 81.

(11) محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص 171.

ويصفهم هيرودوت بأنهم يمضون في عربات ذات الخيول الأربعة يطاردون الاثيوبيين سكان الكهوف[1]. يرى بعض اللغويين أن اسمهم مأخوذ من اسم البلدة في اللغة الليبية وهو "إغرم" (Igrem)، سيما وأن عاصمتم تحمل اسم "جرمة"[2](Garama)أو (Djerma)، ويبدو أنه قد كان لهم وزن كبير من الناحية السياسية خلال خلال فترة الاحتلال الروماني، خصوصا في لبدة (Leptis) من خلال أحداث ثورات كبرى ضد الرومان[3]، حيث سجلت لنا النقوش اللاتينية اسمهم في عدة مناطق، منها ما كان بمقاطعة موريطانيا الطنجية[4].

الأاترانتس (Atarantes): يشير هيرودوت إلى موطنهم بأنه يقع بعد مسيرة عشرة أيام من مواطن الغرامنت، وانهم اكتسبوا اسمهم (أطلنتس) من جبل أطلس[5].

هذا عن القبائل الرحل التي ذكرها هيرودوت إلى غاية نهر تريتون، أما غرب هذا النهر فيتحدث عن الليبيين المستقرين الزارعين للأرض، إذ نجد من بين من ذكرهم:

الماكسوس (Maxyes): يذكر هيرودوت أنه إلى الغرب من نهر تريتون، وبعد موطن الأوسيس، تبدأ بلاد الليبيين الذين يفلحون الأرض ويقطنون البيوت، وهم يدعون الماكسوس، حيث يسدلون شعرهم الطويل على الجانب الأيمن من رؤوسهم ويحلقون الأيسر، كما يشير هيرودوت إلى أن الماكسوس يدّعون بأنهم نسل الرجال الذين جاؤوا من طروادة[6]. وفي مقارنة قزال (Gsell) للفظ الماكسوس الذي ورد عند هيرودوت مثلما مثلما ورد عند هيكاتايوس قبله، بأن الماكسوس عند هيكاتايوس قد كانوا رحلا أما هيرودوت فيذكرهم على أنهم مزارعين[7]، ويرجح أن الماكسوس هم المذكورين في النقوش الفرعونية باسم المشواش (Mashwash) الذين كانوا يتمركزون ما بين خليج السرت ومدينة لبدة الكبرى(Leptis magna)[8]. كما أجرى البعض مقاربة بين الماكسي والمازيس والمازيك[9] أو المازيغ (Mazices, Maziques, Mazighs) ، وهذا للدلالة على قدم الاسم الاثني لشعوب شمال افريقيا، وهو إمازيغن. وهذا الاسم واسع الانتشار كما ذكرناه في كل بلاد المغرب، حيث وجد ضمن أسماء الأشخاص والقبائل والأماكن عند المستقرين والرحل على حد سواء، لذلك لم يتردد مؤرخو العصر الوسيط في اعتبار "مازيغ" جدا أعلى للمغاربة[10].

---

(1) هيرودوت، IV، 183، نصوص ليبية، ص 81.

(2) محمد العربي عقون: المرجع السابق، ص 171.

(3) M. Bénabou, Op. Cit, p. 102.

(4) حليمة، غازي: نقائش لاتينية لماوريطانيا التنكية، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2011، ص 103-105.

(5) هيرودوت، IV، 184، نصوص ليبية، ص 82.

(6) هيرودوت، IV، 191، نصوص ليبية، ص 89.

(7) S. Gsell, Hérodote. Textes relatifs à l’Histoire de l’Afrique, p.59.

(8) محمد العربي، عقون: نفسه.

(9) غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص 33.

(10) محمد العربي، عقون: نفسه، ص 177.

الزواك (الزواكس) (Zaueces): أشار اليهم هيرودوت بعد الماكسوس حيث قال بأن نساءهم تقود عرباتهم في الحرب[1].

الجيزانت (Gyzantes): موطنهم يلي موطن الزواك، وقال عنهم هيرودوت بأنهم يطلون أجسامهم بالقرمز أنهم يأكلون القردة التي تتوفر بكثرة في جبالهم[2]. وفي دراسته لنصوص هيرودوت، يقول قزال أن هيكاتايوس أشار إلى مدينة تسمت "Zygante" على عكس هيرودوت الذي ذكر شعبا يسمى الجيزانت[3].

الجيزانت[3].

وقبل أن نختم مجال الحديث عن أهم القبائل التي ذكرها هيرودوت في ليبيا، من المهم الاشارة إلى أن كل تلك القبائل التي ذكرناها يصنفها هيرودوت ضمن الليبيين الموجودين في الشمال، وأنه جنوب ليبيا القارة يعيش الاثيوبيون، وأن كلا من الليبيين والاثيوبيين يمثلان الشعبان الأصليان في ليبيا[4].

الاثيوبيون: وصفهم هيرودوت بأنهم الشعب الثاني الأصيل لقارة ليبيا، حيث يستوطن جنوبها. فقد ذكر بأن الغرامنت يمضون في عرباتهم ذات الخيول الأربعة يطاردون الاثيوبيين سكان الكهوف، فالأثيوبيون أسرع في الجري من أي قوم بلغتنا أخبارهم، وهم يعيشون على السحالي وأشباه الزواحف، ولا يشبه كلامهم أي كلام آخر في العالم[5]، بل هو مثل زعيق الخفافيش[*]. وهذا ما أشار اليه سترابون كذلك عندما قال بأن الاثيوبيين هم الشعوب الأكثر جنوبية من ليبيا[6]، وكذا بلين القديم الذي يشير إلى أن سكان الكهوف أولئك أولئك لا تتعدى صلتنا بهم تجارة الحجر الكريم المجلوب من اثيوبيا، وهو ما نسميه بالعقيق الأحمر[7]. كما يذكر بلين أن الرأي الذي يمكن الاعتماد عليه في شأن الاثيوبيين هو رأي أولئك الذين يميزون بين قسمين من الاثيوبيين وراء الصحراء الافريقية، وخاصة هوميروس الذي يخبرنا بأن الاثيوبيين قسمان، قسم شرقي وآخر غربي[8]، وهو ما ذكره سكيلاكس (Scylaxe) في رحلته، حيث تحدث عن اثيوبيين غربيين يزاولون التبادل التجاري مع الفينيقيين، فيقايض هؤلاء الأخيرين (الفينيقيون) سلعهم بجلود الأيائل والأسود والفهود، وكذا جلود وأنياب الفيلة وجلود الحيوانات الأليفة، فإثيوبيو جهة قرنة هنا ليسوا زنوجا كما يتوقع كامبس، كما أن

---

(1) هيرودوت، IV، 193، نصوص ليبية، ص 91.

(2)هيرودوت، IV، 194، نصوص ليبية، ص 94.

(3) S. Gsell, Ibid.

(4)هيرودوت، IV، 197، نصوص ليبية، ص97.

(5) هيرودوت، IV، 183، نصوص ليبية، ص 81.

(*) " هناك من يرى أن مثل هذا الكلام يوجد لدى سكان التبستي الذين يسمون "تيبو" أو "تيدا"، وكانوا يسكنون الكهوف ويشتهرون بالسرعة الخارقة، فهل هم أحفاد الاثيوبيين سكان الكهوف الذين تحدث عنهم هيرودوت؟" (أنظر: مصطفى، أعشي: أحاديث هيرودوت عن الليبيين، ص 64).

(6) Strabon, Géographie, II, V, 33.

(7) بلين القديم: التاريخ الطبيعي، V، 5، نصوص ليبية، ص 123.

(8) بلين القديم: التاريخ الطبيعي، V، 8، نصوص ليبية، ص 130.

بلادهم ينبغي أن تكون في أقصى الجنوب، وأن الجلود التي يبادلها هؤلاء الاثيوبيون بالسلع الفينيقية هي لحيوانات افريقيا الشمالية. ويبدو أنه لا شيء من المعلومات التي نقلها في موضوعه يؤكد أنهم من العرق الزنجي، فالصور المطبوعة على أجسامهم تذكرنا بطلاء الجسم بالمغرة التي يتزين بها الماكسي. ومن خلال هيرودوت نفهم بأن طول الشعر وإطلاق لحية دليل على أن هؤلاء الأثيوبيين ينتمون إلى العرق الأبيض، ولعله يمكن أن نماثلهم في لونهم الداكن بجماعة الرحل التي يسميها بطليموس الميلانو جيتول[1]. إذ أن سكيلاكس يقدمهم بصورة ليست بصورة الزنجي أو الأسود، بل بمظهر يبدون فيه ملتحين وبشعور طويلة ويركبون الخيول ويغرسون التين، ويعتبرهم من بين أجمل شعوب الأرض. ولهذا يذهب الباحث مصطفى أعشي إلى القول بأن مصطلح الاثيوبيين بالنسبة لجنوب المغرب القديم ما وراء الأطلس الكبير، لا يعني اللون بل نمط عيش متميز، فهم مزارعون صحراويون، وهم سكان الواحات، غير أن مجالهم وإن كانت درعة تشكل مركزه، يمتد على ما يبدو من خلال النصوص القديمة ما بين درعة والأطلس الكبير[2]. ولعل هذا ما نجده عند بلينوس الكبير الذي الذي يميز الاثيوبيين الدراتيين[3] (Ethiopiens Daratites).

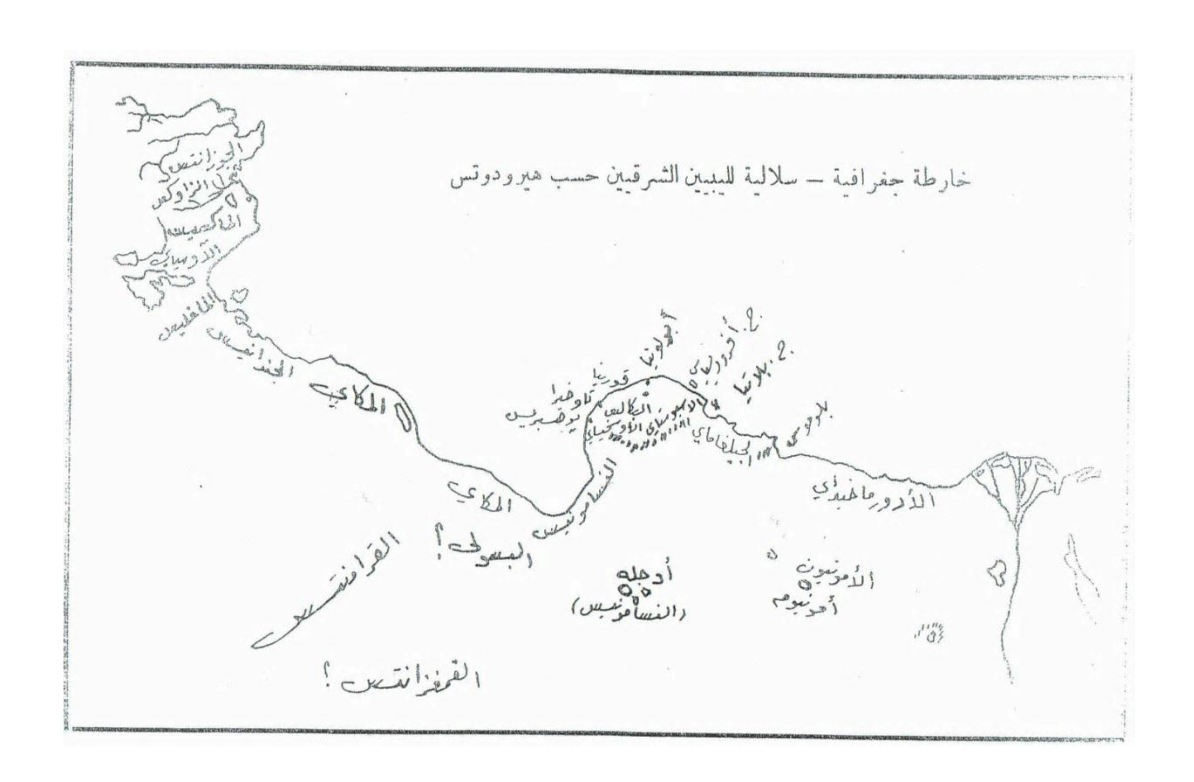
وإلى جانب الاثيوبيين الغربيين، فإن الكتّاب القدامى ميّزوا اثيوبيين شرقيين، وهم الذين كانت لهم علاقات مع الغرامنت والنسامون وربما مصر، وهم على الأرجح زنوج وخاصة في شرق شمال افريقيا، فربما كانوا أكثر سمرة من الاثيوبيين الغربيين[4].

([1]) غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص ص 39، 40.

([2]) مصطفى، أعشي: المرجع السابق، ص 107.

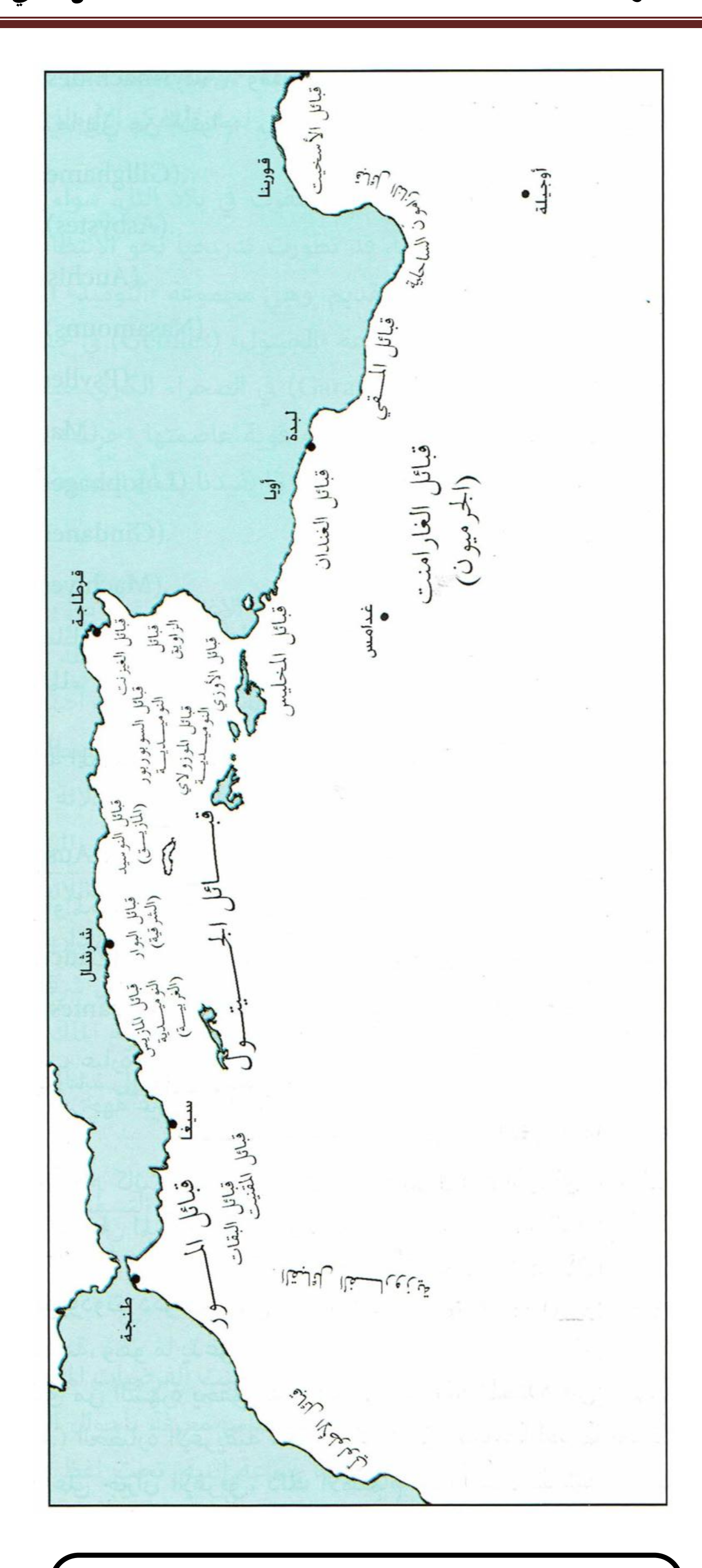
([3]) Pline l'Ancien, H N, V, 10.

([4]) مصطفى، أعشي: نفسه.



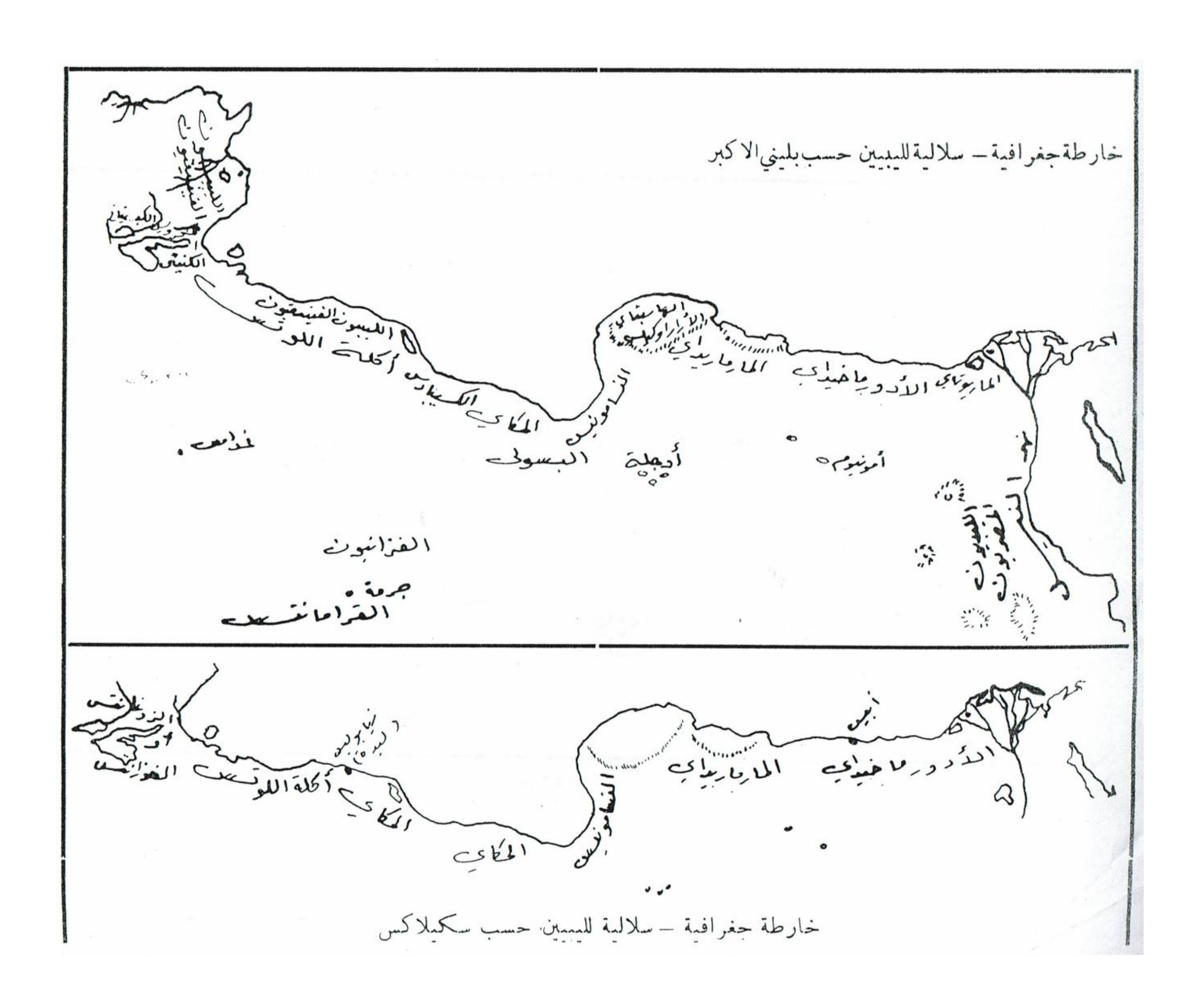
خريطة رقم 3: القبائل الليبية الواقعة شرق بلاد المغرب حسب هيرودوت

عن: علي فهمي، خشيم، نصوص ليبية، 1967، ص 251



خريطة رقم 4: القبائل الليبية حسب هيرودوت

عن: محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة، 2013، ص 71



الخريطة رقم 5: قبائل الليبيين الشرقيين حسب بلينوس الكبير وسكيلاكس

عن: علي، فهمي، خشيم، نصوص ليبية، 1967، ص 250

ب-المجموعات القبلية الكبرى بعد هيرودوت:

إذا كانت أقدم النصوص الأدبية التي بدأت مع هيرودوت خلال القرن الخامس قبل الميلاد لا تتوغل كثيرا بالحديث عن سكان بلاد المغرب القديم، وركزت على أهم القبائل التي استوطنت المنطقة الساحلية، فإن النصوص الاغريقية التي تلتها، سيما بعد أول احتكاك للرومان بالمنطقة منذ حملة أغاثوكليس (310-307ق.م) قد بدأت بالإشارة إلى أهم المجموعات القبلية الكبرى التي كانت بالمنطقة[1]، خاصة تلك التي كان لها دور سياسي في ذلك الوقت.

إذ أن أهم تلك المجموعات التي تردد ذكرها كثيرا في النصوص الأدبية والنقوش الأثرية: المور في الغرب، النوميد في الشرق، والجيتول في الداخل بمحاذاة المور والنوميد. وتتضمن كل مجموعة كبرى قبائل كثيرة، حيث لم يكن بين هذه المجموعات البشرية المختلفة المواطن والأوضاع الادارية والاجتماعية أية تمايزات جنسية أو اثنية، فقد كانت تتشابه في بنياتها الاجتماعية ومقوماتها المادية والمعنوية، اضافة إلى تماثل نظرتها للأجانب وفي اصرارها بالمحافظة على مقوماتها المعنوية حفاظا على شخصيتها المتميزة عن شخصية الأجنبي[2].

النوميد:

إذا كان بوليب[3] قد استعمل مصطلح نوميديا للدلالة على كيان سياسي محدد وعلى شعب معين له خصائصه ونظمه، إذ يبدو أنه استقى هذا المفهوم من الوثائق الرومانية الرسمية التي ظهر فيها مدلول عبارة نوميديا منذ القرن الثالث قبل الميلاد الذي شهد حروبهم ضد القرطاجيين، حيث امتد اقليم النوميد السياسي آنذاك من قرطاج شرقا إلى نهر مولوشا غربا. وإذا كان ماسينيسا قد وسع حدودها شرقا حتى بلغت السرت الكبير قبل وفاته سنة 148 ق.م، إلا أن تلك الحدود السياسية القصوى قد تراجعت فيما بعد على يد الرومان الذين عملوا على تقليصها وضم أجزائها القريبة إلى مملكة موريطانيا، وأنه ابتداءً من سنة 40م كوّن الرومان من الاقليم الممتد من الواد الكبير (L'Ampsaga) شرقا إلى الملوية غربا ولاية موريطانيا القيصرية، وأصبح سكان هذا الاقليم يدعون بالمور في مصطلح الادارة الرومانية[4]، فإنه يتوجب علينا استحضار النوميد كإثنية قبل استحضار مملكتها نوميديا. ذلك أن الممالك المحلية قد تشكلت من نواة قبلية، ومهما كان الأصل المجهول للفظ "نوميد" (Numidae) الذي أخذه اللاتين عن الاغريق كترجمة للفظ "رحل"، فإنه يجب قبول مجال انتشاره الواسع في البداية[5].

---

(1) Mohamed-Mustafa. Boudribila,« les anciens amazighs avant les phéniciens », Awal, N°. 29, 2004,p. 17.

(2) محمد البشير، شنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب، ص 156-157.

(3) Polybe, Histoire générale, I, VI.

(4) محمد البشير، شنيتي: نفسه، ص ص 162، 165.

(5) J. Désange, « Permanance d'une structure indigène en marge de l'administration romaine », p. 79.

ففي هذا المجال الواسع قبل التدخل الروماني في المنطقة، اندرج ضمن النوميد كل من قبائل الماسيل في الشرق والمازيسيل في الغرب، حيث يتساءل كامبس هل بإمكاننا تسمية الماسيل والمازيسيل كنفدراليات قبائل أو شعوب كبرى (des gentes) أم ببساطة فرعين من النوميد[1]، لأن أشهر القبائل النوميدية عند المؤرخين القدامى، مثلما يذكر سترابون، كانوا الماسيل (Masyliéens) والمازيسيل [2](Masaesyliens).

الماسيل:

ظهروا لأول مرة في النصوص الأدبية خلال الحروب البونية، فقد جعلهم سترابون جيران المازيسيل، وحيث أن الحدود بينهما تمر من رأس تريتون. أما بلينوس الكبير فيضعهم في مقاطعة أفريكا (Africa) التي أقامها الرومان على تراب قرطاجة بعد سقوطها سنة 146 ق.م. أما المطابقة بين ما ذكره قزال وكامبس، هو وجود اقليمهم في ضريح المدغاسن شمال غرب الأوراس، فهو قبر يعود إلى ملك ماسيلي مد سيطرته على شمال وشرق كتلة الأوراس الجبلية، وفي سنة 27 ق.م كان الماسيل على الأرجح يقيمون على طول التخوم الغربية لمقاطعة أفريكا، من جبال النمامشة إلى الساحل المتوسطي[3]. فبعد تغير خريطة نوميديا السياسية ودخول جزء منها في اقليم موريطانيا، نجد بطليموس يشير إلى الماسيل الذين ذكروا في عدة نصوص أخرى مثلما عند هونوريوس (Julius Honorius) وعند كوريب. لقد كانوا بدون شك ضمن الشعوب التي يسميها بطليموس" السيرتية"(Cirtésiens)، حيث نسبهم إلى المقاطعة الادارية التي كانوا ينتمون اليها وهي سيرتا، والتي تضمنت جبل أوراس معقل الماسيل[4].

المازيسيل (Massaesylù):

رغم أن الملوية اعتبر عموما كالحد الغربي للمازيسيل بالمعنى الواسع، إلا أن بلينوس الكبير في احدى فقراته يضعهم في مقاطعة موريطانيا الطنجية بجوار المور[5]، وهو ما تشهد به النقوش اللاتينية التي وجدت بموريطانيا الطنجية، والتي تسجل لفظ الماسايسوليين[6]. واضافة إلى هذه الاشارة حول المازيسيل في مقاطعة موريطانيا الطنجية، نجد بلينوس الكبير يشير مرة ثانية إلى أولئك المازيسيل بين واد "مالفا"(Malva) (الملوية) وواد لامبساقا في موريطانيا القيصرية بجوار شط أو بلاد الجيتول، وهي منطقة الهضاب العليا بالجزائر[7].

---

(1) G. Camps, « les Bavares peuples de Maurétanie césarienne », Rev. Af, Vol. 99, 1955, p .241.

(2) Strabon, Géographie, II, V, 33.

(3) M, Rachet, Op. Cit, p. 33.

(4) H. Tauxier, « Etude sur les migrations des tribus berbères avant l'Islam », Rev. Af, Vol. 7, 1863, p. 25.

(5) J. Desange, catalogue des tribus africaines de l'antiquité classique à l'ouest du Nil, publication de la section d'Histoire, N°. 4, Dakar, 1962.

(6) حليمة، غازي: المرجع السابق، ص 79.

(7) M. Rachet, Ibid, p. p. 31, 32.

80.

D(is) M(anibus) S(acrum)./ Tacne Idir /Securi (filius) ex/ Masaisulis uixit/ annos XXXXV quadraginta quinque. 377

Date : Postérieure au Ier s.

مكرس لآلهة الأرواح. (هنا يرقد) تاك ن إيدير378 إبن (أ)سكور من الماسايسوليين. عاش 45 سنة.

شكل رقم 1: نقيشة لاتينية في موريطانيا الطنجية تدل على استمرار استخدام لفظ مازيسول

عن: حليمة، غازي، نقائش لاتينية لماوريطانيا التنكية، 2011، ص 79

النباب (Nababes):

رغم أن النصوص الأدبية اللاتينية تعدها من بين قبائل المور لأنها وجدت ضمن مملكة موريطانيا عند توسعها على حساب نوميديا، إلا أنه من المهم الاشارة إلى هذه القبيلة التي شغلت المنطقة الواقعة ما بعد واد يسر (L'usar flumen)، حيث امتد اقليمهم إلى الشرق من هذا المجرى المائي في منطقة التل[1]، إذ جعلهم بلينوس الكبير أحد أكبر الشعوب التي حكمت قيصرية، ولوحة "Peutinger" بعد ذلك تثبّت موقعهم في جبل بجرجرة (جبل [2] (Ferratus. وتكمن أهمية الاشارة إلى هذه القبيلة في كون كامبس افترض أن تكون أصل تسمية نوميدة، اعتمادا على مقارنة مختلف النقوش الأثرية، إذ يشير في هذا الافتراض أنه يخالف ما توصل اليه فيفري من أن الإشكال حول أصل تسمية نوميدة قد زال اعتمادا على نص دار الطبلة بـ وشتاتة، والمحتوي على صيغة NBIDH مقابل صيغة نوميدة (Numida). فكامبس لا يظن ذلك، لأنه إذا كانت كلمة NBIBH هو أصل الاسم الذي كتب في اللاتينية بصيغة "نوميدة"، فإن هناك ملاحظات تخص هذا الافتراض، وهي: أولا استعمال اسمين اثنيين مختلفين هما: NGRH و NBIBH مقابل ذات الاسم نوميدة، كما لو أن له مدلولا أعمّ من الأسماء الاثنية الليبية، وثانيا المطابقة التي تفرض نفسها ما بين الاسم الليبي NBIBH واسم اثني آخر وارد في النصوص الأدبية والأثرية اللاتينية، وهو نابابNababes) [3](، فمن المؤكد أن النابابكانوا منذ القرن الاول للميلاد متمركزين في الكتلة الجبلية القبائلية أو إلى الجنوب منها قليلا، أي في موريطانيا القيصرية مثلما ورد عند بلينوس الكبير، أي على مسافة أبعد من الشيفية (أين وجدت

(1) M. Rachet, Op. Cit, p. 31.

(2) H. Tauxier, « Etude sur les migrations des tribus berbères avant l'Islam », p.25.

(3) Jean-Marie. Lassère, « Remarques sur le peuplement de la colonia Lulia Augusta Numidica Simitthus », Ant. Afr, T. 16, 1980, p. 30.

صيغة NBIBH و NBIDH)، ولعل هذا اللفظ حسب كامبس لا ينبغي أن يدخل على خط الحوار الدائر حول الموضوع، وهو مقاربة صيغة NBIBH مع Nababes، لأن القبائل كما هو شأنها اليوم، يمكن أن تحمل ذات الاسم رغم بعدها عن بعضها البعض، فقد نجد عشائر من نفس القبيلة متفرقة وموزعة في أعقاب حروب أو هجرات داخلية، وكما أن NBIBH تكتب أحيانا NBIDH، نرى عند بلينوس الكبير صيغة ناباد (Nabades) تحل محل الصيغة المعتادة [1] Nababes.

المور (Maure) :

أطلق الجغرافيون الاغريق ومنهم سترابون لفظ Maurusiens على الشعوب الأبعد بالنسبة لهم[2]، ويقصدون تلك الشعوب القاطنة بإقليم المغرب الأقصى الحالي[3]. فالمور هم الذين أشير اليهم منذ القرن الثالث قبل الميلاد باسم Maurousù الاغريقي، وبالاسم اللاتيني [4] Mauri الواقعين مقابل اسبانيا على مضيق أعمدة هرقل[5]، ما بين وادي مولوشا والمحيط الأطلسي، وقد أخذه عنهم الرومان واستعملوه للدلالة على مملكة بوكوس وأبنائه والتي استلمها يوبا الثاني وابنه بطليموس فيما بعد، وعلى المقاطعة التي أقاموها على أنقاض تلك المملكة بعد ضمهم لها[6]. وقد ذهب بعض المهتمين بطوبونيميا بلاد المغرب إلى القول أن لفظ "موري" تكوم ربما مشتقة من لفظ "أور" أي الجبل، إذ أن العبارة الأخيرة ظلت متداولة في منطقة جبال عمور (جنوبي الوسط الجزائري) إلى وقت قريب. وافترض آخرون أن عبارة "موري" مشتقة من لفظ أوراس، وهو افتراض يؤدي الأخذ به إلى تغيير جوهري في أسماء المواقع التاريخية وفي الخريطة السياسية لبلاد المغرب القديم[7]. أما البعض الآخر من الباحثين أمثال بوشار (Bouchart) فقد حاول تفسير أصل "مور" بأنه مدغم من الكلمة السامية "ماهوريم" أو "ماحوريم" (Mahaurim) التي تعني الغربيين، وهو الاسم الذي أطلقه الفينيقيون على سكان شمال افريقيا المتمركزين في الغرب[8]. كما يستنتج من خلال سترابون أن اسم "ماوري" (Mauri) كان مستعملا من طرف الأهالي والرومان، مما جعل البعض يقاربه بكلمة "Tmurt" التي تعني الأرض أو البلدة، سيما وأن المصادر ذكرت وجود قبيلة محلية في ناحية مولوشا تدعى "ماوري"، اعتبرها البعض كنفدرالية قبلية انبثقت منها المملكة الموريطانية[9].

([1]) غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص 178.

([2]) Strabon, Géographie, II, V, 33.

([3]) Gilbert. Charles-Picard, les religions de l'Afrique antique, p. 1.

([4]) Tite Live , Histoire romaine, XXII.

([5]) J. Desange, catalogue des tribus africaines, p. 35.

([6]) محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص 159.

([7]) محمد البشير، شنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب، ص 159.

([8]) غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص 171.

([9]) محمد العربي، عقون: نفسه.

هذا عن أصل كلمة مور، لكن علينا أن نفهم كذلك، فيما يخص تطور هذا المصطلح، أنه انطلاقا من القرن الثالث ميلادي قد استخدم لتمييز الأشخاص (les gentes) الذي لا تحكمهم الادارة الرومانية، وعني به لاحقا كل الأفارقة غير المترومنين من المحيط الأطلسي إلى خليج السرت[1]، وهو المعنى الذي انتهى اليه المصطلح الموري خلال القرن الرابع فالخامس ثم السادس للميلاد، أي جميع العناصر غير المترومنة سواء انتمت أم لا إلى القبائل المستقرة داخل التراب الخاضع للسلطات السياسية الأجنبية[2]، أي الذين كانوا خارج السيادة السيادة الرومانية، فالوندالية ثم البيزنطية. فقد عمّ مفهوم المور سكان المناطق الفالتة من أيدي حكام المقاطعات في كل من موريطانيا القيصرية ونوميديا منذ القرن الرابع ميلادي، حيث تكرر الاسم عند أميانوس ماركيلينوس[3] عند حديثه عن ثورة فيرموس وجيلدون، ثم تردد هذا اللفظ على لسان الأساقفة الكاثوليك المعاصرين للعهد الوندالي مثل فيكتور دي فيتا[4] عندما تحدث عن سياسة الوندال الدينية بعد الاحتلال، ثم على لسان بروكوب الذي استخدمه بصفة دائمة للدلالة على حلفاء الوندال من الأهالي دون تمييز بين أسماء الأقوام العديدة[5]، ولم يكن يميز بين سكان المقاطعات الافريقية سوى من حيث درجة العلاقة بالسلطة المركزية المركزية المتمثلة في المدن، فسكان المدن والمزارعون التابعون لهم كان يدعوهم بروكوب بالأفارقة دون تمييز بين أعراقهم وطبقاتهم الاجتماعية ونحلهم الدينية، بينما دعا جميع الأهالي الذين لا يندرجون تحت هذا الوصف بالمور[6]، وهو ما نجده عند الشاعر كوريبيوس كذلك[7].

ومهما تحول تطور مصطلح المور، فإنه خلال القرون الميلادية الأولى ، أي فترة الاحتلال الروماني، نجد أنه اندرج ضمن أولئك المور كنفدراليات قبلية تشكلت لمقاومة الاحتلال الروماني، ومن بينها:

الباوار (Bavares):

وصفتهم النقوش اللاتينية بالشعب الكبير (Gentis multus)، وقد ظهر هؤلاء الباوار على مسرح الأحداث خلال القرن الرابع ميلادي[8]. وقد اشتهرت هذه القبائل حسب بعض المصادر بقوتها وكثرة عددها وتحركاتها المستمرة التي كانت تشكل ضغطا مقلقا على الرومان، وكثيرا ما اتحدت تحت زعامة أمراء أو ملوك تعاونوا على ضرب تحصينات الجيش الروماني، وهو ما أكدته نقوش لامبيز(Lambaeses) التي نصت على وجود أربع ملوك للبوار[9]. حيث أشارت اليهم النصوص والنقوش في كل من موريطانيا الطنجية، موريطانيا

---

(1) G. Camps, « l'inscription de Béja et le problème des Dù Mauri », Rev. Afr, T. 98, 1954, p. 253.

(2) Christian. Courtois, les vandales et l'Afrique, éd. Art et métiers graphiques, Paris, 1955, p. 325.

(3) Ammien Marcellin, Histoire de Rome, XXIX, V, 3. ; Claudien, sur la guerre contre Gildon, chap. 2.

(4) Victor Evêque de Vita, Histoire de la persécution des vandales, I, VIII.

(5) Procope, Guerre des vandales, I, VIII, 3.

(6) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج2، ص 443.

(7) Corippe, Johannide, chant. V, T. VII, revue tunisienne, 1900.

(8) محمد العربي، عقون، المرجع السابق، ص 106.

(9) محمد البشير، شنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب، ص 162.

القيصرية، وموريطانيا السطايفية وحتى في مقاطعة نوميديا. إذ تواجد اسمهم في أكثر من 15 نقيشة، وهذا وحده يكفي لتبيان مدى أهميتهم التاريخية، كما أن هذه الوثائق المتتابعة تبين أن البوار (البافار) كانوا دائما ضد السلطة الرومانية ومقاومين لسياستها الصارمة[1]. وقد توصلت جهود الباحثين من خلال دراسة النقوش المتفرقة في بلاد المغرب القديم إلى القول بأن البوار مجموعتان: بوار غربيون، كان موطنهم يمتد من نهر الملوية ومرتفعات الونشريس[2]، وبوار شرقيون كانوا ضاربين إلى الشرق من الونشريس حتى مشارف مدينة ميلة في نوميديا. إذ تجمع تلك النقوش على ربط تموضع البوار بالأقاليم الممتدة من الملوية إلى الونشريس بشكل مرتبط ببلاد التل، وهو ما يشجع على تصنيف البوار ضمن الأقوام الجبلية وليس من البدو، فهم زراع ريفيون[*]. ولا تربطهم برحل السهوب والصحراء علاقة عشائرية وإن وجدت روابط بين الطرفين فهي على سبيل الجوار الجغرافي وتداخل أنماط المعيشة[3].

البقواط (الباكوات) (Baquates):

أشارت اليهم النصوص الأدبية كأحد شعوب المور الكبرى، ومن ذلك تحديد بطليموس لهم باسم بقواط (Baquates) وإشارته إلى القبائل التي تحاذيهم[4]. كما عثر على حوالي 15 نقيشة تلقي الضوء على العلاقات السياسية بين البقواط والرومان، عثر على 13 منها في موقع "وليلي"[5] بموريطانيا الطنجية[6] وعلى وعلى واحدة في روما وأخرى في الجزائر في "تنس" (كرتناس). تغطي هذه النقائش مرحلة زمنية تبلغ حوالي 160 سنة، أي أنها تمتد من 117 أو 122 إلى 280م، ويتزايد عددها أو يقل حسب الحالة الأمنية في الولاية[7]، إذ يظهر حسب الأخبار التي تواترت حول البقواط أنهم كانوا يستوطنون المنطقة الممتدة من ضواحي ضواحي "وليلي" (Volubilis) حتى مرتفعات الأطلس الأوسط، فقد كانوا في صراع مع حكام الولاية الطنجية الرومانية من أجل السيطرة على الاقليم الممتدة شمالي الأطلس الأوسط. وقد اختلفت المصادر الأدبية في ضبط مواقعهم وتحديد علاقتهم بالقبائل الأخرى المجاورة لهم. فقد حصرت بعض المصادر موطنهم فيما وراء

---

(1) G. Camps, « les Bavares peuples de Maurétanie césarienne », Op. Cit, p. 242.

(2) Gilbert. Charles-Picard, la civilisation de l'Afrique romaine, libraire Plon, Paris, 1959, p. 4.

(*) "هناك من يرى أن البوار فيهم الجبليون المستقرون والبدو الرحل، وهو ما جعل القول بان البوار الغربيون هم أجداد قبائل مسيردا، والبوار الشرقيون هم أجداد جبليي كتامة غي القبائل الشرقية، أما البعض الآخر فيرى بأن البوار شرقيون وغربيون هم اجداد البدو الكبار من الزناتيين وأن مجالات انتجاعهم هي السهول العليا من سطيف إلى ملوية". (أنظر: محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص 160).

(3) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج2، ص 345.

(4) J. Desange, catalogue des tribus africaines, p. 29 ; Christine. Hamdoune, « De Pline à Ptolémée. Permanences et ruptures chez les peuples indigènes de Maurétanie tingitane », M. F. I. A. A. N. A. M, VI colloque international (PAU. Octobre 1993- 118ème congrès), éd. C. T. H. S, 1995, p. 297.

(5) Gilbert.Charles-Picard, Op. Cit, p. 4.

(6) حليمة، غازي: المرجع السابق، ص ص 202، 204.

(7) مصطفى، أعشي: نقائش معاهدات السلام بين الباكوات الأمازيغ و الرومان في موريطانيا الطنجية، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2004، ص15.

الملوية، بينما جعلتهم مصادر أخرى متحدين مع قبائل البوار المنتشرة في الورشنيس والتيطري والبابور[1]. وقد أشارت بعض الدراسات إلى العلاقة بين البقواط وقبائل برغواطة في الفترة الوسيطية الاسلامية، فيما إذا كانت نفس القبيلة وأن البرغواطيين هم أحفاد البقواط وأن النطق العربي قد حرّف التسمية لا غير. وإذا كان الرأي قد لقي معارضة اعتمادا على عناصر الاختلاف اللفظي بين الاسمين Baquates و Barghwata، إلا أن المتمسكين بالرأي الأول ذهبوا إلى التنويه بأن حرف الراء في بعض لهجات اللغة الليبية (الأمازيغية الحالية) في المغرب الأقصى لا ينطق أو أن نطقه ثقيل مثلما هو الحال في اللغة الانجليزية، أما الغين المشدودة في اللغة الليبية فتتحول إلى قاف، وبذلك رأوا بأن بقواط وبرغواطة كلمة واحدة[2]. ومهما كان الأمر فإن البقواط تبقى احدى قبائل المور التي اعتبرها مؤرخو الاحتلال الروماني كثيرة العدد مهابة الجانب حتى أن بعض المصادر قد أوردتها في شكل شعب كثير العدد.

الحلف الخماسي:

ذكرتها المصادر اللاتينية باسم Quinquegentanei أو Quinquegentiani[3]، وهي كنفدرالية قبائل متمركزة في المنطقة الجبلية ما بين دلس وبجاية. وقد تحول حلف القبائل الخمس والبوار إلى قوة ضاربة في المنطقة، أسندت قيادتها إلى رئيس احدى قبائل الحلف الخماسي كان اسمه "فاراكسن" [4] (Faraxen).

الجيتول:

وردت صيغتهم الاغريقية بـ Gaitouloi وباللاتينية Gaetuli ، وهم أحد أكبر الشعوب الليبية[5]. ذكرهم سترابون[6] (Gaetules) بلينوس الكبير[7]، كما وردت تسمياتهم في عدة نقوش لاتينية، في مقاطعة طرابلس وفي افريقيا البروقنصلية التي كان يحدها الخندق الملكي (Fossa Regia)، وكذا في موريطانيا السطايفية، القيصرية والطنجية[8]. فهذا الشعب الثالث لإفريقيا الشمالية قد تواجد في كل من الجزائر، تونس والمغرب الأقصى، وانطلاقا من خط عرض معين يحمل الليبيون هذا الاسم الذي ظهر في فترة متأخرة في المصادر الأدبية[9] منذ نهاية القرن الثاني قبل الميلاد للدلالة على مجموعة قبلية كبيرة، ولكنها لا تمثل عرقا

---

(1) محمد البشير، شنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب، ص161.

(2) محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص 161.

(3) G. Camps, « les Bavares peuple de Maurétanie césarienne », p. 241 ; Jean-marie. Lassère, Op. Cit, p. 31.

(4) محمد العربي، عقون: نفس المكان.

(5) Werner. Vicichi, « les Gétules de la maurétanie », Bulletin I. F.A.N, T. 17, série B, N°. 1-2, imprimerie Protat frères Macon, Dakar, 1955, p. 163.

(6) Strabon, Géographie, II, V, 33.

(7) Pline l'Ancien, H N, V, 9.

(8) Jaques. Gascou, « le cognomen Geatulus. Gaetulicus en Afrique romaine, M. A. H, T. LXXXII (B2), Ecole française de Rome, éd. E de Boccard, Paris, 1970, p p. 723, 731.

(9) غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص 181.

متميزا، فالجيتول نوميد في منطقة الصحراء الشرقية، ومور في الجنوب الوهراني والمغربي، يعيشون حياة التنقل والترحال، وينتجعون ما بين الغرامنت شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ويعبرون جبال الأطلس الصحراوي مرتين في السنة، من الجنوب إلى الشمال خلال الربيع، ومن الشمال إلى الجنوب خلال الخريف، حيث يصلون في انتجاعهم إلى السهول العليا بالقرب من سيرتا[1].

فبلاد الجيتول كانت ممتدة عبر شريحة جغرافية تبدأ من المحيط الأطلسي إلى فزان، وتمثل اقليما انتقاليا ما بين الصحراء الكبرى وشريط التل الساحلي، محتويا على الوديان والشطوط والمرتفعات، كما أنه يشكل اقليما رعويا هاما، مع إمكانية الزراعة المحدودة في بعض جهاته[2]. ولعل حياة البداوة هي التي جعلتهم لا يقيمون دولة مع أنهم شعب محارب[3]، فالجيتول كانوا مهابين ومعروفين بشجاعتهم العسكرية[4]. فقد ظل الجيتول يكوّنون مصدر قلق للسلطة الرومانية، سيما للمؤسسات الزراعية في الأقاليم التي ألفت القبائل الجيتولية الانتجاع فيها. فقد بذل أولئك الرومان جهودا مضنية للحد من تحركاتهم الجماعية فشتتوهم ووجهوا تنقلاتهم، كما عملوا على امتصاص اليد العاملة منهم، كما استفادوا من شجاعة رجالهم في تغذية فرق الجيش المساعدة، مثلما تؤكده الوثائق الأثرية[5]. وقد ميزت النصوص القديمة بين الجيتول الشرقيون والجيتول الغربيون، هؤلاء الأخيرين نجدهم يجمعون عدة قبائل، مثل البانيور، الأتولول، والفاروزيون.

البانيور (Baniurae): هم جيتول يمكن وضعهم في مقاطعة موريطانيا الطنجية[6] حسب اشارات بلينوس الكبير اليهم، ما بين المحيط الأطلسي وملوية (malva)، إذ يضعهم مباشرة قبل الأتولول، وأشار أنه يجب اجتياز اقليمهم للذهاب من "سلا" إلى جبال الأطلس، وهو ما يمكن أن يسمح بافتراض مجالهم في منطقة السبو الأوسط، جنوب غرب السلاسل الريفية[7].

الأتولول (Autololes): الأكثر قوة حسب بلينوس الكبير[8]، كانت هذه القبيلة على الأرجح من الرحل أو شبه الرحل، أمكنها أن تقيم شتاء بالسهول الصغيرة التي تحاذي الساحل بين "أغادير" و "موغادور"، ثم يصعدون نحو الشمال صيفا إلى غاية ضفاف وادي بورقراق بسبب قلة المراعي[9]. وقد وصفها بلينوس الكبير بالوحشية وأنها على استعداد دائم للنهب والقتل بالاشتراك مع حلفائها من قبائل أقل قوة منها

([1]) محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص 163.

([2]) محمد البشير، شنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب، ص 165.

([3]) محمد العربي، عقون: نفسه.

([4]) Paolo. Odorico, « l'image des berbères chez les byzantins. Témoignage de Corippe », Awal. C. E. B, N°. 40-41, éd de la maison de l'homme, Paris, 2009-2010, p.164.

([5]) محمد البشير، شنيتي: نفسه، ص 166.

([6]) J. Desange, catalogue des tribus africaines, p. 28.

([7]) M. Rachet, Op. Cit, p. 31.

([8]) Pline l'Ancien, H N, V, 9 ; Christine. Hamdoun, Op. Cit, p, 297.

([9]) M. Rachet, Ibid, p. 50.

مثل الجيتول الدراتيون [1] (Daratae) على ضفاف وادي درعة، والفاروزيون على السفح الغربي للأطلس الأعلى، وقد استمر ذكر الأتولول في المصادر إلى غاية القرن الخامس ميلادي من طرف الجغرافيين والمؤرخين وحتى الشعراء[2].

الفيزوني (Visuni): هم من الجيتول الغربيون، كانوا فرعا من الأتولول ثم انفصلوا عنهم لتشكيل قبيلة مستقلة، واستقروا في أقصى مقاطعة موريطانيا الطنجية بجوار الاثيوبيين[3].

الفاروزيون: يصنفهم سترابون من بين شعوب الجيتول القاطنة فوق الاثيوبيين [4](Pharusiens)، أما بلينوس الكبير فيضمهم إلى الداخل بجوار الجيتول الدراتيون[5]، وأن ما يميزهم عن الاثيوبيين حسب سترابون هو استعمالهم لسلاح القوس، حيث كان الفاروزيون يمتلكون عربات مجهزة بمقضب. والحال أن وجود العربات في الجهات الجنوبية من المغرب الأقصى لا يثير أي دهشة حسب كامبس، ذلك أن الرسوم الصخرية في الأطلس الأعلى وفي تافيلالت تقدم عددا هاما من صور تلك العربات[6]. ولأن بلينوس الكبير يعدد الاثيوبيين الاثيوبيين البيرورسي (Ethiopiens Pérorses)، وخلفهم الفاروزيون، فالجيتول الدراتيون المجاورون للفاروزيين في الداخل[7]، وهو ما يجعل منطقة درعة موطنا لهذه القبائل، وعليه يمكن اعتبار الفاروزيين[*] جيتولا واثيوبيين. واثيوبيين. فهذه المجموعات القبلية كانت من الرحل ذوي البشرة الداكنة مثل سكان موريتانيا الحاليين[8].

فالجيتول الغربيون يمكن تحديد اقليمهم عموما بمجالات انتجاعهم، حيث يكون واد بورقراق هو حدهم الشمالي إلى وادي درعة جنوبا أين يتعايش الجيتول والاثيوبيون. حيث يدل مصطلح الميلانو-جيتول (Mélano-Gétules) في بعض النصوص الأدبية على تزاوج وانصهار بينهما، كما يمكن القول أن أحفاد الجيتول الغربيين قد استمروا إلى الفترة الاسلامية ليصبح اسمهم جدالة وقزولة، وهم صنهاجة الجنوب الذين أقاموا الدولة المرابطية التي امتدت من الايبر (Ibre) شمالا إلى السينغال جنوبا[9].

([1]) Pline l'Ancien, H N, V, 10.

([2]) محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص 165.

([3]) M. Rachet, Loc. Cit ; Werner. Vicichi, Op. Cit, p. 163.

([4]) Strabon, Géographie, II, V, 33.

([5]) Pline l'Ancien, H N, V, 10.

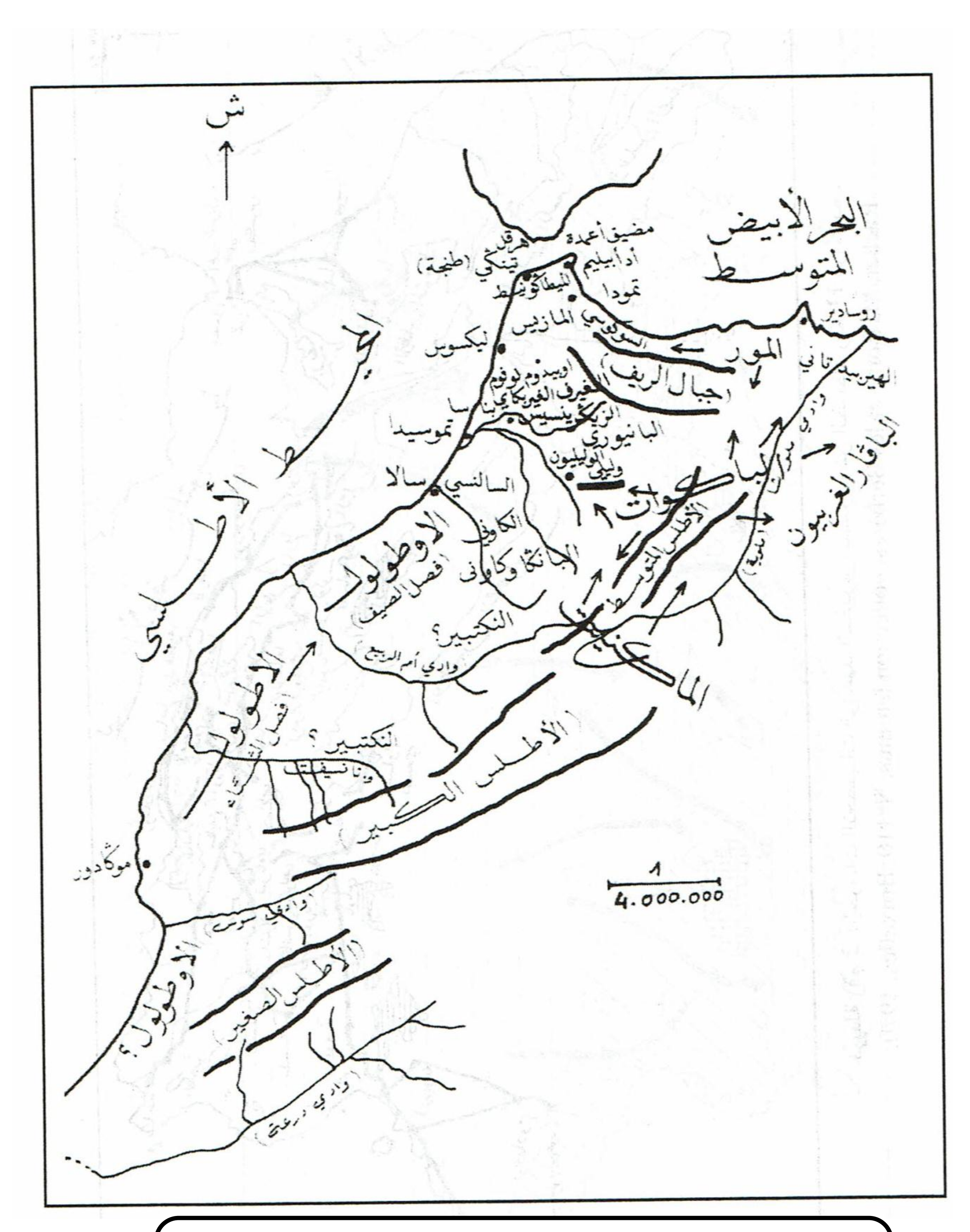
([6]) غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص 40.

([7]) Pline l'Ancien, H N, V, 10.

(*) "كل ما ورد عند سالوست عن أصل سكان بلاد المغرب القديم مثار جدل بين المؤرخين المحدثين، وحاول البعض منهم تأكيد صحة رواية سالوست باعتبار الفاروزيون هم الفرس الذين نزلوا مع جيش هرقل على أرض موريزيا، مع أن المسألة تكمن في التشابه بين الاسمين اللذين يكون مبتكر تلك الرواية قد بنى عليه قصته الاسطورية" (أنظر: محمد العربي، عقون: نفسه، ص 178).

([8]) غابريال، كامبس: نفسه، ص 41.

([9]) محمد العربي، عقون: نفسه.



خريطة رقم 6: توزيع القبائل المورية خلال القرن الثاني ميلادي (السهم يبين اتجاه تحركات القبائل)

عن: مصطفى، أعشي: نقائش معاهدات السلام، 2004، ص 81

3-السكان في المصادر الكلاسيكية

3-1 السكان من خلال المصادر الاغريقية واللاتينية:

أغلب النصوص الأدبية الاغريقية واللاتينية المتعلقة ببلاد المغرب، على أهميتها، لا تفي شغف الباحث عن أصول السكان ورسم خارطة بشرية تبرز عناصر السكان الذين تعايشوا على هذا الجزء من شمال افريقيا في العصور الموغلة في القدم[1]. ولكن ما نجده في صدى هذه النصوص هو ثلاث فرضيات أساسية نظر اليها المؤرخون القدامى نسبيا في أصل الشعوب الليبية[2]. تعتبرهم الرواية الأولى أصليين، أما الثانية فهي التي تجعل لليبيين أصلا ايجيا مثلما أورد هيرودوت، والفرضية الثالثة تدور حول الأصل المشرقي. هذه الأخيرة نجد فيها فرعان، رواية سالوست والأصول الفارسية- الميدية، والثانية لبروكوب والأصل الكنعاني لسكان بلاد المغرب القديم.

أ-فرضية الأصل المحلي:

في هذه الرواية التي تعتبر الليبيين أصليين تماما، يشير أفلاطون في كتابه "Le Timée" إلى أن الأطلنتيس (الأطلنط) (l'Atlantide) كانت قارة واسعة، وبأن الليبيين كانوا يحافظون بها على اقليم اثني خاص بهم[3]. فمملكة جزيرة الأطلنتيس تكون حسب هذه الرواية قد بسطت نفوذها على ليبيا وحاولت غزو غزو مصر وبلاد اليونان، ولكن المياه غمرتها في آخر الأمر[4]. لكن هذه الرواية لا تعدو أن تكون أسطورة وتفتقر إلى الدلائل التي تؤكدها.

ب- فرضية الأصل الايجي:

وهو رأي هيرودوت، ديودور الصقلي وبلوتارك، حيث أن ما يدعم هذه الفرضية هو وجود علاقات باكرة جدا بين الايجيين وبلاد المغرب القديم. ذلك أن بقايا الفخار المغاربي تشبه كثيرا الفخار المتواجد بالبحر المتوسطي الشرقي[5]. وعموما فإن هذه الفرضية قد ارتكزت على قول هيرودوت بأن قبائل الماكسي (Maxyes) الذين صنفهم من المزارعين ومواطنهم غربي بحيرة تريتون (خليج قابس)[6] ادّعوا أنهم نزلوا من الطروادين، وانه على صدى هذه الفرضية انتشرت تأكيدات عدة في العالم القديم، مثلما أشار هيكاتايوس إلى مدينة "Cubos" التي أسسها الأيونيون قرب "هيبو أكرا" (Hippou Akra)، وهي عنابة الحالية. كما

---

(1) محمد البشير، شنيتي : الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 58.

(2) Peyronnet. Raymond, le problème nord-africain, T. 1, Peyronnet et Cie Editeur, 2ème édition, Paris, 1924, p. 100.

(3) Ibid ; Africa, l'Afrique du nord dans l'antiquité, 1961, (sans page).

(4) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 70.

(5) G. Camps, les Berbères mémoire et identitée, p. 46.

(6) محمد البشير، شنيتي: نفسه، ص 59.

كانت في نفس المنطقة تقع مدينة"Merchela" التي كانت حسب ديودور الصقلي ذات تأسيس اغريقي[1]، كما ذكر بطليموس[*] أن من بين سكان موريطانيا الطنجية اغريق من الموسيني (Muceni)، وهي رواية شبيهة برواية بلوتارك الذي، واعتمادا على يوبا الثاني، ذكر أن هرقل (Héraklès) قد ترك قسما من الألبينيين (Olbiens) والميسينيين (Mycéniens) في شمالي موريطانيا الطنجية[2].كما أنه لا يجب أن ننسى بأن الاغريق قد تواجدوا بسواحل ليبيا القارة منذ القرن السابع قبل الميلاد، واستمر هذا التواجد إلى الفترة البيزنطية بإقليم برقة، رغم أن هذه المنطقة مثل بقية شمال افريقيا كانت مأهولة بقبائل من أصل ليبي، وأن العلاقات بين الاغريق في برقة وجيرانهم الليبيين مرت بتقلبات عدة خلال فترة تعايش طويلة بين الطرفين رغم ضعف الاشارات التاريخية حولها[3].

وإذا عدنا إلى أصل هذا الزعم حول الأصل الايجي (الاغريقي) لليبيين، والتي كان أصلها عند هيرودوت، نجد بأن هذه الرواية التي تجعل أصول بعض القبائل الليبية آسيوية، ليست وحيدة فيما يتعلق بنسبة المغاربة إلى المشرق، إذ يذكرنا هيرودوت بما جاء في أشعار فيرجيلوس الروماني حول رحلة الملك الضائع "أوليس" العائد من حرب طروادة ونزوله بشواطئ بلاد المغرب، وما كان من أمره مع أهل البلاد، مما يقلل من استغراب الرواية ويبعث على احتمال الهجرات من الشرق إلى الغرب، وليس هناك عائق منهجي يمنع الأخذ بهذا الاحتمال، إذ تذكرنا أن الرواية التي تنسب أجداد الرومان إلى الطرواديين قد ظلت حجر الرواية في البناء التاريخي للشعب الروماني، فسيطرت على أذهان المؤرخين عبر العصور، فالدوافع والوسائل التي أوصلت الأتروسك إلى ايطاليا لا يستبعد أن ترمي بالماكسي إلى شواطئ بلاد المغرب القديم[4].

ج- الأصل المشرقي:

يمكننا أن نميز في هذا الاتجاه أولا ما رواه سترابون الذي أورد بأن الليبيين الأوائل قد تعرضوا لغزو هندي، وأن المور ينتسبون على هذا الأساس إلى أصل هندي، جاؤوا ضمن حملة هرقل[5]. وقد أكد يوسيفوس

---

(1) G. Camps, Op. Cit, p. 43.

(*) "هناك عدة أسماء اصلها تراقو –ايجية (thrago-phrygien)بين مصر والسرت الصغرى مثل اقليم المارماريد (Marmaride) الذي امتد من مصر إلى غاية اقليم النسامون في الغرب. فسترابون يعطيها ايضا تسمية Marmaride ، أما بطليموس فيعرّفها تحت اسم marmarique . فالملاحظ أن عدة أسماء من البحر الايجي يبدو أنها قد تشكلت بواسطة المصطلح marmar مثلما هي مدينة من بيسيديا(Pisidie) قد سميت Marmara، كذلك جزيرة "ايفيا" (Eubée)كانت تضم مدينة Marmarion، وأيضا نجد بحر من المنطقة التراقو-ايجية يحمل حاليا اسم marmara".(للمزيد أنظر: L . Bertholon, « Essai sur la répartition des premiers colons de souche européenne dans l'Afrique du Nord moins la tunisie actuelle d'après l'onomastique », Rev. T, N°. 22, Avril 1899, imprimerie rapide (Louis Nicolas et Cie), Tunis, p.125)

(2) محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص 189.

(3) Olivier. Masson,, « Grecs et libyens en Cyrénaique d'après les témoignages de l'épigraphie », Ant. Afr, T. 10, 1976, p. 49.

(4) محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 59.

(5) Cauvet. Le commandant, « les origines orientales des berbères », B. S. G. A. A. N, 32ème année, 1ère trimestre, 1927, N°. 109, Vol. XXVIII, imprimerie algérienne, Alger, 1927, p. 117.

يوسيفوس "Josèphe" من بعده (القرن الأول ميلادي) هو أيضا الأصل المشرقي (الهندي) لليبيين[1]. فقد صرّح هذا المؤرخ بأن أحد أبناء كوش(Koush)، وهو المسمى "Euilas يكون أبا للـ Euilaioi الذين كانوا يسمون في عصره بالجيتول [2] (Gaetuloi)، وعلى هذا الأساس ذهب بعض الباحثين إلى تأكيد رأي يوسيفوس بالقول أن الجيتول كانوا أحفاد جات (Djats) من الهند، الذين قد اختلطوا على حواف البحر الأسود مع عناصر طورانية قبل أن ينزلوا إلى افريقيا[3].

وهكذا حاول بعض الباحثين المحدثين اثبات هذا الانتساب الهندي ببراهين علم الوراثة، ولكن لم يصلوا إلى حقيقة علمية. وبعضهن تتبع أسماء الأماكن القريبة في صيغتها أو المطابقة لاسم بربر من الهند إلى افريقيا الشمالية، مرورا بالجنوب العربي والصومال وبلاد النوبة[*]، وأرقوا أنفسهم دون طائل، لأن اسم بربر في الواقع، كعلم على شعب بالمفهوم الذي نعرفه اليوم، بدأ مع الفتح الاسلامي لبلاد المغرب[4]. لكن أبرز روايتين في المصادر القديمة، والتي تتحدث عن الأصل المشرقي لسكان بلاد المغرب القديم هي روايتي سالوست وبروكوب من بعده.

رواية سالوست: يرى الكثير من المؤرخين أن رواية سالوست حول توغل الفرس والميديين والأرمن في افريقيا بعد موت هرقل ليست سوى أسطورة لا نصيب لها من الصحة[5]. فسالوست أشار إلى أن افريقيا في أول الأمر كان يسكنها شعبان، الجيتول والليبيون، قساة يتغذون من لحوم الوحش ويأكلون العشب مثل الحيوانات، لا يخضعون لا إلى عادات ولا لقوانين، لكن بعد موت هرقل في اسبانيا[6] انتقل أفراد جيشه من الميد والأرمن والفرس إلى افريقيا، فامتزج الميد والأرمن بالليبيين، بينما امتزج الفرس بالجيتول[7]، ونتيجة للمزج الأول ظهر المور الذين سرعان ما أصبحت لهم مدنا، بينما اضطر الجيتول والفرس إلى حياة الترحال، وعرفوا بالرحل (Nomades)، غير أن قوتهم تزايدت وتمكنوا تحت اسم النوميد من فتح كامل البلاد حتى حدود قرطاجة[8].

---

(1) Peyronnet. Raymond, le problème nord-africain, T. 1, p. 10.

(2) G. Camps, les berbères mémoir et identité, p. **43**.

(3) Cauvet. Le commandant, Op. Cit, p. 118.

(*) " يقول كامبس في هذا الصدد بأن الارتكاز على الأصل الهندي للمور نجد دلائل له مثلا في اسم بربر الذي يماثل الـwarlevara القدماء جدا الذين كانوا يشغلونDekkan. وكذلك يماثل باربارة Berbera في الصومال، وكذا البرابرة les barabra(مفرد berber) الذين يسكنون بين الشلال الأول والرابع للنيل" (للمزيد أنظر:G. Camps, Op. Cit, p. 45)

(4) محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص 189.

(5) Africa, l'Afrique du nord dans l'antiquité , شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 71.

(6) Salluste, Guerre de Jugurtha, **XVIII**.

(7) Rozet et Carette, Algérie. Etat tripolitaine, Tunis. L'univers ou histoire et description de tous les peuples, Firmin Didot frères Editeurs, imprimerie de l'institut, Paris, 1850, p. 20 .

(8) محمد الهادي، حارش: التاريخ المغاربي القديم، ص28.

ويبدو أن هذه الأسطورة أسالت حبر كثير من النقاد حول مصدرها، لأن سالوست نفسه يشير إلى ان مصدر معلوماته في هذه الرواية هي الكتب القرطاجية المنسوبة إلى هيمبصال (Hiempsal)[1]، وهذا ما دفع بأولئك النقاد إلى القول بأن حملة هرقل في الغرب المتوسطي من أصل فينيقي، وأن هذه الأسطورة حول توغل أفراد جيشه إلى افريقيا نجدها في عبادة هرقل البوني، وهو الاله "ملقرط" (أو أميلقار) (Melkarth) لمدينة صور، وأن عبادته قد انتشرت في اسبانيا وافريقيا بفضل المستوطنات القرطاجية بها. وفيما يخص فرق من الفرس(Perses)، الميد والأرمن، فإن هذا التواجد يفسره اسم "البيرورسي" (Pérorses) والفاروزيون (Pharusiens)، تلك القبائل التي أشارت اليها المصادر القديمة، مثل بلينوس الكبير، على حواف المحيط الأطلسي، وبهذا فإن تسمية المور ليست أبدا اشتقاق أرميني من اسم الميد، وأن أصل تسميته —مثلما أشرنا سابقا– تعود إلى كلمة "ماحوريم" التي أعطاها التجار الفينيقيون إلى الشعوب البعيدة غربا[2].

ومهما اختلفت الرؤى حول مدى صحة رواية سالوست في الأصل المشرقي لسكان بلاد المغرب القديم، فإن نص سالوست حول الهجرات المشرقية إلى بلاد المغرب يؤكد أن هذه المنطقة كانت منفتحة على بلاد المشرق منذ عصور قديمة، وأن سكانها مدينون بنسبة عالية منهم إلى هذا التوافد المشرقي الذي تعددت أسبابه[3]. كما يفيدنا نصه كذلك في السبق الذي منح لليبيين والجيتول كأوائل السكان للمنطقة، حيث ذهب ذهب البعض إلى ربطهم بشعوب ما قبل التاريخ، ومقابلة هذه الرواية بالمعطيات الأنتروبولوجية في موضوع أصول سكان بلاد المغرب القديم. إذ نجد سلالتين قد تقاسمتا البلاد المغاربية أواخر ما قبل التاريخ خاصة خلال النيوليتي: انسان المشتى الذي كان امتداده ساحليا، والانسان القفصي أو الفجر متوسطي الذي احتل المناطق الداخلية التي ستصبح فيما بعد مناطق تنقل الجيتول[4].

رواية بروكوب: ورد عند بروكوب الذي عاش خلال القرن السادس للميلاد، بأن افريقيا قد عمّرتها أمم طردت من فلسطين من قبل العبرانيين[5]. فالعبرانيون بعد خروجهم من مصر وصلوا حدود فلسطين، وعندما رأى الفينيقيون المتمركزون في المنطقة الممتدة من صيدا إلى غاية مصر بأنهم لا يقوون على مقاومة أولئك العبرانيين الغزاة، تراجعوا في البداية نحو مصر، ولأنهم وجودها مكتظة مروا إلى افريقيا وشغلوا هذه البلاد إلى غاية مضيق قادس، وأسسوا مدنا عدة، فالسكان يتكلمون إلى اليوم اللغة الفينيقية، لكن قبل وصولهم إلى افريقيا كانت هذه الأخيرة مأهولة بشعوب أخرى انجرّت اليها منذ قرون[6]. فهذه الرواية شبيهة بما ورد عند

(1) Salluste, Guerre de Jugurtha, XVII.

(2) H. Tauxier, « Tradition sur les origines du peuple berbères, Rev, Afr, Vol. 6, 1862, p. 355.

(3) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 60.

(4) محمد الهادي، حارش: نفسه، ص 29.

(5) E. Mercier, Histoire de l’Afrique septentrionale depuis les temps les plus reculés jusqu’à la conquête française, p. XXII.

(6) Procope, Vandale, II, 10, 2.

سالوست من هجرات شرقية نحو بلاد المغرب القديم، وان اختلفت الروايتان في مصدر هذه الهجرات، فقد ورد في كلتا الروايتين فصل بين فئتين من سكان بلاد المغرب، وهما فئة الأهالي المقيمين بالمنطقة قبل تلك الهجرات، وفئة الوافدين من الشرق. ويظهر أن رواية بروكوب المتأخرة عن رواية سالوست أكثر دقة، لأنها اعتمدت على مصادر أكثر تنوعا وصدقا، سيما منها المصادر العبرية التي لم ترد عند سالوست[1]. إذ يبدو أن رواية بروكوب صادرة عن بيئة يهودية متأثر باليونان، ونجد صداها في مؤلفات المؤرخين العرب[2]، ذلك أن مصادر الرواية العربية حول أصول البربر لا يستبعد أن يكون لها علاقة بالمصادر المسيحية واليهودية بعد أن أسلم كثير من هؤلاء فنقلوا إلى العرب كتابيا أو شفويا[3].

2-3 السكان من خلال المصادر العربية:

تتفق المصادر العربية على نمط التفكير القديم الذي ساد قبلهم حول أصول سكان بلاد المغرب في الاعتقاد بالنظرية المشرقية التي تعود بالبربر إلى نسب أبوي مشرقي من خلال نسج عدة أساطير حول أصولهم[4]. فالمؤرخون العرب انتهجوا هذا النحو لأن آفاق تفكيرهم محدودة، فهم لا يعرفون تقريبا إلا القسم الغربي من آسيا، وبما أن سكان بلاد المغرب يشبهون في ملامحهم سكان هذه المنطقة غالبا، وبهذا فهم من أصل يمني أو فلسطيني. حيث يصر أولئك المؤرخون في القول بأنهم قدموا من اليمن أو من فلسطين عبر مصر، وأنهم أول من استوطن هذه المنطقة (بلاد المغرب) بعد العصور الحجرية[5].

ومن أبرز أولئك المؤرخين العرب نجد الطبري في كتابه "تاريخ الرسل والملوك"[6] الذي يرجع أصول سكان بلاد المغرب القدامى إلى أقوام من اليمن وأخرى من عرب الشام في هجرة واحدة نحو هذه المنطقة[7]. وتضاف اليها رواية ابن عبد الحكم القائل: "وكان البربر في فلسطين... حتى بلغوا السوس"[8]، التي تؤكد بدورها ظاهرة الهجرة نحو بلاد المغرب انطلاقا من بلاد الشام كلما حلّت بأهلها ضائقة. وكذا ما قاله اليعقوبي[9] الذي فصل في روايته بين البربر والأفارقة وتفصّل القول في الموانع التي حالت دون استقرار البربر بمصر، وتجعل من سكان مصر إخوة للبربر والأفارقة، على أن مجمل هذه الرواية يدور حول الأصل المشرقي لأولئك السكان رغم ما نجده فيها من تعارض في هذا الإنساب، حيث قال بعضهم بأنهم يمنيون، وقال

([1]) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 62.

([2]) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 71.

([3]) محمد البشير، شنيتي: نفس المكان.

([4]) G. Camps, Op. Cit, p. 43.

([5]) عبد الكريم، غلاب: المرجع السابق، ص 33.

([6]) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج1، ط2، ذخائر العرب –دار المعارف، ص 442.

([7]) محمد البشير، شنيتي: نفسه، 65.

([8]) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص170.

([9]) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج1، ص 190.

البعض الآخر بأنهم كنعانيون[1]، وهو ما ورد عند المسعودي[2] بأن موطن البربر كان بفلسطين، وأنهم كانوا تحت إمرة جالوت عندما حاربهم طالوت على رأس جيش من بني اسرائيل[3].

لكن أهم وأبرز رواية جاءت بعد أولئك المؤرخين والاخباريين العرب، ما نجده عند ابن خلدون الذي دحض هذه الآراء، حيث كذّب أولا في أن يكون البربر من ابناء ابراهيم عندما قال: " واعلم أن هذه المذاهب كلها مرجوحة وبعيدة عن الصواب، أما القول بأنهم ولد ابراهيم فبعيد، لأن داوود الذي قتل جالوت وكان البربر معاصرين له ليس بينه وبين اسحاق ابن ابراهيم أخي نقشان الذي زعموا أنه أبو البربر إلا نحو عشرة آباء ذكرناهم". كما فنّد ما ورد بشأن جالوت وأن البربر أتوا من ديار الشام عندما قال: "أما القول بأنهم من ولد جالوت أو العماليق وأنهم أتوا من ديار الشام وانتقلوا فقول ساقط"[4].

وبهذا فقد ظهر ابن خلدون في أقواله بشأن أصول البربر وكأنه ينفي انتسابهم إلى العرب، ولكنه يشير إلى أن انتساب بعض شعوبهم إلى العرب في قوله: "هذه كلها مزاعم، والحق الذي شهد به المواطن والعجمة أنهم بمعزل عن العرب إلا ما تزعمته نسابة العرب في صنهاجة وكتامة، وعندي أنهم من اخوانهم" أي البربر. ومع كل تفنيداته تلك فإن ابن خلدون لم يتخلص من الأصل المشرقي الكنعاني لسكان بلاد المغرب[5]، عندما عندما يخلص إلى ما يلي: "والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح، كما تقدم في أنساب الخليقة، وأن اسم أبيهم مازيغ واخوتهم أركيش وفلسطين اخوانهم بنو كسلوجيم بن مصرايم بن حام، وملكهم جالوت سمة معروفة له"[6]. يمكن أن نفسر الأسطورة التي أوردها ابن خلدون وغيره حول انحدار البربر من الكنعانيين الذين طردهم اليهود من فلسطين في تلك الذكرى البعيدة التي يكون الأفارقة قد احتفظوا بها لنزول الفينيقيين على سواحل بلاد المغرب أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد[7].

يمكننا أن نختم روايات المؤرخين العرب في ما ورد عند الحسن الوزان (ليون الافريقي)[8] الذي أورد شيئا جديدا في أصول سكان المنطقة المغاربية، وهو الأصل الآسيوي الذي يراه في أولئك الذين نزحوا إلى بلاد اليونان ومنها إلى بلاد المغرب بسبب ضغط شعوب أخرى عليهم، حيث تذكرنا هذه الاشارة للحسن الوزان

([1]) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 66.

([2]) المسعودي: مروج الذهب، ج1، 1984، ص 68.

([3]) محمد البشير، شنيتي: نفس المكان.

([4]) عبد الرحمان، ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،مج6، منشورات دار دار الكتاب اللبناني، بيروت-لبنان، 1968، ص 190.

([5]) محمد الهادي، حارش: "أصول البربر من خلال معطيات ما قبل التاريخ والنصوص القديمة"، حولية المؤرخ، ع6، اصدار اتحاد المؤرخين الجزائريين، الجزائريين، جويلية 2005، الجزائر، ص 47-48.

([6]) عبد الرحمان، ابن خلدون: المصدر نفسه، ص 191.

([7]) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 50.

([8]) الحسن بن محمد الوزان، الفاسي (ليون الافريقي): وصف افريقيا، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ج1، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الاسلامي، 1983، ص 35.

بالأصول الآسيوية لسكان جزيرة كريت وما كان من أمر نزوحات شعوب شمال غرب آسيا نحو أرخبيل البحر الايجي وبلاد الاغريق في الفترة السابقة للعصر الاغريقي (الألف الثالثة وأوائل الألف الثانية قبل الميلاد)، كما تجعلنا نربطها بما ورد عند هيرودوت في الأصل الطروادي لبعض الأفارقة.[1]

ويبدو أن صدى كل هذه الروايات والأساطير القديمة والوسيطية نجده عند المؤرخين المحدثين في معالجتهم لأصول سكان بلاد المغرب وما تولّد عنهم من نظريات أهمها: الأصل الشرقي والأصل الهندو أوربي. ويمكننا أن نتكلم كذلك عن الأصل المحلي الذي اعتمد فيه على علم الآثار ومخلفاته العظمية البشرية التي عاشت بالمنطقة خلال ما قبل التاريخ وفجر التاريخ.

([1]) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 67.

ثانيا: أصول السكان من خلال الآثار

1- المعطيات الانتروبولوجية حول السكان:

عرف الشمال الافريقي مثل بقية العالم خلال ما قبل التاريخ تتابعا لأنواع أنتروبولوجية مختلفة[1] ، وإن أقدم المواقع التي تعكس نشاطا بشريا، ما تركه لنا موقع عين الحنش بسطيف (العلمة) بالجزائر العائد إلى فجر الباليوليتي (2 مليون سنة ق.م)، وهي حضارة الكويرات الحجرية الضخمة والمهيأة التي تشهد على وجود البشر[2]. ولأن التنقيبات الأثرية لم تعثر على بقايا عظمية بشرية بهذا الموقع، فإن أقدم سلالة بشرية في بلاد المغرب تبقى انسان الأطلس (أطلنتروبوس موريتانيكوس/ Atlanthropus mauritanicus).

أ-إنسان الأطلس: عثر عليه بموقع تغنيف بـ باليكاو وبالقرب من معسكر (الجزائر)، وكذلك بالمغرب الأقصى بموقعي صالي والرباط، لكن حضارته تنتشر في كل شمال افريقيا[3]، وهي الحضارة الآشولية التي مثلت الباليوليتي الأسفل. فقد احتوت رملية تغينيفين بالقرب من باليكاو على بقايا فونة قديمة تعود إلى الزمن الرابع، تتكون من ثلاث فكوك سفلى في حالة جيدة وجزء من جدار الجمجمة، وبعض الأسنان المفككة.

أما الوثائق البشرية الأخرى العائدة إلى انسان الأطلس فقد اكتشفت بالمغرب الأقصى، وتتمثل في قطعتين من فك اسفل عثر عليها في ردوم احدى المغارات من المقالع الحجرية بسيدي عبد الرحمان على بعد بضع كيلومترات من الدار البيضاء. كما عثر في مقلع الحجارة الرملية بالقرب من الرباط (120 ألف سنة ق. م) على بقايا لقوس جمجمة وبقايا فك أعلى وفك أسفل شبه كامل. اضافة إلى ما عثر عليه بمغارة تيمارا على بعد 10 كم جنوب غرب الرباط من فك أسفل شبه كامل.

ويبدو أن بشر الأطلس في بلاد المغرب كوّنوا مجموعة انتشرت أثناء جزء من الفترة الآشولية[4] ، وقد تبيّن من الدراسة التشريحية الدقيقة أن تلك الوثائق تتميز بطابعها الخاص عن كل الأجناس البشرية الحالية وعن أجناس ما قبل التاريخ، باستثناء الانسان البدائي المتمثل في بقايا انسان نياندرتال، وهو ما أدى إلى الاعتقاد بتقريب الانسان الأطلس إلى الكائنات الموغلة في القدم، كالإنسان المكتشف بـ جاوة (أندونيسيا) (le pithicanthrope)والصين (Sinathrope)[5]. فإنسان الأطلس إذن، مثّل دليلا كافيا على وجود الانسان المغاربي منذ الباليوليتي الأسفل، وهذا التواجد البشري لم ينقطع، بل تواصل خلال الباليوليتي الأوسط مع ما يعرف بالإنسان العاتري.

(1) Y. Lacoste. A. Noushi. A. Prenant, l'Algérie passé et présent, p. 65.

(2) Ibid. p. 65.

(3) محمد، سحنوني: ماقبل التاريخ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص 57.

(4) ك، ابراهيمي: تمهيد حول ماقبل التاريخ في الجزائر، ترجمة محمد البشير شنيتي ورشيد بورويبة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص ص 25، 26.

(5) ليونال، بالو: الجزائر في ما قبل التاريخ، ترجمة وتقديم محمد الصغير غانم، دار الهدى، عين مليلة –الجزائر، 2005، ص57.



صورة رقم 1: جزء من فك أسفل للإنسان المنتصب، مقلع طوما (الدار البيضاء، المغرب الأقصى)، الفترة الآشولية

(صورة أخذت من طرف الباحثة، منحف الآثار، الرباط)

ب–الانسان العاتري: يميز هذا الجنس البشري مرحلة الباليوليتي الأوسط التي يفترض وقوعها بين حوالي 40000 و 25000 سنة قبل الميلاد، حيث ارتكزت خلالها في بلاد المغرب حضارتان هما الحضارة الموستيرية والعاترية، هذه الأخيرة التي يحتمل أنها أكثر حداثة من الأولى. وعلى الرغم من كثرة المواقع العاترية بشمال افريقيا، إلا أنه لا يوجد من بينها موقع احتفظ ببقايا بشرية، لذلك فإن صانع الحضارة العاترية ينسب إلى الجنس البشري صانع الموستيرية على قلة مواقعها. فقد وجد بمغارة جبل ارحود بالمغرب الأقصى على جمجمتين وجزء من جدار جمجمي ضمن أدوات موستيرية تعود إلى انسان نياندرتال[1] الممثل للباليوليتيك الأوسط بأروبا والمعاصر للموستيرية في بلاد المغرب القديم. فإنسان نياندرتال يعتبر الأكثر انتشارا في كل العالم خلال الباليوليتيك الأوسط، فقد عثر عليه بالشرق الأوسط في فلسطين بجبل الكرمل، وبالعراق بموقع شانيدار، وبالصين كذلك. أما عن بقاياه الوحيدة التي وجدت بشمال افريقيا فتتمثل في جمجمة انسان جبل ارحود الذي اكتشف بالمغرب الأقصى –كما ذكرنا–حيث يتشابه مع انسان نياندرتال من حيث الجمجمة ويختلف معه من ناحية الوجه[2]. واذا كانت بعض الأبحاث الحديثة قد بينت أن انسان جبل ارحود (أو جبل ايغود) لا علاقة له بالنياندرتال، سيما على المستوى الفيزيولوجي، فإن هذا النوع البشري ما يهمنا منه هو أنه يجمع بين سمات عتيقة توجد في الانسان المنتصب القامة (Homo erectus) الذي عكسه انسان الأطلس خلال الباليوليتي الأسفل ببلاد المغرب، وصفات حديثة نجدها في الانسان العاقل العاقل، إذ يمكن اعتباره صلة وصل بينهما، فهو يتميز بتطور

([1]) ك، ابراهيمي: المرجع السابق، ص 51.

([2]) محمد، سحنوني: المرجع السابق، ص 63.

محلي للإنسان المغاربي عموما، من الإنسان المنتصب إلى الانسان العاقل ولا يوجد بذلك فراغ في سلسلة التطور البشري ببلاد المغرب[1] .

إلى جانب هذا، فإن اكتشافا لبقايا الانسان العاتري –ربما من طرف "Débenath" في دار السلطان (الرباط) سنة 1975، أعطى دليلا للمختصين في أن الانسان العاتري كان انسان عاقل عاقل (Homo sapiens sapiens)، ولكنه أقدم من انسان كرومانيون (cro-magnon)في أوربا، ويقدم تناظرا كافيا مع الانسان الموستيري لجبل ارحود، حتى أنه أمكن القبول بأنه نازل منه وأنه كذلك تم اكتشاف وجود بنوة بين هذا الانسان العاتري وخلفه في بلاد المغرب وهو انسان مشتى العربي[2] الذي مثّل الموجة البشرية التي عاشت في بلاد المغرب خلال الباليوليتي الأعلى.



صورة رقم 2: جمجمة الانسان العاقل القديم (جبل ايغود–آسفي) يعود للفترة الموستيرية

(صورة أخذت من طرف الباحثة ،متحف الآثار، الرباط)

(1) مصطفى، أعشي: جذور بعض مظاهر الحضارة الأمازيغية خلال عصور ماقبل التاريخ، ط1، مركز طارق بن زياد–الرباط، ديسمبر، 2002، ص 14.

(2) G. Camps, les Berbères mémoire et identité, p. 53.

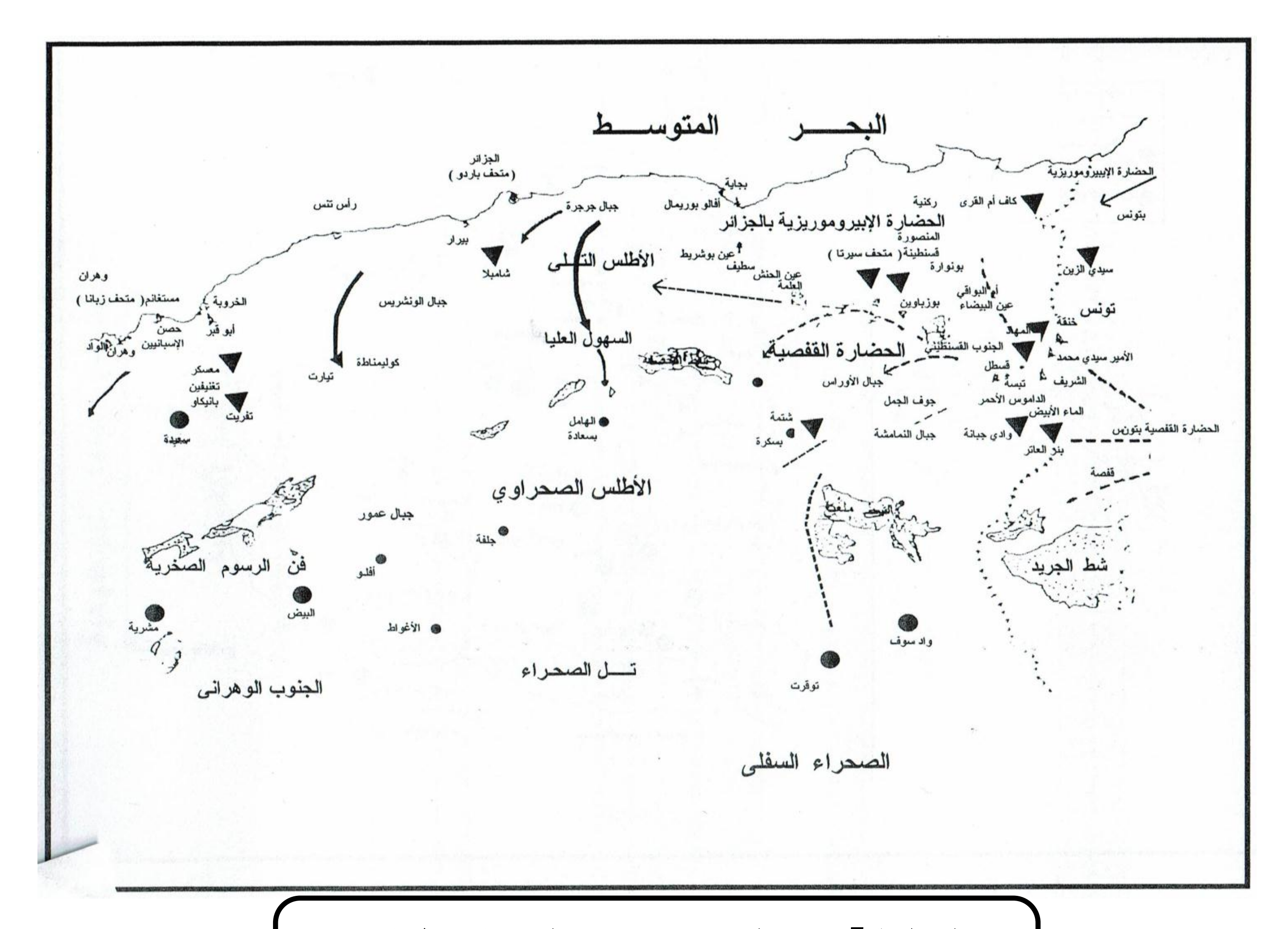


صورة رقم 3: جمجمة الانسان العاقل العاقل، دار السلطان 2 (الرباط)، الفترة العاترية

(صورة أخذت من طرف الباحثة، متحف الآثار، الرباط)

ج– الانسان المشتوي: عرفت بلاد المغرب القديم كغيرها من المناطق العديدة في العالم ظهور الانسان العاقل حيث يتوافق هذا النوع البشري مع العصر الحجري القديم المتأخر (الباليوليتي الأعلى) الذي ميّزته حضارتين متمايزتين هما الايبرومغربية والقفصية، وبهذا فالإنسان العاقل العاقل ببلاد المغرب ينقسم إلى سلالتين وفق هاتين الحضارتين، وهما انسان مشتى أفالو أو مشتى العربي، وهو صاحب الحضارة الايبرومغربية، والسلالة الثانية تعرف بإنسان ما قبل المتوسطي، وهو صاحب الحضارة القفصية[1].

[1] محمد، سحنوني: المرجع السابق، ص 66.



الخريطة رقم7 : انتشار الحضارتين الابيرومغربية والقفصية في شمال افريقيا

عن: ليونال، بالو، الجزائر في ما قبل التاريخ، 2005، ص 181

وسنتحدث أولا عن الانسان الايبرومغربي(أو الايبروموريزي) الذي عاش بشمال افريقيا ما بين 20 ألف[*] و 8000 سنة ق.م، وجدت بقاياه في مناطق متعددة من بلدان شمال افريقيا، من المحيط الأطلسي غربا إلى ليبيا شرقا[1]. وقد اعتقد الباحثون أن انسان مشتى العربي غير أصيل وأنه إما قدم من أروبا، حيث اجتاز اسبانيا ومضيق جبل طارق حتى ينتشر في نفس الوقت في بلاد المغرب وجزر الكناري، وإما قادم من الشرق، حيث أن أصله كان من الانسان العاقل الذي ظهر في فلسطين، وأنه من هذا المحيط الأصلي (فلسطين) قد انطلقت هجرتين، إحداها فرع أوربي قد أعطى انسان كرومانيون، وفرع افريقي نتج عنه انسان مشتى العربي[2]، وبالتالي يلاحظ منذ ذاك تناوب الأصل الشرقي والأصل الأوربي في الروايات والفرضيات المقدمة حول أصول سكان بلاد المغرب.

في فحصهم لهذه النظرية، وجد الباحثون بأن جماجم الباليوليتي الأعلى في أوربا (كرومانيون) لها صفات أقل وضوحا من خلفائهم المفترضين في بلاد المغرب، وأن نفس الحجة يمكنها أن تعترض أصول الانسان المشتوي العائدة إلى الشرق الأوسط، إذ لا يوجد أي أثر أنتروبولوجي بين فلسطين وتونس يمكنه تدعيم هذا الرأي، كما أن سكان الشرق الأوسط أواخر العصر الحجري القديم الأعلى هم الناطوفيون من صنف الفجر متوسطي، الذين يختلفون تماما عن انسان المشتى، وبهذا لا يمكن تفسير ما إن كان لهذا الأخير (انسان المشتى) انحدار شرق أوسطي بأن يكون أسلافهم قد غادروا كلية هذه المناطق دون أن يتركوا أدنى أثر من الناحية الانتروبولوجية[3].

ويبقى إذن الأصل المحلي هو الأرجح لإنسان مشتى العربي، فالواضح اليوم ومنذ اكتشاف الانسان العاتري (دار السلطان)، أن الانتروبولوجيون المختصون بالشمال الافريقي قد اعترفوا اليوم ببنوة مباشرة مستمرة، منذ النياندرتاليين المغاربة (انسان جبل ارحود) إلى جماجم انسان مشتى العربي. فالإنسان العاتري لدار السلطان سيكون الوسيط بينهما، مع تلقيه لخصائص الانسان العاقل العاقل[4]. ورغم أن انسان مشتى العربي قد اختفى تدريجيا أمام بشر آخرين (الفجر متوسطيون القفصيون) إلا أن اختفاءه لم يكن تاما، حيث لاتزال توجد نسبة 8% من سلالة مشتى العربي من بين الجماجم المحتفظة لهياكل فجر تاريخية وبونية، وحتى من الفترة الرومانية ببلاد المغرب، مما يرجح وضع انسان مشتى العربي من بين الأجداد المباشرين لسكان بلاد المغرب القديم (البربر)[5]. هذا عن السلالة الأولى التي ميزت الباليوليتي الأعلى المتأخر في بلاد المغرب، أما السلالة الثاني فهي الانسان القفصي.

(*) "الحضار ة الايبيرو مغربية تؤرخ بدايتها بحوالي 12.320 سنة ق. م في موقع مغارة راسل (شنوة-الجزائر)، بينما يعود أحدثها إلى حوالي الألف التاسعة ق. م، ولكن لا يوجد ما ينفي القول بقدم هذه الحضارة وتجاوزها لهذه البداية وتواصلها فيما بعد الألف التاسعة ق. م" (للمزيد أنظر: ك، ابراهيمي: المرجع السابق، ص 56. J. Desange, « les proto berbères »,Histoire générale de l'Afrique , T. II. Afrique ancienne, Unesco/ NEA, 1989, p. 453-454).

(1) مصطفى، أعشي: جذور بعض مظاهر الحضارة الأمازيغية خلال ما قبل التاريخ، ص 16.

(2) G. Camps, Op. Cit, p. 54.

(3) محمد الهادي، حارش: " أصول البربر من خلال معطيات ماقبل التاريخ والنصوص القديمة"، ص 41-42.

(4) G. Camps, Ibid , p. 55.

(5) Ibid, p. 56.



صورة رقم 4: جزء من جمجمة الانسان العاقل العاقل، دار السلطان 2 ، الرباط (الحضارة الايبيروموريزية)

(صورة أخذت من طرف الباحثة، متحف الآثار، الرباط)

د- الفجر متوسطيون القفصيون: رغم أن الهياكل العظمية المكتشفة بالمواقع القفصية لم تحظ بمواصفة دقيقة، إلا أن القفصيين ينتسبون، مثل انسان المشتى، إلى الانسان العاقل، لكنهم من سلالة مغايرة لسلالة الانسان المشتوي[*]. وبناءا على البيئة العامة لهياكلهم العظمية، فإنهم يقتربون من المتوسطيين الحاليين، ولهذا أطلق عليهم اسم أوائل المتوسطيين[1]. إذ نلاحظ أنه انطلاقا من الألف الثامنة قبل الميلاد، قد ظهر بالجزء الشرقي من بلاد المغرب هذا النوع الجديد من الانسان العاقل الذي تأهل إلى الفجر متوسطي، قد أخذ مكان انسان مشتى العربي تدريجيا، إذ ظهروا أولا في الشرق، في حين أن الجزء الغربي من بلاد المغرب كان لايزال يغلب عليه انسان المشتى، لكن هذا التطور للإنسان القفصي من الشرق إلى الغرب، أدى بالباحثين إلى القول بضرورة البحث هناك على حدود بلاد المغرب الشرقية عن أصل هذا النوع الفجر متوسطي، إذ اتفق جمع من المختصين على الاعتراف بقدومه من الشرق الأدنى[2]، أومن النيل خصوصا[3]، لكن هذا لم يمنع بعض الأصوات من إعطاء وجهة نظر جديدة حول أصله، أكثر اتساقا، عن طريق الحضور المنهجي لأشخاص ذوو خصائص مشتوية في عدة مواقع قفصية، مما أدى إلى القول بفرضية الأصل المحلي للقفصيين، والتي تجعل الايبيروموريزيين أجدادهم المباشرين[4]. وإلى هذا نضيف بأنه لا توجد قطيعة أنتروبولوجية بين النيوليتي ما بعد القفصي (Post-capsien) والعصور التاريخية[5]. فالقفصيون هم في الأغلب يتوضعون في أصل الاثنية البربرية نتيجة عوامل أنتروبولوجية وثقافية متنوعة[6]، وكذلك نتيجة بقايا آثارهم ومقابرهم التي وجدت في عدة مناطق.

(*)" أظهرت مقارنة النوعين، إنسان المشتى وأوائل المتوسطيين بعض الاختلافات، فالإنسان القفصي أقل خشونة وبدائية في مجموعه من قريبه الايبيرومغربي، ذلك أن النتوءات العظمية التي تتعلق بها العضلات في الرقبة وعلى الفكين اقل قوة، ومحيط الجمجمة فيه إهليلجي الشكل، بينما الوجه أكثر استقامة واستدارة" (للمزيد انظر: ك، ابراهيمي: المرجع السابق، ص 87. محمد، سحنوني: المرجع السابق، ص 69).

(1) ك، ابراهيمي: نفسه، ص 86.

(2) G. Camps, Op. Cit, p. 57.

(3) Malika. Hachid, les premiers Berbères entre Méditerranée. Tassili et Nil, éd. Ina-Yas, Alger, 2001, p. 26.

(4) Jorge Onrubia. Pintado, « les premiers berbérophones : linguistique, génétique, anthropologie, archéologie », تاريخ الأمازيغ، الندوة الدولية حول تاريخ الأمازيغ، ج1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، أكادير-المملكة المغربية، 2000، ص 50.

(5) G. Camps, Monuments et rites funéraires protohistoriques, p. 32.

(6) M. Hachid, Op. Cit, p. 26.

2-السكان من خلال بقايا المقابر:

إلى جانب المعطيات الانتروبولوجية التي أثبتت وجود الانسان المغاربي منذ الباليوليتي الأسفل، متمثلا في انسان الأطلس إلى نهاية العصور الحجرية وتواجد الانسان المشتوي بساحل بلاد المغرب، والانسان القفصي بداخلها، نجد معطى آخر يسجل بدوره حضور الانسان في هذه المنطقة قبل أن تتكلم المصادر القديمة والوسيطية عن الأصول المشرقية أو غيرها، ويتمثل هذا المعطى في الآثار التي خلّفها الانسان المغاربي مع نهاية العصر الحجري الحديث وبداية فترة فجر التاريخ.

فعلى غرار الحضارات الأخرى، أحدث النيوليتي في بلاد المغرب القديم تحولا جذريا في كل مجالات الحياة، تجسدت مظاهر هذا التغيير في تطوير الصناعة العظمية والفخارية، واكتشاف الزراعة وكذا استئناس الحيوان، إلى إقامة المجتمعات المستقرة. ومما لاشك فيه أن آثار هذا التحول قد انعكست بشكل ملموس على الحياة الدينية في فترة مبكرة[1]. فالآثار الجنائزية تقدم لنا معلومات مهمة حول السكان القدامى للشمال الافريقي ككل خلال فترة فجر التاريخ وبداية العصور التاريخية[2].



صورة رقم 5: جمجمة الانسان العاقل العاقل، المقبرة النيوليتية بالصخيرات 3800 ق.م

(صورة أخذت من طرف الباحثة، متحف الآثار، الرباط)

(1) رابح، لحسن: اضرحة الملوك النوميد والمور، دار هومة، الجزائر، 2007، ص34.

(2) Mohamed-Mustapha. Boudribila, Op. Cit, p. 17.

أ-فجر التاريخ في بلاد المغرب القديم:

قبل أن نشير إلى الآثار الجنائزية، يجب القول بأن فترة فجر التاريخ ببلاد المغرب هي مرحلة انتقالية برزت فيها ظواهر ثقافية وحضارية مختلفة، منها تنظيم نمط عيش بسيط استخدمت فيه أدوات جديدة كالفخار المملس والأدوات المعدنية، كما عرفت هذه الفترة الفن الصخري والزراعة والمسكن، اضافة إلى عادات جنائزية جديدة لم تكن معروفة من قبل. وقد اتفق الباحثون على أن بلاد المغرب قد عرفت فترة فجر التاريخ موالية للنيوليتي وسابقة أو معاصرة للوجود البوني بسواحلها. لكن تبقى، مع هذا، بدايته غير واضحة ودقيقة، نتيجة نقص الدلائل الأثرية والمعطيات التاريخية. ورغم ذلك يذهب بعض الباحثين إلى تحديد بداية فجر التاريخ في حدود 3000 سنة قبل الميلاد، وتبقى نهايته غامضة، يرجعها البعض إلى ظهور الوثيقة المدونة والتي تعود إلى حوالي 1500 سنة ق.م، كما ويرجعها البعض الآخر إلى الدخول الفينيقي وتأسيس أولى المستوطنات الفينيقية[1]. ولعل أهم ميزة لهذه الفترة في بلاد المغرب هو ارتباطها بالآثار الجنائزية.

فبعد أن كان الانسان المغاربي يسكن الأكواخ والخيام المتنقلة، في الهواء الطلق عندما فرضت عليه العوامل البيئية القاسية أن يعيش خلال العصور الحجرية الأولى حياة تعتمد على الجمع والقنص والترحال، كما كان عند الشدة يلجأ إلى المغارات الطبيعية والملاجئ تحت الصخور التي استخدمها إلى جانب الايواء كمراكز لدفن أمواته من أسرته أو بني عشيرته، أصبح مع التحول الذي أحدثه النيوليتي في حياته، مهتديا إلى ضرورة تخصيص أماكن معينة مستقلة، خارج مسكنه لدفن الموتى، مردها دون شك إلى شدة اهتمامهم بظاهرة الموت أو خوفهم من أن يعبث الانسان والحيوان ونوائب الدهر بقبر الميت[2].

ب-أنواع المقابر وعلاقتها بأصول السكان:

نجد في دراستنا لمختلف أنواع الصروح الجنائزية المنتشرة في بلاد المغرب صدى لتركيبة بشرية متنوعة بالمنطقة. إذ نجد عناصر أجنبية وافدة إلى المنطقة منذ تلك الفترة، حاملة معها أنماط لمقابر جديدة. وعلى هذ الأساس يمكننا أن نجد ثلاثة أنواع من المقابر على اختلاف الفترات الزمنية التي ينتمي اليها كل نوع، أو التي نجدها في النوع الواحد.

قبور أصلية (محلية): استخدم سكان فجر التاريخ ببلاد المغرب أنواع كثيرة من الصروح الجنائزية لدفن موتاهم، أكثرها بساطة عبارة عن تلال صغيرة من الحجارة أو التراب تدعى تيميليس، ودوائر من الحجارة البسيطة أو المتمركزة، أو فراغات شبه دائرية مبلطة، وتوجد هذه الأشكال في الشمال كما توجد في الجنوب. اضافة إلى أشكال أخرى من تلك القبور، كتلك التي تأخذ شكل الأهراء (المطابير) في غربي الجزائر والمغرب الأقصى، وكذلك الممرات المبلطة التي تأخذ شكل أروقة مبنية بألواح من الحجارة. كما توجد في شمال الجزائر والصحراء أشكال من المقابر أكثر تعقيدا هي البازينات، وكذا الشوشات والصروح المسماة في الصحراء بفتحة القفل[3].

([1]) عزيز طارق، ساحد : آثار فجر التاريخ في الجزائر، دار المعرفة، الجزائر، 2011، ص 36.

([2]) رابح، لحسن: أضرحة الملوك النوميد والمور، دار هومة، الجزائر، 2007، ص19.

([3]) ك، ابراهيمي: المرجع السابق، ص 132.

الحوانيت: تعرف الحوانيت على أنها حجر مكعبة الشكل محفورة في الصخر، تغلق بواسطة ألواح حجرية مركبة رأسيا، نجدها منتشرة في شرقي الجزائر وتونس[1]، ومع أن أغلبها يوجد في المناطق الساحلية من شرق بلاد المغرب، إلا أن هذا النوع يوجد كذلك في المناطق الداخلية بنواحي دوقة وتبسة وقسنطينة. ويذهب أغلب الباحثين إلى أن هذه الحوانيت أجنبية، شرقية. وإذا كان البعض يعتبرها فينيقية الأصل، فإن كامبس، معتمدا على تاريخ هذا النوع من القبور في صقلية وسردينيا العائد إلى عصري البرونز والحديد، يقر بأن الحوانيت بشمال افريقيا تبرز دخول ثقافات شرقية سابقة للفينيقيين، فمن صقلية عبرت تلك القبور إلى تونس. وإذا كانت منتشرة بعدد معتبر في المناطق التي شملها نفوذ قرطاج، فلأن تلك المناطق كان لها دائما توجه شرقي، فهي تظهر احتمال علاقة بلاد المغرب وسكانها بصقلية وسردينيا وحتى ايطاليا الجنوبية[2]، وهو ما يجعل برأينا احتمال دخول عناصر سكانية شرقية إلى بلاد المغرب، جعلت الأساطير والروايات الكلاسيكية فيما بعد تتخذها مرجعا للقول بالهجرة المشرقية نحو بلاد المغرب القديم.

الدولمن: تعد من أشهر المعالم الجنائزية التي تنتشر على امتداد السواحل ، وهي ممثلة بكثرة في الشرق الجزائري، وغرب تونس وتنعدم بالصحراء[3]. وتعرف ايضا بالمصاطب لأنها صروح مكونة من ألواح حجرية قائمة، تشكل حجرة مستطيلة يسقفها لوح حجري أفقي[4]. ونجد في قبور الدولمن كذلك رؤية شبه متفقة بين الباحثين على أصلها الخارجي، الأوربي خصوصا، مثلما أكده كامبس بأن دولمن الجزائر الشرقية أصولها من سردينيا، وأن دولمن الساحل التونسي جاءت من ايطاليا الجنوبية أو الشرقية عبر مالطة. ومثل قبور الحوانيت، يكون الدولمن قد ولج نحو المناطق الداخلية عبر خط الساحل ليصل إلى أبعد نقطة، والحال أنه يمكن تمييز عديد المناطق –في بلاد الدولمن– التي يختلف بعضها عن بعض سواء من حيث شكل المعالم أو من حيث ملامح المقابر، ودون شك من حيث زمن الدفن[5].

فحسب هذا التنوع الجغرافي للصروح الجنائزية وأدوات المعدن نجد بأنها قد مهدت السبيل لإقليمية حقيقية عرفها الشمال الافريقي خلال الألفي سنة السابقتين لميلاد المسيح. إذ أنه من المؤكد بأن أطراف بلاد المغرب كانت لها علاقات بالبلاد المجاورة في الطرف الآخر من البحر المتوسط، وبعناصرها السكانية، كالمجموعة الايطالية–الصقلية من الناحية الشرقية، وايبيريا من الناحية الغربية[6].

([1]) ك، ابراهيمي: المرجع السابق، ص 132.

([2]) غابريال، كامبس : المرجع السابق، ص 148.

([3]) عزيز طارق، ساحد : المرجع السابق، ص 52.

([4]) ك، ابراهيمي: نفس المكان.

([5]) غابريال، كامبس : نفسه، ص 149.

([6]) ك، ابراهيمي : نفسه، ص 135، Ms. Georges. Souville, « contacts et échanges entre la péninsule Ibérique et le Nord-Ouest de l’Afrique durant les temps préhistoriques et protohistoriques », C. R.A.I, 142[è]année, N. 1, 1998, p. 163-164.



صورة رقم 6: تجسيد لشكل معلم جنائزي منتشر بالصحراء (التاسيلي نازجر): الجثوة (Tumilus)

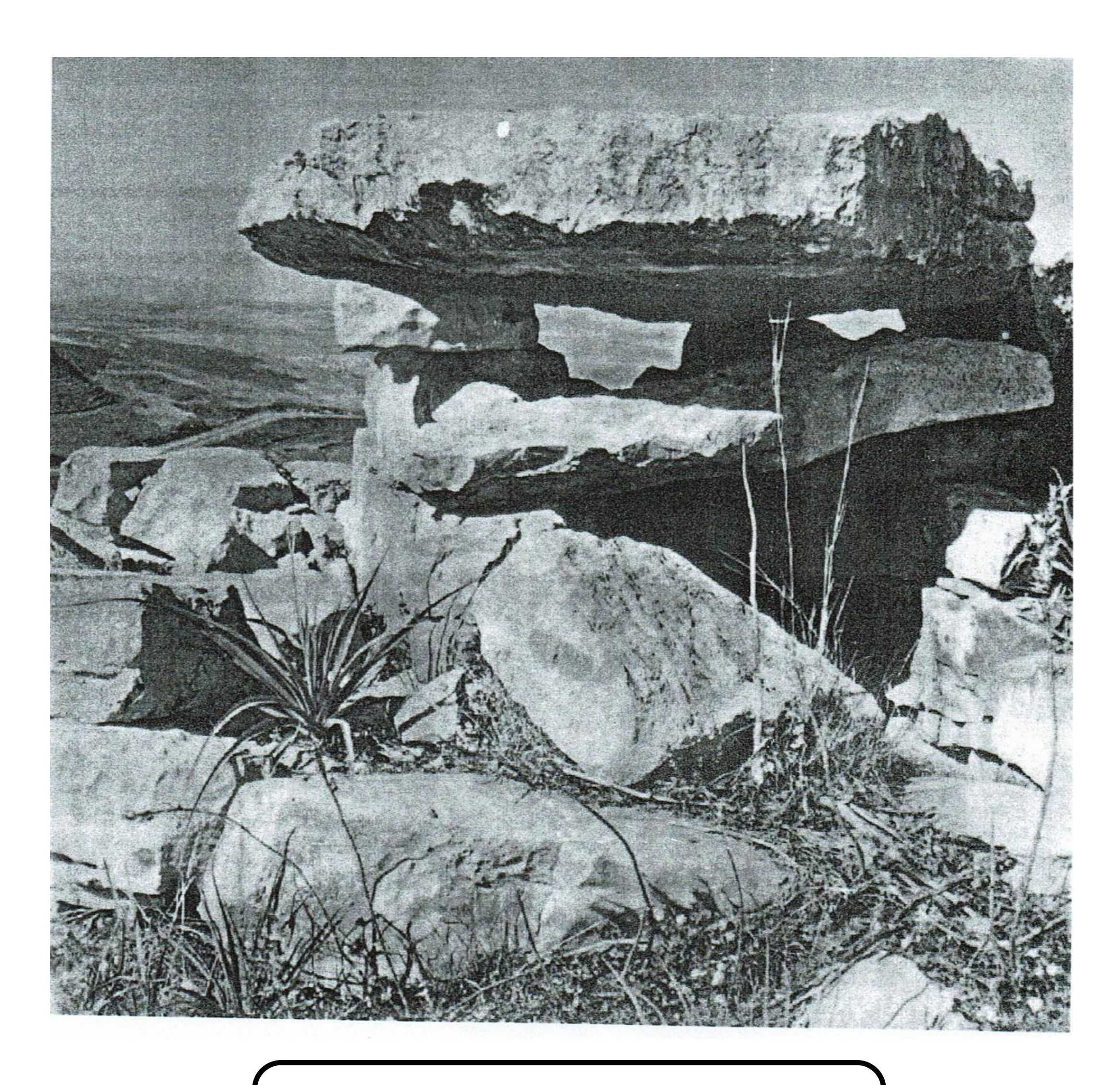


صورة رقم 7: تجسيد لمعلم جنائزي على شكل فوهة، منتشر بالتاسيلي نازجر



صورة رقم 8: تجسيد لمعلم جنائزي شكل القفل المفتاح المنتشر بالتاسيلي نازجر

صور أخذت من طرف الباحثة، متحف الحظيرة الثقافية الوطنية للتاسيلي نزجر



صورة رقم 9: الدولمن المنتشرة في شمال بلاد المغرب

عن: ليونال، بالو: الجزائر في ما قبل التاريخ، 2005، ص 176

ج–الأثاث الجنائزي واستقرار الانسان المغاربي:

يبقى الأثاث الجنائزي حسب كامبس، الوثيقة الأثرية الوحيدة التي رغم صعوبة التأكد من فترتها بشكل دقيق، وذات قيمة هزيلة لأنها مكوّنة من أشياء ظرفية غير دائمة، ومع ذلك ينبغي الاقرار بأن طابعها مهم جدا، فهي شاهد على عصور قديمة يمكن تسميتها بالحضارة الريفية لبلاد المغرب القديم[1]. إذ قام الأثريون بتحديث عدد كبير من البقايا جمعت في مقابر قديمة، منها أطباق، جرار، أكواب، لوحات، وأطباق كبيرة كانت تستخدم في طهي الخبز، اضافة إلى بقايا حيوانات، وهو ما يثبت وجود سكان مستقرين مارسوا الزراعة والتدجين[2]. كما كان هناك أمر هام يكمن في التوزيع الجغرافي للصروح الجنائزية المحتوية على الفخار ببلاد المغرب، وهو تواجدها كلها باستثناء واحدة أو اثنتين في مناطق التساقط الكافي لإمكانية القيام بزراعة القمح دون حاجة إلى سقاية، يضاف هذا إلى أشكال الأواني التي تحتوي على أوجه شبه كبيرة بالأواني الحالية. فهذا كله يوحي بأن السكان كانوا زرّاعا مستقرين[3].

3–السكان من خلال مخلفاتهم الأثرية:

عرفت بلاد المغرب القديم خلال ما قبل التاريخ وبداية الفترة التاريخية تغيرات مناخية وبيولوجية وحضارية عاشتها أقدم الأقاليم الحيوية الملائمة لحياة الانسان. فقد تم العثور على ترسبات تشهد مثلا على فترة مطيرة مرت بها صحراء بلاد المغرب خلال الزمن الرابع وتواصلت إلى بداية الألف الأولى قبل الميلاد. وقد تبين من دراسة الترسبات أن تلك الأجواء المناخية وفرت ظروفا حيوية ملائمة لازدهار حياة بشرية خلّفت بدورها شواهد حضارية تعود إلى مختلف العصور الحجرية، كما تمكن الباحثون من رصد شواهد عدة لتطورات مناخية وحيوية في شمال بلاد المغرب كذلك خلال ما قبل التاريخ، تميزت بتغيرات في الغطاء النباتي وللحيوانات التي خلّف لنا الانسان المغاربي بعض صورها في رسوماته الصخرية[4].

أ–الانسان والصناعة الحجرية والنقوش الصخرية:

إذا أمكن للجيولوجيا والباليونتولوجيا من تصور الوسط الذي كان يعيش فيه انسان ما قبل التاريخ بشمال افريقيا، ومكنت الانتروبولوجيا من تصور هذا الانسان نفسه، فإن الأدوات التي تركها هي التي تلقي بعض الأضواء على مدنيته[5]، لأن تلك الصناعات الحجرية تقوم على دليلا على تقدم الانسان المغاربي وتطور مهاراته التقنية، وكذا نمو عقله عقله وفكره[6]، لكن قبل كل هذا وذاك، فهي تعبر عن وجوده بالمنطقة وتجذره منذ أقدم العصور. فقد وجدت تلك المخلفات منذ الباليوليتي الأسفل والصناعة الآشولية، إلى الصناعتين الموستيرية والعاترية خلال الباليوليتي الأوسط،

([1]) غابريال، كامبس، المرجع السابق، ص 115.

([2]) Mohamed-Mustapha, Boudribila, Op. cit, p. 18.

([3]) ك، ابراهيمي : المرجع السابق، ص 135.

([4]) محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 6.

([5]) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 48.

([6]) محمد البشير، شنيتي: نفسه، ص8.

فالصناعتين الابيرومغربية والقفصية خلال الباليوليتي الأعلى، ووصولا إلى النيوليتي والصناعة العظمية والفخارية، وكذا الفن الصخري.



صورة رقم 10: فأس يدوية من حجر الصوان، عين فريتيسة (ناحية كرسيف، المغرب الأقصى)، الفترة الآشولية العليا

(صورة أخذت من طرف الباحثة، متحف الآثار، الرباط)



صورة رقم 11: فأس يدوية (بيفاص)، التاسيلي نازجر (الجزائر)

(صورة أخذت من طرف الباحثة، متحف الحظيرة الثقافية الوطنية للتاسيلي نزجر)



صورة رقم 12: كويرات حجرية تعود إلى فجر الباليوليتي، التاسيلي نزجر

(صورة أخذت من طرف الباحثة، متحف الحظيرة الثقافية الوطنية للتاسيلي نزجر)



صورة رقم 13: أدوات ذات العنق، نعود للحضارة العاترية، التاسيلي نزجر

(صورة أخذت من طرف الباحثة، متحف الحظيرة الثقافية الوطنية للتاسيلي نزجر)



صورة رقم 14: مطاحن نيوليتية، التاسيلي نزجر

(صورة أخذت من طرف الباحثة، متحف الحظيرة الثقافية الوطنية للتاسيلي نزجر)



صورة رقم 15: نصيلات من النيوليتي، التاسيلي نزجر

(صورة أخذت من طرف الباحثة، متحف الحظيرة الثقافية الوطنية للتاسيلي نزجر)



صورة رقم 16: إناء من الخزف، الفترة النيوليتية، الصخيرات

(صورة أخذت من طرف الباحثة، متحف الآثار، الرباط



صورة رقم 17: جفنة صغيرة من الخزف، المقبرة النيوليتية بالصخيرات

(صورة أخذت من طرف الباحثة، متحف الآثار، الرباط)



صورة رقم 18: أدوات عظمية، مصقال، عظم مذرب ومزين، أضلع مذربة مثقوبة، المقبرة النيوليتية بالصخيرات

(صورة أخذت من طرف الباحثة، متحف الآثار، الرباط)



صورة رقم 19: أقداح أسطوانية من العاج، المقبرة النيوليتية (الصخيرات)

(صورة أخذت من طرف الباحثة، متحف الآثار، الرباط)



صورة رقم 20: أدوات عظمية (مشط لتزيين الفخار، مصقال، إبر ذات ثقب) من الفترة النيوليتية، دار السلطان (الرباط)

(صورة أخذت من طرف الباحثة، متحف الآثار، الرباط)

ولسنا هنا بصدد الحديث عن تفاصيل الفن الصخري بالشمال الافريقي، ولكننا نريد التنويه إلى أنه يمثل عاملا مهما في معرفة الانسان الذي خلّد تلك الرسوم، وأنواعه، وحياته اليومية. فالمغاربة الذين عاشوا في عصور ما قبل التاريخ خلّفوا لنا زيادة عن أدواتهم الحجرية والعظمية، ومختلف بقاياهم، صخورا منقوشة متواجدة في جهات عديدة من بلاد المغرب. و يجب ادراك أن لبعض الصور الآدمية قيمة أثرية كبيرة. فالأشخاص الذين كانوا في تلك الرسوم يسترون عوراتهم ويلبسون ثيابا من جلد الحيوانات، بينما البعض الآخر يطوّقون رؤوسهم بإكليل من الريش، وهي علامة الثروة والجاه، أما البعض الآخر فكان يتحلى بقلائد وأساور، كما كانوا يدهنون أجسادهم بالمغرة، وتجلت أسلحتهم في القوس والسهام والعصي القاذفة وكذا التروس[1]. وإن هذه المظاهر كلها تصور لنا وجود الانسان المغاربي منذ تلك الفترة، أي النيوليتي، وتعطينا معلومات حول أصله وعرقه والتركيبة البشرية. فإذا ما أخذنا صور ذلك الفن الصخري بالصحراء مثلا، نجد بأنه يفيدنا بوجود مراحل للفن الصخري عكست كل مرحلة منها مجتمعات خاصة بها، كمرحلة الرؤوس المستديرة التي مثّلها جنس أسود، والذين سموا بما قبل النيوليتيين أو الميزوليتيين (Epipaléolithique)، ثم تلتهم مرحلة الجاموس بملامح بشرية مخففة أو بيضاء إلى نهاية النيوليتي وظهور الفجر بربريين الذين تطوروا إلى البربر القدامى (Paléoberbères) منذ بداية التاريخ[2].

ب–المخلفات الزراعية:

أكدت المخلفات الأثرية خلال فترات ما قبل التاريخ على أن القفصيين مع نهاية الباليوليتي الأعلى واستمرارا إلى النيوليتي كانوا يمارسون قطف النباتات، إذ بدأت الزراعة بالتطور منذ نهاية النيوليتي. وقد أثبتت الحفريات ذلك في الجزائر مثلا، في موقعي خنقة سي محمد الطاهر الموجود بالأوراس، وموقع الداموس الأحمر بمنطقة تبسة، فقد قدم الموقعان مؤشرات أثرية هامة تدل على ممارسة الزراعة. كما أننا نجد من بين المخلفات التي أكدت ممارسة القطف، الكرات الحجرية الدائرية المثقوبة والصغيرة الحجم التي تستعمل كثقالة للعصا الحفارة[3].

هذا اضافة إلى ما تركته الزراعة في بلاد المغرب من آثار مادية خلال فترة فجر التاريخ، كتربيعات السبر في تبزانت غرب تبسة (الجزائر)، حيث تم اكتشاف مجالات زراعية على قمم جبل بوزيان في هضاب الشريعة، وهنشير مدقيس في تبسة كذلك، إذ يعرض سفح الجبل تربيعات منتظمة كفاية، حيث أن هذا التقسيم للأرض تم تهيئته من طرف الانسان وأنجز بغرض تحسين ظروف المزروعات، فمثل هذه التربيعات تشكل حاجزا منيعا لتسرب التربة نحو سفح الجبل جرّاء

---

(1) شارل أندري، جوليان : المرجع السابق، ص 60.

(2) M . Hachid, « la diversité ethnique du Sahara au cours de la préhistoire et de la période paléoberbère. Identités et interactions socio-culturelles », le Sahara espace de communication et d'interaction civilisationelle dans les temps antiques, publication de l'institut des Etudes africaines, Rabat, 2002, p. 164, 165.

(3) غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص74.

الأمطار[1]. ومهما كان الهدف من هذه التهيئات الزراعية، أو حتى العثور على أدواتها، فإنها تشهد على تواجد الانسان واستقراره ببلاد المغرب القديم منذ النيوليتي وإلى فجر التاريخ.

ج–الانسان والمسكن خلال فجر التاريخ:

يعتبر السكن أحد الشواهد الحضارية الهامة لتاريخ البشرية، ورغم نقص الأبحاث حوله وجهله خلال فترة فجر التاريخ ببلاد المغرب، إلا أنه يمكن القول بأن شعوب فجر التاريخ قد عرفت المسكن بأنماطه وتقنياته المختلفة، والدليل على ذلك هو وجود معالم جنائزية ذات هندسة معمارية معقدة، عبارة عن معالم ذات بنايات مجازية، وهو ما يؤكد بأن هذه الطرق في بناء تلك الصروح توحي بأن شعوب فجر التاريخ كانت على علم بتقنيات البناء، مما لا يعارض وجود قرى ومساكن كان يشغلها بنائي المقابر المنتشرة في بلاد المغرب. ومن تلك المساكن أمكن لإنسان فجر التاريخ بهذه المنطقة أن يستخدم المغارات والكهوف كملاجئ مهيأة بشكل طبيعي، وكذا البنايات المهيأة، وربما الأكواخ، هذه الأخيرة التي تعود ندرة آثارها إلى طبيعة المواد المستخدمة وتقنية البناء[2]. ورغم قلة هذه الآثار السكنية، إلا أن المعثور عليه منها يدل على استقرار الانسان المغاربي منذ تلك الفترة.

د–التجمعات البشرية الأولى:

تغير الوضع الديموغرافي في بلاد المغرب خلال فترة فجر التاريخ نتيجة لتغير المناخ المتسارع نحو الجفاف، وكذا قدرة الانسان على التكيف معه وتمكنه من انتاج القوت الذي ساعد على التكاثر البشري وتطور أداء الانسان، ومنذ ذاك بدأت الخارطة البشرية بالتشكل مع دخول بلاد المغرب عصور التاريخ الباكرة[3]. فقد كانت الحياة القروية أول أشكال التجمع السكاني، حيث أن الملاحظ هو أن السكان كانوا يختارون أماكن التمركز القروي في مواقع تجمع بين وفرة الماء والحصانة الطبيعية قرب المنابع التي تزودهم بالماء، وفي المكان المساعد على الدفاع في حالة الخطر أين يأمنون على مزروعاتهم وممتلكاتهم، وهي الشروط الأساسية لتخطيط القرى والمدن في كافة بلاد المغرب. وما يميز تلك القرى هو ارتباطها بالإضافة إلى الزراعة، بتربية الحيوان لتلبية الحاجات الغذائية اليومية[4].

رغم هذه الشواهد الانتروبولوجية التي تعكس لنا وجود الانسان المغاربي، منذ انسان الأطلس، فالإنسان العاتري والمشتوي–القفصي، إلى أوائل المتوسطين، وكذا المخلفات الأثرية التي دلت على تواجد الانسان بالمنطقة وأصالته، إلا أن معظم الكتابات، الأجنبية خاصة، ترفض وجود حلقات ربط وتواصل الانسان المغاربي منذ ما قبل التاريخ وإلى الفترات التاريخية، وروّجت معطيات أخرى حول الانسان المغاربي وتعدد أعراقه.

---

(1) عزيز طارق، ساحد: المرجع السابق، ص 64-66.

(2) عزيز طارق، ساحد : المرجع السابق، ص 75-76.

(3) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 42.

(4) محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص 175.



صورة رقم 21: نقش صخري على حجر رملي يمثل ظباء، واد درعة، النيوليتي

(صورة أخذت من طرف الباحثة، متحف الآثار، الرباط)



صورة رقم 22: نقش صخري من مرحلة الجاموس، اندبيرن، التاسيلي نزجر

(صورة أخذت من طرف الباحثة، بالموقع نفسه)

الفصل الثالث: مقومات الوحدة اللغوية

أولا_اللغة الليبية

1_تعريف اللغة الليبية

2_اللهجات الليبية

ثانيا: الكتابة الليبية

1_ النقوش النوميدية

2_ الألفباء الليبية وميلاد الخط الليبي

3_ فرضيات حول أصول الألفباء الليبية

ثالثا: الفن الصخري والكتابة الليبية (الأصل المحلي للأبجدية الليبية)

1- الفن الصخري وأبعاد رموزه التصويرية

2- علاقة التيفناغ بالكتابة الليبية

الفصل الثالث : مقومات الوحدة اللغوية

أولا : اللغة الليبية:

إذا كان الإنسان المتحضر يفكر بواسطة إدراكاته و مفاهيمه، فينشأ من كل ادراك اسم يترجم في مجموعة من حركات الفم، لسان و حنجرة المتكلم، فينعكس في مجموع أحاسيس سمعية بالنسبة للمستمع[1]، فتلكم هي اللغة التي تعبر عنها تلك الأصوات المنطوقة التي تكون كلمات و جملا، فهي بذلك أداة تواصل و تعبير عن المشاعر و الأحاسيس و الأفكار. فاللغة إذن هي منظومة نحوية و صرفية قبل كل شيء، لأن المفردات تظهر و تزول من عصر إلى آخر، أما المنظومة النحوية و الصرفية فتبقى دائما[2].

و لأن اللغة هي إحدى أهم ركائز الإنسان و المجتمع المنتمي إليه، و يصنع بها لا لسان حاله المعبر به فقط، بل يعكس بها فكره و حضاراته، فيبني بها مقوماته الثقافية شفوية كانت أم كتابية، فتصبح مع الزمن الجانب المعنوي لحضارته، و بالتالي يرسم لنفسه على سلم الحضارات الإنسانية مكانا واضحا له يجعله يرتقي أو يدنو من تنافس الحضارات.

و بلاد المغرب القديم كغيرها من أمم العالم القديم، كان و لازال لها هذا المعطى اللغوي منذ زمن قديم جدا، سنحاول معرفة تطوره من خلال هذا الفصل أو مدى اسهامه في رسم صورة المجتمع المغاربي القديم من خلال هذا المقوم اللغوي الذي راحت المدرسة الاستعمارية تؤسس على ضوئه عجزا بالوحدة و قصورا على هذا الإنسان من أن يرتقي في ذلك السلم الحضاري ضاربين إياه بحجج تبرز لهم أن هذا المقوّم اللغوي وقف ويقف حجرة عثرة في سبيل وحدة بلاد المغرب القديم. ولهذا سنحاول معرفة خصوصيات اللغة و الكتابة الليبية، و جذورها و مدى تطورها منذ فجر التاريخ وإلى العصر القديم الذي يدخل فيه إطار هذا البحث.

1–اللغة الليبية :

إذا كانت اللغة هي الأداة التي يتواصل بها الإنسان مع وسطه و يعبر بها عن أحاسيسه و انفعالاته و تجاربه داخل بوتقته الاجتماعية، فإن الإنسان المغاربي القديم قد استعمل و لازال يستعمل لغته الليبية التي تعتبر أحد العناصر الأساسية التي يستمد منها هويته الاجتماعية التي ظلت صامدة رغم الزمن و تعاقب الحضارات و الثقافات المختلفة، فبقيت محتفظة بمقوماتها مثلما تشهد على ذلك المعالم الحضارية و الفكرية في كل بلاد المغرب، و باعتبار البعد الجغرافي و الانتماء الأصلي فإن اللغة الليبية لغة افريقية يتوجب البحث عن جذورها ضمن اللغات الإفريقية[3].

([1]) J. Février, histoire de l’écriture, éd. Payot, Paris, 1959, p. 9.

([2]) محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص206.

([3]) مصطفى، أعشي: جذور بعض مظاهر الحضارة الأمازيغية خلال عصور ما قبل التاريخ، 67.

أ- اللغة الليبية و شجرة العائلات اللغوية :

قدّر المختصون في اللغة بأن شجرة أنساب اللغات عموما يمكنها أن تذهب في جذورها إلى بداية تشكل تاريخ الشعوب، حيث تمكن اللغوي "Joseph Greenberg" من جامعة " Stanford وبعد محاولات عديدة من طرح تصنيف للغات الافريقية، وابتداء من سنة 1963م استخرج من ضمن 730 لغة المتكلم بها في القارة الإفريقية، تجمعات متفردة لأربع (4) عائلات لغوية كبيرة وهي:

أولا: نجد لغة مجموعات قديمة مسماة " بوشمن"(Bushmen) وتعرف ب Le Khoisan وهي حاليا معتبرة كأقدم لغة متكلم بها في افريقيا. و نجد ثانيا اللغة النيلو- صحراوية (Nilo_Saharienne) التي تشغل على الأرجح المكانة الثانية من حيث الأقدمية اللغوية الإفريقية، وثالثا نجد ما يسمى ب: النيجر كوردوفانية– Niger) Congo-Kordofanien) .

و أخيرا اللغة الأفرو- آسيوية (l'Afro-Asiatique) المسماة أيضا "الحامية-السامية"(sématique -chamito) ، هذه الأخيرة تعتبر أصلا للغة الليبية(1).

ب- العائلة اللغوية الحامية السامية (l'Afro-Asiatique) و جذور اللغة الليبية:

قبل أن نتحدث عن كيفية تفرع الأصل اللغوي "الحامية-السامية" إلى لغات عديدة كانت احداها اللغة الليبية(2) (البربرية)، فإنه يتوجب علينا الإشارة إلى أن هذه اللغة "الحامية-السامية" قد أثرت بشكل كبير في تاريخ البشرية، و لغاتها تحدث بها في افريقيا مثلما في آسيا. فالبابليون، الفينيقيون، المصريون و الليبيون كلهم أسهمت هذه اللغة في خلق لغتهم. و يبدو أن بعض الباحثين اللغويين قد اقترحوا تغيير التسمية "الحامية-السامية" إلى "الأفرو-آسيوية"، فهذا التغيير حسبهم راجع إلى مجموعة من الأخطاء المرتبطة بالتسمية القديمة "حامية-سامية" لأنها أسست على جانب إيديولوجي و مرجع ديني، إذ ترتبط "بحام ابن نوح" و"سام ابن نوح"، و أن "السامية" كانت متميزة في هذه العائلة رغم أنها ليست سوى واحدة من ضمن باقي لغات العائلة، لذلك كان اقتراح مفهوم "الأفرو-آسيوية" بما يبرره، فهو يتضمن لغات افريقية، وهي الأومو، الكوشية و التشادية، كما أنه من جهة أخرى يرفض فرضية الانتساب العرقي الذي يوحي مفهوم "الحامي-السامي"، بل وذهب الباحثون سنة 1988 إلى اقتراح استعمال تسمية "الأفراسي" بدلا من "الأفرو-آسيوي" ، و قد وافق الباحثون اللسانيون على هذا لأنه يتميز باحتفاظه بالمكونات الإفريقية و الآسيوية لهذه العائلة(3) التي تضم الأومو (Omotique)، و الكوشية المحتوية على عدة لغات متحدث بها في شرق افريقيا ، التشادية (منها الهاوسا)، المصرية (من القديمة إلى القبطية مرورا بالأوسط، الحديث و الديموطية)، والليبية (ولهجاتها: القبائلية)، التماهاق، الشلحية...)، وأخيرا السامية

---

(1) M. Hachid, les premiers berbères entre Méditerranée. Tassili et Nil, p. 21 ; J. Onrubia-Pintado, Op. Cit, p. p. 43, 44.

(2) P. Salama, « le Sahara pendant l'antiquité classique », Histoire générale de l'Afrique, T. II. Afrique ancienne, UNESCO, NEA, 1989, p. 561.

(3) مصطفى، أعشي، المرجع السابق، ص72.

(منها الأكادية، الأمونية (Ammonite)، والكنعانية، الأوغاريتية، الفينيقية[*]، الأرامية، العربية وجنوب عربية، العبرية، العربية...). وحسب نفس المتخصص "J. Greenberg "، فإن هذه العائلة الأفراسية (Afrasien) ستكون لغة الأومو الفرع الأقدم فيها، أما التشادية والليبية (البربرية) فهي اللغات الأحدث[1].

وإذا تتبعنا التفرعات التي حدثت عن هذه العائلة الأفراسية وكيف أعطت في الأخير اللغة الليبية، نجد بأنه قد حدثت ثلاث تفرعات لها، تحققت الأولى في اقليم اثيوبي، ستعطي فرعين: الفجر أومو-Proto) Omotique (لغة اثيوبية)، والفجر إيريترية(Proto- érythréen) التي تجمع كل باقي العائلة. وأما التفرع الثاني فنجد بأن الفجر ايريترية تنشق إلى الجنوب الايريتري، ومن هنا تأتي اللغات الكوشية وشمال ايريترية، حيث سيكون تاريخها نحو الألف الثالثة عشر قبل الميلاد في منطقة اثيوبيا، لكن الشعوب الناطقة بهذه اللغة لشمال اثيوبيا سينتقلون تدريجيا نحو الشمال باتجاه مصر الحالية. وأما التفرع الثالث والأخير فسيكون نحو الألف الحادية عشر أو العاشرة قبل الميلاد، أي بالشمال الايريتري، وتنقسم بدورها إلى مجموعتين، تنتقل الأولى نحو الجنوب الغربي باتجاه الصحراء، وستكون أصلا للغات التشادية، أما الثانية فسيكون موقعها دائما في منطقة نيلية (nilotique) غير بعيد عن مصر وتأخذ اسم proto-boréafrasien، حيث أن تاريخها نحو الألفيات التاسعة أو الثامنة قبل الميلاد، فتعطي ثلاث مجموعات ضمنية وهي: المصرية ثم الليبية (البربرية) والسامية[2].

فاللغة الليبية قد صنفت في مجموعة اللغات المسماة حامية(chamitique)، من أصل قبطي الذي هو نفسه يشبه المصرية القديمة، مثلما هي أيضا اللغات غير السامية، كلغة الحبشة (l'Abyssinie) وبلاد النوبة، في حين أننا نجد التشابهات كبيرة بين اللهجات الليبية واللغات السامية، كما لو أن هناك فرعين منفصلين من نفس الجذع في عصر قديم جدا وتوزعتا لاحقا[3]. وتشير الباحثة حاشيد إلى أنه يجب توخي الحذر من هذه التفرعات في سلم التأريخ، ذلك أن تفرعات اللغات الآفروآسيوية (أفراسية) تبقى افتراضات يجب من خلالها زرع معطيات باليونتولوجية وأثرية الخاصة بباحثي ماقبل التاريخ. ولذلك تخلص في الأخير إلى أنه يجب وضع تأريخ ظهور اللغة الليبية ما بين الألف العاشرة والسابعة قبل الميلاد[4].

(*) "حيث أن اللغة الفينيقية مشتقة من الفينيقية القديمة من النوع الكنعاني الذي يرجع اليه الفينيقيون، وهي قريبة من اللغة العبرية التي يتحدث بها الإسرائيليون، وكذلك إلى لغة مؤاب. وبوجه عام تنقسم اللغات السامية إلى قسمين: القسم الشرقي، ويشمل الآشوري والبابلي، والقسم الغربي، ويتفرع إلى فرعين: فرع الجنوب للغة العربية، وفرع الشمال للأرامية والكنعانية، وتتفرع الكنعانية إلى فرعين: العبرية والفينيقية، والتشابه كبير بينهما" (للمزيد أنظر: صلاح ، أبو السعود: تاريخ وحضارة الفينيقيين، مكتبة النافذة، ط1، مصر، 2011، ص 229).

(1) M. Hachid, Op. Cit, p. 22.

(2) M. Hachid, Ibidt, p. p. 23, 25.

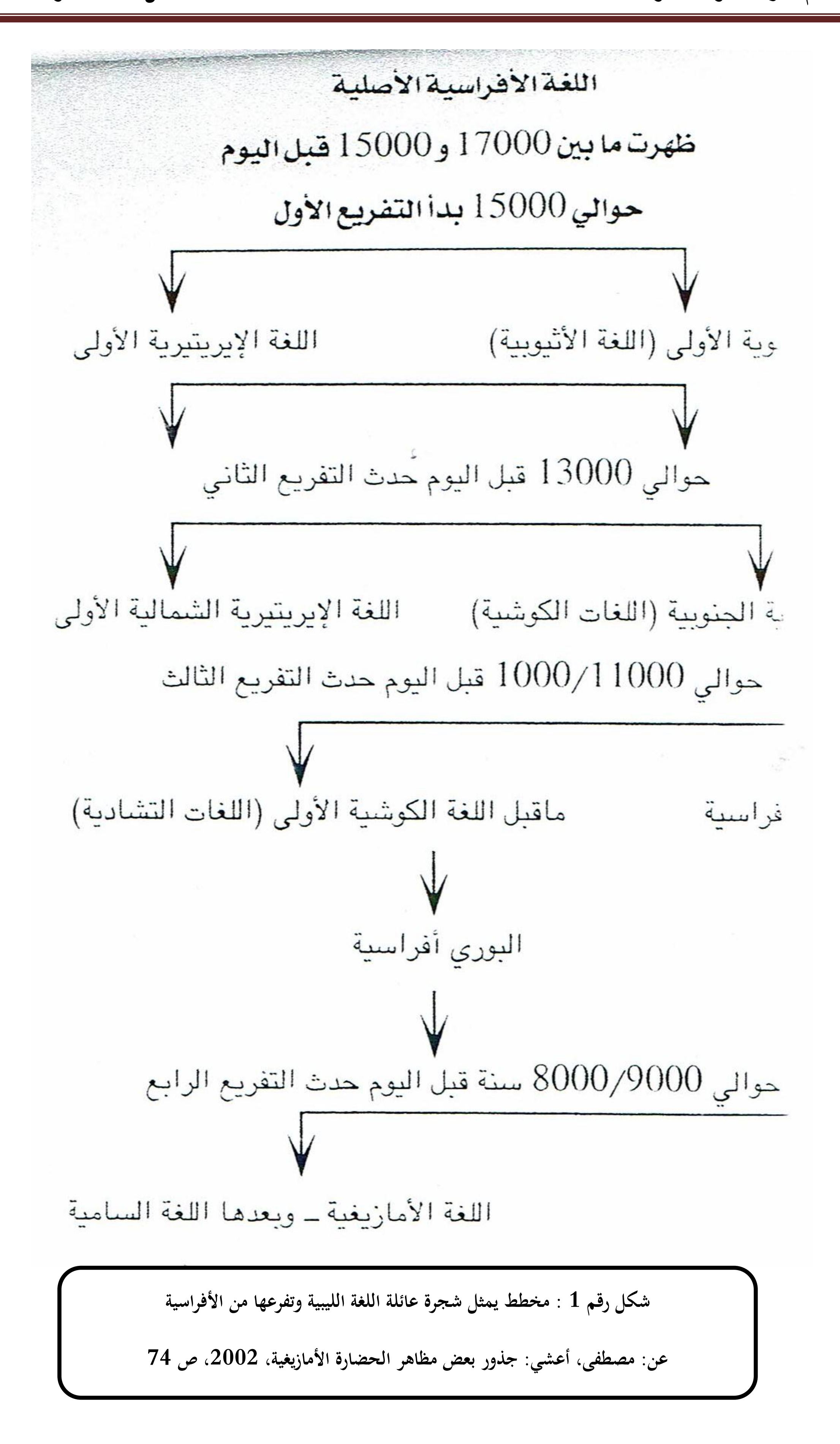
(3) A. Bernard, Afrique septentrionale et occidentale, p. 72 ; F. Colin, « le vieux libyque dans les sources égyptienne et l'Histoire des peuples libycophone dans le nord de l'Afrique », B. A. C. T. H. A. N , Série 25, année 1996-1998 , éd. C. T.H. S, paris, 1999, p. 13.

(4) M. Hachid, Ibid.

وإذا جئنا إلى مقارنة هذا التأريخ بالإنسان المغاربي الذي عاش في هذه الفترة قصد التعرف على أوائل الناطقين باللغة الليبية، نجد بأن الإنسان القفصي أو الفجر متوسطي هو إنسان اللغة الأفراسية الأولى، لأن هذا الأخير قد استقر بشمال افريقيا ما بين 8000 و 7000 سنة ق. م، يكون قد تحدث شكلا قديما جدا للغة الليبية المتفرعة عن اللغة الأفراسية. وإذا كان البعض يتساءل لماذا القفصيون وليس الايبيرو موريزيون هم أوائل من تكلم اللغة الليبية، فلأن ذلك راجع إلى أسباب كرونولوجية بالدرجة الأولى. ذلك أن القفصيون قد تزامن ظهورهم مع هجرة تفرع الأفراسية والصحراوية، بينما الايبيروموريزيون أقدم عهدا من القفصيين، عاشوا بشمال افريقيا ما بين 20000 و 8000 سنة ق. م. ويبدو أنه لم يوجد لهم اثر في الألف العاشرة قبل الميلاد بسبب اندماجهم وذوبانهم في القفصيين، وبذلك كان عطاء القفصيين هو المسيطر في اللغة الليبية. وهناك سبب ثاني يرجح هذا الطرح في أسبقية القفصيين بالنطق باللغة الليبية، وهو ما قدمه الانسان القفصي من ابداعات في مجال الحضارة ببلاد المغرب القديم من خلال الرسوم والنقوش الصخرية ذات الأشكال الموحية بإرهاصات الثقافة الليبية ذات التقاليد الهندسية الشكل التي ستتولد عنها الكتابة الليبية[1].

---

[1] مصطفى، أعشي: المرجع السابق، ص 77-78.



شكل رقم 1 : مخطط يمثل شجرة عائلة اللغة الليبية وتفرعها من الأفراسية

عن: مصطفى، أعشي: جذور بعض مظاهر الحضارة الأمازيغية، 2002، ص 74

ج– اللغة الليبية والعصر القديم:

إذا كان المتخصصون في اللغة والباحثون في ما قبل التاريخ قد وضعوا تفرع للغة الليبية عن العائلة اللغوية الآفروآسيوية ما بين الألف العاشرة والثامنة ق. م، وأنه على هذا الأساس سيكون الفجر متوسطيون القفصيون هم أوائل من نطقوا بهذه اللغة الليبية، فإننا نجد عند رجوعنا إلى مصادر العصر القديم ببلاد المغرب شحا كبيرا لدى الكتّاب القدماء، الاغريق واللاتين حول هذه اللغة، عدا اشارات عابرة، وأخذت الاغريقية واللاتينية لغتا الغالبين على الواقع السياسي والثقافي لبلاد المغرب القديم جل اهتمامات أولئك الكتّاب.

وفي محاولة لمعرفة المجال الجغرافي الذي كانت تشغله اللغة الليبية منذ القرن الذي عاش فيه هيرودوت (القرن الخامس ق. م)، وهل كانت مسيطرة مثلما هي في الوقت الحاضر، بالصحراء وإلى غاية السودان، ذهب قزال إلى تقصي ما ورد من أخبار عند هيرودوت ومقارنتها بالواقع. حيث ذكر هيرودوت أنه في واحة أمون، أو من واحة سيوة التي لهجتها البربرية الخاصة، أنه في هذه البلاد يتكلم الناس بلغة نصف مصرية، نصف اثيوبية. فماذا كانت هذه اللغة الأثيوبية؟ خاصة وأننا نعلم بأن هيرودوت قد قسّم سكان ليبيا القارة إلى ليبيين في الشمال واثيوبيين في الجنوب. ف قزال يقول بأنه حسب هيرودوت فإن الاثيوبيين التروقلوديت الذين كان الغرامنت يطاردونهم على الأرجح في التبستي، استخدموا لغة لم يكن لها تشابه مع كلام البشر الآخرين، والذي كان يشبه أصوات الخفافيش، ومن هنا استنتج قزال أنه بهذا التصريح يجب التفكير بأن أولئك الاثيوبيين لم يكونوا يتكلمون لغة مماثلة إلى لغة الليبيين، وبالتالي فإن الليبي (البربري) لم يتوغل منذ ذلك الوقت في التبستي. ونفس الملاحظة تنطبق لديه في الصحراء، وعلى بعد عشرة أيام غرب مواطن الغرامنت، أين يشر هيرودوت إلى شعب يسميه الأترانت (Atarantes)، وحيث أن أحد الباحثين قرّب كلمة "أترانت" من كلمة "أتارا" (Atara) بلغة الهاوسا، والتي تعني "معا"، فإن صدق هذا الحدس، فإن الأترانت لم يكونوا يستخدمون اللغة الليبية.

هذه الملاحظات المستسقاة خاصة من إشارات هيرودوت، لا تعطينا معلومات كثيرة حول مدى انتشار اللغة الليبية في القرن الخامس ق.م، ولكنها تعطينا انطباع أن القرون التي سبقت العصر المسيحي بأن اللغة الليبية بالكاد كانت منتشرة هناك وراء الشمال الافريقي، في المناطق التي كان ينتشر بها الاثيوبيون[1].

ومن بقية الكتّاب القدماء ، نجد في العموم بأن الاغريق واللاتين لم يهتموا أبدا بلغة المغاربة، فالبعض منهم اكتفى بالإشارة إلى أن الأهالي يتحدثون بلغة وحشية وأنه قد وجدهم ينطقون أسماء بلادهم[2]. ومن تلك الإشارات التي وجدنا فيها تنويها باللغة الليبية، ما ذكره بلينوس الكبير عند وصفه لسواحل الجهة الغربية من بلاد المغرب القديم، وبأن الأهالي يملكون لغة خاصة بهم[3]. وسالوست في أكثر من مرة من كتابه، عندما اشار مثلا

(1) S. Gsell, H.A. A. N, T.I, p. 317-319.

(2) Ibid, p. 311.

(3) Pline L'Ancien , H. N, V, 13.

إلى أن اللغة المتحدث بها في لبدة (Leptis) قد تغيرت حديثا بفعل دخول تأثيرات على اللغة النوميدية[1]. وفي إشارة أخرى كان يتحدث فيها أصل سكان افريقيا، قال بأن الليبيين قد غيّروا أسماء القادمين الجدد من أفراد جيش هرقل وأسموهم المور بدل الميد في لغتهم البربرية[2]. هذا إضافة إلى الاشارة العابرة لدى سيليوس ايتاليكوس، وهو يتحدث عن الحروب البونية، ففي أفراد جيش هرقل هناك من المور من يتحدث بلغة قومه، إشارة إلى اللغة الليبية[3]. وكذا إشارة كوريبوس وهو يتكلم عن ثورة أنتالاس، إلى وحشية اللغة الليبية في نظره التي تشبه العواء[4].

هذه المعلومات القليلة حول اللغة الليبية في المصادر، راجع لكونها لم تكن لغة رسمية مثل البونية أو اللاتينية، إذ لم يكن معترفا بها في المعاملات الرسمية، حيث استخدمت اللغة البونية كلغة رسمية خلال الفترة القرطاجية، ثم استخدمت اللغة اللاتينية إثر الاحتلال الروماني، فأصبح الوضع اللغوي بذلك متباينا[*] في بلاد المغرب القديم، وعوّضت هذه اللغات وكتاباتها اللغة والكتابة الليبية خاصة في المناطق التي كان فيها الحضور الأجنبي قويا، أما في مناطق أخرى فقد تعايشت اللغة الليبية مع تلك اللغات[5].

ولئن امتدت اللغة اللاتينية على كل البلاد كغشاء ليس بالعميق، بدخولها المنازل وتغطيتها لنقوش الأضرحة الكبرى، وامتداد مجال استعمالها على النصب (المعالم) العامة، فإنها لم تصطد قلب المغاربة ولا حب لغتهم الأصلية الليبية. فكل من الليبية والبونية بقيتا اللغتان القائمتان والأكثر انتشارا في أوساط بلاد المغرب القديم. فإذا كان هذا المجتمع المغاربي قد قاوم اجتياح الثقافة اللاتينية فلأن سكان البلاد لم يكونوا رومان ولا ايطاليين، بل كانوا أهالي نزلوا إما من المستوطنين الفينيقيين القدماء[6] ، أو هم السكان الأصليين للبلاد من الليبيين بمختلف قبائلهم ومناطقهم.

هذا عن استعمال اللغة اللاتينية، لكن ماذا عن اتساع انتشار اللغة والكتابة البونية الذي بدأ قبل انتشار اللغة اللاتينية؟. والحال أنه يمكن افتراض استعمال أفارقة المجال البوني الافريقي للغة البونية في الميادين الادارية والاقتصادية والعسكرية حتى لو لم يستعملوها في المدارس. إضافة إلى هذا ، خلص باحثون آخرون من استقراء توزيع النقوش إلى اعتبار البونية ظاهرة حضرية دون أن يكون تداولها غائبا بالمجال الريفي لبلاد المغرب القديم، ذلك

([1]) Salluste, Guerre de Jugurtha, LXXVIII.

([2]) Salluste, Guerre de Jugurtha, XVIII.

([3]) Silius Italicus, Puniques, II.

([4]) Corripe, Johannide, chant II.

(*) "هذا التنوع اللغوي مرتبط بعامل الهجرات التي توافدت على بلاد المغرب القديم لأسباب وتواريخ مختلفة، لأن استقرار الوافدين الجدد بالمنطقة ساهم بشكل واضح في افراز هذا التنوع الثقافي واللغوي، فقد زاد من وتيرة التفاعل بين حضارات وثقافات مختلفة. كما أن هناك عامل آخر ساهم في اختلاف حجم التنوع اللغوي بين مختلف مناطق بلاد المغرب القديم، وهو اشعاع مدرسة قورينا والمدرسة القرطاجية، فكلاهما ساهم في انتشار لغات أخرى، الاغريقية والبونية الجديدة واللاتينية للمجالات المغاربية المجاورة لها" (للمزيد أنظر: المحفوظ، أسمهر وآخرون: " بعض مظاهر التنوع الثقافي واللغوي بالمغرب عبر التاريخ"، مجلة أسيناك (ASINAG)، ع1، ط2، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2013، ص ص 17، 19).

([5]) مها، عيساوي: المرجع السابق، ص 67-68.

([6]) J. Toutain, les cités romaines de la Tunisie, p. p. 203, 205.

أن غياب النقائش البونية بالريف راجع إلى إكراهات اقتصادية متمثلة في ارتفاع أتعاب الكتبة والنقاشين مقابل تواضع إمكانيات هؤلاء السكان، كما لا ينفي هذا بطؤ تأثير اللغة البونية نحو داخل البلاد، لأنه مقابل انتشارها بالسواحل والسهول بقيت بعض المناطق، لا سيما منها المناطق الجبلية بمعزل عن تلك الديناميكية اللغوية بالنظر إلى استمرار التقاليد اللغوية والحضارية الأصلية للسكان[1]. فقد دلت النقوش النوميدية المعثور عليها في المناطق الريفية على أن سكان هذه المناطق كانوا يستعملون لغة واحدة هي اللغة الليبية اثناء فترة الممالك المستقلة، أي عهد المملكة النوميدية والمورية وبعده، بدليل أنه لم يسجل اكتشاف نصوص مزدوجة أو بونيقية بحتة بهذه المناطق. وهذا ما يجعل الاعتقاد في استمرارية اللغة الليبية إلى جانب البونيقية كلغة ثانية، لغة السكان في الأرياف والمدن النوميدية الداخلية[2].

3- اللهجات الليبية:

إذا كانت اللغة الليبية بما تمثله من مجال ممتد من واحة سيوة شرقا إلى جزر الكناري غربا، ومن ضفاف البحر المتوسط شمالا إلى أطراف مالي والنيجر جنوبا، والمعروفة لدينا اليوم بالأمازيغية، تمثل لغة مشتركة للهجات عدة: القبائلية، الشاوية، الميزابية، الشنوية، التارقية والشلحية[3]، والتي مازالت منتشرة في كل بلاد المغرب، فإن هذا التعدد اللغوي ظاهرة عامة تتسم بها جميع المجتمعات في العالم، إذ يتواجد في الولايات المتحدة الأمريكية مثلا بجانب الانجليزية لغات عديدة كالإسبانية والفرنسية واللغات اللاتينية والآسيوية، ولغات الهنود الحمر، وفي النيجر هناك مجموعات لغوية في مساحة لا تتجاوز مليونان و300 ألف كم^2، هي الهاوسا والسونغاي-زارما، والغولاني، والغولاني والأمازيغية التي تشكل 10% فيها، وكذلك نلاحظ في سويسرا تعايش أربع لغات، في حين أن هناك أكثر من 60 لغة في الفيتنام. فهذا التعدد اللغوي أو وجود عدة لهجات تنتمي إلى لغة واحدة هي ظاهرة علمية لا تشكل عيبا ولا شائبة ولا عاهة تاريخية تعرقل استقرار وتقدم المجتمعات، بل هي ظاهرة طبيعية وصحية[4]، ولا يحق للمؤرخين الاستعماريين القول بأن وجود هذه اللهجات هي عائق في طريق الوحدة اللغوية والحضارية لبلاد المغرب القديم دون سائر المجتمعات الأخرى.

فاللغة الليبية أثبتت وجودها في العصر القديم من خلال معاصرتها للغات قوية مثل المصرية واللاتينية اللتان كانتا تتمتعان بالحماية في كنف القوة السياسية، ومع ذلك اندثرتا اليوم، بينما نجت اللغة الليبية التي فقدت السند

---

(1) عبد اللطيف، الركيك : "بعض ملامح التفاعل بين اللغتين الليبية والبونية خلال الفترة القرطاجية"، أسيناك، ع1، ط2، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2013، ص 32.

(2) محمد البشير، شنيتي: "لمحة عن التفاعل الثقافي في الجزائر القديمة"، مجلة الانسان، ج2، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1984، ص12.

(3) محمد الهادي، حارش : التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري، ص 133 ; S. Gsell, Op. Cit, p. 309.

(4) عبد الحنين: البركاني: "من اللهجة الريفية نحو البحث عن فصحى أمازيغية"، مجلة تاريخ المغرب، اصدرا جمعية الامتداد الثقافي، ع6، جمادى الثانية 1416هـ/ نوفمبر 1995، ص 102.

السياسي منذ زوال المملكة النوميدية، لكنها استمرت عن طريق لهجاتها التي وجدت سندها في العائلة[*] والتضاريس ، فاستمرت خاصة بالمناطق الجبلية. وإذا كان التراث الذي يكون قد كتب باللغة الليبية قد اندثر عبر العصور ولم يبق منه إلا بعض النصوص الأثرية ذات المحتوى الجنائزي في الغالب، فإن هذه اللهجات الليبية اليوم لم تتمكن من الاحتفاظ بالشكل المطابق بدقة لما كانت عليه أمها الليبية بسبب العزلة وكذا الوضع الشفوي الذي لازمها قرونا متوالية، لكن الشيء الذي يوحدها اليوم هو قواعد النحو والصرف والمخزون المعجمي إلى حد ما[1].

وإذا بحثنا في النصوص القديمة عن هذا التنوع اللغوي فإننا نجد اشارات عن ذلك رغم اقتضابها، فكل من أميانوس ماركيلينوس والشاعر كوريبوس يسجلان اختلاف اللغات التي تستخدمها القبائل الليبية (الافريقية)، وكذا القديس أوغسطين الذي لاحظ بأن قبائل كثيرة افريقية تتكلم لغة واحدة ونفسها ولكن الألفاظ المستخدمة لا تسمح بمعرفة ما إن كانت لها علاقة مع اللغة الليبية التي كانت تعرف وحدتها تحت لهجاتها المتنوعة أو تحت لهجة غالبة ومنتشرة بقوة[2]. كما أخبرنا سالوست بأن لغة سكان لبدة بساحل السرت قد تغيرت بفعل الاختلاط بين الفينيقيين والأفارقة[3]. وأشار سيليوس ايتاليكوس إلى قبائل افريقية تتكلم لغتين، بينما زعم بومبونيوس ميلا بأن عددا قليلا من سكان منطقة لبدة هم الذين حافظوا على لغتهم، وهو الأمر الذي سايرته بعض الدراسات المعاصرة، فقد اعتبر مارسيي (Mercier) بأن المجال البوني الافريقي عرف استمرار تداول اللغة الليبية بموازاة نشوء لهجات محلية[4].

وإذا أردنا أن نرسم خريطة لهذه اللهجات الليبية وتموقعها ببلاد المغرب ككل، فإننا نجد بالمغرب الأقصى مراكز لها: كالزناتية بالريف، وتامازيغت الأطلس، وتاشلحيت سوس[5]. فالشلوح يشغلون الجزء الغربي من الأطلس الأعلى والأطلس الصغير ويمتدون شمالا إلى غاية ماغادور(Magador) في مراكش ودمنات، ويذهبون جنوبا إلى غاية المجرى السفلي لواد درعة. وأما تامازيغت الأطلس الأعلى فهم يلحقون الشلوح في الشرق، وهو آيت عطا، وآيت يفلامن(Ait-Yafelmane) في الأطلس الأعلى الشرقي، بني زايان، وآيت مقليد(Ait-Mguiled)، آيت يوسي في الأطلس المتوسط، ثم نجد بني وراين (Beni-Ourain) في شرق فيقو، وآيت سغروشن.

(*) " يشير قزال إلى أنه قد أمكن للخصوصية البربرية من المحافظة بعناء شديد على اللهجات الليبية، وهذا ما نجده لدى النساء بالخصوص، اللواتي لا تخرجن بالكاد من عائلاتهن أو على الأقل من قراهن، ناقلات بذلك اللغة الليبية إلى أولادهن" (للمزيد أنظر: S. Gsell, H. A. A. N, T. VI, 1927, p. 94)

(1) محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص 206 S. Chaker, « Quelques considérations générales sur la langue des Touaregs », Libyca, T. XXV, éd. C. R. A. P. E, Alger, 1977, p.205. ;

(2) S. Gsell, H. A. A. N, T. I, p. 311.

(3) Sallust, Guerre de Jugurtha, LXXVIII.

(4) عبد اللطيف، الركيك: المرجع السابق، 33.

(5) عبد الحنين: البركاني: المرجع السابق، ص 102.

وأما الريفية في جبال الريف، فتمتد من جنوب فاس إلى مليلة. وإلى هذه اللهجات الثلاث بالمغرب الأقصى، نجد الزناتية التي يرتبط مجالها الجغرافي بالريفية حيث تتمركز بالمنطقة اليسرى للملوية ولكتلة بني سناسن، وكذا ناطقون آخرون بالبربرية جنوب وجدة على حافة الظهرة مشكلين الانتقال مع المجموعة الجزائرية لـ بني سنوس[1]. فالزناتية إذن تنتمي اليها لهجة الظهرة من تيبازة إلى مستغانم، والشاوية في الشرق الجزائري، والميزابية في واحات غرداية و ورقلة، مثلما توجد في الورشنيس وقلعة السند (تونس) وواحات تيممون وقورارة، وكذا لهجة ناحية تلمسان الواقعة في بني سنوس والغزوات[2]. هذا إضافة إلى الزناتية المنتشرة بكل مكان من المغرب الأقصى والجزائر وحتى تونس[3].

ففي الجزائر نجد لهجة كتامة في المنطقة الساحلية ما بين سكيكدة وجيجل، والصنهاجية[4] التي تضم لهجة زواوة في قبائل جرجرة، ولهجة التوارق في الجنوب. أما بتونس فنجد ما يسمى بلهجة ورغمة في عدة جهات من تونس، تضاف اليها اللهجة النفوسية التي نجدها اضافة الى موطنها جبل نفوسة ومدينة زواوة الليبية، نجدها في جزيرة جربة التونسية. وإلى هذه اللهجات الليبية التي استمرت إلى اليوم، نجد اللهجة السيوية، وهي لهجة واحة سيوة المصرية قرب الحدود المصرية الليبية[5].

هذه اللهجات التي أثبتت باستمرارها وبمقاومتها لكل التأثيرات الأجنبية، أثبتت عمق اللغة الليبية ووحدتها في كل بلاد المغرب، وأنها مقوّم ثقافي قائم بذاته للإنسان المغاربي في سلم الثقافات والحضارات منذ القديم، ولا أدل على وجودها من تمكن هذا الإنسان المغاربي من ابتكار كتابة تعبر عنها هي الألفباء الليبية.

---

(1) A.Bernard, Afrique septentrionale et occidentale, p. 73.

(2) محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص 209.

(3) Charles. Barbier de Meynard, « Rapport sur une nouvelle mission accomplie par M. Basset en Algérie, à la recherche des dialectes berbères », C. R. A. I, 30è année, N. 2, 1886, p. 262.

(4) Edmond. Destaing, « Essai de classification des dialectes berbères de Maroc », Etudes et documents berbères, N. 19-20, la boite de documents/ Edisud, 2002, p. 87.

(5) محمد العربي، عقون: نفسه، ص 207.

ثانيا: الكتابة الليبية

1-النقوش النوميدية:

إن أهم شيء عكس وجود كتابة ليبية في العصر القديم هو تلك النقوش المنتشرة في كافة أرجاء بلاد المغرب في شكل نصوص مزدوجة، نجدها ليبية-بونية، أو ليبية-لاتينية. ولأن هذه النقوش الليبية قد وجدت معظمها في الجهة الشرقية من الجزائر الحالية والبعض منها في تونس، وبحكم أن البلاد التي نجدها فيها توافق المنطقة التي حملت خلال العصر القديم اسم نوميديا أثناء ما قبل الاحتلال الروماني، وأن سكانها هم من أطلق عليهم الكتّاب اللاتين خلال الحروب البونية اسم النوميد، ولأنه لا يوجد شعب آخر قام بهذه النقوش في هذه الرقعة الجغرافية، فالقرطاجيون كتبوا مرثياتهم البونية، والرومان فيما بعد باللاتينية، فمن المعقول جدا تسمية هذه النقوش بالنقوش النوميدية[1]، خاصة وأن تسمية "ليبيا والليبيين" التي أطلقها الاغريق قبل الرومان على المنطقة والسكان، كانت خلال فترة الممالك النوميدية المستقلة والقرون الأولى للاحتلال الروماني قد تركت وطغى اسم النوميد ونوميديا على السكان والمنطقة. ولأن النقوش المعثور عليها بنفس هذا الاقليم توافق هذا الاطار الزماني، اقترح بعض الباحثين تسميتها بالنقوش النوميدية، حيث تعكس المعالم أو النصب الوحيدة المكتوبة للغة الليبية القديمة التي تكلم بها ساكنة بلاد المغرب القديم[2].

والملاحظ هو كون أغلب هذه النقوش كتابات على النصب الجنائزية عائدة إلى فترة تمتد من القرن الخامس قبل الميلاد إلى غاية فترة السيطرة الرومانية[3]. إذ عثر على العديد من النصب الليبية أو الليبية-البونيقية الجديدة، أو الليبية اللاتينية، واستمرت كذلك في نهاية العصور القديمة مع ما يعرف اصطلاحا بالنقوش الصخرية الليبية-البربرية التي نعثر عليها في مختلف مناطق بلاد المغرب[4]، وهي نقوش تعكس لنا ميزة خاصة للكتابة الليبية القديمة، فأحرفها عبارة عن رسوم أشكال هندسية تشبه التيفناغ المستعملة من طرف التوارق[5]. لكن الأغلبية الساحقة للنقوش الليبية من العصر القديم نجدها على شكل نقوش قبور سريعة جدا تحتوي أساسا أسماء أشخاص، غير أن بعض النقوش النادرة نجدها في مخابئ تحت الصخر، التي يمكن أنها كانت أماكن عبادة تعكس خصائص سحرية-دينية.

والحقيقة أنه في العصر القديم مثلت النقوش النوميدية دور "هوية ليبية" (بربرية)، لأن النقوش النوميدية (الليبية) قد خصصت إلى الملوك النوميد وإلى الشخصيات الكبيرة من صفوف مختلفة. كما أن الكثير من الأهالي النوميد قد أثبت حاجته إلى تحرير مرثيات أقاربهم باللغة الليبية، ولأن الكتابة البونية أو اللاتينية فيما بعد كانت

---

(1) Le général.Faidherbe, collection complète des inscriptions numidiques, libraire A. Frank, Paris, (S. d), p. 12.

(2) J-B. Chabot, Recueil des inscriptions libyques, Fascicule 2, imprimerie nationale, Paris, 1941, p. I.

(3) محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص204.

(4) محمد الهادي، حارش: التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري، ص 137.

(5) A.Berthier, l'Algérie et son passé, éd. A et J. Picard, Paris, 1951, p. 48.

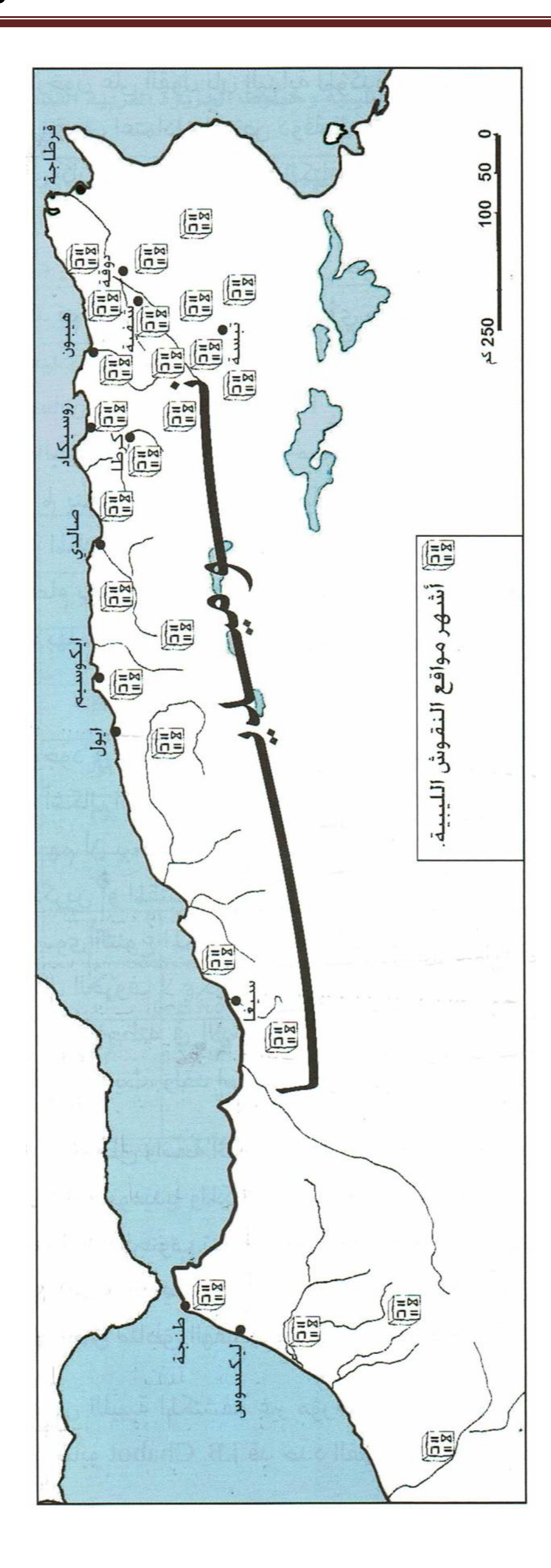
مستخدمة بشكل رسمي في ذلك الوقت، فهي تحت تصرفهم، مما جعل ازدواجية في لغة تلك النصوص، بونية – ليبية، أو ليبية–لاتينية فيما بعد، وهذا يؤكد اصرار الكتابة الليبية على إثبات هويتها رغم وجود لغات أخرى إلى جانبها(1).

إذن يمكننا أن نجمع تحت مصطلح الكتابة الليبية –البربرية مجموع الكتابات أو النقوش من فترات مختلفة، وجدت في كل بلاد المغرب القديم، بالصحراء وحتى جزر الكناري، يختلف توزيعها الجغرافي حسب طبيعتها وعصرها(2).

---

(1) Salem. Chaker, « l'écriture libyco-berbère. Etat des lieux et perspectives », Actes du colloque international le libyco-Berbère ou le tifinagh , H.C. A, Alger, Mars 2007, p. 277.

(2) Lionel. Galand, « les alphabets libyques », Ant. Afr, T. 25, 1989, p. 70.



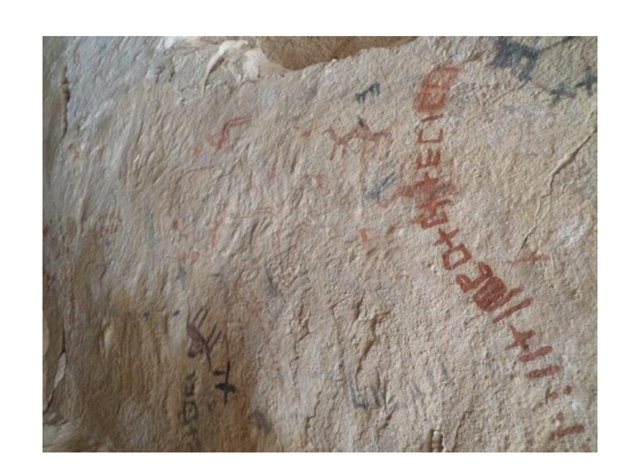
خريطة رقم8 : مواقع النقوش الليبية

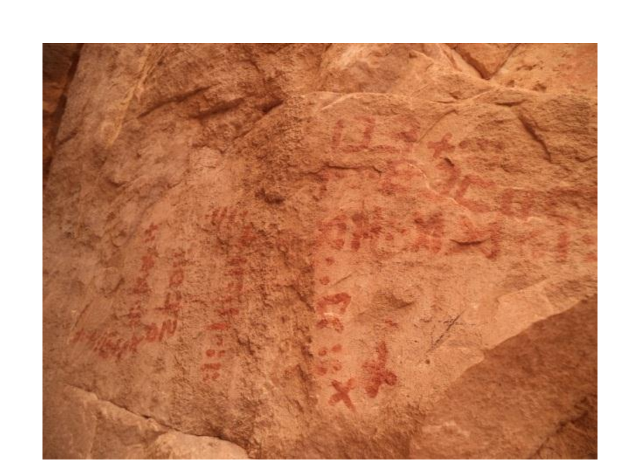
عن: محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة، 2013، ص 108



صورة رقم 23 : شاهد قبر نقشت عليه كتابة ليبية، عين الجمعة (ناحية الدار البيضاء)

(صورة أخذت من طرف الباحثة، متحف الآثار، الرباط)

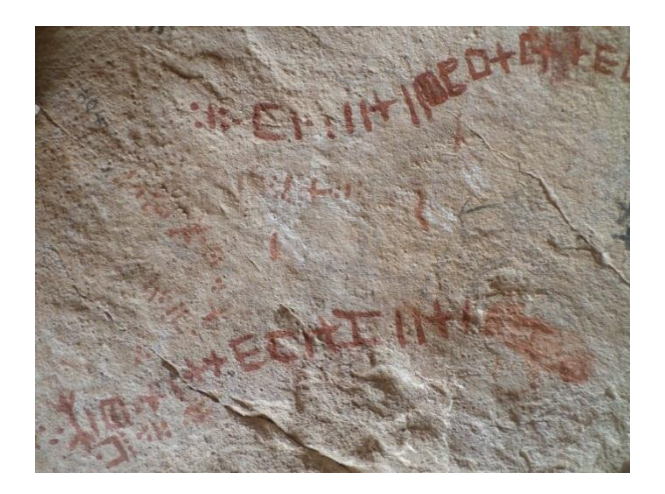




صورة رقم 24 : نقوش ليبية بربرية (تيفناغ ورسوم لمرحلة الجمل)

جرف أمود، التاسيلي نزجر

(صور أخذت من نفس المكان من طرف الباحثة)





صورة رقم25: رسوم صخرية لكتابات ليبية بربرية (تيفيناغ)

جرف أمود، التاسيلي نزجر

(صور أخذت من نفس المكان من طرف الباحثة)

1-1/ نص دوقة ونقوش نوميدية أخرى:

مثّل نص دوقة المزدوج بوني-ليبي أول وثيقة مؤرخة بدقة في ما أسميناه بالنقوش النوميدية، وهو إهداء مرفوع إلى ماسينيسا في السنة العاشرة من حكم ابنه "مسيبسا" (Micipsa)، فهو يعود إلى سنة 139 ق.م[1]، وجد "Faidherbe" بأنها كتبت بطريقة أفقية تحتوي على 20 حرف، 10 من هذه الحروف لها حروف مشابهة لها في كتابة التوارق (التيفناغ)[2]. لكن نص دوقة الذي انطلقت منه اكتشافات النقوش النوميدية تتلو بعضها، لم يكن الوحيد، فهناك نص آخر مزدوج بوني- ليبي أصلي، عثر عليه في دوقة كذلك، يخلّد ذكرى إقامة ضريح، أرجعه فيفري (Février) إلى نفس العصر الذي أقيم فيه نص دوقة السابق، أو أنه أقدم منه. كما اكتشفت نصوص أخرى ليبية بنفس الموقع متناثرة، كلها في شكل خطوط أفقية[3].

إذ أن النقوش المعثور عليها في بلاد المغرب القديم لم تكن كلها مزدوجة، ليبية-بونية أو ليبية-لاتينية، فهناك ما عثر عليه في شكل نقوش ليبية وحدها، وهي سابقة لفترة الاحتلال الروماني وبعيدة عن التأثير البوني، مثل

(1) J. Février, Op. Cit, p. 321.

(2) Le Général. Faidherbe, Op. Cit, p. p. 45,46.

(3) J. Février, Ibid.

النصب الجنائزية المعثور عليها في عدة أماكن، والمتميزة تماما عن النصب البونية أو الرومانية، ونقصد بها شواهد القبور الميغاليتية أو الدولمن التي بدأت منذ فجر التاريخ واستمرت إلى غاية فترة الممالك النوميدية وحتى ما بعدها. وبفحصه للغة التي كتبت بها نقوش هذه القبور قصد معرفة إن كانت هي أيضا ليبية وأصلية مثلما أن القبور أصلية، ذهب Faidherbe إلى مقارنتها بخمسة أنواع من النقوش المتواجدة في بلاد المغرب: بونية- ليبية، 161 نقيشة ليبية، 34 نقيشة صخرية، 6 منها كتبت بالتيفناغ. وبنظرة واحدة تكفي لإثبات أنها نفس الكتابة مع تغييرات بسيطة من مجموعة إلى أخرى، فمعظم الرموز هي نفسها، وبالتالي فهذه النقوش تعود إلى عصور مختلفة لكنها من منطقة واحدة، وهي الجزء الأوسط من بلاد المغرب القديم، وهكذا يتوضح بأن لغة هذه النقوش هي لغة النوميد الأصلية، وهي الليبية، فقط أسماء الأشخاص على النقوش ليست أسماء ليبية أصلية[1].

اضافة إلى هذا، هناك مجموعة نقوش أخرى درسها "بارتيي"(Berthier) تضم مجموعات ليبية، بونية، ولاتينية، تضم السلسلة الليبية منها 20 نصب، حيث أن 19 منها أصلية، اكتشفت بـ هنشير مركوبة بمنطقة قالمة، ب، مشتة المازة بـ سوق أهراس وكذا بـ كاف بن فرج في منطقة الشيفية. لكن أكبر مجموعة نقوش ليبية اكتشفت ودرست من طرف هذا الأخير (Berthier) هي 21 نقيشة ليبية عثر عليها في "تيديس"، هذه النقائش تعدّد اسماء أشخاص، كلها جنائزية يمكن ارجاعها إلى المقابر المحيطة بالكاستلوم (le Castellum)، فهذه النقائش المعثور عليها بـ تيديس وعن طريق تحليل C_{14}، توصل الباحث إلى تأريخ الكتابة الليبية بها إلى نهاية القرن الثالث ق. م وبداية القرن الثاني ق.م[2] .وخلال فترة الاحتلال الروماني تواصلت النقوش بالكتابة الليبية، لكنها كانت نقوش سريعة مزدوجة، لاتينية أو بونية[*] ليبية، معظمها مرثيات منحوتة على لوحات تشهد بحيويتها خلال القرون الميلادية الأولى[3].

---

(1) Le Général. Faidherbe, Op. Cit, p. p. 43, 44.

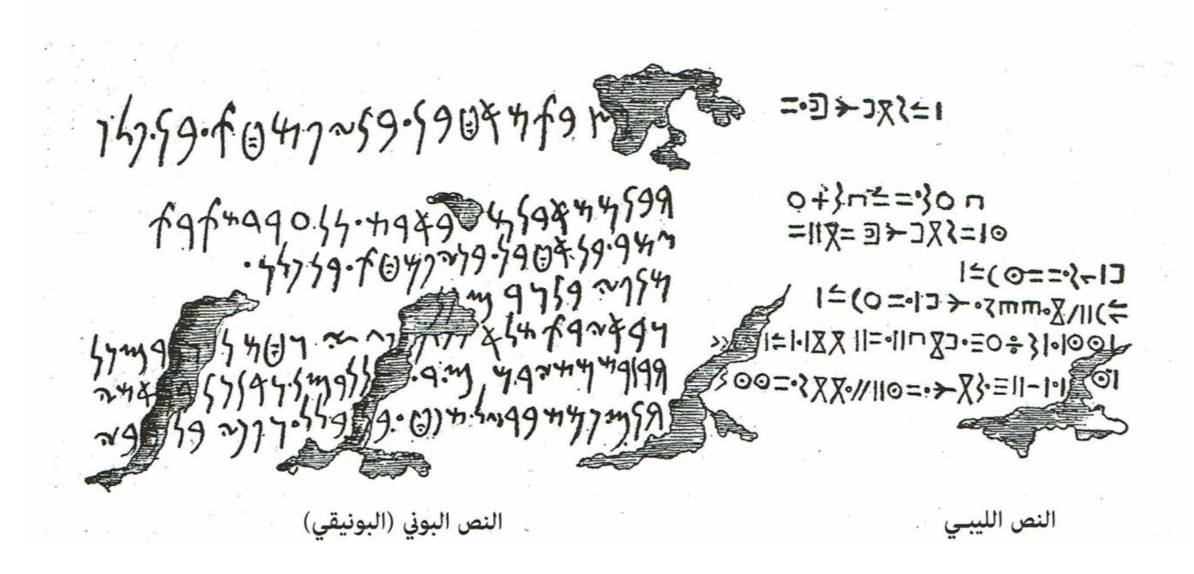
(2) A.Berthier, Tiddis cité antique de Numidie, Mémoire C. R. A. I, T. XX, diffusion de Boccard, Paris, 2000, p. p. 215, 235.

(*)"مثل النقيشة التي عثر عليها " M.Ghaki" في برج هلال، وهي نقش مزدوج ليبي-بوني جديد، تتحدث هذه النقيشة عن اسم قبيلة "NNBYH" (للمزيد أنظر: Ghaki, « une nouvelle inscription libyque Mansour. à Borj Hellal », Africa, T. IX, institut national d'archéologie et d'art, Tunisie, 1985, p. 7

(3) J. Février, Op. Cit, p. 321.



أطول نص بالكتابة الليبية على لوح حجري، نلاحظ فيه اتجاهات مختلفة للكتابة ووضعية السطور



الشكل رقم 2: نقيشة دوقة المزدوجة الكتابة (ليبية–بونية)

عن: محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة، 2013، ص 101

6 ÇK[N] · TBGG · BNIFŠ[?] · MSNSN · GLDṮ · UGII · GLDṮ · UZLLSN · ŠFṬ
7 SBSNDH · GLDṮ · SISH · GLD · MKUSN
8 ŠFṬ · GLDṮ · UFŠN · GLDṮ · MUSNH · ŠNK · UBNI · UŠNK · DŠFṬ · UM
9 UTNKU · MÇÇKU · MGN · UIRŠTN · USDILN · GẒB · MGN · UŠFṬ · MU[SNH]
10 UŠMN · GLDṮ · GLDGMIL · ZMR · UMSNF · UŠMN · GLDMÇK · M
11 UŠIN · GLDṮ · UMGN · GLDṮ · ṬNIN · ŠIN · UNKKN · UFṬŠ · DR[Š]
12 ŠFṬ · UŠNK ·

شكل رقم 3: نص نقيشة دوقة المزدوجة اللغة (ليبية–بونية) التي تحمل أسماء مسؤولين نوميديين برتبة اقليد () وما يقابلها في البونية: ملك (هممملكت)

عن: محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة، 2013، ص 139

1-2/ التوزيع الجغرافي للنقوش الليبية وتأريخها:

تنتشر النقوش الليبية بشكل غير متساوي في كل بلاد المغرب القديم، إذ نجدها قليلة جدا بالمغرب الأقصى، وكذلك بشرق تونس، لكنها تتوفر بشكل خاص في شمال شرق الجزائر ومناطق تونس المحاورة للجزائر، بين عنابة والقالة، في الشمال قالمة وشمتو، وفي الجنوب بين سوق أهراس والقالة. نجدها كذلك حاضرة بقوة في الكتلة التونسية الوسطى وفي ضواحي قسنطينة وميلة، لكنها جنوبا في بلاد البربر الشرقية نادرة، عدا بالقبائل الكبرى[1]. هذا عن النقوش المزدوجة ليبية-بونية أو ليبية -لاتينية، لكن ما يعرف بالنقوش الليبية البربرية التي تقدم شكلا وسيطا للكتابة بين الليبية والتيفناغ، فهي تمتد إلى غاية جزر الكناري[**]، لاسيما في الجنوب الوهراني في طرابلس وبالصحراء[2].

هذه النقوش النوميدية لا تكفي وحدها لوضع تأريخ لبداية الكتابة الليبية، لكننا نستطيع وضع إطار زمني لهذه الأنصاب النقوشية لا للكتابة الليبية، فليس نص دوقة هو أقدم تاريخ لهذه النقوش (139 ق. م)، فبعض النصوص سابقة بأجيال عدة لهذا الاهداء المؤرخ بـ 139 ق. م، مزهرية من مكتشفات تيديس التي أشرنا اليها تحتوي على عظام أرّخت بالكربون المشع بـ 250 ق.م، حملت على طرفيها نقش ليبي مصبوغ ورمز للكتابة الليبية أمكنها أن توجد كذلك على مزهرية أخرى من مقبرة "رشقون" المؤرخة بالقرن السادس ق.م[3]. فالنقوش الليبية هي في فترة كرونولوجية واقعة بين الربع الأخير من الألفية الأولى قبل الميلاد والقرون الميلادية الأولى. وهذه الفترة الزمنية تتميز بثلاث حوادث حضارية كبرى في بلاد المغرب القديم، وهي فترة الممالك النوميدية والمورية المستقلة، انتشار الحضارة البونيقية، وبداية الرومنة[4].

---

(1) S. Gsell, H. A. A. N, T. VI , 1927, p . 96.

(**) في دراسة للنقوش الجديدة ذات الشكل الأبجدي التي وجدت في جزر "Lanzaroté" و "Fuerteventura" بالكناري قصد معرفة ومناقشة العلاقات التي ربطت بين شعوب بالشمال الافريقي وجزر الكناري، وجد بأنه خلال العصر القديم قد أعطت المصادر الأدبية اشارات قليلة جدا، كلها عبارة عن أساطير أو أوصاف لهذه الجزر، لكن النقوش واللغة التي وجدت بالجزيرتين المذكورتين أعلاه عبارة عن أبجدية جديدة مختلفة عن أبجدية النقوش الليبية-البربرية الموجودة أيضا بجزر الكناري، وهو ما أثار جدلا بين الباحثين حول الكتابة واللغة. فاللغة المستخدمة بدت وكأنها اللغة الليبية معاصرة للقرون الأولى الميلادية، وكذا تجلي التأثير الروماني بوضوح في هذه الأبجدية، كما كشف علم الأسماء أسماء بونية وحتى رومانية وهو ما أدى إلى التساؤل عن هوية أولئك الأشخاص المتعرّف عليهم في النقوش الموجودة كذا عن الهدف من تنقلاتهم. وفي احتمال يجيب عن هذا التساؤل، ذهب صاحب هذا البحث إلى القول بأن الاضطرابات التي عرفتها بلاد المغرب القديم إثر الاحتلال الروماني ومقاومة القبائل النوميدية أو المورية له، فإن هناك احتمال نفي الأهالي إلى هذه الجزر بشكل منظم" (للمزيد أنظر: A. Tejera et A. Chausa, « Les nouvelles inscriptions indigènes et les relations entre l'Afrique et les iles Canaries », Bulletin archéologique de C. T. H. S, Nouvelle série, 1996-1998, éd. C. T. H. S, Paris, 1998, p. 70-73.

(2) J. Février, Op. Cit, p. 322 ; S. Gsell, H. A. A. N, T. I, p. 310.

(3) G. Camps, les Berbère mémoire et identité, p. 274.

(4) M. Ghaki, « La répartition des inscriptions libyques », Africa. Série Reppal, IX, institut national du patrimoine, Tunisie, 1995, p. 94.

1-3/ أنواع النقوش النوميدية وفك رموزها:

اختلف الباحثون في تقدير أنواع الرموز الكتابية للنقوش الليبية لاعتبارات عديدة، أهمها الموقع الجغرافي الذي عثر فيه على النقش ومحتواه، وعلى ضوء هذا تم تقسيم أحرف الكتابة الليبية إلى ثلاثة أنواع: رموز الكتابة الليبية العتيقة، حيث تتمثل هذه الأخيرة في النقوش القديمة العائدة إلى فجر التاريخ وبداية العصر القديم بشمال افريقيا، وتعرف كذلك بالأبجدية الليبية الأصلية وتنتشر عبر المناطق الساحلية الجبلية. تنقسم هذه الكتابة الليبية العتيقة بدورها إلى نوعين من الأبجدية الليبية، هما الكتابة الليبية الشرقية الممتدة من تونس حتى نهر سيبوز، وهي المنطقة التي شغلتها المملكة النوميدية، وتمتاز بكون أغلب نقوشها مزدوجة اللغة، تتراوح بين البونية، الليبية، واللاتينية-الليبية[1]. والنوع الثاني هو الكتابة الليبية الغربية[2] الممتدة من غرب قسنطينة نحو منطقة القبائل وضواحي وهران، وصولا إلى المغرب الأقصى. وإلى جانب الكتابة الليبية العتيقة، بنوعيها الشرقية والغربية، نجد الكتابة الصحراوية وكتابة جزر الكناري[3].

وبسبب هذا التنوع للأبجدية الليبية بدأ المختصون في محاولة لفك رموزها والوصول إلى فهم مضمون النصوص القديمة، ورغم توصلهم إلى فك معظم الحروف الليبية وايجاد مقابلها في النطق[4]، إلا أن معظم النصوص تبقى غامضة إلى يومنا هذا ما عدا النصوص المزدوجة (ليبية-بونية أو ليبية لاتينية)[5] التي تمت إعادة تركيب مضمونها وتحديد 20 حرف من الأبجدية الليبية من خلالها[6]. أما الباقي فتبقى كتابات مجهولة المحتوى، ويبقى الاشكال حولها قائما ما لم يتم جمع نصوص النقائش المتناثرة في كل بلاد المغرب، بما فيها الصحراء والمناطق المحاذية له، ثم تصنيفها ومقارنتها ببعضها البعض[7].

كما أن عملية فك رموز النقوش الليبية عموما اعترتها صعوبات كثيرة، فالنصوص الليبية لا تقرأ بوضوح إلا إذا صاحبتها نصوص بونية أو لاتينية، لذلك بقيت النصوص غير مزدوجة الكتابة مبهمة وتتعرض للتأويلات والتخمين، كما أن اختلاف الحروف وتنوعها وكذا تغير اتجاهها يصعّب من ايجاد طريقة واحدة لدراسة وفهم معاني النصوص. كما أن هناك شيء لافت للانتباه، وهو أن قصر النصوص الليبية واقتصارها على الجانب

---

(1) مها، عيساوي: المرجع السابق، ص 104.

(2) M. Ghaki, « La répartition des inscriptions libyques », p. 94.

(3) مها، عيساوي: نفسه.

(4) H. Basset, Essai sur la littérature des Berbères,h ancienne maison Bastide-Jourdan Jules Carbonel imprimeur-libraire-éditeur, Alger, 1920, p. 13.

(5) G. Camps, monuments et rites funéraires protohistoriques, éd. S. A. P. H. O, Paris, 1962, p. 39.

(6) H-B. Chabot, « Note sur l'alphabet libyque », C. R. A. I, 61ème année, N. 6, 1917, p. 558.

(7) عبد الجبار، عباسي: الكتابات الليبية البربرية في إطار الفن الجداري الصحراوي، دراسة أثريو لمجموعة من الكتابات الصخرية في محيطها الطبيعي والأثري بالتاسيلي نازجر، رسالة لنيل الماجستير في علم الآثار، جامعة الجزائر، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم الآثار، 2004/2005م، ص66.

الجنائزي هو من بين العوائق التي تقف في وجه الباحث، إذ ليس بالإمكان أن نستشف منها أية اشارة أدبية أو فنية ما عدا أسماء الأعلام التي مثلت حصة الأسد في موضوع النقوش الليبية بشكل عام[1].

1-4/ اتساع استخدام الكتابة الليبية من خلال النقوش:

يتبين من توزيع النقوش الليبية عموما أن السكان الريفيين لا الحضر هم الذين استعملوا الأبجدية الليبية بشكل أوسع، وأن دوقة بهذا تشكل استثناء مع حوالي 10 نقوش ليبية عثر عليها في أماكن أخرى[2]، فالنقوش النوميدية الدالة على آثار للكتابة الليبية ظهرت بشكل متقطع في مجمل بلاد المغرب القديم، لكن هناك مناطق استحوذت على أكبر كثافة لهذه النقوش، وهي المناطق التي تغطي كل الشمال الشرقي لقسنطينة، الواقعة بين البحر المتوسط شمالا والحدود الجزائرية التونسية في الشرق، نهر مجردة في الجنوب وواد سيبوز في الغرب، فهذه الرقعة الجغرافية وحدها تحتوي على قرابة النصف من مجمل النقوش (حوالي 500 نقيشة)، وخارج هذا الاقليم لم تظهر النقوش الليبية سوى بعدد محدود. فهل يمكننا أن نستشف من هذا التوزع للنقوش مدى اتساع وكثافة استخدام الكتابة الليبية؟

ولكن علينا أن نأخذ بعين الاعتبار بأن اتساع استخدام اللغة شفويا ليس بالضرورة متناسبا مع اتساع وكثافة النصوص المنقوشة، فالسكان المستخدمين يوميا للغة الليبية لم تثبت أبدا حاجتها إلى نقش أو رسم أنصاب خاصة بها، كما أن هناك أشخاصا بنفس هذا المجال كان باستطاعتهم أن يعبّروا في نقوشهم بالبونية أو باللاتينية، مثلما تشهد النصوص المزدوجة، ليبية-بونية أو ليبية-لاتينية. إذن يمكننا ربط كثرة النقوش الليبية في مجال ما أو غيابها في اقليم آخر بقلة استخدام اللغة الليبية أو تراجعها[3].

ومن جهة أخرى، إذا كان التوزيع الجغرافي للمعطيات النقائشية، سيما بالجهة الشمالية والشرقية من بلاد المغرب القديم، إذا كان يسمح بافتراض انتشار اللغة البونية، فإنه لا يكفي لمعرفة مدى اتساع استعمالها من طرف سكان المجال البوني الافريقي، وبالتالي الحكم بأن استعمال البونية قد تم على حساب اللغة الليبية التي يفترض استعمالها من طرف قسم من السكان الذين حافظوا على مقوماتهم الحضارية ولم يتأثروا كثيرا بقرطاجة، سيما وأن لغة التداول اليومي في المناطق البعيدة عن المدن، والتي تعد منطقيا الأكثر انتشارا إذا ما قورنت باللغة المستعملة في الكتابة بالمدن، لا تترك في الغالب آثارا مادية يمكن أن تبرهن على أهمية استعمالها، على خلاف اللغة المكتوبة[4].

المكتوبة[4].

كذلك أنه لمعرفة مدى اتساع استعمال اللغة الليبية أو تراجعها أمام استخدام لغات أخرى، البونية أو اللاتينية، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار عوامل أخرى غير عامل التوزيع الاجمالي للنقوش الليبية أو لحجمها مقارنة

---

[1] مها، عيساوي: المرجع السابق، ص82.

[2] غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص 325.

[3] M . Bénabou, Op. Cit, p. 476.

[4] عبد اللطيف، الركيك: المرجع السابق، ص 34.

مع النقوش اللاتينية، وذلك لن يتأتى، حسب Bénabou إلا بمعرفة خصوصية مواقع النقوش الليبية، هل هي بمقبرة؟ وهل تحتوي نقوشا لاتينية أو بونية.، أي مزدوجة، هل هي معزولة أو مجاورة لموقع روماني، أو أنها بقرب مراكز فلاحية أو بقايا عسكرية، أم أنها على العكس من ذلك مجاورة لبقايا أثرية ما قبل رومانية كالمعالم الجنائزية؟. إن فحص هذه التساؤلات على أرض الواقع من خلال الملاحظة الدقيقة والاستعانة بالخرائط التي تقدمها لنا الأطالس الأثرية، ستعرّفنا ولا شك بمحيط النقوش الليبية أو المقابر المحتوية عليها. فهذه العوامل سمحت واقعيا بمعرفة مجالين لمحيط النقوش الليبية، أولاهما مناطق ظهرت فيها اللغة الليبية لوحدها، نادرة نسبيا، واقعة في مناطق غابية. أما المجال الثاني فقد ظهرت فيه النقوش ذات الكتابة اللبية مجاورة للغات أخرى، وهي تمثل أغلبية النقوش، حيث أن المقابر الليبية فيها تتواجد أحيانا غير بعيدة عن الأطلال الرومانية، وأحيانا أخرى بجوار المدن الرومانية المشهورة[1].

هذه الملاحظات الواقعية لخصوصية المناطق التي تتواجد بها النقوش الليبية، وبالتالي اللغة واستخدامها، قادت ليس الباحث" Bénabou" فقط، بل باحثين آخرين مثل: G. Faidherbe و G. Marcy إلى التوصل إلى أن النقوش الليبية قد تطورت خصوصا بجوار مراكز ثقافة بونية أو رومانية، وهو ما أدى إلى القول ب: "وجود شكل من التكافل بين النقوش الليبية والحضارتين القرطاجية والرومانية"، وهو ما أدى إلى القول بأن المنافسة اللاتينية أو البونية للغة الليبية أمكنها أن تشجع هذه الأخيرة (الليبية) على الكتابة بها بدل ترك استعمالها لها شفويا فقط، فالتأثير البوني ثم الروماني هو من شجع الليبيين على نقش نصوص بلغتهم الأصلية، وإن هذا يعبّر عن مقاومة الليبيين ثقافيا للإسهامات الخارجية أكثر، مما يعكس إرادة تأقلم مع الثقافة الأجنبية[2] وتبني لغتها وثقافتها دون إلغاء اللغة والكتابة الأصلية، وهي كتابة عبّرت عن وجود أبجدية خاصة بالليبيين تعكس الجانب الملموس للغتهم.

2- الأبجدية الليبية:

تعد الكتابة جزء مكمل للحضارة التي ابتكرها الإنسان، فهي إجراء يسعى الإنسان من خلاله إلى تثبيت الكلام المنطوق به، فتكون بذلك وسيلة غير مباشرة يسعى من خلالها إلى تقييد أفكاره. وإذا كان الإنسان المتحضر –الحالي- يفكر عن طريق ادراكه، فإن تفكيك مجموع ادراكاته إلى عدد قليل جدا من العناصر تسمح بتسجيل كل عنصر من هذه العناصر الأخيرة بمساعدة رمز تخطيطي هو الحرف، وأنه بنطقنا بشكل تتابعي لحروف كلمة فإننا نعيد تشكيل مظهرها الفعلي والسمعي عن طريق هذا الوسيط، وهو تسجيل حروفها، حيث نفترض أولا الكلمة في مجملها ثم يأتي مفهومها أو ادراكها نفسه، وهذا الحدث هو من ضبط تطور القراءة والكتابة عند الانسان المعاصر، لكن الانسان البدائي لم ينطلق من الادراك ليصل إلى الكلمة المنطوق بها ثم الكلمة المكتوبة، إذ

(1) M. Bénabou, Op. Cit, p. 478.

(2) M. Bénébou, Ibid, p. p. 479, 482.

لم يكن يهمه أن يصب فكرته في اسم وتسجيل هذا الاسم عن طريق الكتابة، لقد كان يفعل الأشياء، وهذا يكفيه[1].

فالكتابة الأبجدية التي نستعملها اليوم لم تظهر مرة واحدة، بل انتقل العقل البشري من مرحلة إلى أخرى بحسب ما يسمح له تفكيره، فكانت المرحلة الأولى للكتابة وهي الصورية، حيث دوّن من خلالها الانسان ما يرغب به من أشياء مادية على هيئة صورة موجزة، ثم انتقل إلى مرحلة الرمزية للتعبير عن الأفكار والمعاني المجردة بالصورة المادية الموجزة، حيث لم يكن المقصود من الصورة الشيء المادي المتعارف عليه فحسب، وإنما معناه كل فكرة مشتقة منه، فصورة الشمس مثلا رسمت لا لتدل على قرص الشمس فقط، وإنما لتدل على الحرارة واليوم. ثم تأتي مرحلة ثالثة للكتابة، وهي الكتابة الصوتية أو المقطعية، حيث كان لزاما الوصول إلى نظام كتابي أسهل من سابقيه، لأن نظام الصور أدى من جهة إلى زيادة العلامات الكتابية، ومن جهة أخرى كان يؤدي الأفكار بطريقة ناقصة، فلم يكن من سبيل للتقدم سوى تحليل أداة الكلام والوصول إلى تمييز الأصوات التي تتألف منها الألفاظ. وتأتي بعدها آخر مرحلة من مراحل تطور الكتابة، وهو وصول الانسان إلى استعمال الحروف الهجائية التي شاع ابتكار الفينيقيين لها حوالي نهاية الألف الثانية ق.م (1200 ق. م)، وذلك لأننا نعلم شكل الكتابة في القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد، عن طريق رسائل تل العمارنة، تلك الرسائل التي بعث بها ملوك فينيقيا إلى فراعنة مصر، وتدل هذه الرسائل على أن الكتابة التي كانت مستعملة في فينيقيا وفي كل آسيا الغربية هي الكتابة المسمارية الأكدية[2].

وإذا كان هذا هو حال الكتابة عامة لدى كل الشعوب القديمة، حق علينا التساؤل ثم البحث عن الكتابة الليبية وهل عرفت هي أيضا هذه المراحل ووصلت مرحلة الأبجدية، أم أنها اشتقت من أبجدية أخرى مثلما روّج لذلك الكثير من الباحثين الاستعماريين خاصة، لا لشيء سوى لعجز الانسان المغاربي في رأيهم عن مثل هذا الابتكار.

2-1/ تعريف الكتابة الليبية:

إذا كان اختراع الكتابة يمثل أبرز التطورات الحاصلة في تاريخ الأمم والمجتمعات، فإن توصل الليبيين إلى هذا النوع من الابتكار دليل على قدرتهم على ايجاد وسيلة ايصال مكنتهم من تجاوز الاطار البدائي نحو مرحلة الحضارة[3]، فالليبيون إذن عرفوا في العصر القديم وسيلة تعبير تمكنوا من استخدامها بشكل واسع لينقلوا بها تاريخهم، فالكتابة الليبية أو النوميدية هي ابتكار أصلي[4]، أثبت الليبيون من خلاله بأنه خارج الحضارة القرطاجية وحتى الرومانية لاحقا، كان لهم لغتهم ومنظومتهم الكتابية، وإذا كانت هذه الأداة الحضارية قد انتظمت خارج

---

(1) J. Février, Op. Cit, p. 9.

(2) صلاح، أبو السعود: المرجع السابق، ص 230-233.

(3) محمد البشير، شنيتي: "لمحة عن التفاعل الثقافي في الجزائر القديمة"، ص8.

(4) G. Camps, monuments et rites funéraires protohistorique, p. 38.

التأثير الفينيقي، فإن ذلك يقدم الدليل على أن الأفارقة لم يتخطوا إطار البدائية فحسب، ولكنهم أحسوا بالحاجة مثل بقية الشعوب إلى تثبّت وترسخ حركة الفكر والخطاب من خلال الكتابة.

فالأبجدية الليبية كانت معروفة في العصر القديم لدى جميع السكان، فقد كانت مستعملة في نوميديا الشرقية مثلما الغربية ومملكة المور، فكل من الماسيل والمازيسيل وكذا الجيتول والمور استخدموا الكتابة الليبية[1]. فالليبيون بذلك أوجدوا أبجدية خاصة بهم متجاوزين حد الاكتفاء بالكتابة الفينيقية الجاهزة، والتي كانت متداولة من طرف سكان السواحل، فاستطاعت الكتابة الليبية أن تعايش الفينيقية المتطورة وتتغلغل في أوساط الريفيين حتى أصبحت عنصرا مميزا في شخصيتهم رغم تبني الملوك النوميد للغة الفينيقية واستعمالها في الأمور الرسمية[2].

أما عن تاريخ ظهور الكتابة الليبية، فالفرضيات مازالت قائمة، إذ يرجعها البعض إلى أواخر النيوليتي وفجر التاريخ، ابتداء من 1500 ق.م معتمدين في ذلك على دراسات تطور أساليب التمثيل في الفن الصخري الصحراوي خصوصا[*]، ومنهم من يؤرخ أقدمها ما بين القرنين السادس والخامس ق.م اعتمادا على كتابة ليبية وجدت في نقيشة أعزيب نكيس بالمغرب الأقصى[3]. أما الدراسات الكلاسيكية فهي تؤرخ هذه الكتابة بالقرن الثالث أو الثاني ق.م معتمدة بذلك على النقيشة الوحيدة التي يتوفر في نصها تاريخ، وهي نص دوقة المزدوج المؤرخ بـ 139 ق.م[4] الذي ذكرناه سابقا، حتى ذهب بعض المعجبين بشخصية ماسينيسا إلى القول بأن الكتابة الليبية قد ظهرت في عهد هذا العاهل النوميدي، غير أن هذا القول لا يقوى على الثبات عندما نتذكر موقف ماسينيسا من الكتابة البونيقية، فقد اتخذها كتابة رسمية وضرب بها نقود المملكة النوميدية[5].

2-2/ حروف الكتابة الليبية واتجاهها:

تشكل الكتابة الليبية احدى الكتابات التي عرفت في العالم، وهي الكتابة الأولى والوحيدة المحلية بالشمال الافريقي. حروفها عبارة عن تدقيق هندسي بسيط غير مخطوط[6]، فهي مستقيمة الخطوط ومزواة، وتكوّن أشكالا أشكالا هندسية أساسية، وإذا كان البعض رأى في جزء من حروفها تشابها مع الحروف الفينيقية، فإن للأبجدية الليبية في الأصل حروفها الخاصة التي تميزها عن الفينيقية، فشكل الحروف في حد ذاته بعيد كثيرا ومتعارض مع المظهر الانسيابي للحروف البونية، فهذه الأخيرة كتابة تجار يخطّونها بسرعة على شمع أو على ورق البردي، فالأحرف البونية كلها منحنية وحلزونية الشكل، أما الكتابة الليبية فهي لم تستعمل إلا في نقش نصوص على

([1]) غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص ص 322، 323.

([2]) محمد البشير، شنيتي: "لمحة عن التفاعل الثقافي في الجزائر القديمة"، ص 8.

(*) سنتحدث عن هذا بالتفصيل في المبحث الثالث و الفن الصخري.

([3]) S. Chaker, « l'écriture libyco-berbère. Etat des lieux et perspectives », p. 275.

([4]) عبد الجبار، عباسي: المرجع السابق، ص 42. ; J. février, Op. Cit,p. 321.

([5]) محمد البشير، شنيتي: نفسه، ص ص 10، 11.

([6]) M. Hachid, les premiers berbères entre méditerranée. Tassili et Nil, p. 173.

الحجر أو على مادة صلبة[1]. ولكن هذا لا ينفي عدم استعمال مادة أخرى لنحتها، لأنها قبل كل شيء تقنية للنحت، خاصة برسم رسالة قصيرة على الدواعم المتاحة، مثل حجر، خشب أو معدن، أو حتى على اتساع الرمال، أو أقمشة، وأخيرا على الورق، من أين نجد أشكالها الهندسية تكون في شكل دائرة، صليب، وأشكال أخرى[2].

هذه الكتابة لا تسجل سوى الحروف الساكنة، فبالنسبة لعدد حروف الكتابة الليبية، يشير فيفري (Février)إلى أنه إذا كان الأسقف اللاتيني فولجينوس (Flugence) بإفريقيا قد كتب خلال القرن السادس ميلادي بأن الألفباء الليبية قد احتوت على 23 حرف على خلاف الأبجدية العبرية التي تحتوي على 22 حرف، لكن الأحرف التي تشهد بها النقوش المزدوجة البونية–الليبية، والتي هي القاعدة في فك الكتابة الليبية تحتوي إجمالا على 24 حرف[3]، وأن هذا العدد هو في الواقع يخص مجموع الحروف المستعملة في الكتابة الليبية الشرقية[*]، وحيث أنه وجد بالكتابة الليبية الغربية 35 حرف، والتيفناغ 26 حرف، فإن عدد حروف الكتابة الليبية غير ثابت لأن الاكتشافات مستمرة، ويزيد من صعوبتها عملية فك رموز الكتابة الليبية البربرية والوصول إلى إعادة تركيب مع النصوص لأن حروفها صماء ولا فاصل بين الكلمات خاصة في الكتابات القديمة[4].

إن هذا الاختلاف في عدد الحروف وفي شكلها جعل الكتابة الليبية تحتوي على نوعين مختلفين قليلا، وهما الأبجدية الليبية الشرقية، والأبجدية الغربية[5]، بالإضافة إلى الليبية الصحراوية وهي التيفناغ القديمة، والتيفناغ الحديثة الحديثة التي تنتمي بشكل غير قابل للجدل، مثلما يقول كامبس، إلى نفس المجموعة التي وجب أن تنتمي اليها أيضا نقوش جزر الكناري[6]. فالأبجدية الليبية الشرقية هي تلك الخاصة بنقوش دوقة وبعدد كبير من النقوش التي وجدت في شرق سيبوز (Seybouse)، وأن قيمة الحروف فيها ومعرفة عددها وخصوصيتها تم اعتمادا على النصوص المزدوجة البونية– الليبية أو اللاتينية– الليبية. أما الألفباء الغربية فقد تجلت حروفها وأشكالها من خلال بعض النصوص المعثور عليها خصوصا غرب قسنطينة، وفي بلاد القبائل، وهران، وفي المغرب الأقصى، حيث تقدم رموز عديدة مختلفة عن الألفباء الشرقية، لم تحدد قيمة كل الأحرف فيها بعد، لكن البعض منها مطابق لأحرف من ألفباء التوارق (التيفناغ)، لكن يبدو أن لها قيمة مختلفة عنها[7].

---

(1) غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص 323.

(2) Lionel. Galand, « L'écriture libyco-berbère », C. R. A. I, 142ème année, N. 2, 1998, p.593 ; S. Gsell, H. A. A. N, T. VI, p. 95.

(3) J. février, Op. Cit, p. p. 321, 322.

(*) ذكرنا هذا التصنيف في العنصر السابق حول النقوش.

(4) عبد الجبار، عباسي: المرجع السابق، ص 43.

(5) J. Février, « Que savons-nous du libuque ? », Rev. Afr , Vol. 100, 1956, p. 265.

(6) G. Camps, les berbères mémoire et identité , p. 273.

(7) J-B. Chabot, Recueil des inscriptions libyques , Fascicule 2, imprimerie nationale, Paris, 1941, p. IV.

بالنسبة إلى اتجاه الكتاب الليبية فإنه متغير، فإذا كان الشكل العمودي يغلب في اتجاه الكتابة في معظم النقوش التي عثر عليها والتي غالبا ما تكون وحيدة الكتابة، لا يصاحبها نص بوني أو لاتيني بعكس النصوص المزدوجة التي يتأثر فيها النص الليبي بالنص المصاحب له[1]، مثلما نجده في نقوش دوقة المزدوجة النصوص، حيث نجد الحروف متتابعة من اليمين إلى اليسار بتأثير ربما من النص البوني، والأسطر موضوعة الواحد أسفل الآخر. وأما في حالات أخرى فإننا على العكس نجد في النصوص المزدوجة اللاتينية- الليبية الحروف الليبية مرتبة في أعمدة متوازية في كل عمود يجب أن نبدأ من الأسفل والأعمدة نفسها تبدأ من اليسار، وأحيانا من اليمين. وإذا كانت في هذه النصوص البداية من الأسفل، فإنه في نص دوقة تبدأ من الأعلى وإلى اليمين[2]. ويري فيفري بأن النقوش التي تكون عمودية مع رموز تتوالى من الأسفل إلى الأعلى، فهي الأقدم، أما الكتابة الأفقية فهي ذات تقليد عن الكتابة البونية، وأن المرور من الكتابة العمودية إلى الكتابة الأفقية قد استوجب في حالات كثيرة تغيرا لوضعية الحروف[3].

---

(1) مها، عيساوي: المرجع السابق، ص 68.

(2) S. Gsell, H. A. A. N, T. VI, p. 95 ; J-B. Chabot, Op. Cit, p. I ; J. Février ; Histoire de l'écriture, p. 322.

(3) J. Février, Ibid.

النطق العربي	الاتجاه العمودي القراءة من أسفل إلى أعلى	الاتجاه الأفقي القراءة من اليمين إلى اليسار	ملاحظـــــــــــات
أ، هـ	III	≡	ألف غير مهموز يلفظ قريبا من الهاء، فيعده البعض هاء
ب	⊙ ⊡	⊙ ⊡	
ت	X	X	
ث	IIII	⋾	يلفظ مشمما بالطاء
ج	↾	↾	
د	⊐	⊓	
ذ	I	H	يلفظ مشمما بالزاي
ر	O	O	
ز (1)	H	−	
ز (2)	⧗	H	يلفظ مشمما بالسين
س	⧗ C	⧗ C	
ش	W	≥	
ص	T	⊢	
ض، ظ	I	H	يلفظ مشمما بالزاي
ط	➤ IIII	➤	يلفظ مشمما بالثاء
ف	⧗	⧗	
ق	·|·	÷	
ك	⥮	⇋	
ل	=	=	
م	⊔	⊐ ↄ	
ن	I	I	
و	II	=	
ي	N	Z	

جدول رقم 1: الاتجاه العمودي والأفقي للكتابة الليبية ونطقها باللغة العربية

عن: محمد البشير، شنيتي، الجزائر قراءة، 2013، ص 103

2-3/ اختفاء الكتابة الليبية أو استمرارية لها؟:

يبدو بأن استعمال الكتابة الليبية قد استمر بالشمال الافريقي إلى نهاية العصر القديم. أما خلال العصر الوسيط، فإنه على العكس لا نلاحظ في كتابات المؤرخين العرب لهذه الفترة أية اشارة إلى وجود كتابة ليبية عند البربر، وهو ما أدى إلى التفكير لدى المختصين في كون هذه الأخيرة قد خرجت من الاستخدام ببلاد المغرب قبل نهاية الفتح الاسلامي والاستقرار النهائي للعرب بداية القرن الثامن للميلاد. لكن علينا أن نأخذ بعين الاعتبار بملاحظة مهمة وهي كون شهادات المؤرخين العرب المتلاحقة حول بلاد المغرب تلي قرونا عديدة عاشتها المنطقة تحت الاحتلال، فلا يجب استبعاد، مثلما يشير الباحث سالم شاكر، أن الكتابة الليبية قد أمكنها منذ وقت مبكر أن تتراجع لأسباب ربما حديثة، منذ الفترة المسيحية، لأن استعمال الكتابة الليبية ارتبط بالوثيقة لأن استخدامها الرئيسي كان جنائزيا، لذلك يمكن القول بأن الليبيين الذين اعتنقوا المسيحية ثم الاسلام مع الفتح العربي، والذين كانوا سابقا متمسكين بكتابة وثنية، فيبدو أنه قد تراجع استخدامهم لهذه الكتابة الوثنية تدريجيا ومحدود بمناطق ريفية متراجعة، إذ أن غياب الاشارة اليها عند المؤرخين المسلمين يعني أنها لم تكن مستخدمة في المجال المدني أو ذو التأثير المدني. لذلك يرجع سالم شاكر اختفاءها بالمنطقة الشمالية من بلاد المغرب إلى ما بين 550 و750 م[1]، لكنها بالمقابل بقيت محفوظة بها لدى البربر التوارق، سيما في الأطلس الصحراوي حيث توجد نقوش يستنتج من خلال مضمونها بأنها لاحقة لفترة الاحتلال الروماني[2]، لأن هذه النقوش المسماة ليبية-بربرية مثّلت وسيطا بين الكتابة الليبية و التيفناغ. وقد واصل التوارق، وهم خلفاء الجيتول والغرامنت استعمالها في الكتابة كما فعلوا في الحفاظ على العادات، ونمط المعيشة واللغة في سلسلة متواصلة تربط بين بعض هذه المجموعات الأمازيغية والأفارقة القدماء[3].

وإذا كانت هذه النقوش الليبية-البربرية وكتابة التيفناغ هي أصل واستمرار للكتابة الليبية، وبالتالي تعكس الأصل المحلي لهذه الكتابة، فإننا نجد في كتابات المؤرخين الأجانب شبه إجماع حول صياغة فرضيات عديدة حول أصول أجنبية لهذه الكتابة.

3-فرضيات حول أصول الأبجدية الليبية:

طرحت فرضيات عديدة حول أصل الكتابة الليبية واشتقاقها وانتمائها[4]، فكون الأبجدية الليبية كتابة صوتية (phonétique) تماما وليست كتابة مقطعية مثلما هو الحال في كتابات أخرى قديمة، وكونها أبجدية حقيقية لا تحتوي إلا على عدد قليل من الحروف الصامتة (consonantique) فقط[5]، جعل المختصين

([1]) Salem. Chaker, « l’écriture libyco-berbère », p. 275-276.

([2]) M. Hachid, les premiers berbères entre Méditerranéé. Tassili et Nil, p. 189.

([3]) غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص 323.

([4]) محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص 203.

([5]) محمد الهادي، حارش: التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري، ص 141.

يبحثون عن أصلها في كتابات أخرى، كالباسكية (Basque) الاتروسكية، الاغريقية ن وحتى اللغات الطورانية[1]، أو أنها اقتراض من الأبجدية الفينيقية، أم هل تكون ابتكار محلي أصلي، أو أنها اقتراض من نظام قديم جدا مازلنا نجهله. وهذا ما سنحاول البحث عنه من خلال المعطيات التاريخية والأثرية، وذلك بالإشارة إلى الفترة التي أمكن للموز الليبية أن تظهر فيها، إذ يمكن أن تكون الأبجدية الليبية أقدم من الفينيقية نفسها التي ذهبت معظم آراء الباحثين إلى صياغة أصل الكتابة الليبية من خلالها.

3-1/ فرضية الأصول الباسكية الايجية والاغريقية القديمة:

تكون أبجديتان قريبتان من بعضهما البعض عندما تكون أشكال الحروف فيهما قد تطورت بأشكال مختلفة من نفس اللغة السابقة، وإن القرابة اللغوية لا تثبت بهوية المفردات، فهذه الأخيرة يمكن اقتراضها بسهولة، كما أنها لا تثبت عن طريق تشابه الأنواع اللغوية، كعلم الأصوات، المورفولوجية أو النحوية، فتشابه النوع لا يمكن أن يكون سوى إشارة مشجعة لإعداد فرضية وليس دليلا على تقارب الأبجديتان، لكن تتقارب لغتان بالهوية النحوية أي بتوظيف نفس الصوت أو نفس مجموع الأصوات في نفس الوظيفة التي تثبت القرابة اللغوية. وليس من الضروري بسبب التطور من فترة مشتركة أن نجد بالضبط نفس الصوت ونفس الاستخدام، لكن يجب إضافة إلى هذا أن نفسر هذا التطور، حينئذ يصبح البحث عن تقارب لغوي أمرا دقيقا.

ومن بين الأبجديات التي طرحت حولها فرضية أن تكون أصلا للغة الكتابة الليبية نجد طرح الباحثين إلى فكرة قرابتها مع الباسكية في أوربا، التي تكون قد دخلت بلاد المغرب عن طريق اسبانيا، فالاتصال بين المنطقتين أمر سهل بفضل وجود مضيق جبل طارق، ويمكن أن يتم في أي وقت. لكن هذه الفرضية لم تثبت واستبعدت رغم الجهود التي بذلت لتقريب الأبجديتان من بعضهما البعض[2].

أما الفرضية الثانية التي طرحت، فنجد صداها عند الأبجدية الايجية(*) واحتمال اشتقاق الكتابة الليبية منها، لكن الكتابة الايجية كتابة نصف ايديوغرافية (mi-idéographique) مقطعية، بينما الكتابة الليبية صوتية[3]، لذلك استبعدت فرضية تقاربهما. وهناك فرضية أخرى بحثت عن أصول الكتابة الليبية في الألفباء الاغريقية القديمة التي نجدها تتكون من حروف ساكنة وحروف متحركة، وهذا ما يسهّل قراءتها ومعرفة قيمها الصوتية المختلفة، في

---

(1) S. Gsell, H. A. A. N, T. I, p. 320.

(2) H. Basset, « la parenté linguistique et le Berbère », Rev. Afr, Vol. 76, 1935, p. 357-**358**.

(*)"هناك حدث أساسي في البحر المتوسط يوافق ابتكار الكتابة وهو غزوات شعوب البحر التي وضعت الليبيين الشرقيين على اتصال مع شعوب مختلفة قادمة من البلقان وآسيا الصغرى، من المشرق ومن البحر الايجي، حيث أن البعض منهم قد اتحدوا ضد فراعنة مصر، "منبتاح" ثم رمسيس الثالث ومن هنا يطرح التساؤل كيف أن هذا الحدث الذي سيقلب البحر المتوسط ويؤدي إلى انهيار حضارات كبرى مثل الحضارة الميسينية والحثيين في الأناضول، لم يكن قد وصل صداه إلى الليبيين الصحراويين الذين أمكنهم مد يد المساعدة إلى جيرانهم الليبيين الشرقيين؟. كما أنه يجب أن لا ننسى بأن شعوب البحر المتوسط قد أبحروا رفقة كل شيء: نساء، أطفال، متاع، وحتى العادات بما فيها اللغة والكتابة، خاصة وأنهم كانوا يملكون منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد أنظمة كتابية كالهيروغليفية، الكريتية والخطية A ، والخطية B، وكتابة ميسينية، إذ يمكن أن يكون الليبيون الصحراويون قد نسخوا كتابتهم بهذا الاتصال القوي مع شعوب البحر" (أنظر: M. Hachid, Op. Cit, p. 188.)

(3) J. Février, Histoire de l'écriture, p. 323.

حين أن الأبجدية الليبية ذات حروف ساكنة فقط. فهل كان اقتباس الليبيين للأحرف الساكنة فقط من الاغريقية؟ ألم تكن أمامهم الحروف المتحركة كذلك؟ فلماذا لم يقتبسونها هي الأخرى؟. وتبقى الاجابة عن هذا السؤال غامضة لأن عملية الاقتباس من أبجدية إلى أخرى عملية كلية وليست جزئية[1].

2-3/ فرضية الأصل السامي للكتابة الليبية:

أ-القبطية المصرية والجنوب عربية:

هناك قرابة للغة الليبية مع لغات أخرى متجاورة جغرافيا طرحت كأصل لها منذ بداية الدراسات في هذا الموضوع، حيث يشير كامبس إلى أن "Champollion" في مقدمة "قاموس اللغة البربرية" أسس قرابة لغوية بين هذه اللغة (الليبية) والمصرية القديمة[2]، وذلك بحكم أن اللغة البربرية تنتمي إلى عائلة كبيرة من اللغات التي يمكن أن نسميها حامية، ولأن المصرية القديمة التي أصبحت فيما بعد تسمى القبطية (le copte). لكن البحث في الروابط البربرية والقبطية بدون فائدة لأن اللغة البربرية تختلف عن اللغات السامية في مجموع كلماتها، وعن القبطية خصوصا في التصريف، فكيف نجعل القبطية أصلا لها؟[3]. صحيح أن العائلة اللغوية التي نسميها حامية كانت تمتد على كل شمال القارة الافريقية، من رأس "Gardafui " إلى المحيط الأطلسي، ومن الجنوب الشرقي إلى ما بين بحيرة فكتوريا والمحيط الهندي، وأننا نجدها كذلك في السودان ممثلة بلهجات مختلفة، إلا أن التشابه يعيد جدا بين الأبجديتان الليبية والقبطية، فمنذ آلاف السنين وبموازاة الكتابة المصرية التي كانت قائمة بذاتها، فإن الليبية بدورها طوّرت نظامها النحوي بطريقة مستقلة[4].

وإلى جانب القبطية، ذهب بعض علماء اللغة إلى البحث عن أصل الكتابة الليبية في الكتابة السامية الجنوبية في شبه الجزيرة العربية، إلا أن هذا مستبعد أيضا، لأن هناك اختلاف واضح بين الكتابتين من حيث عدد الحروف واتجاهها والقيمة الصوتية للحرف[5]، كما أن وجود علاقات ثقافية بين العالم العربي والشمال افريقي خلال الألفية الأولى قبل الميلاد أمر بعيد حتى على الافتراض[6].

ب-الفينيقية، البونية والبونية الجديدة:

لأن الدراسات الكلاسيكية اعتمدت في تاريخ بداية الكتابة الليبية إلى القرن الثاني ق.م اعتبارا من أن نقيشة دوقة المؤرخة بـ 139 ق.م هي أقدم وثيقة والوحيدة التي يتوفر فيها تاريخ، ولأن كذلك هذه الدراسات تعتقد أن مجمل النقائش الليبية المكتشفة في بلاد المغرب لا يمكنها أن تكون أقدم من تاريخ مجيء الفينيقيين إلى

(1) مها، عيساوي: المرجع السابق، ص 101.

(2) G. Camps, les Berbères mémoire et identité, p. 69.

(3) Le Général. Faidherbe, collection complète des inscriptions numidiques, p. 42.

(4) S. Gsell, H. A. A. N, T. I, p. 321.

(5) مها، عيساوي: نفسه، ص90.

(6) J. Février, Histoire de l'écriture, p. 325.

المنطقة[1]، فقد اتجه الكثير من الباحثين إلى أن للكتابة الليبية أصل سامي فينيقي[2]معتمدين في ذلك على الخاصية المتحركة (consonantique) للكتابة الليبية وتشابه بعض الحروف الليبية مع الحروف الفينيقية القديمة[3]، وأنه تبعا لهذا يجب قبول أن الألفباء الليبية ستصعد على الأقل إلى منتصف الألفية الأولى قبل الميلاد، وربما أعلى من هذا التاريخ، وبالتالي ستكون قد ورثت من المستوطنات الفينيقية بالساحل المغاربي هذه الأبجدية، مثل مستوطنة أوتيكا السابقة لقرطاج، كما يجوز افتراض-حسب فيفري- بأن الليبيين لم يقترضوا سوى بعض الحروف، أما الحروف الليبية الأخرى فهي ذات موروث محلي قديم، كالأوشام القبلية والرموز الدالة على الملكية والرموز المنقوشة على الصخور. لكن هذه الفرضية تصطدم باعتراض كبير، وهو الاتجاه العمودي للكتابة الليبية وقراءتها من الأسفل إلى الأعلى وليس من اليمين إلى اليسار مثلما هو الحال في الأبجدية الفينيقية[4]، ولهذا استبعدت هذه الفرضية كذلك واتجه القائلون بالأصل السامي للكتابة الليبية إلى تقاربها ربما مع البونية أو البونية الجديدة.

فبالنسبة للحروف البونية فإن شكل حروفها لا يصلح لمقارنتها بالليبية، كما أن البونية الجديدة لا تلقى قبولا كذلك، ولأن هذه الأخيرة (néo-punique) ذات تخطيطات مرنة ومتموجة، لا يمكنها أن تكون أصلا للحروف الليبية ذات الأشكال الهندسية والمزوّاة (ذات زاوية)، كذلك يمكننا أن نستدل على عدم وجود علاقة بينهما في كون أحد النصوص الليبية النادرة المؤرخة، وهو النص الاهدائي من معبد ماسينيسا بدوقة 139 ق.م، يعود إلى فترة لم تكن قد ظهرت فيها الكتابة البونية الجديدة المنبثقة من الكتابة البونية بعد، ولأن هذا النص النقائشي الليبي ذاته قد كتب أفقيا، فهو ليس مصنفا في النصوص الأقدم، وإنما ضمن النصوص الأحدث، وإذا كان هناك تقليد في منظومة الكتابة الليبية عن منظومة الكتابة الفينيقية، فلعل هذا التقليد قديم جدا ولا يقتصر خاصة على استعمال الحروف المتحركة وحدها، مع أن هذه الحروف متميزة تماما عن الحروف الفينيقية[5]. ولهذا قدّم العالم اللغوي "Mettzer" فرضية مفادها أن الكتابة الليبية لا أصل لها وهي غير مقتبسة من لغة أخرى سواء في أشكال رموز الحروف أو القيم الصوتية لها، بل هي وليدة فترة القوة والازدهار التي عاشتها المملكة النوميدية في عهد ماسينيسا، وإلا كيف يمكن تفسير عدم وجود نقوش تعود في زمنها إلى ما قبل نقشي دوقة الأول والثاني؟[6].

والثاني؟[6].

(1) عبد الجبار، عباسي: المرجع السابق، ص 69.

(2) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 78.

(3) G. Camps, monuments et rites funéraires protohistoriques, p. 38.

(4) J. Février, Histoire de l'écriture, p. 323.

(5) غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص 324.

(6) مها، عيساوي: المرجع السابق، ص 100.

ʼ	𐤀	ألف	ʼalef	A	*alpha*
b	𐤁	بيت	bet	B	*bêta*
g	𐤂	جمل	gimel	Γ	*gamma*
d	𐤃	دالت	dalet	Δ	*delta*
h	𐤄	هي	he	E	*epsilonn*
w	𐤅	واو	waw		
z	𐤆	زين	zain	Z	*dzêta*
ḥ	𐤇	حيت	ḥet	H	*êta*
ṭ	𐤈	طيت	ṭet	Θ	*thêta*
y	𐤉	يود	yod	I	*iôta*
k	𐤊	كاف	kaf	K	*kappa*
l	𐤋	لامد	lamed	Λ	*lambda*
m	𐤌	ميم	mem	M	*mu*
n	𐤍	نون	nun	N	*nu*
s	𐤎	سمك	samek	Ξ	*xi*
ʿ	𐤏	عين	ʿayn	O	*omicronn*
p	𐤐	في	pe	Π	*pi*
ṣ	𐤑	صاد	ṣade		
q	𐤒	قوف	kof		
r	𐤓	ريش	reš	P	*rhô*
š	𐤔	شين	šin	Σ	*sigma*
t	𐤕	تاو	taw	T	*tau*

شكل رقم 4: حروف الأبجدية الفينيقية التي انبثقت منها جل الأبجديات القديمة

عن: محمد البشير، شنيتي، الجزائر قراءة، 2013، ص 49

نموذج كتابة مسمارية

نموذج كتابة هيروغليفية

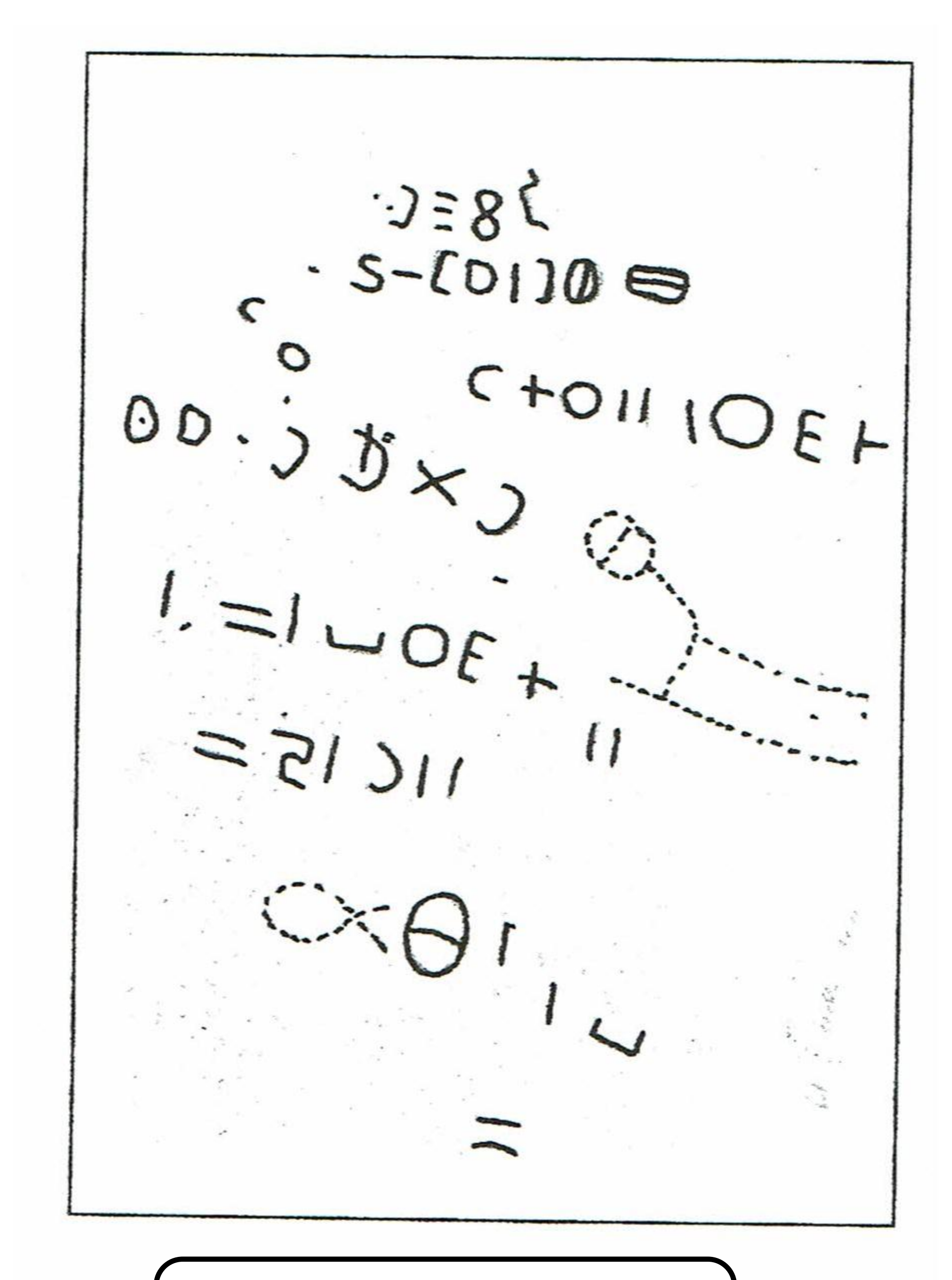
شكل رقم 5: نموذج للأبجدية الفينيقية الباكرة، عثر عليها في جبيل (بيبلوس)، يعود النص إلى النصف الأول من الألف الثانية ق.م عن: محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة، 2013، ص 39

3-3/ جزر الكناري والأبجدية الليبية:

لم يكتف المختصون اللغويون بمحاولة البحث عن اصول الكتابة الليبية في المشرق والكتابات السامية، بل أنهم طرحوا حتى معطيات جديدة حول أصولها في المناطق القريبة من افريقيا، في جزر الكناري. فالملاحظ حسب كامبس أنه منذ زمن طويل استعمل الغوانش بعض الرموز الكتابية لها قرابة كبيرة بالأبجدية الليبية[1]، لكنها فرضية لا تزال تحتاج إلى التركيز والدراسة لأن الجزر المشار اليها، وخاصة الجزر السبعة المأهولة منها، والتي لا تبعد عن الساحل الغربي للمغرب الأقصى إلا بحوالي 100كم، علاوة على أن هناك احتمال حدوث هجرة من بلاد المغرب إلى هذه الجزر، بدليل العادات الموجودة بها لحد الآن ذات الأصول الليبية، وكذا الفخاريات وطريقة تحزيزها. أما بالنسبة إلى الكتابة، فإنه بالرغم من أن أغلبها مازالت غامضة ولم تفك كل رموزها إلا أنها تلتقي مع رموز الكتابة الصحراوية، وكذلك القيم الصوتية لبعض الكلمات و الأعداد من 1-10، فهي مأخوذة تماما من القيم الصوتية لرموز الكتابة الصحراوية[2].

([1]) غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص 327.

([2]) مها، عيساوي: المرجع السابق، ص 110-111.



شكل رقم **6**: نقوش جزر الكناري

عن: مها، عيساوي: النقوش النوميدية، **2009**، ص **113**

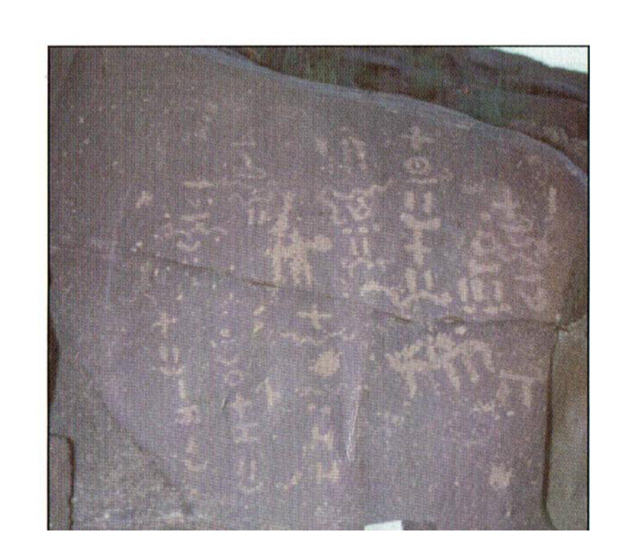
3-4/ الأصل المحلي للكتابة الليبية:

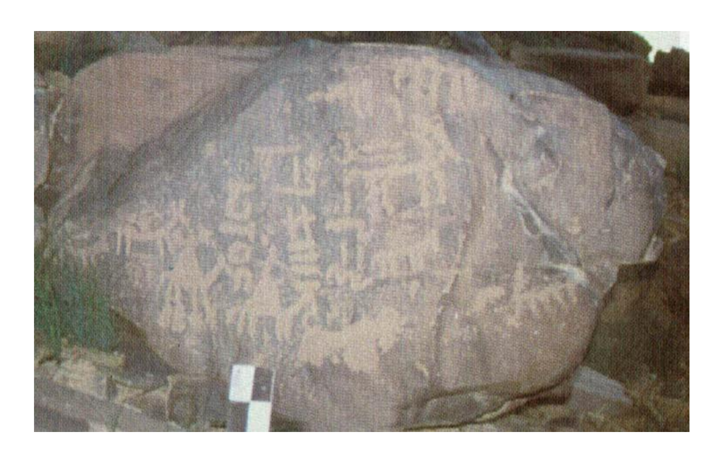
هناك طرح أشار اليه مجموعة من الباحثين بعد أن أنهوا كل مقارباتهم للأبجدية الليبية مع الكتابات الأخرى، خاصة منها السامية، وهو الأصل المحلي للكتابة الليبية. مثلما طرحه "J. Friedrich" حيث يعتقد أن الكتابة الليبية نشأت نشأة مستقلة وليس لها اشتراك مع الأبجديات السامية سوى في المبدأ[1]، كما أن هناك عدة عناصر تسمح بالتفكير في أن الكتابة الليبية كانت فعلا قديمة، أقدم من التواجد الفينيقي بالمنطقة، وحتى أن حروفها هي جزء من فهرس مضامين نفيسة في الفن الليبي (الأمازيغي)، حيث نجدها في زخارف الفخار، وفي الأوشام، فقد احتفظت منذ زمن طويل بالأشكال الأساسية مثل: الصليب، النقاط، مجموعة من خطوط ودوائر مع حيوانات في عدد من الرسوم الصخرية ذات التقليد النيوليتي إلى جانب رسوم صخرية أخرى متقنة التصميم مثل رسوم "كاف الخزاز" التي يشير اليها كامبس والتي تكشف –احتمالا- الانتقال من الصورة إلى الكتابة التخطيطية[2] (Pictogramme). ولهذا علينا البحث في معطيات الفن الصخري في بلاد المغرب ومعرفة المراحل التي سبقت وصول الليبيين إلى الأبجدية قصد إثبات أن الأبجدية الليبية ليست أبجدية جاهزة اقترضت حروفها من هذه الكتابة أو تلك، بل هي أبجدية مستقلة عرفت مراحلها التصويرية والرمزية في النقوش والرسوم الصخرية المنتشرة في كل بلاد المغرب.

---

(1) J. Février, Op. Cit, p. 325.

(2) غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص 326.





صورة رقم 26: نقوش صخرية منقطة تحوي كتابة ليبية مرفقة بنقوش شخص مسلح وحيوانات تعبر عن المرحلة الأولية للكتابة الليبية. عن:

A. Skounti, Tirra, 2004, p 221, 222

ثالثا: الفن الصخري والأبجدية الليبية

قبل أن تصل الكتابة الليبية إلى الشكل الذي نعرفه عنها اليوم، عرفت مراحل عدة رسمت تاريخها وتطورها، ويبدو أن هذا التطور مرتبط بشكل آخر للتعبير والتمثيل، إنه الفن عموما الذي ظهر قبل الكتابة بزمن طويل وكان وسيلة تعبير المجموعات البشرية في كل مكان من العالم[1]. فالفن بنوعيه المنقول منه والصخري، أديا بطريقة مباشرة إلى ظهور الكتابة، ولولا تحكم الانسان في تقنيات تحويل المواد الطبيعية إلى أدوات وأشكال مجسمة تتجاوب مع الاحتياجات الحيوية والروحية للإنسان، لما كان باستطاعة هذا الأخير ابتكار الكتابة. ونقصد بالفن المنقول الفنون التشكيلية التي يمارسها الانسان بشتى أنواعها منذ العصر الحجري القديم، فمثّل أشكال هندسية، حيوانية وآدمية على مختلف المواد، من حجر وطين وعاج وعظام، أو سخّر هذه المواد لتتحول إلى تحف فنية عن طريق النحت أو التشكيل بالعجائن أو الصقل، منتهجا في ذلك عدة أساليب من الموضوعية إلى التجريد.

وأما الفن الصخري، فإنه إذا كان قد عرف مراحله الباكرة مع نهاية الباليوليتي، فإننا نجده في أرقى مراحله خلال النيوليتي في كل العالم تقريبا، وبالشمال الافريقي عرف مرحلة الجاموس العتيق (المرحلة الطبيعية)، ثم مرحلة الرؤوس المستديرة، وتليها مرحلة البقريات، ومع فجر التاريخ مرحلة الأحصنة، وأخيرا مرحلة الجمل خلال العصر القديم. هذه المراحل بدأ تطورها مثلما في بقية العالم بالرمزية ثم تطور إلى أسلوب موضوعي طبيعي، ثم تحول إلى أسلوب شبه طبيعي ثم تخطيطي، وأخيرا تجريدي أدى إلى ظهور الكتابة[2].

1- الفن الصخري في شمال إفريقيا وأبعاد رموزه التصويرية:

عبّرت الرسوم والنقوش الصخرية عن تسلسل عدة أفكار لدى انسان ما قبل التاريخ وفجر التاريخ، ومن المرجح أن يكون للكتابة الليبية أصلها في هذه الرسوم الصخرية التي تعد صحيفة يومية من صنع انسان ما قبل التاريخ دوّن فيها حياته الاجتماعية ومسار يومه، ويمكن اعتبارها كتابة تصويرية تماما مثل الهيروغليفية والمسمارية في الشرق القديم[3]، فالشمال الافريقي وبهذا التطور للفن يدخل مرحلة جديدة من الانتاج الفني، ويستقر أسلوب جديد في فنه الصخري مبدأه التخطيطية بقاعدة هندسية الأشكال، رغم عدم توصل الباحثين إلى تحديد كل الأشياء الممثلة فيها، لكنها عبّرت عن نقوش ألفبائية للكتابة الليبية[4]، وهو ما سنحاول معرفته عن قرب في مناطق انتشار الفن الصخري ببلاد المغرب القديم.

1-1/ التوزيع الجغرافي للرسوم الصخرية المحتوية على الكتابات الليبية-البربرية:

---

(1) Karima Ouazar. Merzouk, « La schématisation dans l'art rupestre et la naissance d'un système alphabétique », Actes du colloque international le libyco berbère ou le tifinagh, H. C . A, Alger, 2007, p. 125.

(2) عبد الجبار، عباسي: المرجع السابق، ص ص 31، 34.

(3) مها، عيساوي: المرجع السابق، ص 93-94.

(4) Karima Ouazar. Merzouk, Ibid, p. 127.

تتوزع النقوش والرسوم الصخرية المحتوية على أشكال أولى للكتابة الليبية في كل الشمال الافريقي، ونحن هنا لسنا بصدد تحديدها كلها وتتبع مواقعها، وإنما سنكتفي بالإشارة إلى بعض الأمثلة قصد إعطاء نظرة عامة حول شموليتها. فمن شرق إلى غرب هذا الاتساع من الشمال الافريقي، ومن شماله إلى جنوبه، دون أن نتتبع الترتيب الكرونولوجي لأقدمية أو حداثة النقوش المحتوية على الكتابة الليبية أو على رموز مشابهة للأبجدية الليبية والتي يمكن أن تكون إحدى المراحل الممهدة لها.

وإذا كان الشمال لا يحتوي سوى مواقع قليلة لهذه الرموز الكتابية الليبية، مثلما النقوش التي صنفها "سولينياك"(Solignac) في مراحل عدة، منها نقش ذو كتابة ليبية قديمة من موقع "ترفانة" (Tarfana) الواقعة على بعد 7 كم تقريبا شرق "كاف تاسينقا" الذي يميل على الضفة اليمنى من واد الطرفة، رافد واد بوسطيلة، اضافة اليها يجعل سولينياك نقوش مرافقة لحوانيت تونس في نفس مرحلتها الكتابية، حيث أن كرونولوجيتها تعود إلى عصر البرونز، ثم يصنف نقوشا أخرى في مرحلة ثانية لها، ولكن في نفس المجال الجغرافي، ونقوش "خنقة الحجر" (قرب قالمة) ذات الأساس الأعلى، ورموز ليبية تشكل مجموعة خاصة من الرسوم المنقوشة[1]. كما أنه في الفترة المعاصرة وجدت الباحثة مليكة حاشد بنفس المجال، شمال شرق الجزائر في منطقة تبسة بالتحديد، حيث توجد مواقع صخرية فريدة من نوعها تعيد بدقة نفس الرموز الهندسية التي نجدها تزين قشور بيض النعام عند القفصيين الذين اتسمت مخلفاتهم الثقافية، ذلك الديكور الهندسي الذي طبع كل مستخدماتهم وحليهم[2].

لكن تبقى أهم لوحات للفن الصخري بكل ما تحتويه من مواضيع، سيما الرموز الدالة على الأبجدية الليبية موزعة بالأطلس الصحراوي ومنطقة الصحراء. فقد قسّم الباحث "J. B. M Flamand النقوش الصخرية بالجنوب الوهراني والصحراء إلى أربع مجموعات أساسية، تضم المجموعة الأولى منها نقوش ما قبل تاريخية، سواء برسوم هندسية ذات رموز صغيرة وتشكيل طولاني دقيق، وإما برسوم مقلّدة تحوي أشخاصا معزولين أو مجتمعين وحيوانات. أما المجموعة الثانية فهي نقوش ليبية-بربرية توافق كذلك رسوم هندسية، ورسوم مقلّدة للكتابة الليبي والتيفناغ، حيث تنقسم بدورها إلى نقوش فجر بربرية (أو ما قبل ليبية)، ونقوش تاريخية أو ليبية.

وأما المجموعة الثالثة فهي نقوش ورموز مختلطة، صحراوية، نجدها منتشرة بالآيير، واد سوق، تخوم السودان والهضبة النيجيرية[3]. ومن بين الأمثلة التي يشير اليها " Flamand"من مواقع الأطلس الصحراوي نجد موقع الريشة الواقع على بعد حوالي 28 كم جنوب شرق آفلو، حيث نجد بهذا الموقع سلسلتين من الفن الصخري، الأولى نيوليتية تحتوي على رسوم حيوانات من جاموس وفيلة وغيرها، أما الثانية فرموزها تشبه الكتابة الليبية البربرية، كما أشار إلى موقع آخر موقع آخر وهو كاف مكتوبة الواقع على بعد 31 كم جنوب غرب آفلو، حيث عثر بهذا الموقع على سلسلة جديدة من خطوط عديدة مختلطة برسوم نيوليتية ذات أخاديد متوازية أو تتقطع،

(1) Marcel. Solignac, les pierres écrites de la berbèrie orientale (Est constantinois et Tunisie), imprimerie J. Barlier et Cie, Tunis, 1928, p. p. 11, 96 ; S. Gsell, H. A. A. N, T. VI, p. 101.

(2) M. Hachid, les premiers Berbères entre Méditerranée. Tassili et Nil, p. 185.

(3) Marcel. Solignac, Ibid, p. 9.

رسوم في شكل صليب أو مثلثية، والبعض منها مجاور مورفولوجيا للرموز الليبية والبربرية، وإلى جانبها تتواجد رموز أخرى بسيطة أو أحسن تمثيلا هي في الواقع حروف تيفناغ معزولة منقوشة بشكل جيد(1).

وبالصحراء الوسطى، تحديدا في جرمة بـ فزان، كشفت التنقيبات عن أمفورات منقوشة برموز كتابة مؤرخة من القرن الثاني ميلادي، كذلك في موقع بوني بطرابلس وجدت دلائل أثرية على أن الغرامنت كانوا يملكون أبجدية خاصة خلال القرن الثاني للميلاد. وحتى هناك نقوش تعود إلى ما بعد هذا التاريخ، حيث وجد في ضريح تين هينان في أبالسة بالهقار كتل بناء تحمل نقوش متقطعة لكنها تحوي كتابة تيفناغ قديمة جدا يمكنها أن تكون كتابة ليبية تعود على الأقل إلى القرن الخامس للميلاد(2)، دون أن ننسى المواقع المتعددة المنتشرة بالتاسيلي نازجر وبالهقار والمحتوية على الرموز الدالة على الكتابة الليبية.

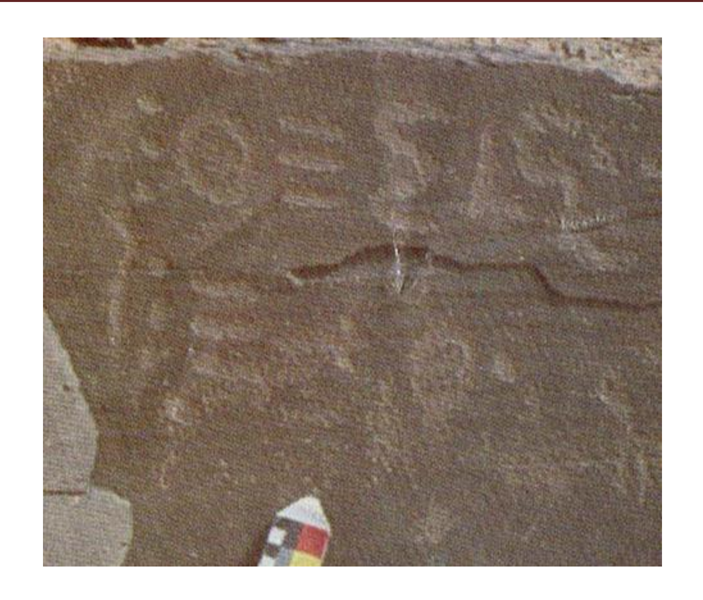
أما في المغرب الأقصى، فنجده يحتوي على أكثر من 300 موقع صخري مكتشف منذ نهاية القرن التاسع عشر، تتوزع هذه النقوش على الأطلس الأعلى، الجنوب الشرقي، واد درعة والصحراء(3). ولكن أهم موقع بالمغرب الأقصى هو موقع "أعزيب نكيس" (Azib-n-Ikkis) في هضبة الياقور (Yagour)، فحسب كامبس الذي اكتشف هذا الموقع، فإن النقش يبدو سابق للقرنين السابع والخامس قبل الميلاد. كما عثر حديثا على مواقع أخرى تحتوي رموزا ليبية، وهي موقع "تيسرفين" بـ "فقيق"، ورغم أنها لم تدرس ولم تؤرخ بعد بطريقة دقيقة إلا أنها تبدو قديمة جدا، تحتوي خط من 5 رموز مجتمعة بظبي، تبدو في مظهرها العام سابقة للكتابة الليبية–البربرية. وهناك رسم صخري أحدث من السابقة وهو موقع "فم شنا" المحتوي على رموز دالة على أبجدية(4).

(1) J. B. M. Flamand, les pierres écrites (Hadjrat-maktouba) gravures et inscriptions rupestres de Nord-africain, Masson Cie Editeurs. Libraire de l'académies de Médecine, Paris, 1921, p. p. 330, 340.

(2) M. Hachid, Op. Cit, p. 181 ; A. Ouskounti, A. El-Madjid, E. Nami, « les inscriptions libyco-berbères dans l'art rupestre présaharien », Le Sahara, espace de communication et d'interaction civilisationelle dans les temps antiques, Publication de l'institut des Etudes africaines, Rabat, 2002, p. 57.

(3) A. Ouskounti, A. El-Madjid, E. Nami, Ibid, p. 86.

(4) Ahmed Skounti, Abdelkhalek. Lemjidi, El Mustapha. Nami, Tirra. Aux origines de l'écriture au Maroc, publication de I. R. C. A. M, Rabat, 2003, p. 86.



صورة رقم 27: نقش صخري لأولى الكتابة الليبية، فم شنا (المغرب الأقصى). عن:

A. Skounti Tirra, 2004, p. 222

2-1/ محتوى النقوش الصخرية الليبية-البربرية:

إن الهدف من معرفة ما تحتويه مختلف النقوش والرسوم الصخرية بالشمال الافريقي ذات الرموز الشبيهة للأبجدية الليبية، والمسماة النقوش الليبية-البربرية، هو الوصول إلى حل إشكالية ظهور الكتابة الليبية، وهل هي ابتكار محلي أصلي، وإن كانت بدائية في هذه النقوش والرسوم أم أن الليبيين قد مرّوا مباشرة إلى الأبجدية التي وحسب شبه اتفاق بين الباحثين الأجانب قد اقترضوها مباشرة من أبجديات أخرى جاهزة كما ذكرنا.

علينا الاشارة أولا إلى أن الكتابة الليبية عموما تجلت استخداماتها في نقش اهداءات أو تسجيل رسائل قصيرة، كتبت على دواعم صخرية غالبا ما تكون من الحجر الرملي، فهي نقوش أو رسوم صخرية أو حتى أمكنها أن تنجز على ظهر مزهريات أو أمفورات، وحتى ربما على دواعم معرضة للفناء مع الزمن، مثل الخشب، الجلد أو النسيج[1]. تمثلت خصائصها الزمانية والمكانية في أنها نتاج فني ثقافي لشعوب نهاية الباليوليتيك بالشمال الافريقي أو عصر الانتقال من الباليوليتي والنيوليتي إلى العصر القديم، وباستثناء بعض النقوش القليلة، فإن معظم لوحات الفن الصخري الليبية-البربرية واقعة في الهواء الطلق أو أنها جزء من مخبأ تحت الصخر غير عميق، لم تكن تستعمل كمسكن، فهي نتاج الرحل على ما يذكر "سولينياك". كما أن الغالب على هذه النقوش هو تجمعها بجوار نقاط الماء الدائمة، إضافة إلى الطابع الديني الذي لازمها، فمعظم مواقع الفن الصخري محفوظة بفضل عادات قديمة جدا[2]. هذا عن المواقع الصحراوية، أما بالمناطق الشمالية فإننا نجد النقوش تتوزع على طول الطرق الطبيعية سهلة

---

(1) Ahmed Skounti, Abdelkhalek. Lemjidi, El Mustapha. Nami, Tirra. Aux origines de l'écriture au Maroc, p. 27.

(2) Marcel. Solignac, Op. Cit, p. 141-142.

الاختراق، وكذا على حواف السهول وفي الممرات الجبلية الضيقة التي تفصلها، وفي الرقاب قرب الوديان وقرب البحيرات القديمة، أي في كل مكان وجد فيه الانسان سهولة المرور أو الاستقرار[1].

وإذا عدنا إلى محتوى النقوش الليبية– البربرية، فإننا نلاحظ أنه إذا كانت الأبجدية الليبية تعتمد في تشكيل حروفها على الرموز الهندسية الأولية، مثل النقطة، الخطوط المتوازية والمنحنية والمتقطعة والمنكسرة، وكذا الدائرة والمثلث والمربع، فإننا نجد بعض هذه الأشكال قد أدرجت ضمن المواضيع المنقوشة والمرسومة منذ أقدم فترات الفن الصخري بشمال إفريقيا، وابتداء من أواخر فترة البقريات وطوال فترة الأحصنة، انتهج الفن الصخري أسلوبا تخطيطيا يعتمد في التمثيل على الرموز الهندسية، إذ نجد مثلا الحيوانات تمثل بأساليب تخطيطية تستعمل فيها الخطوط المنكسرة ويتم رسم ونقش الأشخاص في شكل مثلثين متعاكسين يعلوهما عمود صغير، تركّب العربات من خطوط وأشكال هندسية مختلفة ترتكز على عجلات دائرية ذات محاور وأنصاف أقطار دوائر، وغيرها من الأشكال الهندسية والرموز التي تستعمل في تحديد الملكية وفي المعتقدات الدينية والسحرية، وكذا في التزيين. فقد ساهم هذا الرصيد من الرموز الهندسية المتوارثة عبر الأجيال في البداية في تكوين جميع أشكال الفنون والزخرفة التقليدية، ثم في تركيب حروف الكتابة الليبية–البربرية[2].

---

(1) G. B. M. Flamand, Op. Cit, p. 2.

(2) عبد الجبار، عباسي: المرجع السابق، ص 71-72.



صورة رقم 28: نقش صخري يجسد الفيل

تيسراس،التاسيلي نازجر

(صورة أخذت من طرف الباحثة من نفس المكان)



صورة رقم 29: نقش صخري مصقول يمثل البقرة الباكية

ادغن اولدن (تغرغرت، التاسيلي نازجر)

(صورة أخذت من طرف الباحثة من نفس المكان



صورة رقم 30: نقش محفور على الصخر للجاموس

زقاط، التاسيلي نزجر

(صورة أخذت من طرف الباحثة، من نفس المكان)

1-3/ تأريخ الكتابة الليبية من خلال الفن الصخري:

بعيدا عن اللغويين الذين حاولوا ربط ظهور الأبجدية الليبية بأبجديات أخرى، سامية على الخصوص، فينيقية أو بونية أو بونية جديدة مثلما رأينا، وإذا كانت مجموعة أبحاث حديثة ترتكز في معرفة أصل أقدم كتابة ليبية على النقش الذي اكتشفه كامبس سنة 1978م، وهو نقش أعزيب نكيس في الأطلس الكبير، الذي أرجع تاريخه إلى حوالي القرن السابع قبل الميلاد أو ربما أقدم من ذلك[1]، فإن مجموعة من الباحثين الأثريين المغاربة، وعلى رأسهم مليكة حاشيد، سالم شاكر وسليمان حاشي، حاولوا النظر في الفن الصخري وفحص المكتشفات الأثرية في الصحراء من جهة، والتاريخ القديم للأبجديات في البحر المتوسط من جهة أخرى، حيث أنهم انطلقوا من محاولة الاجابة على تساؤل: ألا يجب النظر إلى عملية تطور داخلي للكتابة الليبية من خلال مراحل الفن الصخري، وبالتالي أن أصل الكتابة الليبية محلي؟

وأهم الملاحظات التي يجب أن نركز عليها حول مل توصل اليه أولئك الباحثون هو أنه في الأطلس الصحراوي، الملاحظ عل النقوش الصخرية أنها كانت لاحقة لمرحلة العربة والحصان، أما في التاسيلي نازجر فإن اكتشاف العربة والحصان وعصر الكتابة والمعدن قد بدت بوضوح أنها تطورت في نفس الوقت كثنائية، لذلك فإن نقوش الأطلس الصحراوي تحتوي رموز للكتابة مرتبطة بمرحلة العربة والحصان، وسمحت بربطها بألفباء غريبة مع رموز صحراوية. هذه النقوش الهندسية للأطلس الصحراوي نجدها شيئا فشيئا تميل إلى أن تكون هندسية، وتصل المرحلة الليبية-البربرية تدريجيا إلى طريق التجريد، حيث أن مواضيعها هي رسوم ذات زخارف مستقيمة ظهرت منذ مرحلة الحصان وتعددت بشكل خاص خلال مرحلة الجمل، وهي نفس الأشكال التي نجدها اليوم في الفنون الشعبية. وهكذا فإنه مع فجر التاريخ والتاريخ اختفت الرسوم واجتاح الأسلوب الهندسي المخابئ الصحراوية شيئا فشيئا حتى أصبح تخطيطا كتابيا (Graffiti) وكتابة جدارية[2].

هذا عن الأطلس الصحراوي، أما بالنسبة للتاسيلي والصحراء فإن الرسم الهندسي هو أقدم بكثير —حسب حاشيد- من المرحلة الخيلية، إذ تعتقد بأنه من الفجر بربريين البقريين إلى البربر القدماء (Paléoberbères) كان هناك بالتأكيد تغير في أسلوب الرسم، حيث أن الفجر بربريين سجلوا فنا تصويريا (figuratif)، أما البربر القدماء فقد عالجوا رسوما أكثر أسلوبية وأكثر هندسية.

لذلك يبدو في النتيجة أنه يجب البحث عن هذا الخزان القديم للرموز المتنوعة أولا عند القفصيين ببلاد المغرب القديم منذ أكثر من 10000 سنة ق.م، وعند البربر القدماء البقريين بالصحراء منذ أكثر من 7000 سنة ق.م، ثم عند الليبيين الشرقيين الصحراويين لبدايات التاريخ. ففي هذه البوتقة الصورية (iconographique) أين تتواجد بعض العناصر الكتابية (graphique) الاجتماعية-الدينية التي أمكنها أن

---

[1] Hamid. Bilek, « le libyco-berbère ou le tifinagh : de l'authenticité à l'usage pratique », Actes du colloque international le libyco-berbère ou le tifinagh, H. C. A, Alger, 2007, p. 12.

[2] M. Hachid, les premiers Berbères entre Méditerranée. Tassili et Nil, p. 184.

تقرض تدريجيا شكل من التخاطب الايديوغرامي الأولي، وأنه ليس سوى مع البربر القدماء الغرامنت أين توجه هذا الأسلوب الأولي النحتي (scripturaire) ليعطي الرموز الأولى للكتابة. وحيث أن البربر القدماء أو الغرامنت قد أخذوا مكانهم كرونولوجيا بعد 1500 سنة ق.م وقبل 1000 سنة ق.م، فإنه في هذه الفترة إذن يجب وضع تاريخ ظهور الكتابة الليبية، أين في النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد[1]. وهو تاريخ سابق لظهور الألفباء الفينيقية وبعيد عن التأثير الفينيقي ولا يمكن الأخذ بفرضيات اقتباس الكتابة الليبية من الخط الفينيقي بأي حال من الأحوال، كما أن الدليل الآخر على نشأتها نشأة مستقلة هو استمرار هذه الرموز التي نشأت بالصحراء مع ما يسمى بالتيفناغ.



صورة رقم 31: نقش اعزيب نقيس (جبال الأطلس الأعلى المغربي)

عن: محمد البشير، شنيتي، الجزائر قراءة، 2013، ص 102

(1) M. Hachid, Op. Cit, p. 185-186.

2–التيفناغ واستمرارية الخط الليبي:

لم تختف الكتابة الليبية مع نهاية العصر القديم، سواء في الأطلس الصحراوي أو في المغرب الأقصى أو في طرابلس وبرقة، وهنا وهناك في الصحراء. ذلك أن نقوشا صحراوية نقشت بشكل منقط ترافق في الغالب صور الجمل والتي لم يكن بإمكانها أن توجد قبل القرن الثالث أو الرابع ميلادي، إذ تبدو حديثة بدون شك، واستمرت هذه الأبجدية إلى اليوم في الصحراء بين التوارق، وهي كتابة التيفناغ التي عرفت بشكل خاص عند النساء[1].

1-2/ أصل كتابة التيفناغ:

التيفناغ "Tifinagh" هي كلمة مؤنثة، مفردها tafineq أو afney . يقصد التوارق بالتيفناغ مجموع الرموز الخاصة بكتابتهم، ويجب أن نفرّق في هذا الصدد بين التيفناغ الجديدة"néo-Tifinagh " وهي تيفناغ العصر الحديث، عن التيفناغ الأصلية والحقيقية. هذه الأخيرة لازالت مستخدمة عند توارق الجزائر الصحراويين، ليبيا، مالي ، النيجر وبوركينافاسو، وفي المجال التارقي الحي في نيجيريا، غانا، الكوديفوار، السودان والتشاد بدرجات مختلفة[2].

يعود تأريخ أقدم النقوش بالهقار مثلا إلى القرن الرابع أو الخامس للميلاد وعصر دخول الجمل إلى الصحراء، فهي ترافق النقوش الصخرية لمرحلة الجمل[3]. ويعتقد مؤيدو فرضية أن الكتابة الليبية منحدرة من أصل سامي، فينيقي بالأخص، بأن الكتابة الصحراوية المسماة تيفناغ صحيح أنها منحدرة من الأبجدية الليبية وأن ظهورها هو حدث متأخر تاريخيا، فهي ليست سابقة للقرن الأول ميلادي، لكن الليبيين توصلوا إلى كتابة لغتهم تحت تأثير قرطاجي، فكلمة "تيفناغ"(Tifinar) نفسها ترتكز على الجذرFNR الذي يعني في كل اللغات السامية الشعب الفينيقي[4]. ولأن مفرد Tifinagh هو Tafinek، وحيث أن "ta" بالبربرية هي للتأنيث فإنه يتبقى "finek" بمعنى الفينيقي[5].

وهناك تفسيرات أخرى اشتقاقية ممكنة للفظ "تيفناغ" اقترحها حديثا سالم شاكر، وهي أنه يوجد في "أدرار الايفوراس" فعل "efue" الذي يعني: يكتب، كما أن الجذر "FNQ" قد استمر في إحدى تسميات الصندوق المحلي(coffre domestique) القبائلي وهو: afniq، وبمعرفتنا أن هذه الصناديق كانت تستعمل كتابوت في العصر القديم الليبي والبوني، فقد تساءل شاكر بان الاقتراض البوني المفروض أليس أولا ذو تأثير على مستوى

---

(1) S. Gsell, H. A. A. N, T. VI, p. 98.

(2) Said. Touji, « l'écriture libyco-berbère : origine et évolution récente », Actes du colloque international le libyco –berbère ou le tifinagh, H. C.A, Alger, 2007, p. 142.

(3) Maurice. Reygasse, contribution à l'étude des gravures rupestres et inscriptions tifinar du Sahara central, imprimerie Jules Carbonel, Alger, 1932, p. 40.

(4) Pierre. Salama, « Le Sahara pendant l'antiquité classique », p. 561.

(5) J. Février, Histoire de l'écriture, p. 372.

الشعائر الجنائزية؟ وأن لفظ تيفناغ[*]، ألم يكن يعني في البداية من طرف البربر: النقوش على الضريح (المرثيات)[1]، فهو يريد أن يصل بالتيفناغ إلى الأصل السامي، لكنه هو نفسه (سالم شاكر) يعترف بأنه من الصعب ايجاد فك صحيح لرموزها أو الجزم بأصلها السامي كون دراساته تعتمد على المقارنة مع اللهجات البربرية الحديثة[2].

2-2/ حروف واتجاه كتابة التيفناغ:

التيفناغ الأصلية تمثل إرثا من القدامى، حيث مازالت مستخدمة من طرف التوارق حسب القواعد العامة التي تخص نظامها، تحتوي رموز هذه الأبجدية على أحرف بسيطة تتنوع ما بين 22 إلى 27 حرف[3]، وكونها أبجدية لا تحتوي بعض حروف العلة، فإن هذا يجعل قراءة نصوصها ونقوشها صعبة[4]، وإن وجد ففي نهاية الكلمة أو الرسالة، ولا نجدها أبدا في بدايتها أو وسطها. أما عن اتجاهها فهو متغير حسب اختيار ناسخها أو المادة والداعم لها أو المساحة المتوفرة لكتابتها، فنجدها عموديا من الأسفل إلى الأعلى، أو من اليسار إلى اليمين، أو حتى نجد تغير لاتجاهها بدون انقطاع للكتابة في نفس النص، مثلا من اليسار إلى اليمين ثم من اليمين إلى اليسار، أو من الأسفل إلى الأعلى ثم من الأعلى إلى الأسفل[5].

(*)"التوارق ينسبون كتابة التيفناغ إلى شخص أسطوري ذو ذكاء وقوة يدعى" أمير لقايس" الذي يعتبرونه مبتكر الشعر والغناء والموسيقى والكتابة واللغة، حيث يروى أنه كان محبوبا لدى جميع النساء، ولضري مواعيده معهن دون انتباه الآخرين لجأ إلى اختراع رموز التيفناغ" (أنظر: عبد الجبار، عباسي: المرجع السابق، ص 55)، "كما أن هناك أسطورة أخرى، وهي أن التوارق ينسبون كتابتهم إلى بطل مؤسس لها يدعى "Amamellen"، هذه الكلمة تعني الشخص الذي يملك الثقافة، أو "Aniguran" التي تعني "حكمة" أو لغز، وهو البطل الذي أسس الثقافة التارقية" (أنظر: M. Hachid, Op. Cit, p. 184)

(1) M. Hachid, Ibid.

(2) مها، عيساوي: المرجع السابق، ص 96.

(3) Said. Touji, Op. Cit, p. 143.

(4) Abdelmadjid. Hadjiat, « Réflexions sur l'évolution et l'aménagement de l'alphabet tifinagh », Actes du colloque international le libyco-berbère ou le tifinagh, H. C. A, Alger, 2007, p. 202.

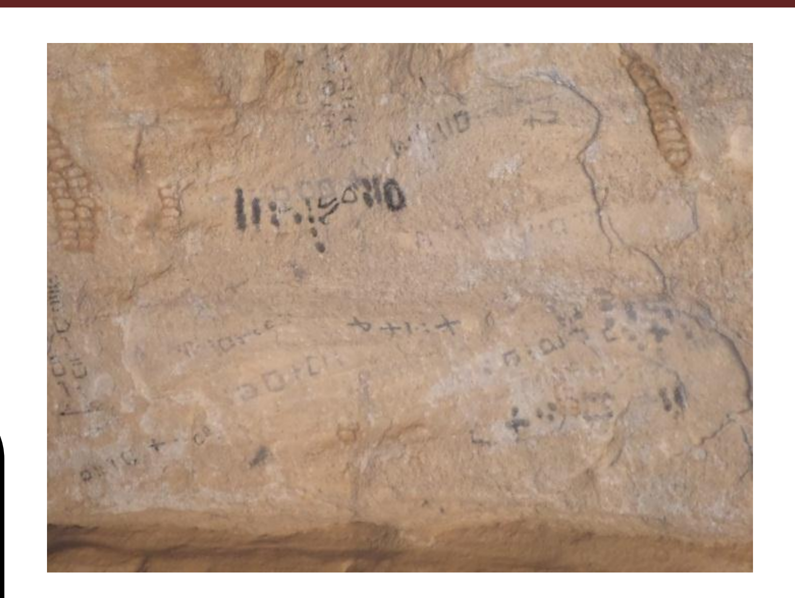
(5) Said. Touji, Ibid, p. 143.

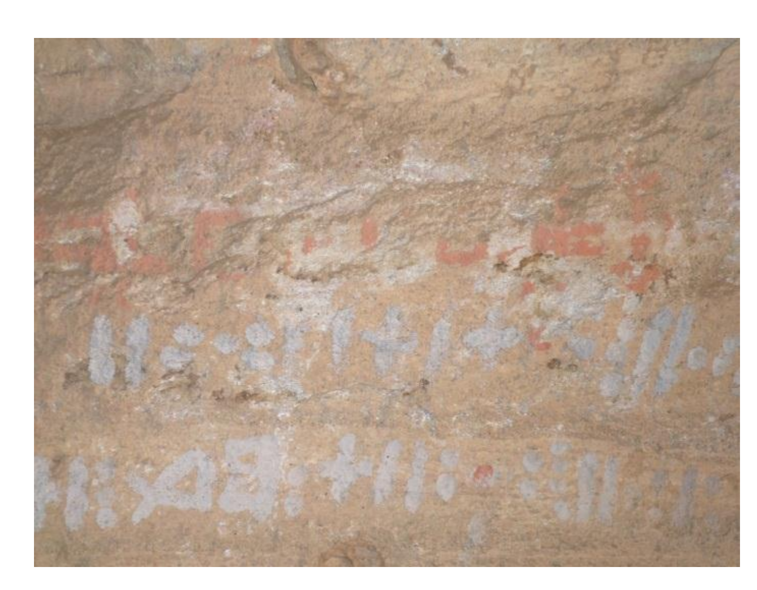


صورة رقم 32: كتابة تيفناغ أفقية

تيلوكاتن، التاسيلي نزجر

(صورة أخذت من طرف الباحثة في ذات المكان)

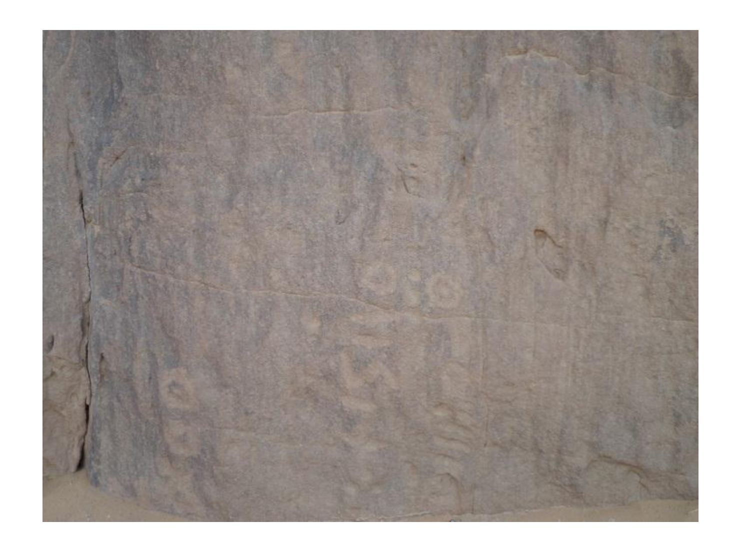


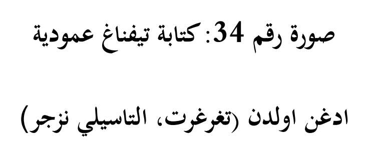


صورة رقم 33: كتابة تيفناغ أفقية

إيموردن، التاسيلي نزجر

(صور أخذت من طرف الباحثة من نفس المكان)





صورة رقم 34: كتابة تيفناغ عمودية

ادغن اولدن (تغرغرت، التاسيلي نزجر)



صورة رقم 35: كتابة تبفناغ أفقية وعمودية معا

ادغن اولدن (تغرغرت، التاسيلي نزجر)



صورة رقم 36: كتابة تحت الصخر لـ تيفناغ في كل الاتجاهات

جرف أمود (التاسيلي نزجر)

(صور أخذت من طرف الباحثة من المواقع نفسها)

2-3/ استخدام التيفناغ ومناطق انتشار نقوشها:

تقتصر كتابة التيفناغ على نقوش قصيرة مرسومة أو منقوشة على الصخور، مخطوطة على أساور أو على دروع من جلد[1]، فهي لا تتحدد بالداعم الصخري وحده لأننا نجدها على حجارة شواهد القبور وعلى مواد سريعة الزوال كالجلد والألواح التي توضع على أكتاف الجمال[2]. ورغم أن الكتابة الليبية قد تراجع استخدامها منذ القرن الثامن ميلادي –كما أشرنا سابق- إلا أنها في الواقع استمرت مع التيفناغ إلى اليوم، هذه الأخيرة التي يقول عنها المختصون بأن لها وظيفة أساسية ، تتمثل في رسائل حب أو ألعاب لغوية، بالإضافة إلى أن وظيفتها رمزية تحتوي علامات ملكية أو امضاءات، لكن استخدامها ظل بشكل كبير مقتصر على تحرير رسائل قصيرة، فهي لم تستخدم لتثبيت الذاكرة التاريخية والأدبية للتوارق والليبيين عموما، لكنها بالمقابل استغلت قيمة اجتماعية-رمزية إلى حد أقصى، لدرجة أن التوارق يسمونها هم أنفسهم"Kel Tifinay" أي "أصحاب التيفناغ" لأنهم يفهمون جيدا هذه الأبجدية ككتابة وطنية تميزهم عن العرب واللغة العربية، وعن الزنوج الافارقة ولغاتهم[3].

هذا عن استخدامها، أما مجال توزيعها في شكل نقوش فإننا نجد من وجهة نظر الأنثروبولوجيا الثقافية بأن التيفناغ قد اعتبرت من طرف الجميع ككتابة وطنية وحتى شمال افريقية لأنه لوحظ اتساع استخدامها، من ليبيا إلى الساحل الأطلسي، ومن البحر المتوسط إلى جنوب الصحراء. فهذه الأبجدية القديمة لديها ما يكفيها من دلائل امتدادها وتوزعها في كل بلاد المغرب، وحتى وإن كانت كثافة نقوشها قليلة في الشمال فإن المنطقة الصحراوية مجال تواجد التوارق غنية بنقوشها[4]، مثل تلك المواقع التي زارها وكشف عنها "ريغاس" (M. Reygasse)من المواقع العشرين، كموقع "تيراتيمين" (Tiratimine)الموجود بـ المويدير، على يسار الطريق المار من عين صالح إلى تمنراست، حيث أنه غني بنقوش التيفناغ وبرسوم الكتابات التخطيطية الليبية-البربرية، وكذا موقع "Ahouogga" الذي استخرجت منه بلاطات مغطاة بنقوش التيفناغ، وكذا موقع"Ibergha"[5]، وكذا النقوش الكثيرة المنتشرة بالتاسيلي نازجر

2-4/ علاقة التيفناغ بالكتابة الليبية:

هناك شبه اتفاق بين الباحثين على أن التيفناغ قد تطورت من الكتابة الليبية[6] بدليل العثور على نقوش تيفناغية في العديد من المناطق التي عثر فيها على النقوش الليبية في المغرب الأقصى وفي التخوم الصحراوية الشمالية[7]، إلا أن هناك فروقات بينهما إذ نجد بعض حروف التيفناغ لا تقدم نفس النطق الذي تقدمه الحروف

---

(1) S. Gsell, H. A. A. N, T. VI, p. 98.

(2) Hamid. Bilek, Op. Cit, p. 13.

(3) Salem. Chaker, « l’écriture libyco-berbère, Etat des lieux et perspectives », p. 276.

(4) Hamid. Bilek, Ibid..

(5) Maurice. Reygasse, Op. Cit, p. 62-63.

(6) Pierre. Salama, Op. Cit, p. 561.

(7) مها، عيساوي: المرجع السابق، ص 95.

الليبية التي تماثلها بالضبط في الشكل وحروف أخرى لا توجد في الكتابة القديمة[1]. لكننا في الغالب نلاحظ تشابها في أشكال الرموز عدا بعضها التي ذكرناها، وكذا تشابها في عدد الحروف، 24 حرف، لكن الفرق بين الكتابتين يتمثل في التسلسل الزمني وبالتالي يمكن أن تكون كتابة التيفناغ تطور عن الكتابة الليبية، ولكن لا يمكننا في نفس الوقت الاعتماد على الكتابة التيفناغية في فك رموز النقوش الليبية، لأن القيمة الصوتية لبعض الحروف تختلف تماما، ومن أمثلة ذلك نجد بأن الحرف "ف" في الرموز الليبية ينطق "ق" في التيفناغ، والحرف "ب" في الليبية ينطق "س" في التيفناغ، وغيرها من الأمثلة[2]. ولأن التشابه هو الصفة الغالبة على الكتابتين مهما بلغت الفروقات الصوتية، فإن انتشار الكتابة الليبية وحدها في كل بلاد المغرب في شكلها التيفناغي خارج حدود المملكة النوميدية مثلما يورد كامبس، يكشف عن شمولية هذه الكتابة عند الأمازيغ[3] التي هي انعكاس لوحدة لغتهم الليبية، وبالتالي فإن اللغة لم تكن يوما عائقا في وجه وحدة بلاد المغرب القديم، بل على العكس هي لغة واحدة نطقا وكتابة في كل المنطقة المغاربية والدليل هو الآثار الفنية الصخرية المنتشرة في كل البلاد منذ ما قبل التاريخ واستمرارها إلى عصر الجمل في القرن الخامس ميلادي أولا، ثم الإرث اللغوي الشفوي المتوارث جيلا عن جيل من لغة واحدة هي الليبية، استمرت عبر مختلف لهجاتها إلى يومنا الحاضر، ثم الكتابة التي بقيت مستمرة ومحفوظة التي اضافة إلى الفن الصخري الذي أظهر مراحل تطورها، وجدت تلك النقوش المعبرة عنها سواء في نقائش ليبية منفردة أو مزدوجة مع نصوص أخرى بونية ولاتينية، ثم استمرارها مع نهاية العصر القديم وإلى اليوم مع التيفناغ، ورغم عدم فك كل رموزها إلا أنها تعكس لهذه الحقيقة التي لا غنى عنها، وهي وحدتها وأصالتها، تبقى فقط مهمة دراسة كل نقوشها ورموزها هنا وهناك وفكها لتوسيع هذه الحقيقة ومعرفة كل تفاصيلها.

([1]) محمد الهادي، حارش: التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الاسلامي، ص137 .S. Gsell, H. A. A. N, T. VI, p. 99.;

([2]) مها، عيساوي : المرجع السابق، ص ص 109، 110.

([3]) غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص 325.

القسم الثاني: عوائق الوحدة السياسية والثقافية

الفصل الأول: البيئة والانسان

أولا: التنافر الاقليمي وانعدام مركز حيوي

1-التنافر الاقليمي الناتج عن شكل التضاريس

2-انعدام مركز حيوي

ثانيا: تباين التضاريس وخصائص البداوة

1-امتداد السهوب والصحراء

2-ثنائية البدو والحضر

أولا: التنافر الاقليمي وانعدام مركز حيوي

1-التنافر الاقليمي الناتج عن شكل التضاريس:

قبل أن نتحدث عن تجزؤ تضاريس بلاد المغرب القديم من عدمه، علينا أن نفند ما ذهب اليه قوتييه من أن جزيرة المغرب التي أطلقها العرب على شمال افريقيا تستحق ذلك، لأنها ليست محاطة بالماء من الشمال فقط، لكن تحاصرها الصحراء جنوبا، وهذا ما يجعل الوصول اليها صعبا[1]، وهو ما ادعاه جوليان أيضا بأن جزيرة المغرب رغم أنه قد أتيح لأهلها في مطلع عصور ما قبل التاريخ الاتصال بأروبا عن طريق الجسور التي كانت تربط إلى ذلك الوقت بين القارتين، كما أتيح لهم الاتصال بإفريقيا الوسطى عبر الصحراء التي لم تكن يومئذ على وحشتها الحالية، فإن انعزالهم في جزيرتهم طوال عصور التاريخ جعل تسرب التأثيرات الخارجية اليهم أعسر، وإن كان أشد عنفا، ومكن التقاليد المحلية من الصمود في وجه الزمن.[2]

إذ لم تكن حسب قزال، قلة وجود الموانئ الجيدة هي وحدها تصد الأجانب عن الشمال الافريقي، بل هناك أيضا عسر التغلغل إلى داخل البلاد للتجارة أو للاستيلاء عليها نهائيا. فعلى الساحل الشمالي تقل السهول المحاذية للبحر، وبكل مكان تقريبا تقوم سلاسل الجبال كالأسوار على هذه السهول أو على أمواج البحر مباشرة. ولكن قزال يعترف في نفس الوقت بوجود مسالك تؤدي إلى الداخل وتيسر الولوج إلى البلاد أقيمت عند بداياتها مراكز بحرية مثل طبرقة قرب الوادي الكبير، وهيبون (Hippone) غير بعيد من نهر سيبوس، وبجاية في أقصى شعب الصومام، لكن هذه الطرق لا تلبث أن يشتد ضيقها –حسبه-. أما في الشمال الشرقي فإن خليج تونس الذي أنشأ به الفينيقيون أوتيكا وقرطاجة يتقدم في اليابسة بنحو 50 كم، وينتهي اليه نهر مهم هو مجردة. وقد كان هذا الخليج في العهود القديمة الباب الكبير للشمال الافريقي عند مدخل البحر الأبيض المتوسط الغربي بمواجهة صقلية، غير أن شعاب مجردة ليست مسلكا خاليا من العراقل. وإذا كان ولوج افريقيا سهلا من ناحيتي المحيط وتونس الشرقية، فإن الموانئ الطبيعية تنعدم بهما. وفوق ذلك فإنهما بعيدتان عن المناطق المواجهة لبلاد البربر، والتي هي مهيأة نتيجة ذلك لأن تكون لها ببلاد المغرب علاقات مستمرة. ولهذا فليس من مصلحة أحد المحتلين –حسب قزال- حين يحط قدمه بالبلاد أن يحبس نفسه في الجهات التي يظن احتلالها مفيدا له، بل إنه مدفوع لأن ينشر سيادته على القبائل الثائرة التي تهدد احتلاله. فمن السهول الخصبة يجب عليه أن يقتحم السلاسل الجبلية التي هي مأوى الناهبين، ومن الساحل يجب عليه أن يتقدم حتى الأراضي التي يقطعها الرحل حتى السهوب والصحراء. فكل هذه العراقيل تفسر

---

(1) E-F. Gautier, « considération sur l'Histoire du Maghreb », p, 47

(2) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص ص 12،14.

الانعزال النسبي لبلاد المغرب وضآلة الجاذبية التي كانت لها[1]. لكن هذه الخصائص الجغرافية التي يراها قزال وغيره عراقيل تعزل بلاد المغرب ولا تيسر الولوج اليها، هي برأينا خصوصيات لصالح البلاد لا ضدها، إذ أنها تحميها من دخول الاحتلال وتغلغله بسرعة، وهذا ما لمسناه على مر فترات التاريخ. فالفينيقيون لم يتمكنوا سوى من إنشاء محطات ساحلية، والرومان لم يستطيعوا دخول بلاد المغرب إلا بعد قرنين من سياسة التدرج والتمهيد (146 ق.م- 40 م)، وحتى أنهم لم يحكموا سيطرتهم طيلة فترة الاحتلال على كامل المنطقة بسبب هذه المميزات الجغرافية، ثم إن قزال اعترف بنفسه أن هناك مسالك تيسر الحركة والدخول الى عمق البلاد على صعوبتها أو قلتها، وهذه المسالك تكفي لدفع الحركية الى داخل البلاد في أوقات السلم، للتجارة أو للحياة اليومية.

هذه المنطقة المحدودة شمالا بالبحر المتوسط، وغربا بالمحيط الأطلسي وفي الجنوب والشرق بالصحراء، يشكل حسبهم كلا معزولا، أو شبه جزيرة أسماها العرب بـ "جزيرة المغرب"، فأكدوا بذلك حقيقة جغرافية مفادها أن شمال إفريقيا منفصلة عن بقية القارة الافريقية بواسطة الرمال والهضاب الجافة للصحراء، وأنها تختلف عن القارة بكاملها بخصائص متمايزة. لكننا نلاحظ بأن جغرافي العصر القديم اعتقدوا أنه يمكن ربط مصر بآسيا، وأن بلاد المغرب مرتبطة بالشرق عن طريق طرابلس، فمن هذه الجهة أتت الهجرات والغزوات. كما أكد العلم الحديث أنه لأكثر من سبب، أعتبر جزء إفريقيا الواقع بين البحر المتوسط والصحراء كملحق لأروبا، فكما يبدو أن شمال افريقيا كان متصلا في أكثر من نقطة بأروبا خلال عصور ما قبل التاريخ، كما نلاحظ بأن هذه المنطقة بنباتها وحيوانها تنتمي إلى المنطقة الطبيعية الكبيرة التي تحمل اسم المنطقة المتوسطية[2]. فهذه المنطقة المعروفة ببلاد الأطلس، رغم تضريسها المرتفع تشكل وحدة من هذه الناحية أكثر مما تشكله وضعيتها بين البحار والصحراء، فالجاذبية التي مارستها بلاد المغرب عبر القرون، تنفي كل فكرة انعزال، لأنه لأكثر من سبب تستحق أن تعتبر همزة وصل بين أروبا وجسم إفريقيا.

ففي واجهتها من ناحية البحر المتوسط الغربي، تشكل شواطئها الساحل الجنوبي لهذا البحر، فعلى نهايتي طرفيها تبدو وكأنها تتصل بأروبا، ذلك أن شبه الجزيرة الذي ينهيه رأس سبارتيل (Le cap spartel) ورأس ألمينا (l'Almina) يقربها من اسبانيا، حيث نجدها في الجزء الأكثر انحصارا من مضيق جبل طارق، لا تنفصل أبدا عن أروبا سوى بذراع من البحر يقدر بـ 13كم.كما أن أضلاع شبه الجزيرة الايبيرية وأضلاع شمال إفريقيا يرسمون في الحوض الغربي للمتوسط، غرب رأس بالوس (cap de Palos) في الشمال، ورأس

[1] ستيفان، غزال: تاريخ شمال افريقيا القديم، تر محمد التازي سعود، ج1، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سلسلة تاريخ المغرب، الرباط، 2007، ص 52.

[2] Charles. Tissot, exploration scientifique de la Tunisie : géographie comparée de la province romaine d'Afrique, T. 2, imprimerie Hachette et Cie, Libraire édition nationale, Paris, 1888, p p. 1 , 2 ; A. G. P. Martin géographie nouvelle de l'Afrique du Nord. Physique. Politique et économique, éd. Forgeot. Cie éditeurs, Paris, 1912, p p. 15, 16.

فالكون (cap Falcon)في الجنوب، يرسمان جيب قناة حقيقية تسهل العلاقات والتواصل بين القارتين الافريقية والأوروبية. في النهاية الشرقية للساحل الافريقي، تتقدم إفريقيا الشمالية نحو صقلية ولا تفصلها عنها سوى 140كم تقريبا.

كما نضيف أخيرا أنه بين المغرب الأوسط والأضلاع الكاتالونية (نسبة إلى كاتالونيا في اسبانيا وفرنسا) البروفانسية (نسبة إلى مقاطعة بروفانس بفرنسا)، نجد جزر البليار مختارة طبيعيا كمرسى أو ميناء بين القارتين. وإذا اتجهنا نحو الحوض الآخر للمتوسط (الشرقي)، لا يمكننا أن نجهل ما هي الأهمية التي كانت لإفريقيا الشمالية كونها كانت تملك واجهة على هذا البحر من ناحية الشرق، طريق الحضارات الشرقية. إذ يوجد المعبر الذي اتصل بالحوضين الشرقي والغربي للبحر المتوسط، وهو مكان انتقاء لموضع إقامة بحرية[1] ، وهو ما يجعل مثل هذه المنافذ سهلا للحركة والتواصل مع الشمال الافريقي.

وبالتطرق إلى داخل هذه المنطقة نجد بأن تضاريس بلاد المغرب القديم جعلت بعض الباحثين في جغرافيته يصوغون نظريات حول ما أسموه باللعنة الجغرافية التي أصابت البلاد، فجعلتها قاصرة على تحقيق الوحدة السياسية عبر تاريخها الطويل [2]، مثلما ذهب إليه قوتييه في قوله بتجزؤ البلاد إلى قسمين متباينين قد تكون سلسلة الليمس الروماني حدا بينهما[*] وأن هذا الاختلاف قد أكتسب منذ عصور ما قبل التاريخ، حيث يفصل هذا الخط نمطي حياة مختلفين[3]. كذلك أن تجزؤ البلاد إلى أقسام مستقلة الواحدة عن الأخرى حسب جوليان، لم يكن خطرا على الوحدة السياسية خلال العصور فقط، بل إنه ساعد في بلاد القبائل أو الأوراس مثلا على تكوين مجموعات بشرية لها خصائصها الذاتية، حيث لا تزال صامدة إلى اليوم أمام اكتساح التاريخ لها.

ومن جهة أخرى، نجد الاتجاه العام للجبال حسب خطوط العرض قد جعل الاتصال بين شرق البلاد وغربها سهلا نسبيا، لكنه عدد من الحواجز بين الساحل والداخل أي بين الشمال والجنوب[4]. أما قزال فلم يحد بدوره عن هذا الرأي عندما أقر بأن شمال إفريقيا في العصر القديم لم تكن لها وحدة شاملة، سياسية أو إدارية، مثلما في نهر النيل أو سهول بلاد ما بين النهرين المفتوحة، ذلك أن بنية بلاد المغرب القديم قد جعلت الحضارة والبربرية –على حد رأيه– تعيشان جنبا إلى جنب، إحداهما في السهول والهضاب الخصبة، والأخرى

---

(1) R. Lespès, Op. Cit, p p. 9, 10 ; S. Gsell, H. A. A. N, T. I, p p. 32, 33.

(2) محمد البشير، شنيتي: سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا القيصرية، ص 6.

(*) " رغم أن جوليان يتفق مع قوتييه في تجزؤ البلاد إلا أنه يقول: " بأن ما سماه قوتييه سلسلة خط الدفاع (الليمس)، أي القوس الجبلي العظيم الذي يكتنف الجزائر من الورشنيس إلى الأوراس أنه يتعذر علينا والحق يقال أن نذهب مذهبه، ذلك أن بحثا أكثر دقة حول خط الدفاع هذا أظهر أنه لا يطابق الجبال إلا في ثلث المساحة على الأكثر، فلا يتصور بالأحرى كيف أن هذا الخط كان في أي عصر من عصور التاريخ حدودا قائمة" (أنظر: شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص ص 31، 32.)

(3) E-F. Gautier, le passé de l'Afrique du Nord, p p. 9, 11.

(4) شارل أندري، جوليان: نفسه، ص 15 ; A. Bel, Op. Cit, p. 58.

في المناطق المحرومة، كالسهوب والمرتفعات الجبلية الغالبة على تضاريس البلاد والتي عزلت الأرياف الغنية، وأن هذا التناقض هو الذي منع من تكوين أمة بربرية سيدة على كامل البلاد. فالجبال رغم رداءة تربتها إلا أن سكانها يشعرون بأمان أكبر فيها، مثلما في القبائل، الأوراس والريف[1].

صحيح أن الجبال قد تبدو بشكل أضلاعها الرباعي الذي يحيط ببلاد المغرب وكأنها تجزأ البلاد، كما لابد بأن هذا التضريس خاصة منه الجبال قد انعكس على حياة السكان ومصير البلاد[2]، إلا أن جوليان نفسه يقر رغم إيمانه بهذا التجزؤ، يقر بأن لإفريقيا الشمالية وحدة جغرافية اقتضتها جبال الأطلس [3]. فبالنسبة لجبال المغرب الأقصى المنفتح جدا على المحيط الأطلسي، نجده على العكس من ذلك ينغلق من جهة البحر المتوسط، لأن سلسلة الريف الوعرة على هذا المنحدر، المرتفعة في وسطها بأكثر من 2450م حاجز حقيقي، لكنها رغم ذلك نجدها داخل الهلال الذي تميل معه إلى غاية جبل طارق قد جزأت بواسطة تضريساتها أودية عميقة منفصلة بأعناق جبلية ضيقة[4].

فجبال الريف تمتد من طنجة إلى الرأس الأبيض (قرب بنزرت)، تأخذ اسم الريف في الغرب (المغرب الأقصى)، واسم التل في الشرق (الجزائر وتونس). كان يمكن أن تكون هذه السلسلة حاجزا بين المغرب السهلي والبحر، لكنها رغم التواءاتها المعقدة، وصخورها الصماء الصلدة في بعض المناطق، قد تخللتها أودية عميقة وانحدارات قوية كانت مجازات للإنسان نحو السهول جنوبا، ونحو البحر وسهوله الضيقة شمالا، وهو ما نلاحظه بانفتاح الملوية شرق كتلة الريف. كما كانت غذاء للسهول الخضراء بالماء الذي توفره أمطاره وثلوجه[5]. أما في بقية المغرب الأقصى التي نجد عمودها الفقري الأطلس الأعلى، حيث تبدأ هذه السلسلة فوق المحيط الأطلسي عند رأس "غير (Guir)"، وتتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي مشكلة جدارا ضخما مدمجا، لكنها تفتح أعناقا مرتفعة وصعبة، ثم تنخفض وتتجزأ جنوب نهر الملوية فاتحة معابر تسمح بالوصول بسهوله جنوبا إلى الواحات الصحراوية لواد "زيز" وواد "غير "[6].

إضافة إلى هذا فإن سلسلة الأطلس الأعلى تلعب دورا آخر وهو كونها مخزن للماء ذو قيمة معتبرة بالنسبة للمجال الصحراوي. ورغم أنها لا تحتفظ بثلوج أبدية، إلا أنها تتلقى رطوبة محيطية (نسبة للمحيط الأطلسي) قليلة تمكنها من تغذية وديان عديدة، ومن تشكيل طبقة باطنية للمياه تسقي واحات المنحدر الشمالي مثل مراكش. فرغم ارتفاعات الأطلس الأعلى إلا أنه كان دائما منطقة عبور مرتادة جدا، ومثل

---

(1) S. Gsell, Op. Cit, p p. 27, 29.

(2) Hocine. Abdi, Op. Cit, p.14.

(3) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 11.

(4) A. Albertini, G. Marçais, G. Yves, Op. Cit, p. 11.

(5) عبد الكريم، غلاب : المرجع السابق، ص 27.

(6) S. Gsell, H. A. A. N, T. I, p. 3.

البوابة الحقيقية للاتصال بين المغرب الأقصى والصحراء[1]. وبين سلسلتي الريف والأطلس الأعلى نجد الأطلس المتوسط كحاجز حقيقي وقطب تنافر، لكن معبر تازة يغطي ذلك بكونه واصلا بين البحر المتوسط والصحراء[2]. ذلك أن التقدم إلى مدخل تازة لا يمكنه أن يواجه أي حاجز آخر سوى عداء المجموعات البشرية الجبلية القاطنة بجبال الريف أو الأطلس المتوسط. إذ تمثل تازة أسهل طريق تواصل ودخول من المغرب الأقصى إلى المغرب الأوسط، حتى أنها مثلت البوابة الوحيدة المفتوحة على أي احتلال[3].

ما يمكننا إضافته حول الجبال بالمغرب الأقصى أنها تربط هذا الأخير بالجزائر وتونس، وتجعل من بلاد المغرب كتلة واحدة وليست مجزأة، ذلك أن سلسلة جبال الأطلس المتوسط والكبير (الأعلى) تأخذ نفس الاتجاه: غرب-شرق، ممتد من خليج أكادير على المحيط الأطلسي إلى ساحل تونس الشرقي، متصاعدة من الجنوب: أكادير نحو 1000كم بعيدا عن مضيق طنجة على البحر المتوسط إلى الشمال (ساحل تونس المتوسطي[4]. إذ أن الأطلس الأعلى بالمغرب الأقصى الشرقي يمتد بواسطة سلسلة من الانثناءات إلى الأطلس الصحراوي الجزائري عن طريق الأوراس والنمامشة التي تمهد عل حد سواء إلى جبال الظهر التونسية وعلى طول البحر المتوسط، خلف القمم الساحلية للقبائل وساحل الجزائر العاصمة التي تلتقي من هناك بالبحر في جوهر ريفي، حيث أن التجعيدات التي تطوقها "ترارا" إلى البابور تتواجد بها نفس المشاهد التي ذراها بسلسلة الريف وماقبل الريف وهي نفسها التي نجدها شرقا تتتابع مع السلسلة النوميدية إلى غاية الساحل التونسي في "خمير" و"مقعد" بدون حل لاستمراريتها وتتابعها بنفس النظام الجبلي الذي يبدأ في الأطلس المتوسط المغربي[5].

وما قلناه عن الجبال بالمغرب الأقصى ينطبق على الجزائر. هذه الأخيرة التي رغم أن جبالها لا يمكن أن تقارن بسلاسل الألب الكبيرة المتجمدة ولا حتى بجبال البيرينيه العليا، فإنها ليست تافهة وتقدم خصوصياتها[6]. إذ أنه رغم انفتاحها من الشرق والغرب على تونس والمغرب الأقصى، وتمثيلها همزة وصل بينهما من الناحية الجغرافية، من خلال الطرق الطبيعية التي تؤدي إلى خليج تونس من جهة، أو إلى المساحات الواسعة للمغرب الأقصى الأطلسي. رغم هذا فإن الجزائر تفتقر إلى وحدة جغرافية وتماسك، لأنها على رأي بعض الباحثين مجزأة ومقسمة، وأن الوحدات الطبيعية التي تكون تضاريسها هي نفسها ينقصها التجانس، ذلك أن الأطلس التلي بالجهة الغربية الأصغر حجما من مثيله في الشرق، يبدو متجزأ وأكثر جفافا وحرارة.

---

(1) A. Albertini, G. Marçais, G. Yves, Op. Cit, p.12.

(2) J. Despois, « Géographie et Histoire en Afrique du Nord. Retouches à une thèse », Hommage à Lucien Lefebvre. éventail de l'histoire vivant, T. 1, libraire Armand Colin, Paris, 1953, p p. 189, 190.

(3) A. Albertini, G. Marçais, G. Yves, Ibid, p. 14.

(4) عبد الكريم ، غلاب: المرجع السابق، ص 27.

(5) Y. Lacost, A. Noushi, Op. Cit, p. 14.

(6) Générale Bernard, « Montagnes d'Algérie. Mouzaia, Aurès, Djurdjura », B. S. G. A. A. N, (3ème année. 1910), T. XV, imprimerie agricole comerciale, 1911, p. 39.

أما بالنسبة للأطلس الصحراوي في الجنوب الغربي فهو سهل الاجتياز ويقابل المرتفع الكبير للأوراس، أكثر رطوبة، والذي يميل وراء ممر بسكرة. أما الجزائر الشرقية -حسبهم- فهي تقدم شروط أحسن للحياة المستقرة، حيث تبدو فيها السهوب العليا والأطلس الصحراوي مكرسين لحياة رعوية واسعة وبدوية[1]. وإذا كان هذا الوصف يعطي انطباع بلاد مجزأة بتضريسات قوية تجعل الحركة الطبيعية صعبة بها، مثل الكتل الجبلية المغلوقة بالقبائل شمالا، ونجد في الجنوب القلاع التي تحصنت بها جماعات بشرية مستقرة وانعزلت. لكن هذه الكتل الملتحمة من التضاريس بالجزائر لا يجب أن نبالغ في تجزؤها، لأن هناك معابر كثيرة بين هذه القطع سمحت بتسهيل الحركة فيها، وانخفاضات تشكلت بفضل تربة الجبال ومنحت مصادر متنوعة للزراعة والتدجين لم يهملها الانسان، حيث جعلته يتكيف معها ويغير نمط حياته حسبها، من مستقرين، شبه رحل ورحل، وهو شرط للحياة الاقتصادية المزدهرة[2]. فلا يوجد إذن في هذا الجزء الوسط من بلاد المغرب حواجز حقيقية تمنع الحركة والوصول إلى الجبال، لأن هذه الأخيرة مقطوعة بوديان عرضية مثل التافنة، سيق، حبرا(L'Habra) ، مينا، تسمح باجتيازها بسهولة[3]. كما لا يفوتنا أن نلاحظ بأن هذه الاتصالات العرضية (الوديان) تشكل مع ما يعرف بالمخانق مسحة جمالية للبلاد، فهناك سلاسل تستخدم إلى اليوم كممرات مثل سلسلة البيبان المشكلة بواسطة تتابع من المخانق الضيقة، وممرات أخرى قليلة ذات مظاهر قطع للجبال صلبة، مثل الأطلس المتيجي، جرجرة[*] و البابور التي تعتبر كتل مغلقة تشكل حصون، مثل القبائل الصغرى والكبرى، وشولو. فهذا التنوع للتضاريس الذي يبدو للبعض الآخر تجزؤا سمح للإنسان المغاربي بالاستقرار والارتباط بالأرض، والانغلاق ومقاومة النفوذ الأجنبي من رومان، وندال وحتى مسلمين فاتحين وأتراك فيما بعد. وهذا المظهر الذي يميز الأطلس التلي نجده أيضا في الأطلس الصحراوي، شرق الممر الكبير للحضنة، حيث ترتفع فجأة في "بلازمة" كل من الأوراس، النمامشة، بلاد الشاوية المتفردة بدورها عن المد الأجنبي. كما أن جبال ونوغة بالحضنة و "بلازمة" نفسها تربط مرتفعات القبائل بالأوراس، فاتحة معابر سهلة بينها للحركة[4]. ثم نلاحظ بعدها اقتراب الأطلس الصحراوي من الأطلس التلي حتى يأخذ مكانة كليا في تضريس تونس[5] ، فبغض

---

(1) Général Bernard, Op. Cit, p. 39.

(2) A. Albertini, G. Marçais, G. Yves, Op. Cit, p, 24.

(3) R. Lespès, Op. Cit, p. 10.

(*) "سلسلة جرجرة تحدد وجود حوضين آخرين، بالصومام وواد سباو، قليلا ما تمثل حواجز منيعة، حيث تفسح المجال بشكل أفضل مما في بلاد القبائل الأخرى" (أنظر:M. Daumas, M. Fabar, Op. Cit, p. 132). "وحتى يكون هناك اتصال بين سكان المنحدر الشمالي مع سكان المنحدر الجنوبي نجد الممرات المرتادة تفسح المجال لذلك، وهي: ممر "تيزي" أو "جبوب" (ممر القصب) بـ 1463م، حيث يمثل الحد الأقصى الغربي لجرجرة فهو بمثابة ممر للناس القادمين من الجنوب ليذهبوا إلى القبائل الكبرى، منطقة ذراع الميزان وبوغني. كذلك ممر "تيزي أوقلمين" الذي توجد إلى جانبه بحيرة "تامدة أوقلمين" التي هي مرج في فصل الصيف. ممر "تيزي نساناد" رغم قلة ارتياده, ممر "آيت إيرقان" يوفر الاتصال لقبائل "آيت إيرقان" في الشمال مع أولئكم لـ"بني يالا" و"بني ميدور" في الجنوب وغيرها من الممرات " (للمزيد أنظر: Bujega, Op. Cit, p. 276)

(4) Jean. Despois, « géographie et Histoire en Afrique du Nord », p. 190.

(5) René. Lespès, Op. Cit, 12.

النظر عن هذه الجبال وارتفاعاتها وانخفاضاتها في بعض المناطق والفجاج والانفراجات التي تحدث بينها لتفسح المجال للإنسان وللطبيعة ليتحرر من عزلتها، ولتربط بينها وبين السهول الجنوبية والشمالية. وبعيدا عن الاسم الذي تحمله في المغرب الأقصى، كالأطلس الأعلى مثلا وذلكم الذي تحمله في الجزائر، كالأطلس الصحراوي، والاسم الذي تحمله في تونس كالظهر. وحتى بعيدا عن الأسماء المختلفة لكل سلسلة، مثل بوناصر بوابيلان في الأطلس المتوسط والريف، وجبال قصور وعمور والأوراس مثلا في الجزائر، والشعامبي في تونس، فإن هذه الجبال تكون رابطة قوية من الغرب إلى الشرق بين أجزاء بلاد المغرب ككل، فهي لا تمزق بلاد المغرب وتعزل مناطقه، ولكنها تفسح المجال لربط شمال هذه البلاد بجنوبها، وغربها بشرقها[1].

إذ أنه في هذه الكتلة المتجزأة بواسطة التضريس، تنفتح معابر طبيعية يسرت منذ ملايين السنين المسارات وطرق الاتصال. ففي المغرب الأقصى تترتب السهول الأطلسية من جهة، والهضبة المغربية المركزية (الميزاتا) من جهة أخرى، وحوض السبو بمثلث على المحيط ونهر أم الربيع تسمح بالوصول إلى غاية عمق الأطلس المتوسط. كما نجد في الجنوب الغربي للمغرب الأقصى الخنادق العميقة لـ "تانسيفت" والسوس تربط الساحل بالأعناق الكبرى للأطلس الأعلى[2]. إننا نلاحظ في كل شمال إفريقيا وجود منطقة واحدة من الهضاب العليا، تمتد بطريقة مستمرة من المحيط الأطلسي إلى الساحل التونسي، أو حتى من الاقليم الوهراني إلى تونس. حيث أن أهم سلسلة من هذه السهول العليا (الهضاب) هي تلكم التي تتجه من الملوية إلى الحضنة، تضم الظهرة المغربية، السهول العليا بوهران، منطقة زهرز، وأخيرا حوض الحضنة، كذلك سهول قسنطينة الممتدة من مجانة إلى تبسة التي تملك خاصية مختلفة قليلا عن السابقة، حيث نجدها أكثر تموجا وتجزؤا، ومقطوعة بعدة أقسام من السلاسل الجبيلة[3]. فالميزاتا بالمغرب الأقصى تربط بين تتابعين للسهول، من جهة السهل البحري من الغرب ومن الشمال، وهو سهل سبو، ومن جهة أخرى السهول العليا الداخلية لـ "الحاوز" لبحيرة "بهيرة" و"تادلا."

وبإلقاء نظرة على تضاريس المغرب الأوسط التي وصفناها، نجد بأنه لا يعترضها أي حاجز جدي لاختراقها والحركة بها، فالسهول المنخفضة والسهول العليا تفتح ممرات واسعة إلى درجة أن نقول بأنها غير مقطوعة[4] . ورغم وجود بعض الكتل المرتفعة على جانبي المغرب الأوسط، فإنه ليس صعب الحركة بفضل السهول الساحلية والسهول شبه الساحلية، وبفضل السهول العليا والقطع المستعرضة للأنهار التلية. فالسهول المتطابقة بشكل مدرجات قد جذبت انتباه الانسان لتعمير ريفي واستقرار، في مواقع مختارة على مخرج البحر أو في تقاطعات الطرق الداخلية، حيث أننا نلاحظ أن هذا الجزء من بلاد المغرب يملك في أقصى حدوده الغربية

([1]) عبد الكريم، غلاب: المرجع السابق، ص 27.

([2]) M. Rachet, Op. Cit, p. 14.

([3]) A. Bernard, N. Lacroix, Op. Cit, p. 8

([4]) A. Albertini, G. Marçais, G. Yves, Op. Cit, p. 18

والشرقية مناطق مرور سهلة نسبيا. إذ نرى في الغرب الانخفاض الواسع لنهر الشلف إل غاية المغرب الأقصى الشرقي عن طريق سهول الحبرا، سيق، وسبخة وهران، فقد كانت تسيطر عليها مرتفعات الظهرة من الجنوب (في الورشنيس)، مجال كبير شبه جنوبي يرتاده الرحل، ثم نهر ملوية الامتداد إلى الجنوب الغربي[1].

أما بجزئها الشرقي، فمن الملاحظ وجود سهول عليا كانت الطريق الطبيعية الوحيدة حتى للتل الشرقي، بتسهيلها للحركة فيه، مثل سهول لني سليمان، حمزة (بالبويرة)، وأكثر نحو الشرق ينفتح سهل مجانة الذي يستطيل مع سهول سطيف لكنها منفصلة عن الصومام بواسطة حاجز سلسلة البيبان التي لا نجد عبورها صعبا، فعند معبر أبواب الحديد، وهو الطريق الروماني الذي ربط قيصرية بـ سطيف، وبعدها موريطانيا ونوميديا، حيث عبر من "أوزيا (Aumale) "التي تقود سهل عريب، حيث من هنا فازت "مجانة" بمحاذاتها جنوب سفح البيبان. كما أن الانخفاضات الأخرى للتل قد طوقت جيدا لتصبح طرق طبيعية مفتوحة فعلا، مثلما في قلب القبائل الكبرى السبو، ومثل السهل الصغير للحامة، عند سفح الصخر المرتفع لقسنطينة وحتى تلك لـ قالمة المقوسة بسبب الانجراف، ومفتوحة فقط نحو الشمال[2]. وكذلك سهل بجاية، الأكثر اتساعا، والأحسن توجها بالنسبة للرياح الرطبة، حيث يفصل قبائل جرجرة عن قبائل البابور ويسمح بالحركة بينهما. ورغم أننا نجد بين سهل متيجة وسهل عنابة المرتفعات القبائلية تمنع الهضاب وسهول الجزائر الداخلية من الوصول إلى البحر، فإن واد الصومام يفتح بابا للوصول اليه. فإذا كان التل هو مجال الوديان المنفتحة على البحر المتوسط، فإن الجنوب هو مجال الأحواض المغلقة كما ذكرنا[3]، حيث أن الانخفاض العرضي الموجود بين جبال ولاد نايل والأوراس له أهمية تاريخية واقتصادية كبيرة، فالليمس الروماني عبر من هذه العتبة وترك خارجها كل سهوب الجزائر الغربية، وهذه العتبة نفسها كانت بوابة دخول الفتح الاسلامي[4] ، فانخفاض الحضنة الممتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي يفتح طريقا واسعا للوصول إلى الصحراء، فبين جبال الزاب والأوراس، طريق الغزوات الآتية من الجنوب، وطريق الرحل الصاعد نحو الشمال للبحث عن مراعي[5].

إضافة إلى هذا يمكننا أن نلاحظ في الشمال الشرقي لبلاد المغرب (تونس)، نجد انخفاض السهوب التونسية ينفتح بشكل واسع على البحر من الحمامات إلى قابس يكمله من الشمال النهر المنخفض لمجردة[6].
لمجردة[6]. وكذلك سهول ساحلية تسمح بالولوج إلى الوديان في منحدر هادئ باتجاه الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، فواد مليانة، مجردة وروافده (سليانة، وواد ملاق) تقود إلى هضاب حيدرة وتبسة التي يمكننا الوصول اليها بسهولة عن طريق المسارات العديدة العابرة للسهوب الجنوبية كذلك[7]. حتى أننا أبعد من

(1) M. Rachet, Op. Cit, p p. 14, 15
(2) A. Albertini, G. Marçais, G. Yves, Op. Cit, p. 18, 21, 22.
(3) A. Bernard, Afrique septentrionale et occidentale, p. 179.
(4) Ibid, p. 215.
(5) René. Lespès, Op ; Cit, p.11.
(6) Ahmed. Esslimani, Op. Cit, p. 2 .
(7) M. Rachet, Op. Cit, p. 15

ذلك، نجد بأن بلاد طرابلس الشمالية (ليبيا) تابعة جغرافيا للمناطق الموجودة غربا، لأن سهول السباسب في الجنوب التونسي وراء مهاد الجريد هي نفسها التي تتواصل في منطقة لا يتجاوز عرضها 200كم مارة بالجفارة على حافة البحر حتى تنتهي مثلها إلى ساحل منبسط.

أما في الجنوب فإن حاشية النجاد الصحراوية هي نفسها التي تتكون منها جبال القصور والجبل الكلسي الذي يصلها بضواحي طرابلس[1]، ففي قلب المغرب النافع –كما يقول قوتييه- من الجبال ، ينفتح سلسلة من السهول المرتفعة والمنخفضة، والسهبية عموما ، تتدفق من السرتين إلى المحيط الأطلسي[2] جاعلة من بلاد المغرب كتلة واحدة .

وبالنسبة للصحراء التي تبدو كحاجز فصل شمال إفريقيا عن بقية القارة، فإنه يمكن القول بأن هذا الحاجز لم يكن وعرا أبدا، حيث في كل العصور ساهمت شعوب زنجية تحت أشكال متنوعة وبنسب متفاوتة في حياة إفريقيا الشمالية[3]. إذ يتعذر عزل الصحراء عن بلاد المغرب، على الأقل في بعض العهود، لأنه إذا اعتبرنا الأطلس الصحراوي حدا جبليا تبدأ بعده نجاد الحمادة الصخرية العارية ومساحات الرق الجيرية أو رمال العرق، فإنه لا يكون حدا مناخيا وبالتالي بشريا. فأهل الشمال هم الذين حققوا استيطان المزاب، لأن ظاهرة تعايش حضر الواحات والرحل التي تمتاز بهما الصحراء يعرفها جزء كبير من بلاد المغرب ككل[4]. فالقسم الأكبر من منطقة بلاد المغرب تكتنفه الصحراء بهضابها ومرتفعاتها ومنخفضاتها، وهي الصحراء التي كانت تدعى بالكبرى تربط –جغرافيا لا طبيعيا- الجزء الفاصل- الواصل بين شمال إفريقيا وإفريقيا الوسطى والغربية والشرقية (السوداء) ولم تكن هذه الصحراء فاصلة بين جزئي إفريقيا (الأبيض والأسمر) ولكنها كانت صلة وصل أدت إلى تمازج الأعراق وتمازج الحضارة والتكامل الاقتصادي والثقافي والديني، بل والسياسي. فالصحراء حكمت الشمال كما حكمت الجنوب، وأمدت الشمال بالفكر كما أمدها الشمال بالعقيدة والفكر أيضا والاقتصاد. والصحراء تمثل أيضا هذا الحزام الكبير الجامع بين غرب المغرب وشرقه، حزام متصل من جنوب موريتانيا حتى جنوب وشرق وشمال ليبيا يكشف السهول جنوب الأطلس، وربما كان يزحف عليها في دورات التصحر[5].

---

(1) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 26-27.

(2) E-F. Gautier, le passé de l'Afrique du Nord, p. 21.

(3) A. Bernard, Afrique septentrionale et occidentale, p. 30.

(4) شارل أندري، جوليان: نفس المكان.

(5) عبد الكريم، غلاب: المرجع السابق، ص 28.

2- انعدام مركز حيوي:

راجت في أوساط المؤرخين، الأجانب منهم خاصة، أن بلاد المغرب لم تعرف عاصمة قارة نهائية ولم يتح لها البتة أن تحقق وحدتها حول نواة ما. وقد عللوا ذلك بالتجزؤ الجغرافي وصعوبة المواصلات وانعدام الأودية الواصلة بعضها إلى بعض، وكذا عدم صلاحية الأنهار وعداء البحر.

1- مقولة عداء البحر :

تملي الجغرافية على التاريخ عاملا أساسيا آخر هو السواحل الواسعة الطويلة التي تنبع من مصب نهر السنيغال في المحيط الأطلسي لتقتحم شمالا مضيق طنجة-جبل طارق. وتمتد شرقا على الشاطئ الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط في منعرجات هائلة تكون خلجانا طبيعية تمر بشواطئ المغرب ثم الجزائر ثم تونس في شبه جدار ينزل جنوبا ليكون شبه جزيرة، ثم جزرا منفصلة عن الأرض (جربة –قرقنة)، ويصل إلى ليبيا ليكون –بعد الشاطئ الطرابلسي منها- شبه جزيرة برة. مميزات ايجابية وسلبية لهذا الساحل الطويل الذي يكون الامتداد من وإلى المغرب والذي فك الحصار عنه وفك الحصار عن الآخرين اليه، ولا نكاد نجد اتساعا وامتدادا بحريا في منطقة متكاملة خدم المنطقة حضاريا وتاريخيا واقتصاديا، وكان لها نعمة بمقدار ما كان عليها نقمة مثل هذا الشاطئ الواسع[1].

وقد اجتمعت جل آراء المؤرخين، لاسيما الفرنسيين منهم على أن ساحل بلاد المغرب وعر ومتضرر. إذ يتكون الجزء الآهل من بلاد المغرب من حاشية مديدة يبلغ طولها 3000كم، ولا يكاد يبلغ عرضها 150كم مع "وضع من أدعى أوضاع العالم إلى السخرية"[2]. فقد لاحظ الرحالة اليونان أن هذه الشواطئ تبدو من البحر في شكل مرتفعات جبلية لا ينقطع بعضها عن بعض، بحيث لا يتوارى جبل إلا ليطل آخر أكبر وأبرز من سابقه[3]، وهذا ما جعل قوتييه يتصور هذا الساحل على شكل مجموع من السهول العليا والمنخفضة تتواصل من السرتين إلى غاية المحيط الأطلسي، وتشكل طريقا لكل القبائل النوميدية، وكذلك لكل جيوش الغزاة. فهذا الشريان أعتبر كفيروس للغزو في نظره يتحرك بسرعة مفاجئة عبر كل الجهاز من المحيط الأطلسي إلى السرت أو العكس، وأن هذا الشريان يتميز بالطول وبالانسداد والتقطع مما يعيق الحركة ومما يجعل الغزو مخططا هشا بعد أن يبدأ قويا ومنظما[4].

فعلى الساحل الشمالي، السهول التي تحاذي البحر نادرة ولم يكن لها سوى قيمة متواضعة عند القدامى، كما أنه تقريبا في كل مكان تنتصب سلاسل جبلية كحصون فوق هذه السهول أو مباشرة فوق

([1]) عبد الكريم، غلاب: المرجع السابق، ص 29.

([2]) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 27 ; E-F. Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord, p. 11.

([3]) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 23.

([4]) E-F. Gautier, Ibid, p. 12. نلاحظ في قول قوتييه تناقضا، فهو يعارض نفسه بنفسه، لأنه إذا كان هذا الشريط لا ييسر الحركة فكيف نفسر أنه فيروس للغزو وأن كل احتلال قد سلك هذا الطرق؟ إذا كان صعب الاجتياز فهو بمثابة جدار في وجه الأجنبي ومدافع عن ساكنته في وجه وحدتهم.

الموجات[1]. فبلاد المغرب التي يمثلها تنوع للتضريس الممتدة من طنجة إلى بنزرت نجد بأن جبال الريف فيها تمتد بواسطة الأطلس التلي على شريط يتراوح ما بين 70كم إلى 150كم عرضا مسيطرا على الساحل المتوسطي وكأنه خط دفاع ضد أروبا، كما أن السهول الساحلية الجزائرية عندما تتواجد فهي ضيقة ومغلقة بقوة بين الجبال[2]، وهو ما يصعب الولوج إلى الشمال الافريقي، لكننا نلاحظ على مر العصور التاريخية بأن العلاقات السلمية قد ولجت إلى المنطقة (الفينيقيون)، والاحتلال كذلك، ألا يعني ذلك أنه رغم وجود صعوبات على هذا الساحل إلا أنه كان هناك دائما معابر ونقاط موانئ سهلت –ولازالت- الدخول والخروج من هذه البلاد.

فالمظهر الأكثر تميزا لبلاد المغرب هو تقسيمها إلى سلسلة من المناطق الموازية للساحل ومتلاحقة من الشمال إلى الجنوب، وأن العوامل الجيولوجية تعمل في نفس اتجاه العوامل المناخية وتسهم في تقسيم المنطقة إلى أشرطة ممدودة وضيقة، وهذا ما أدى إلى أننا في الشرق نجد مياه الأنهار والاتصالات تتجه محو البحر المتوسط الشرقي، نحو خليج السرتين في تونس، وفي الغرب تتغير المرتفعات معطية سلاسل أكثر وضوحا تنفتح على المحيط الأطلسي بالمغرب الأقصى[3]. لأنه إذا كانت التضاريس الشمالية للسواحل التونسية والمغربية لا تقدم انفتاحا نحو البحر، فإنه بواسطة تدرجات واسعة من السهول والهضاب ينخفض المغرب الأقصى بدون حاجز إلى غاية المحيط الأطلسي وعن طريق السهول المنخفضة للساحل تمتد السهوب التونسية على السرت. أما الجزائر، وإن كانت لا تنفتح على طول البحر بسبب تناوب السلاسل الساحلية والسهول المتفرعة عن الساحل (شبه ساحلية) على طول واجهة بحرية موجهة حسب التوزيع إلى مناطق مناخية[4]، فإن الطيات المجاورة للبحر المتوسط وتلكم المتاخمة للصحراء تمتد بينها منطقة واسعة داخلية من السهول العليا، وإن كانت المياه تفشل في الوصول إلى البحر فإنها تفسح المجال لتجمع المياه في انخفاضات مغلقة وسط البلاد هي الشطوط[5]. فسبل الدخول إلى بلاد المغرب عن طريق الساحل وجدت وإن قلت. إذ نلاحظ بأنه على منافذ بحرية أمكن أن تقام مدن للتواصل ما بين الساحل والداخل مثل طبرقة (Tabarka) قرب الواد الكبير، وهيبون غير بعيد عن السيبوز، وبجاية في الحد الأقصى لنهر الصومام.كما أنه في الشمال الشرقي وعلى خليج تونس أنشأ الفينيقيون مدينة "أوتيكا" و قرطاج فيما بعد هذا الخليج الذي يتقدم بـ 50كم في أراضي تونس ويستقبل مياه نهر مهم هو المجردة، حيث شكل في العصر القديم الميناء الرئيسي لشمال إفريقيا عند مدخل البحر المتوسط الغربي مقابل صقلية[6].

---

(1) S. Gsell. H. A. A. N, T. I, p. 35.
(2) M. Rouissi, Op. Cit, p. 22.
(3) A. Bernard, M. Lacroix, Op. Cit, p. 7.
(4) Y. Lacost, Op. Cit, p. 16.
(5) A. Bernard, M. Lacroix, Ibid.
(6) S. Gsell. H. A. A. N, T. I, p. 36.

إضافة إلى هذا نجد منفذا آخر لبلاد المغرب وهو برزخ تونس أو الشارع الساحلي للفتح الاسلامي أين أصبحت "جزيرة المغرب" تمثل "جزيرة للشرق الاسلامي". فالجنوب التونسي المشدود بين العرق الشرقي الكبير بالجزائر والبحر المتوسط الشرقي يظهر على خارطة ذات سلم صغير وكأنه معبر بري إلزامي بين الشرق وشمال إفريقيا. فمنذ العصر القديم، فالعصر الوسيط، وإلى الوقت الحاضر، يمثل الجنوب التونسي منفذا سهلا للطرق الصحراوية التي من فزان عن طريق غدامس، ومن سوف، مزاب أو الزيبان، عن طريق الجريد التونسي قاربت إما نحو ميناء قابس(Gabès/ Tacapae)، إما نحو قفصة (Capsa) بوابة السهوب. إلى جانب هذا المنفذ ند ممر طرابلس إل غاية الأمبوريا في السرت سيطر عليه كل من الملوك النوميد ثم قرطاج، وتلتها سيطرة روما عليه. فعلى هذين الموقعين الرئيسيين اللذان يملكان شكل مقابض مروحة أنشأ حولهما طرق مشعة جسدت مسارات لحركة متداولة طيلة العصور. فهذه المحاور أمكنها أن تقود الاختراق الروماني في الجنوب خلال الحملات التي شنت ضد الجيتول أو الغرامنت منذ العهد الأغسطي. وعلى طول هذه الشبكة كذلك تم تنفيذ لاحقا– انطلاقا من المواقع الثابتة المنشأة بين مملكة تراجان والعهد السيفيري– تمت مراقبة دائمة للتنقلات داخل المنطقة الحدودية المتاخمة لليمس(1).

فخصوصية ساحل بلاد المغرب جعلت على كل محتل يضع قدمه في المنطقة يصعب عليه البقاء آمنا في المناطق التي ولج اليها بالسهول الساحلية، إذ يتوجب عليه أن يمدد سيطرته ويتوغل في المرتفعات الجبلية وأن يتقدم إلى غاية السهوب التي يجوبها الرحل. فالعزلة النسبية لبلاد المغرب كما يراها قزال وغيره ليست سوى خطوط دفاع للمنطقة وقفت كحواجز متينة في وجه الاحتلال. فقرطاجة لم تؤسس إقليم إفريقي إلا بعد ثلاثة قرون من تأسيسها، في حين أنها كانت تملك حينذاك امبراطورية استعمارية واسعة. أما روما التي من أجل منع عدوها قرطاج من أن يولد من جديد، ولتحتفظ بالمعبر بين حوضي البحر الداخلي ولأطماعها الاستعمارية بالمنطقة، انتظرت قرابة القرنين حتى تمكنت من احتلال كل السواحل الافريقية إلى غاية الحد الأقصى الغربي، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على مناعة ساحل المنطقة لا عزلتها كما يدعي مؤيدو هذه الفرضية.

فصحيح أن سواحل المحيط الأطلسي وتونس الشرقية سهلة الولوج، لكنها تفتقر للموانئ الطبيعية، إلا أن موانئ أخرى عديدة أقيمت على خلفية جزيرة أو عدة جزر قريبة من الساحل. مثلما بحث الفينيقيون عن هذه المواقع الايجابية، إذ أن قرطاج شكلت شاشة في وجه الرياح المقابلة، حيث كان ميناؤها محميا برأس على صخور صلبة قاومت الانجراف بشكل أحسن حتى من المناطق المجاورة. فهذا الميناء تواجد في الساحل الشمالي شرق الرأس بحيث يحميه من الرياح الخطيرة للغرب وللشمال الغربي. كما أنه وفيما بعد أقيمت بعض الموانئ الاصطناعية عن طريق إنشاء أرصفة أو بحفر أحواض داخلية.(2)

(1) Pol. Trousset, « Le franchissement des chotts du Sud tunisien dans l'antiquité », Ant. Afr, T. 18, 1982, p. 45

(2) S. Gsell, H. A. A. N, T. I, p. 35-38 ; M. Rouissi, Op. Cit, p. 23.

ويمكننا أن نستدل كذلك على إمكانية إقامة موانئ وفتح علاقات مع بلدان البحر المتوسط بضفتيه الغربية والشرقية بملاحظة أنه مقابل الساحل الليبي الحال بمحاذاة شرقي البحر المتوسط في نقطة واحدة "السيرانييك"، ما هي إلا إبحار يوم واحد عن كريت، فالمسافة بين رأس كريو (cap Krio)بكريت، ودرنة بليبيا هي حوالي 150 ميل فقط. كذلك نلاحظ أنه على الرغم من نقص الموانئ الطبيعية عموما بالساحل الافريقي، إلا أن هناك موانئ صغيرة مثل درنة، خليج بومبا، مرسى بحات، مرسى طبرق (Tubruk) التي تقع كلها تحت جزيرة كريت مباشرة، وبالتالي تمثل أماكن اختراق لهذا الساحل ومحطات للساحل الشرقي للمتوسط، كذلكم يمكننا أن نرى أنه من البر الرئيسي لليونان نفسها فإن الساحل الافريقي مكشوف بشكل أبعد، إذ أن المسافة الأقصر بين الطرفين ستكون بـ 270 ميل، من "cap Matapan" باليونان إلى رأس الهلال ب ليبيا. أما الجزء الغربي من الساحل الليبي يتبين من نظرة أنه بعيد نوعا ما عن البر الرئيسي الأوروبي، لكن التوسع في البحر المتوسط يكون من خلال السير باتجاه الجنوب، وفي البحر الأيوني باتجاه الشمال. فمن رأس مصراته إلى خليج قابس نلاحظ أن الساحل الافريقي يقع تحت جزيرة صقلية بمسافة تفصلهما بـ 120ميل من أقرب نقطة في هذه الجزيرة إلى برقة. و بما أن مالطة و"قوزو (Gozzo) "تقعان في خط واحد مع صقلية والساحل الليبي، فإنها تكون بحوالي 190 ميل من صقلية، مما يسهل العلاقات بين هاتين الجزيرتين (صقلية ومالطا) وإفريقيا. وما يدعم هذا ، أنه حينما نأتي من الشرق إلى تونس، فإن الساحل الليبي ينعطف بشكل حاد شمالا بحوالي 3 درجات من خط العرض، ولا يقترب من صقلية فحسب، ولكن من سردينيا أكثر. وفي هذا الانحناء يقع شط الجريد الذي لا يصل شرقي ليبيا الحالية فحسب بجزيرتي صقلية وسردينيا، وإنما الساحل الافريقي ككل بعالم البحر المتوسط[1]، فالإيجابية الأكيدة للساحل الافريقي، ولو ليس علو طول امتداده من الشرق إلى الغرب، أنه قد كان له وزن ثقيل على تاريخ شعوب البحر المتوسط الشرقي والغربي، خاصة وكون شواطئه قريبة من الطرق التي تسلكها والمناطق التي ازدهرت التجارة البحرية فيها، فقد كان هناك فضاء أوسع مفتوح للعلاقات السلمية كما للقرصنة كذلك[2].

وإذا كانت القمة الشمال شرقية لبلاد المغرب ليست بعيدة –كما ذكرنا- عن صقلية سوى بـ 140ميل، فاصلة حوضي البحر المتوسط، أحد واجهاتها مطلة على الحوض الشرقي، فإن قمتها الشمال غربية تشكل مع اسبانيا الحد الأقصى للحوض الغربي، حيث استخدم كلا المنفذين كمكان عبور وحقل صراع بين الغرب والشرق والتفاعل حتى بين ضفتي المتوسط الشمالية والجنوبية. فقد أسست قرطاج عند عتبة الحوضين الشرقي والغربي للبحر المتوسط "صور" جديدة، ثم ما لبث الرومان أن أسقطوها محاولين نشر الثقافة اللاتينية في كل الحوض الغربي للمتوسط. أما على المنفذ الغربي لبلاد المغرب فنجد الاحتلال الوندالي يلج من أقصى الغرب. وأخيرا نلاحظ الفتح الاسلامي الوافد من جهة الشرق[3]. ألا يدل كل هذا لا على عزلة بلاد المغرب

(1) O. Bates, Op. Cit, p. 18.

(2) E. Albertini, G. Marçais, G. Yves, Op. Cit, p. 26.

(3) S. Gsell, Op. Cit, p. 38.

بواسطة البحر و الصحراء كما يعتقد قزال وآخرون، ولا عن صعوبة دخول سواحلها، بل على العكس يمثل دليلا قاطعا على أن الساحل لم يكن أبدا حاجزا في وجه ما نسميه "الوحدة الجغرافية"، فكل الشروط اجتمعت فيه حتى تجعل منه مركز جذب ومكان تبادل، على الأقل بالنسبة للسلم الذي كان مضمونا عن طريق المعرفة الجيدة بالطرق التي تتلاقى معه.

2-عدم صلاحية الأنهار:

هناك نقطة أخرى يمكننا إيضاحها كذلك، وهي أن ساحل بلاد المغرب مجرد من المعابر المهمة التي تمنحها الوديان من الساحل إل داخل البلاد، إذ لا يوجد حسب رأي الكثيرين، ببلاد المغرب لا "نيل" ولا "نهر الرون"، ولا يوجد حتى طريق ملاحي للنفوذ باتجاه الداخل. فالضفة الشمالية للبحر المتوسط (الجزائر خصوصا)، لا تملك سهولا ساحلية للولوج من البحر إلى الداخل مثلما نجد نهر الرون. فمصبات الوديان مسدودة بالطمي والرواسب[1]، وهذه الوديان نادرا ما تقدم مسارات يسهل الوصول اليها. فوديان عديدة تقطع سلاسل موازية للبحر بشكل عرضي فتقدم بالكاد ممرات عن طريق مضائق عميقة وشاقة أو بواسطة شلالات مفاجئة. ما نجد وديانا أخرى يتكيف مجراها مع الاتجاه العام للتضريس، لذلك مشدودة أحيانا بين انثناءين أو يجب أن تكسر هنا وهناك حواجز عن طريق مسارات ضيقة، إذ أن الجبال التي تسيطر على السواحل بدون مراسي، وبدون سهول ساحلية كبيرة . فبعض الفجوات تفتح طرقا ضيقة نحو أراضي داخلية مرتفعة، غالبا حابسة للمياه أو نحو شواطئ مستوية غير مناسبة للموانئ. فعلى طول الساحل لا توفر مجاري الماء الحركة لأن الملاحة غير ممكنة بها إلا على نهرين أو ثلاثة في غرب المغرب الأقصى والتي هي منفصلة عن البحر عن طريق شريط صعب. أما بقية الأنهار فمن خصائصها أنها جافة تقريبا كلها أو أنه ليس لها منسوب ضئيل خلال فصل الصيف. أما في الشتاء فإنها في معظمها سيول تندفع في سرير مزدحم بالصخور على منحدرات قوية[2]، حتى قيل عن هذه الأنهار في استعارة جريئة: إن الكثير منها "تجري ولا ماء" طيلة جزء من السنة، فكونت طرق مواصلات متواضعة في الغالب وليس لها قيمة اقتصادية تذكر[3]. فجميع وديان بلاد المغرب شديدة الانحدار، قوية التدفق في موسم الأمطار، لكنها جافة في المواسم الأخرى. حتى أن أشهر نهر في موريطانيا قديما، وهو نهر الشلف، غير قابل للملاحة نظرا لصغر حجمه وعدم انتظام جريانه، بالإضافة إلى التواءاته المعيقة لسير المراكب والسفن[4]. فالأودية بهذه المنطقة الوسطى من بلاد المغرب القديم (الجزائر)، نجد بها كل من واد الصومام والشلف يختنقان ليصلا إلى مكانين. كذلك أن السيبوز هو حفرة صخرية، وأنه نحو الداخل تختفي الوديان في أحواض بدون مخرج. وإلى الشرق، بتونس نجد المجردة، أهم نهر بشمال إفريقيا يجتاز

---

(1) R. Lespès, Op. Cit, p. 1 3 ; E. Albertini, G. Marçais, G. Yves, Ibid, p. 14 .

(2) S. Gsell, Ibid, p. 25 ; J-M. Lassère,Op. Cit, p. 23

(3) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 27-28.

(4) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 24.

المصب، وفي منبعه سهول كبيرة، وكلا المنطقتين (المصب والمنبع) وعرتين، حيث ينخفض مجرى النهر إلى ممر واحد[1].

لكن مقابل هذه الخصائص التي تبدو سلبية، فإن هناك وديانا أخرى لعبت دورا ايجابيا في تسهيل الاتصال والحركة، مثلما هي أودية: التافنة، سيق، الحبرا(L'habra) ، ومينا (Mina) التي نجدها تقطع يشكل عرضاني الجبال بالغرب الجزائري وتسمح بعبورها بسهولة[2]. وإذا كانت الأودية الواصلة بين البحر والداخل قليلة وأنها في معظمها جافة وغير قابلة للملاحة، فإن هذا جعل الانسان يختار الأصلح منها –وإن قل– للتجمع حوله واكمال ضروريات الحياة حوله، وبالتالي خلقت نوعا من الوحدة حول اقليم واحد، لأن الخصوصيات المناخية بشمال إفريقيا وخاصة خارطة الأمطار حددت التقسيم الاقليمي. وفي العصر القديم مثلما في أيامنا الحالية استطاعت شبكة المياه أن تخفف التناقضات وقلة الأودية الواصلة فتحقق انسجاما بين الطبيعة والانسان لأن مجاري الماء في الغالب جافة، وأن الماء يجذب الانسان ويجمع الشعوب أكثر مما يفرقها، لذلك نجد سالوست بين كيف أن سهل الموثول الجاف جدا قد كان صحراويا باستثناء قرب النهر (واد الموثول) أين كانت الأشجار مزروعة، والمنطقة مأهولة بالسكان[3]. فهذا دليل على محاولة الانسان التجمع ول حول مركز ماء رغم قلة أهميته، ويبين أنه ليس بالضرورة عائقا في وجه الوحدة.

كما يمكننا أن نستدل على إمكانية الانسان للتكيف مع هذه الظروف المناخية وشبكة المياه ومحاولة استغلالها إلى أقصى حد، أنه وباستخدام المياه الباطنية التي تخزنها تربة بعض المناطق، يمكننا زراعة النخيل وبعض الأشجار المثمرة والخضر، مثلما في الواحات الصحراوية. وأنه اضافة إلى هذا نجد بالأراضي القاحلة التي لا تخضر سوى لحظة في أوقات التساقط الشتوية أو في الربيع كان تدجين القطعان أمرا ضروريا بدفعها قدما للبحث عن مراعي جديدة ونقاط مياه[4]، وهذا كله يدل على تحدي الانسان لقلة المياه ومحاولة التكيف مع تأثيرات نقصه بالبحث عن طريقة للعيش دائما.

وإن كان دور الأودية ببلاد المغرب متواضعا من الناحية الاقتصادية، فإن ما نلاحظه أنها في العصر القديم استعملت كحدود سياسية بين الممالك النوميدية أو موريطانيا[5]، مثلما كان نهر الملوية الفاصل بين ملكة موريطانيا ونوميديا. أيضا لدينا الوادي الكبير الذي استعمله بلين القديم باسم "Tuxa" الذي مثل حدودا بين إفريقيا الفعلية ونوميديا المكملة بواسطة الموريطانتين، السطايفية والقيصرية خلال فترة الاحتلال الروماني، وأنه فيما بعد خلال العصر الوسيط كان الواد الكبير يشكل حدود المغرب الأوسط وإفريقية[6].(Ifrikia).

---

(1). S. Gsell, Op. Cit, p. 26

(2). R. Lespès, Op. Cit, p. 10

(3) J-M. Lassère, Op. Cit, p. 24.

(4). Alfred. Bel. Op. Cit, p. 60

(5). S. Gsell. Ibid

(6) Ch. Tissot, Op. Cit, p. 4.

3– عدم وجود نواة مركزية:

حاول المؤرخون الأجانب قدر الامكان جعل بلاد المغرب غير قادرة على إنشاء وحدة سياسية بسبب التجزؤ الجغرافي وراحوا يقارنوها ببلادهم حتى يثبتوا عجزها الدائم، ونسوا أن لكل منطقة خصائصها الجغرافية وأنه بإمكانها تكييف هذه الجغرافية لصالحا والتكيف معها لتحقيق تلك الوحدة وبناء كيان سياسي قوي.

فهذا قزال يقر أن بلاد المغرب ينعدم بها الاتساق، وأنه رغم كون المناطق التي تشتمل عليها فرنسا متباينة، فإنها مع ذلك تتجمع حول نواة مركزية وتتابع دون اختلافات حادة، كما أنها تنفتح وتعبرها مسالك سهلة ترابية ونهرية ، عكس بلاد المغرب التي وإن وجدت بها مسالك نهرية و ترابية فهي صعبة وضيقة، لا لشيء سوى ليبرز عجز المنطقة عن الالتفاف حول مركز حيوي يوحد المنطقة سياسيا. إذ هي تمتد على طول يتجاوز 400 فرسخ من المحيط الأطلسي إلى خليج السرت ولكن لها سعة ضئيلة، فهي إذن لا تساعد – حسبه– على تكون دولة موحدة، ولا على نمو حضارة من نمط واحد[1]. لكن لماذا يقارن قزال جغرافية فرنسا في العصر الحديث وهي ذات وحدة سياسية واقليمية، ببلاد المغرب في العصر القديم، ففرنسا لم تكن في العصر القديم حتى بهذا الاسم ولا هذه الوحدة الجغرافية أو السياسية، بل كانت احدى مقاطعات الرومان أو غيرهم، بينما بلاد المغرب حينها تمكنت من إنشاء ممالك مستقلة ذات وحدة ترابية وسياسية ، ولعبت دورا سياسيا وثقافيا كبيرا في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال العصر القديم، شأنها في ذلك شأن الإغريق أو الفينيقيين أو الرومان؟. هل يحق لذلك المؤرخ وغيره من مؤرخي المدرسة الاستعمارية القيام بهكذا مقارنة وتجاهل الدور الذي لعبه سكانها آنذاك.

وإلى جانب قزال، جعل قوتييه الجفاف النسبي للمناخ في بلاد المغرب لا يسمح في أي نقطة من المنطقة ببناء تطور وازدهار. فرغم وجود مصادر نابضة لهذه البلاد الواسعة، فإن تحويل الثروات الكامنة من حالتها الثابتة إلى حالة ديناميكية يتوجب التنظيم حول عاصمة لخلق انتاج. لكن هذه مجموع شروط لا يمكن لبلاد المغرب خلقها –حسبه– فمن سيحرك هذا المجموع في بلاد كل أقاليمها تالفة، إذ يتوجب وجود مركز تجتمع حوله مختلف الأقاليم طبيعيا، لكن هذا ما ينقص في بلاد المغرب، كون المغرب المأهول يتركز فقط في حاشية بطول 3000كم واتساع 150كم، أين تتوفر الزراعة والظروف المناخية الملائمة[2].

لكن هذا الكلام غير صحيح، فالتضاريس التي درسناها والتربة والمناخ كل ذلك وإن كانت به نقائص وتأثيرات على الانسان، فإنه ولابد أن كانت هناك مناطق صالحة لتجمع السكان وإقامة عواصم. وحتى قزال يشير إلى وجود مناطق كتلك صالحة لأن تكون مركزا حيويا رغم عدم اعترافه بها، إذ يعدد في نفس الوقت ما يجزئها ويجعلها غير صالحة للعب ذلك الدور بسبب نظرته الاستعمارية، فيشير إلى أنه بالغرب منطقة خصبة واقعة بين المحيط والريف والأطلس، وأنها تكوّن مجموعة متناسقة إلى حد ما، وأن بشرق بلاد المغرب كذلك

(1) ستيفان، قزال: تاريخ شمال افريقيا القديم، ج1، ص 41.

E-F. Gautier, Op. Cit, p. p. 11. (2)

نجدا كبيرا —وإن كان مضطربا– يحتل موسطة البلاد التونسية، وأن عدة شعاب تحيط به. ولكن حتى بقرب هاتين المنطقتين توجد مناطق أخرى عزلتها الطبيعة: ففي شمال المغرب يوجد الريف الذي نتأت به سلاسل متراصة، وفي الجنوب يوجد السوس الذي يغوص بين جدارين، وفي شمال البلاد التونسية توجد الهضبة المشجرة لسلسلة جبال خمير. وبين هذه وتلك توجد الجزائر مسندة بالجبال طوال الساحل المتوسطي، وتحتل غالبا أرضها قفارا في الداخل[1].

والأمثلة كثيرة على مر التاريخ لوجود مناطق لعبت دور عواصم سياسية ومراكز حيوية. فيمكننا أن نستشهد –على سبيل المثال لا الحصر– بما أورده سالوست في حديثه عن حرب يوغرطة، إذ عدد الصعوبات التي وجدها القائد ماريوس في قفصة وفي مولوشا، والتي وقفت عائقا في وجه الجيش الروماني، وهي في رأينا تحصينات طبيعية لهذه المناطق التي يمكن أن تجتمع حولها أقاليم أخرى وتقود من خلالها البلاد ككل.

فبالنسبة لقفصة، الصعوبات التي تقف في وجه أي عدو لاختراقها هي كونها واقعة وسط صحراء واسعة —على حد رأي سالوست– محمية بواسطة فضاء عدائي في مناطق غير زراعية ومن دون ماء. أما مولوشا، فيذكر سالوست بأن قلعة مولوشا هي جبل صخري ينفصل عن السهل وذو ارتفاع واسع وممتد بما يكفي لحمل حصن صغير، والذي من خلاله لا يمكن لماريوس ولا لعدو آخر الوصول اليه إلا عن طريق درب ضيق جدا، لأن موقعها الطبيعي يبدو كحصن دفاعي. فمدن تونس التي ذكرها سالوست —خاصة– كانت ولازالت لها الأهمية لتقود ولتكون مراكز مهمة، مثل باجة (Vaga-Baja) و قفصة .(Capsa) لكن هناك مدينة أخرى بتونس أمكنها أن تكون عاصمتها الغربية، وهي الكاف، المدينة المحمية طبيعيا. إذ تقود تقاطع طرق مهمة مثلت إحدى عواصم تونس الخمسة. فالكاف متصلة بـ طبرقة بواسطة طريق دائري جنوب —شمال يمر من "نابور(Nebeur) "، سوق العربة وعين دراهام. إن الكاف التي وصفها سالوست ليست محمية طبيعيا فقط، وإنما مجهزة بأسوار، كما أن جهتها الواقعة على حافة السهل ترتفع بقوة نحو الشمال والشمال الشرقي.

وهناك مثال آخر على منطقة أمكنها أن تكون عاصمة حضارية في العصر القديم وهي سيرتا التي جعل منها واد الرمال موقعا متفردا. إذ لم يتوقف هذا الوادي عن تسهيل الحركة ونقل الناس حتى منذ العصر القديم إلى عهد الجغرافيين العرب، وإلى الآن[2]. كما أن صخرة قسنطينة هي شرفة مراقبة جيدة يمكنها أن تكون من خلالها إطلالة واسعة جدا على الحوض البحيري القديم وعلى السلسلة النوميدية. فموقع سيرتا يشكل قلعة مثالية، وما يميزها أكثر أن مستواها منحدر يسهل الوصول اليها من جهة واحدة، فمن السهل الدفاع عنها. وسيرتا منذ القديم استفاد منها النوميد وبنوا علاقاتهم مع القرطاجيين من خلالها كعاصمة لنوميديا الشرقية، ثم استغلها الرومان بدورهم بعد احتلالهم للمنطقة[3]. هناك مثال آخر لمنطقة أمكنها أن تكون عاصمة ونواة

([1]) ستيفان، غزال: تاريخ شمال افريقيا القديم، ج1، ص 41.

([2]) E. Berthier et autre, p. 31-32.

([3]) A. Bernard, Afrique septentrional et occidentale, p. 215.

لتجمع الأقاليم حولها بين مرتفعات ومنخفضات الأطلس التلي بالجزائر، فهي منطقة تقارب لطرق طبيعية ملائمة لنشوء وتطور عاصمة، فسلالات حاكمة بسطت نفوذها من خلالها، وهي تلمسان التي حظيت بظروف مناخية ومصادر طبيعية لتلعب دورا حضاريا[1]. وبالمغرب الأقصى لدينا مثلا "فاس" التي ورثت الدور الذي كانت تقوم به "وليلي" قديما، ولها فضل أكده حتى قوتييه حينما قال: "ففيها الماء الذي تحتاجه المدن الشرقية أيما احتياج"، وهذا هو السبب الأصلي في ازدهارها[2].

إذن لا تنقصنا الأمثلة عن وجود مراكز عدة محصنة طبيعيا، كانت ولازالت بإمكانها أن تلعب دور عاصمة أو نواة مركزية تجتمع حولها بقية الأقاليم في سبيل بناء كيان حضاري. وبهذا يمكننا القول أن تضاريس بلاد المغرب لها سلبيات كما لها ايجابيات مثل تضاريس أي مكان بالعالم لم تقف حاجزا أبدا في وجه الوحدة الجغرافية للمنطقة، فالإنسان المغاربي تحدى تلك الحواجز الطبيعية عرف كيف يسخرها لصالح عيشه إثبات وجوده رغم تجزؤها أو جفاف مناخها وقلة تساقطها، فكل سلبية كان لها بالمقابل ثغرات يمكن استغلالها والتكيف مع هذه الظروف الطبيعية، ولكن هذا يتوقف على الدور الذي يمكن للإنسان أن يلعبه مع هذه الجغرافية، مما يحتم علينا معرفة هذا الانسان.

(1) J. Despois, « Géographie et Histoire en Afrique du Nord. Retouche à une thèse »,p. 190.

(2) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 30.

ثانيا: امتداد السهوب والصحراء وثنائية البدو والحضر

1-امتداد السهوب والصحراء:

-الهضاب: السهول العليا والسهوب:

عدّد المؤرخون الأجانب مساوئ هذا النوع من التضاريس ببلاد المغرب، بهدف إنقاص دورها الاقتصادي وتهميشه، والقول بتجزؤ البلاد ووقوف التضاريس عائقا أمام وحدة المنطقة. فهذا قزال يشير إلى أن الأراضي المنخفضة ذات قيمة غير متساوية، فبعضها لا ينال ما يكفيه من الأمطار، وبعضها به مستنقعات، وبعضها الآخر عقيم بسبب كثرة الأملاح الممتزجة مع التربة، وإذا استثنينا بعض النواحي الفسيحة وخصوصا منها موسطة البلاد التونسية وغرب المغرب الأقصى، فإن المساحات الخصبة ليست سوى جزر تتعارض مع فقر وقساوة الأراضي المحيطة بها، والتي تصل فيما بينها بممرات يهيمن عليها أهل الجبال. أما ساحل البحر الأبيض المتوسط، بشرق القبائل الكبرى حتى قرب عنابة، فإن جميعه يكاد يتكون من هضاب كثيرة الاضطراب بحيث لا تجد فيها الأنهار سبيلها إلا بصعوبة. فالحجر الرملي يغطي مساحة شاسعة تكسوها غابات جميلة من السنديان، أما الأراضي فهي من التربة الصوانية التي لا تساعد على زراعة الحبوب إلا في الشعاب التي هي فوق ذلك ضيقة، والتي حطت فيها الرسوبات الطينية. ولكن نظرا لارتفاع هذه المنطقة ولحسن تعرضها للرياح الرطبة، فإن الأمطار تنعش بها مراعي جميلة وحدائق يانعة حول عيون كثيرة من الماء. ويظهر أن هذه المنطقة كانت في غير الغابات آهلة بالسكان في الفترات القديمة، وهناك داخل التل والشعاب والسهول العليا، نجود تفصل أو تقتحم السلاسل الجبلية[1]. ودعونا نتعرف عن قرب على هذا النوع من التضاريس لنعرف إلى أي مدى يصح ما ذهب اليه قزال أو غيره حول الدور الاقتصادي الثانوي لهذه الهضاب.

إن أحد أصناف السهول ما هو هضاب ونجود مرتفعة نسبيا، يطلق عليها تعبير "السهول العليا" (*). ففي المغرب الأقصى تمتد النجاد بين المحيط الأطلسي وسفح الأطلس، شمالا بين طنجة وفاس، غربا هي أقل بروزا، أما جنوبا فتبدو النجاد المنضدية واضحة بين المحيط الأطلسي والأطلس في ما يسمى بـ الميزيتا المغربية(**)، وهي هضبة ضخمة قديمة مغطاة برواسب الحقبة الثانوية أو الثالثة المتراكمة تراكما أفقيا. ومن جهة

(1) ستيفان، غزال: تاريخ شمال افريقيا القديم، ج1، ص ص 43، 22.

(*) "تقسم السهول إلى ثلاثة أصناف رئيسية: الأول منها منتشر بعدة مناطق ساحلية متصفة بالخصوبة وقلة الامتداد بسبب الكتل الجبلية الساحلية التي تقطع هذه السهول، أما القسم الثاني فيحتوي على السهول الداخلية التي تتوسط الجبال، وهي أقل خصوبة من سابقتها، لكنها تماثلها في عدم الامتداد الكبير أحيانا، أما الصنف الثالث فهو ما ذكرناه أعلاه" (أنظر: محمد البشير، شنيتي: سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا (146 ق.م- 40م).

(**) " الميزاتا (La Meseta)المغربية سميت كذلك لأنها تقدم نفس التركيبة التي تحتويها الميزاتا الايبيرية، وهي هضبة مركزية اسبانية. والميزاتا المغربية عموما يقسمها شق طويل إلى سطحين متطابقين، الأول ذو ارتفاع متوسط بـ 150م، مقطوعة بأسرة عميقة لبعض الوديان التي تتجه نحو

المحيط يبدأ هذا النجد بسهل ساحلي يقل عرض رقعته حينا قرب الرباط و مغادور، ويتسع حينا آخر فيبلغ 80كم في دوكالة ثم يرتفع تدريجيا إلى أن يصبح نجدا ممتد الأطراف خصبا يبلغ 700م، ويشقه خور أم الربيع [1].

أما بالجزائر فإننا نجد هذه الهضاب بالمنطقة الفاصلة بين سلسلتي الأطلس التلي والصحراوي. تتشكل من أراضي مرتفعة يغلب عليها الانبساط، لكونها أحواض داخلية، حيث تتصف بكونها إقليما سهبيا رعويا يرتاده الرعاة بحثا عن الماء والكلأ لقطعانهم. فالسهول العليا بالجزائر (الهضاب) تعد امتدادا لمرتفعات الأطلس، يبلغ معدل ارتفاعها على مستوى سطح البحر ما بين 1200-1300م، وذلك بالجهات الغربية المحاذية للحدود الجزائرية-المغربية. تبدأ بالانخفاض التدريجي لتصل إلى حوالي 800م في الجهات الشرقية منها. كما يتدرج اتساعها من الغرب إلى الشرق، فتتجاوز 200كم غربا، وتتناقص باتجاه الشرق مشكلة مثلث منفرج الزاوية ضلعه الأصغر غربا، ووتره يستند إلى السفوح الجنوبية من الأطلس الصحراوي، بينما ضلعه الآخر يعانق الأطلس التلي، أما زاويته الحادة فتنغرس في منخفض الحضنة شرقا، فتقدر استطالته بـ 700م[2].

إذ أن أهم انعكاس للهضاب بالغرب الجزائري هي الميزاتا الوهرانية، وهي مناطق تلمسان، دايا، سعيدة وفرندة. فهذه السهوب الوهرانية يتراوح ارتفاعها ما بين 1000 إلى 1200م، وقد حفر كل من الشط الغربي والشط الشرقي في جزئها المتوسط. الغربي تحده شقوق على كل محيطه، أما الشرقي، فعلى العكس شواطئه مسطحة، فهو انخفاض بـ 150كم طولا من الغرب إلى الشرق. عرض السهوب الوهرانية يضيق في حوض زهرز* بين تجعيدين جبليين متجهين من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، حيث نجد الزهرز الغربي بارتفاع 827م، الزهرز الشرقي بـ 755م[3].

المحيط الأطلسي بانجراف يشبه أجنحة المروحة، ضيقة في الجنوب الغربي. هذين السطحين يتوسعان بعدها، وتختفي في الشمال تاركة المكان للسهل ذو الطمي بواد سبو، محاطا بتلال أخرى" (للمزيد أنظر: S. Gsell, H. A. A. N, p. 3)

(1) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق ص 21 ; M. Rachet, Op. Cit, p 14

(2) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 33.

(*) " زهرز يسمى أيضا بـ سبع روس، وهي المنطقة التي أشار اليها سترابون بالإخوة السبعة قائلا: "نصعد الآن نحو البحر الداخلي، نرى انطلاقا من "Lynxe" (ليكسوس) تتابع مدن: Zélis و Tiga، قبور الاخوة السبعة، وقليلا فوق ساحل جبل أبيلا (Abyla)" (أنظر: Strabon, Géographie, XVII, III, 6) ، وكذلك عند بلين القديم: " المقاطعة الطنجية جبلية في الشرق، يوجد بها جبل أبيلا وتلكم اتي نسميها الاخوة السبعة بسبب ارتفاعها المتساوي" (أنظر:Pline l'Ancien, Histoire naturelle, V,18, 19.). وهو ما ورد عند بومبونيوس ميلا في وصفه لموريطانيا: " لا نرى بها سوى مدن صغيرة، أنهار صغيرة، وفي المقابل يمكننا تسمية الجبال المرتفعة المرتبة في تنظيم وكأنها في تصميم ، واحدة تتلو الأخرى، تسمى الاخوة السبعة بسبب عددهم وتشابههم، وبعدها نهر تامودا، المدن الصغيرة لـ "Rusigada" و "سيغا (Siga)" (أنظر:Pomponius Méla, Géographie, I, V.). كما وردت عند صولن قوله:" من مقاطعات موريطانيا الطنجية من جهة الجنوب ومن البحر المتوسط، ترتفع على سبعة جبال، حيث أن تشابهها جعلها تسمى الاخوة السبعة" (أنظر: Solin, XXVI.)

(3) A. Bernard, Afrique septentrionale et occidentale, p.p. 22, 200 ; Y. Lacost , A. Noushi, A. Prenant, Op.Cit, p. 14.

كما تمثل الهضاب في الشرق الجزائري السهول العليا لقسنطينة بين 800م و 1000م والمسقية جيدا[1]. إضافة إلى السهول العليا لبني سليمان، العريب، حمزة بالبويرة، وبعيدا في الشرق تنفتح السهول العليا لـ مجانة التي تمتد مع السهول العليا بـ سطيف، لكنها منفصلة عن الصومام بواسطة سلسلة البيبان[2]. والملاحظ أن الأحواض الموجودة في النجاد العليا التي لم تنحدر مياهها لا إلى البحر ولا إلى الصحراء، فهي منغلقة ذات تضاريس على نمط واحد تركد فيها الشطوط[3] الكبيرة، مثلما تنخفض الهضاب تدريجيا نحو الجنوب، وبسرعة نحو الشرق، فاسحة المجال لسلسلة من المياه الضحلة التي تربط بمجاري مائية تؤدي إلى شط ملغيغ والجريد قرب خليج السرت الصغرى[4] .

وأما في تونس فإن السباسب تبدأ جنوب السلسلة الظهرية، إذ نجد السهول العليا في الجهة الغربية من البلاد، أين تنتصب في الأفق الجبال الكلسية العارية حتى جنوب قفصة، ومنه تبدأ الصحراء. وهناك السباسب السفلى في الجهة الشرقية، وهي سهول مترامية الأطراف، تمتد من الجبال إلى البحر على وتيرة واحدة، ما عدا ساحل سوسة أين نجد الهضاب تشبه منظرا طبيعيا للتل[*].

2-/الصحراء:

كانت افريقيا الشمالية التي عزلها البحر والصحراء والتي يصعب الدنو منها –على حد تعبير المدرسة الاستعمارية-، كانت مع ذلك مدعوة لأن تحتل مكانا في تاريخ البحر الأبيض المتوسط، وذلك بفضل موقعها الجغرافي، ولكنها أخذت أكثر مما أعطت. فأهلها كانوا غير قادرين على جمع كل قواهم في كتلة واحدة، وعلى تأسيس امبراطورية، وعلى خلق حضارة خاصة بهم، ولذلك تقبلوا أو تحملوا السيادات المادية والتأثيرات الأخلاقية التي تقدمت اليهم على التعاقب. بل إنهم ساهموا في نشرها، مثلما نلاحظه في استيلاء محاربين ليبيين على اسبانيا لصالح قرطاجة والاسلام، كما أن الكتّاب اللاتين الكبار الذين هم من افريقيا المسيحية قد ساعدوا بقوة على انتصار الدين الذي سينمحي بعد بضعة قرون من بلادهم كليا[5]. ويبدو أن الصحراء قد ساهمت في ذلك العجز بسبب عزلها لبلاد المغرب عن بقية العالم القديم منذ ذلك الوقت، ولهذا ارتأينا إلقاء نظرة عن هذه الصحراء ومعرفة دورها في عزل أو ربط المنطقة بالأمم القديمة.

([1]) François. Bertrandy, Op. Cit, p. 16.

([2]) E. Albertini, G. Marçais, G. Yves, Op. Cit p. 22.

([3]) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 23.

([4]) E. Mercier, Op. Cit, p. XI.

(*) " يعتقد Rinn أن كلمة "تل" مشتقة من اللاتينية "Tellus"، أو من العربية تلة، وهي الأراضي المرتفعة المقابلة للصحراء، تستعمل في الجزائر باخص مجموع الأراضي الصالحة للزراعة المواجهة لرمال الصحراء" (أنظر: Ct.Rinn, «Qu'est-ce que le Tell », B. S. G.A. A. N, 8ème Année-1903, 1er trimestre, p.p. 3. 8) .كما ونجد معنى آخر للتل وهو مرادف للجبل ، يطلقه الجغرافيون على البلاد التي تسقط فيها سنويا على الأقل 40سم (400 مم) من الأمطار، أي المناطق التي تتوفر فيها المزروعات والأشجار. يقابل السهوب والصحراء، وفي نفس الوقت يمثل التل كل المنطقة الشمالية التي لا تشتمل فقط على سلاسل وكتل جبلية، ولكن أيضا على سهول منخفضة ساحلية أو جنوب السواحل وسهول عليا (هضاب)" (للمزيد أنظر: E. Albertini, G. Marçais, G. Yves, Op. Cit, p.16)

([5]) ستيفان، قزال: تاريخ شمال افريقيا القديم، ج1، ص 55.

تميز بلاد المغرب القديم عن غيرها من المناطق المتوسطية بامتداد مجال صحراوي واسع على طول حدودها الجنوبية. وقد نال هذا المجال بدوره حظا وافرا من اهتمامات القدامى، سعيا منهم لفهم خصوصياته الجغرافية، ومدى قدرة الانسان على التأقلم معها. فقد صورت الجغرافيا القديمة هذا المجال محاطا بالماء من ثلاث جهات: المحيط غربا وجنوبا، والنيل شرقا، كما اعتبرته حدود العالم المأهول، لأن عمق القارة الافريقية الحالية كان غائبا في التصور الجغرافي القديم[1].

وكل ما أوردوه عنها من أخبار أنها صحراء قاحلة، مثلما أشار اليه هيرودوت في حديثه عن أراضي ليبيا (القارة ككل) الداخلية: "فوق هذا الارتفاع الرملي، نحو الجنوب والداخل من ليبيا لا نجد سوى صحراء مخيفة، حيث لا يوجد ماء ولا خشب ولا حيوانات متوحشة، وأين لا تسقط لا مطر ولا ندى"[2]. وهو نفس ما أورده بلين القديم في الفقرات الرابعة والخامسة والسادسة من التاريخ الطبيعي: "ينقسم الجون الثالث إلى خليجين يصبحان شاسعان بمياه مد السرتين (الصغرى والكبرى) الضحلة...وعند التوغل في الداخل هناك مساكن الفيلة ثم صحراء شاسعة"[3]. ولم يخرج سيليوس ايتاليكوس عن هذا الوصف حينما قال: "ليبيا محروقة برياح الجنوب ونيران الشمس"[4]، ولا بومبونيوس ميلا بقوله: "المناطق الأولى مأهولة بالاثيوبيين، وتلك في الوسط هي بالكامل صحراوية، إما بسبب الحرارة أم لأنها مغطاة برمال جافة وتنتشر فيها الأفاعي"[5]

هذه الصحراء التي تترجمها –على سبيل المثال لا الحصر– الحمادات الموجودة بالجنوب الشرقي للمغرب الأقصى، مثل حمادة غير ما بين واديي غير و زيز جنوب بوذنيب، وهي أكبر الحمادات المغربية انبساطا. ثم هناك حمادة الداورة، إضافة إلى مجموعة من التلال الرملية والرقوق، وعددا من الواحات الهامة، مثل واحتي حاسي البيض وواحة مرزوكة، وكذلك الواحات الخصبة كـ "واحة تافيلالت المستفيدة من واديين كبيرين هما غريس و زيز، واحة فوكلة، واحة تودغة، واحة داداس، واحة النيف وواحة تزارين[6].

أما بالجزائر فإننا نجد ما يسمى الصحراء الشمالية المنحصرة بين الأطلس الصحراوي والهقار، حيث تنحدر من مركز هذا المرتفع الهضاب الرملية لـ مويدير والتاسيلي آزجر. وهذه الهضاب تضم تادمايت، تينغرت، الحمادة الحمراء، وهضاب الجنوب التونسي، تفصل حوضي ملغيغ في الشرق و قورارة في الغرب، حيث أن حوض ملغيغ أو الصحراء المنخفضة تميل من الجنوب إلى الشمال وتحتوي على واحات ورقلة، واد ريغ (توقرت)، الزيبان، والجريد التونسي. ويشكل حوض قورارة أو واد الساورة الصحراء العليا ما بين ارتفاعي

([1]) خديجة، قمش: المرجع السابق، ص 47.

([2]) Hérodote, IV, 185.

([3]) بلين القديم: التاريخ الطبيعي، V، 4، نصوص ليبية، ص 111. وقارن ما ورد أيضا في الفقرتين 5 و 6 من نفس الكتاب.

([4]) Silius Italicus, Guerres puniques, I.

([5]) Pomponius Méla, la description de la terre, III, 10

([6]) عبد الله، استيتينو: المرجع السابق، ص 46-47.

700 و 300م، مائلا من الشمال إلى الجنوب ويحتوي سيلا من الواحات في كل من توات، تيديكلت، بالإضافة إلى كثبانين مرتفعين يمثلهما العرق الشرقي والعرق الغربي[1].

هذا عن خصوصية الصحراء الجغرافية، أما عن دورها في تاريخ بلاد المغرب القديم، فإننا نجد إنكارا للمؤرخين الأجانب في كونها لعبت دورا ايجابيا ربط شمال القارة الافريقية بجنوبها. بل بالعكس نجد قزال يقول بأن الشمال الافريقي كاد أن لا يكون افريقيا، فمن ناحية الجنوب تعزله عن موسطة القارة صحراء شاسعة وجدت منذ قرون طويلة. ويدعم ذلك في كون نصوص افريقية ولاتينية تحدثنا أن السكان السود كانوا في العهود القديمة يعمرون جل الواحات شمالي الصحراء، ولكنا لا ندري هل كان لهؤلاء الاثيوبيين قرابة متينة بالسودانيين. وعلى كل، فإنهم –وأثناء العصور التاريخية على الأقل– لم يكونوا يتطاولون إلى بلاد البربر نفسها، ولابد أن تكون المبادلات بين شمال افريقيا والسودان قد اتسعت مع استعمال الجمل على نطاق واسع حوالي القرنين الثالث والرابع للميلاد، ولكنه حسب علمنا لم ينتج روابط سياسية، ولم يؤثر في حضارة المنطقتين.

أما بالنسبة لجانب المشرق، فنحدس وجود علاقات قديمة جدا بين بلاد المغرب وشرق افريقيا، بحيث أن اللغات لها نفس الأصول الضاربة في القدم، كما أن التشابه في الخلقة عند بعض السكان يمكّن من الاعتقاد بوجود قرابة متينة إلى حد ما، وكذا التأثيرات الدينية بين الجانبين. لكن العلاقات البرية بين الشمال الغربي والشمال الشرقي للقارة لم تكن لها أهمية في العصور التاريخية، لأن الصحراء التي تحد السرت الكبرى كانت تفصل برقة (السيرانييك) الاغريقية عن افريقيا القرطاجية، ثم اللاتينية فيما بعد. فالطريق لم تستخدم إلا في نهاية العصر القديم، حيث مر بها الفاتحون العرب، وبعد ذلك بثلاث قرون مر الفاتحون الفاطميون في اتجاه معاكس في نفس الطريق ليصلوا إلى مصر[2].

كل هذه القرائن التي يحشوها المؤرخ هدفها واحد، وهو إبراز عزل الصحراء لبلاد المغرب من ناحيتي الجنوب والجنوب الشرقي. فليس هناك دليل تاريخي قاطع على انعدام العلاقات من الجهتين قبل التاريخ الذي أشار اليه، إذ أن الدلائل الأثرية تثبت وجود روابط واتصالات بين الفن الصخري السوداني والفن الصخري بجبال الهقار مثلا منذ العصر الحجري الحديث، اضافة الى تشابهات تأثيرات الفن القفصي الموجود بالتل في جداريات الأطلس الصحراوي مثلا والذي لا يستبعد أنه انتقل جنوبا إلى مناطق أبعد من ذلك، وهذا دليل على الصلات الثقافية بين الشمال والجنوب من جهة، وبين المشرق وصحراء بلاد المغرب من جهة أخرى.

ولا أدل على نية المدرسة الغربية في هذا الطرح بعزل الصحراء، مما نجده في ما يتلو كلام قزال بعد ذلك من أن بلاد المغرب ترتبط بالبحر الابيض المتوسط أكثر من ارتباطها بالقارة الافريقية، بل إنها جزء من أوربا، وفي ذلك هدف واضح، وهو جعل الشمال الافريقي ذا جذور أوربية جغرافيا وثقافيا. إذ يقول: "بأن بلاد المغرب جزء من البحر المتوسط الغربي أكثر مما هي جزء من افريقيا". فقد كانت لها علاقات أكثر غنى مع

(1) A. Bernard, les confins algéro-marocains, p. 9 ; R. Lespès, Op. Cit, p. 12.

(2) ستيفان، قزال: تاريخ شمال افريقيا القديم، ج1، ص 47-48.

ايطاليا واسبانيا، الهضبتين الأوربيتين اللتين تتقدمان في اتجاهها، إذ كان الشمال الافريقي ملتحما مع أوربا، فمضى جبل طارق يؤرخ انفتاحه ببداية عهد البليوسين، كما أن تونس ربما كانت متصلة مع ايطاليا أثناء قسم من العهد الجيولوجي الرابع، حين كان من الممكن أن يسكن الانسان بهاذين القطرين[1]. والملاحظ في قرائن قزال هو أنه بينما يورد في صفحات أخرى أن ساحل بلاد المغرب معادي وصعب الولوج ولا ييسر حركة السفن، وهو ما يعزل المنطقة ويجعلها عاجزة عن بناء وحدة، فإنه ولكي يبرز اتصال بلاد المغرب بأوربا عامة وبفرنسا خاصة، فإنه يورد هنا: بأن البحر المتوسط بشكله الحالي ليس عرقلة مانعة حتى بالنسبة لقوم بدائيين لا يتوفرون في الملاحة إلا على وسائل بسيطة جدا. ومضيق جبل طارق لا يتعدى عرضه 14 كم، وإن كان يحسن أن نضيف بأن التيارات والرياح تجعل عبوره صعبا. وبعيدا عن المضيق تلوح في الآفاق الوضيئة التقاطيع ذات اللون الرمادي للجزر التي يمكن أن تهدي العابرين أو تمنيهم بملاجئ يأوون اليها، أما البحر الداخلي فقلما يحجبه الضباب، ويمكن الاطمئنان إلى هدوء أمواجه مدة طويلة إلى حد ما. وعلى العموم فإن الساحل الافريقي بين المضيق والشمال الشرقي للبلاد التونسية تحده أعماق كبيرة، فلا خوف مطلقا قبل الوصول اليها من التكسر من الصخور[2].

وكما أن البحر المتوسط بالنسبة لهؤلاء المؤرخين لا يعزل المنطقة عن أوربا وإنما هو عائق في وجه الوحدة، فإن الصحراء بالنسبة للحقيقة التاريخية كذلك، لا تعزل المنطقة ولا تقف حجر عثرة في سبيل وحدتها السياسية. ذلك أن الصحراء الشمالية هي الوحيدة التي تساهم في الحياة الاقتصادية لبلاد الأطلس لأنها في مركزها عبارة عن هضبة حجرية، فحمّادة تادميت موجودة بين منخفضين، احداهما ممتدة بشكل مستطيل من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي حسب منحدر واد الساورة، والثانية ممتدة بالمنحدر المعاكس نحو الشمال الشرقي، فهذين المنحدرين درّبا قديما مياه الأنهار الكبيرة خلال الزمن الرابع، هي اليوم أحفورية مثلما واد ميا، واد ايغارغار، واد ريغ، إلى غاية حوض الوصول في شط ملغيغ في مستوى أدنى من مستوى سطح البحر، بين الاثنين توجد منطقة الكثبان الكبيرة للعرق الغربي في بني عباس، وفي "El-Goléa" حيث حفرت أنهار مزاب، وأن الممر الكبير لـ قورارة يجعلها في اتصال، وأنه هنا تتواجد الطرق الرئيسية للجزائر عبر الصحراء باتجاه السودان، وحيث أن هذه الطرق مصطفة مع إمكانية الزراعة على أطرافها، إلى جانب كثافة السكان الكبيرة بهذه المنطقة الصحراوية.

([1]) ستيفان، قزال: تاريخ شمال افريقيا القديم، ج1، ص 48-49.

([2]) نفسه، ص 49.

2- ثنائية البدو والحضر:

ساد بلاد المغرب القديم نمط اجتماعي –اقتصادي تمثل في أن ساكنته قد انقسموا إلى مستقرين بالشمال في منطقة التل، ورحل في الجنوب، بالسهوب والصحراء[1]. وقد كان هيرودوت أول من عرف بهذه النمطية وهو يصف ليبيا القارة في الفصول ما بين 168-199 من كتابه الرابع. فقد تحدث أولا عن قبائل رحل في المنطقة الساحلية من شرق مصر إلى غاية الأوزيس(Auses) ، أين يتواجد اقليمهم قرب نهر تريتون، ثم يتحدث عن شعوب تعيش شمال الصحراء بين طيبة (thèbes) وأقصى الغرب. ثم يعطي بعدها اشارات عامة حول عادات الليبيين الرحل، لينتقل إلى الليبيين المزارعين الذين يعيشون غرب الرحل، ويصف حيوانات بلادهم مع ربطها بالتطور الحاصل مع حيوانات بلاد بالرحل[2]. إذ يقول في الفقرة 186: " كل البلاد الممتدة من مصر إلى غاية بحيرة تريتونيس مأهولة بليبيين رحل يعيشون من اللحم والحليب"[3]. ثم يصف في الفقرة 191 قائلا: " وإلى الغرب من نهر تريتون، وبعد موطن الأوسيس، تبدأ بلاد الليبيين الذين يفلحون الأرض ويقطنون البيوت، وهم يدعون الماكسوس... وبلادهم وبقية الجزء الغربي من ليبيا أكثر وحوشا وأحراشا من بلاد البدو الرعاة. منخفض ورملي حتى نهر تريتون. أما البلاد الواقعة غربي هذا النهر، حيث يعيش زارعو الأرض، فجبلية للغاية ومليئة بالأحراش والحيوانات الضارية[4].

وهو نفس الوصف تقريبا الذي ذهب اليه ديودور الصقلي وهو يصف ساحل ليبيا والأراضي القريبة من مصر:" أربع أمم إفريقية تشغل الأرض المغلقة الواقعة خلف قورينا (Cyrène) والسرتين. النسامون في الجنوب، الأوخيس (Les Auchises) في الغرب، المارماريد (Les Marmarides) يزرعون هذا الامتداد الطويل للسواحل الواقعة بين مصر وقورينا، والمازيس (les Maces) الذين هم أكثر تعدادا يسكنون المنطقة الأقرب إلى السرتين. بين هذه الشعوب، أولئك الذين لهم أراضي خصبة، يمارسون الزراعة، وآخرون هم رعاة ويتغذون من قطعانهم"[5].

كذلك تحدث بوليب عن حياة البداوة التي كان يعيشها سكان بلاد المغرب القديم، أنهم –حسب رأيه– لم يمارسوا الزراعة قبل ماسينيسا: " يوجد في إفريقيا أحصنة، أبقار وأغنام، وماعز بأعداد كبيرة...وأنه لهذا السبب، مثل أغلبية سكان هذه البلاد الواسعة يزرعون الأرض. لا يعيشون إلا من جلود الحيوانات وإلا مع الحيوانات"[6]. وهو نفس السياق الذي تحدث به سالوست عن الجيتول وحياتهم البدوية. حيث نلاحظ وجود نبرة الاحتقار والاعتلاء في كلامه عن نمط حياتهم: " خلف نوميديا نجد الجيتول، البعض منهم يعيش في

---

(1) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج1، ص 303.

(2) S. Gsell, Hérodote. Textes relatifs à l'Histoire de l'Afrique, p. 53

(3) Hérodote, IV, CLXXXVI.

(4) هيرودوت: التواريخ، IV، 191، نصوص ليبية، ص 89، 90.

(5) Diodore de Sicile, Bibliothèque historique, III, XXV.

(6) Polybe, Histoire générale, XII, I.

أكواخ، الآخرين مازالوا أكثر بربرية، يذهبون للمغامرة، خلفهم الاثيوبيون، أخيرا وأبعد من ذلك نجد البلاد المحروقة بالشمس"[1]. وإلى جانب الجيتول الرحل المتواجدين أسفل نوميديا، وهي على الأرجح منطقة الأطلس الصحراوي، نجد شعبا آخر ورد لدى سترابون على أنه يعيش على هذا النمط من الحياة، وهم المور والفاروزيون الذين يحددهم سترابون كالتالي: " رغم أنهم يسكنون بلادا في العموم خصبة، فإن الموريزيين (Maurusu) قد حافظوا إلى اليوم على الحياة البدوية..ز الفاروزيون (les Pharusu) لا تفصلهم سوى مسافات قليلة عن الموريزيين، يعلقون من أجل اجتياز الصحراء قراب ماء على بطن أحصنتهم. في اتجاه آخر يندفعون إلى غاية سيرتا عبر منطقة كلها مستنقعات وبحيرات"[2]. إذ أكد بومبونيوس ميلا نمط البداوة هذا للفاروزيون قائلا: " وراء البلاد التي تنتشر فيها الأفاعي نجد أولا الهيمانتوبود ...(Himantopodes) ثم الفاروزيون الذي كانوا أغنياء قديما عندما تجرأ هرقل على إجراء مشروع الهيسبيريد. يعيشون حياة خشنة ولا يملكون شيئا سوى القطعان التي يتغذون منها"[3]. و يعطي ميلا كذلك وصفا عاما لحياة البداوة إلى الداخل من أراضي إفريقيا في جهة الغرب: "هذه هي حال سواحل إفريقيا منذ أعمدة هرقل... أولئك الذين يتلونهم مباشرة في الداخل ليس لهم مدن أبدا، لكنهم يصنعون شكل منزل يسمى مباليا... أبعد نجد الناس مازالوا خشنين، يتبعون قطعانهم في مغامرة إلى المراعي، يسحبون معهم أكواخهم، ويقضون الليل في المكان الذي يفاجئهم الظلام فيه "[4].

من خلال شهادات هذه المصادر المتعلقة بنمط البداوة والترحال في بلاد المغرب القديم، يتوضح لنا بأن هذه الظاهرة موغلة في القدم، وأن عواملها البيولوجية قديمة قدم المناخ السائد حاليا في شمال إفريقيا، سيما إذا أضفنا اليها ما ورد عند كثير من الكتاب من معلومات عن جغرافية البلاد من كونها تحتوي إقليما جبليا زراعيا في الشمال، يليه إقليم داخلي تكثر فيه البحيرات والسباسب والحيوانات المفترسة، ثم أخيرا الصحراء الممتدة بحرارتها الشديدة. غير أن أشكال الترحال ومداه الجغرافي، وكذا تغير اتجاهاته وحدته هي كلها أمور ساهمت فيها عوامل تاريخية ارتبطت بالسيطرة الأجنبية المتصفة بالنشاط الزراعي وترجيح العمران المدني، إضافة إلى نبذ التحرك البشري المقلق[5].

إذا كانت هذه الظاهرة موغلة في القدم، فلا بد أن لها أسبابا جعلت المغاربة ينتهجونها كنمط للعيش منذ البداية، فلنبحث أولا عن جذورها. فظاهرة البداوة ليست سمة خاصة بالشمال الافريقي، فكل الشعوب هم في بدايتهم صيادون ثم يمرون للحياة الرعوية عندما يتقدمون في الحضارة، ويرتفعون أخيرا للحياة الزراعية. هذا عن إطارها العام، لكنها في الأصل –البذور– هي تلك الهجرة الدورية المنتظمة استجابة لضروريات الحياة الرعوية. فالرحل الحقيقيون بإمكانهم أن يكونوا هم أنفسهم في درجة مرتفعة من سلم المجتمعات الانسانية،

---

(1) Salluste, Guerre de Jugurtha, XIX.
(2) Strabon, Géographie, XVII, III, 7.
(3) Pomponius Méla, III, 10.
(4) Pomponius Méla, I, VIII.
(5) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 304.

مثلما هم البدو الرحل الألبيين الذين يتنقلون صيفا لاستعمال مراعي الجبال العالية، وينزلون بالضرورة إلى السهول عندما يقيدهم الشتاء. ونفس الحركة تلاحظ في مناطق جبلية أخرى عديدة، فحياة البداوة لا تعني التدني في الحضارة، لأن الاثنوجرافية الحديثة تحرص بشدة على تقسيم كل الشعوب إلى مجموعتين، رحل ومستقرين، فدرجة عالية نسبيا من الحضارة يمكنها أن تتحد مع حياة البداوة، كما أن بعض الشعوب البدائية هي من المستقرين[1].

وظاهرة البداوة بشمال إفريقيا لها أسباب مناخية واقتصادية أولا قبل كل شيء. فالحاجة إلى تجديد المراعي المستنفذة من أجل لحصول على منابع مياه قريبة في فصل الصيف، وعلى مناطق محمية من الطقس القارس في فصل الشتاء، يفرض على كل الشعوب الرعاة تنقلات متكررة ودورية[2]. لأن خاصية الجفاف الذي يعم المناطق الانتقالية بين التل والصحراء يتسبب في فقدان العشب ونقص المياه وفقر التربة، وهو ما يجبر السكان على ارتياد مساحات شاسعة جريا وراء عنصري الماء والعشب، ضمانا لحياة قطعانهم، وهي موردهم الأول في تحصيل معاشهم[3]. ففي بلاد المغرب القديم كان هناك دائما وفي كل العصور بدو ومستقرون، ذلك أن هناك مناطق لا تصلح سوى لحياة البداوة، ومناطق أخرى لا تشمل سوى حياة الاستقرار، ويوجد على حدود المنطقتين أقاليم هي أحيانا مجال المستقرين عندما تكون المياه متوفرة بشكل جيد، والانسان مهتم بالزراعة. وأحيانا أخرى مجال للرعاة عندما تكون قد خربها الانتجاع وانعدام الأمن. فعندما نلقي نظرة على خريطة توزيع الرحل والمستقرين نجدها تتداخل تماما مع خريطة الأمطار. فالتل هو مجال المستقرين، والسهوب هي مجال للرحل.

ورغم وجود تناقض بين الرحل والمستقرين إلا أنه يمكننا أن نلاحظ بأن هناك درجات عدة بين هذين الطريقتين في العيش. حيث نمر من مستقرين بشكل كلي إلى كبار الرحل الصحراويين، وحتى أنه غالبا ما نجد في نفس القبيلة بعض الفروع هم أكثر مستقرين لأنهم يملكون أراضي زراعية أكبر، وآخرين أكثر رحلا لأن لهم قطعانا [*] ومراعي[4]. وعلى هذا الأساس يقسم أصناف الرحل في شمال إفريقيا إلى خمسة أصناف، فنجد أولا الشبه مستقرين(semi-nomades) ، يكثرون في التل، وهم مزارعون أكثر من كونهم رعاة، يتنقلون في

---

(1) A. Bernard, N. Lacroix, Op. Cit, p. p. 1, 3

(2) Rinn (Commandant), « origine des droits d'usage des sahariens dans le tell », <u>B. S. G. A. A. N</u>, T. VII, 1902, p.259.

(3) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 305 G. B. M. Flamand, « Note sur l'industrie pastorale en Algérie », <u>B. S. G. A. A. N</u>, 3ème année. 1898, imprimerie typographique et lithographique S. Léon, Alger, p.71.

(*)" أخذت تربية الأغنام أهمية كبيرة في الاقتصاد الجزائري. فهو ممارس على سلم كبي خاصة في المناطق غير المزروعة للهضاب العليا والسهوب ما قبل الصحراوية. على هذه الامتدادات الضخمة، أصبح الانتجاع ضرورة أولية. والملاحظ أنه من الشمال إلى الجنوب نجد دوافع الانتجاع ترجع إلى عدم انتظام الأمطار، وكذا التناقض الحراري لهذه المناطق. فالهم الأكبر بهذه المناطق كان تنمية الماشية بغض النظر عن الموارد الغذائية الأساسية لهذه الماشية" (للمزيد أنظر: M.Killian Hodent, « Le recensement des paturages sur les Hauts plateaux algériens, les steppes présahariennes et le roles de l'aviation », <u>J. S. A</u>, T. 17, 1947, p. p. 1- 6

(4) A. Bernard, Afrique septentrionale et occidentale, p. 81. 82.

الفصل الجاف على بعض الكيلومترات من أراضيهم الزراعية، ليقودوا قطعانهم إلى الأحراش أو الغابة[1]، وذلك ليحصلوا على مراعي سليمة لماشيتهم ويستبدلونها بالمراعي التي تم انهاكها دون الابتعاد عن أقاليمهم الرئيسية[2].

أما الصنف الثاني، فهم رحل ذوو مجال تنقل ضيق جدا، حيث يشغلون حافة التل والسهوب، ويتنقلون على مدى إقليم قبيلتهم أو إقليم القبيلة المجاورة، على مجال تنقل يتراوح ما بين 25 إلى 50كلم. وهناك صنف ثالث وهم رحل في مخيمات منفصلة، حيث أن مركزهم هو الأطلس الصحراوي أين يصطافون مع ماشيتهم، ومن أين يقودونها شتاء، سواء نحو الجنوب في الصحراء، او إلى الشمال لاتجاه السهوب ونح الشطوط مثلما يفعل أولاد نايل مثلا. أما الصنف الرابع، فهم الرحل ذوو الاصطياف التلي، حيث أن مخيمهم الشتوي هو الصحراء، والصيفي في التل، وأن السهب لا يمثل لهم سوى مكان عبور، فيمتد مجال انتجاع هؤلاء البدو الكبار بذلك، من الشمال إلى الجنوب على مئات الكيلومترات. نجد أخيرا الرحل الصحراويين الفعليون، مثلما هم الشعامبة والتوارق[3] في الجزائر.

لكن يجدر بنا الاشارة إلى شيء مهم في حلقة البداوة، وهو أن البدو لا ينتجعون عندما تكون أراضيهم مشجعة بما يكفي للتغذية طوال السنة، كما أنهم لا ينتجعون كذلك عندما تكون بلادهم فقيرة، حتى أنه ليس بإمكانهم في هذه الحالة امتلاك قطعان كثيرة[4]، بل ينتجعون لأن اقتصادهم يقوم على ثروة حية منتجة ومتجددة عي المواشي، وليس على ثروة عقارية ثابتة، وهو أمر لا خيار لهم فيه. وبما أن ثروة أولئك الرحل هي قطعان حية، كان لابد عليهم أن يمارسوا دورة اقتصادية يشكل فيها التل حلقة رئيسية قوامها الرعي على هشيم الزوع بعد جمع محاصيله، بالإضافة إلى تبادل المنتوجات، حيث يتزود الرحل بحاجاتهم من منتوج التل، كالغلال الزراعية والملبوسات والأدوات المختلفة، كما يبيعون ما لديهم من بضائع، كالتمور التي يجنونها من واحات يمتلكونها، يشترونها من سكان الواحات المستقرين، وكذا منتوجاتهم الخاصة كالأفرشة وغيرها.

فالدورة الترحالية بالنسبة للبدو لها قطبان، أحدهما في الجنوب بالأطلس الصحراوي ووديان الصحراء الشمالية، حيث يتوفر مرعى الشتاء وأين تصادف إقامتهم توليد القطعان وتنشئة صغارها حتى تقوى على المشي مسافات طويلة نحو التل. أما القطب الثاني فهو التل، بالسهول العليا الزراعية خاصة، حيث تتزامن الاقامة بها مع وفرة الغذاء لتسمين الخراف وبيعها[5]. هذا من جهة الايجابيات التي يقدمها تلاقي البدو مع المستقرين، لكن هناك جانب آخر ليفرزه هذا التلاقي بين الطرفين. فالخط الملتوي الصاعد أحيانا إلى التل، والذي ترسم به حدود البداوة على الخريطة، لم تضبطه الطبيعة منذ الأزل، على الأقل في تفاصيله، حتى أن

---

(1) Boyer-Banse, « l’évolution du nomadisme en Algérie », B. S. G. A. A. N, 2ème année, 1907,T. XII, Alger, p.246.

(2) A. Bernard, Op. Cit, p. 82.

(3) Boyer-Banse, Op. Cit, p. 246 ; J. Despoi, « l’Atlas saharien ccidentale d’Algérie : Ksouriens et pasteurs », Cahiers de géographie, Vol. 3, N° 6, 1959, p. 403-415.

(4) A.Bernard, Op. Cit, p. 83.

(5) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج1، ص 306.

جوليان يعتبرها من أخطر مشاكل تاريخ بلاد المغرب أن تهتدي إلى تغيرات هذا الخط[1]. لأنه إذا كان الساكن بأراضي الزراعة، أي المستقر، خاصة منها الأراضي القابلة للسقي لها مفهوم الحدود لأقاليمها، فإنه على العكس من ذلك، البدوي لم يعرف أبدا حدودا مستقرة للمناطق التي ينتجعها[2]. لذلك كان البدوي تهديدا لمستقري الجبال الذين ما فتئوا يراقبون حركات البدو نحو السهوب، مما جعل هؤلاء الأخيرين يصبحون في خطر دائم[3]، وهذا ما جعل كل قبيلة أو كل كونفدرالية قبائل من البدو تشكل أثنية أو كيان منفصل يترتب للدفاع أو تكوين أحلاف في الاقليم الذي سيقوم من خلاله بتنقلاته من دون مغادرة مكانه. وهناك من يحصلون على هذه النتيجة بالتطور من دون توقف على مساحة ضيقة نسبيا، كما أن هناك البعض الآخر، على العكس، يذهبون للبحث عن مخيماتهم المتنوعة عل مسافات من هذا القبيل، فتعد تنقلاتهم هجرات حقيقية. وهناك ظروف استثنائية من الجفاف أو البرد القارس، أو حتى اتفاقيات خاصة للانتجاع والتجارة، تخرجهم غالبا من إقليمهم الفعلي في شكل مجموعات خيام أو قطعان، لكن هذه التنقلات ليست سوى مسألة انتجاع معتاد، ينتظم بواسطة عقود نوقشت تسمى "عقد العشابة". لكن الملاحظ هنا أن عددا معين من القبائل الصحراوية التي تتمتع بامتياز كبير من السلطة، تصطاف كل سنة في التل دون الحاجة إلى موافقة أولئك الذين يحلون عندهم، وهذا بموجب "حقوق الاستعمال" المكرسة مع الزمن[4].

بالإضافة إلى هذه السمات للبداوة ببلاد المغرب، يبدو أن هناك خطأ تقليدي برز مع الوقت، وهو أن ساكنة شمال إفريقيا مستقرين وأن العرب رحل، وأنهم هم من أدخلوا هذه الظاهرة للمنطقة. لكن تكلم الكتاب القدامى عن هذه الظاهرة في العصر القديم يكفي لدحض ذلك، كما أن ابن خلدون نفسه تكلم مرارا وتكرارا عن البربر –حسبه– الرحل الذين يناقضون البربر المستقرين[5]. حيث أعطى هذا الأخير إشارات واضحة عن الظروف التاريخية القاهرة التي أجبرت الكثير من المغاربة على التحول إلى البداوة في العصور القديمة، جاء فيها: " ثم اصطلحوا (أي البربر ودولة الرومان المسيطرة على بلاد التل) على أن المدائن للإفرنج (الرومان)، وسكنوا (البربر) القفار عصورا في الخيام وانتجاع الأمصار من الاسكندرية إلى البحر وإلى طنجة والسوس". ففي هذه الرواية ما يوافق الأخبار التاريخية التي تسندها الوثائق، ذلك أن المدائن التي ذكرها ابن خلدون ليست سوى الأقاليم الزراعية العمرانية التي كان يحميها الليمس من الجهة الجنوبية ،و والمصالحة ليست سوى إذعان المور الذين فشلوا في فرض حريتهم بالتنقل عبر بلاد التل الزراعية. وقد احتفظت لنا الوثائق القديمة بنصوص معاهدات بين قبائل المور المجاورين للحدود والسلطة الرومانية،، تحدد العلاقة بين الطرفين والمجالات الجغرافية لتحرك تلك القبائل[6]. فبعد تجربة العاهل ماسينيسا الذي حاول أن يستأصل النوميد من

---

(1) شارل، أندري جوليان: المرجع السابق، ص 27

(2) A. Bel, Op. Cit, p.60.

(3) E. Albertini, G. Marçais, G. Yves, Op. Cit, p. 18.

(4) Commandant. Rinn, Op. Cit, p. 259.

(5) A. Bernard, Op. Cit, p. 81.

(6) A. Bernard. N. Lacroix, l'évolution du nomadisme, p. 6.

حياة البداوة ويربطهم بالأرض بإجبارهم عل العيش في قرى، حيث صرح بوليب بأنه نجح كثيرا في ذلك[1] ، فقد حاول بعض المبهورين بالسيادة الرومانية عل بلاد المغرب أن يضخم الآثار الايجابية لسياسة الزيتنة التي انتهجتها السلطة الرومانية في المقاطعة الافريقية، فوسعت الخريطة الزراعية على حساب الرعي[2]. إذ اعتبرت في رأيهم الثلاث قرون الأولى من الهيمنة الرومانية ظاهرة تراجع للبداوة، وفوز الزراعة بأراضي كثيرة، من خلال أن الرومان ثبتوا شيئا فشيئا المغاربة بواسطة جذبهم بالرفاهية. فالأكواخ المتجولة تجمعت لتشكيل قرى، والبعض من هذه القرى، حيث يتجمع المربون والتجار، قد أصبحت مدنا. خاصة في المزاق، حيث فازت الزراعة بأراضي أكثر بفضل زراعة الزيتون وأشجار مثمرة أخرى[3].

وباستثناء غرب موريطانيا القيصرية وفي الطنجية، روما مدت سلطتها ليس فقط على المناطق الزراعية للتل، لكن أيضا وبعد عصر أغسطس(Auguste) ، على السهوب الخاصة بانتجاع الرحل. فمهمة الادارة الرومانية كانت الإحاطة والمراقبة، وإن أمكن ربط السكان بالأرض ثم الدفاع عنهم ضد رحل آخرين. حيث أن هذا البرنامج وجب تطبيقه في المناطق الواسعة مثل سهوب جنوب مقاطعة أفريكا(Africa) ، وهي المزاق التي ذكرناها، و"جفارة" الحالية بطرابلس، كذلك السهب النوميدي، حوض الحضنة، وأبعد نحو الغرب مزدرعات الموريطانيتين: حيث في الطنجية بين المناطق الغابية، بدون شك ممتدة قليلا أكثر مما هي عليه اليوم الأخاديد النهرية والسهول الأطلسية. وبين الموريطانيتين نجد الارتفاع الصحراوي نحو المجرى الأسفل للملوية الذي كان مجال الشبه رحل. لكن في بقية هذه المنطقة كانت بالنسبة للرومان بدون قيمة اقتصادية وبشرية كبيرة، فلم تؤسس بها سوى بعض النقاط الاستراتيجية[4]. لكن القبائل بقيت تقريبا مستقلة عن الرومان، ليس ليس فقط الرحل من بقوا في التخوم الجنوبية للأقاليم المترومنة، لكن داخل حتى هذه الأقاليم. فأكثر من قبيلة مقيدة من طرف الرومان في سهول كبرى أو مناطق جبلية توجهت للتدجين كوسيلة لبقائها اكثر من توجهها للزراعة. وظل هؤلاء شبه الرحل من المغاربة يراقبون الفرصة للنزول إلى السهول المزروعة لنهب القرى والمزارع، حيث أقالوا أنفسهم من دفع الضرائب.

هذه الفرص التي ظلوا ينتظرونها قدمت نفسها في القرنين الرابع والخامس ميلادي مع تراجع القوة الرومانية والسيطرة الوندالية[5]. فبفضل الاضطرابات عاد المغاربة إلى حالتهم القديمة وهي البداوة، وكأن الرومان الرومان قد نجحوا فعلا في القضاء على البداوة بالقول بأن زراعة الزيتون وفرت مجالات لتشغيل اليد العاملة من البدو، مما عمل على استقرارهم بالقرب من حقول الزيتون وتحولهم إلى عمال زراعيين بدل الرعي، وأن ذلك جوهر رسالة روما التمدينية في بلاد المغرب القديم. والواقع أن الآثار السلبية لتوسيع الخارطة الزراعية على

(1) Ibid, p. 21.

(2) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 307.

(3) .A .Bernard, N. lacroix, Ibid, p. 21.

(4) Jean-Marie. Lassère, Op ; Cit, p. p. 348, 349.

(5) A.Bernard, N. Lacroix, Ibid, p. 22.

حساب البدو كانت أقوى من ذلك المظهر الايجابي، لأن قدرة التشغيل في تلك الضياع لم ترق إلى مستوى القدرة على امتصاص اليد العاملة من الريفيين ازداد عددهم بفعل النمو الديمغرافي الكبير، كما أن الليمس كان يحول دون تسلل الرحل نحو أقاليم زراعة الزيتون خوفا من اجتياح قطعان البدو لها. ثم إن ما يميز موسم جني الزيتون هو قصر مدته مما يوضح أن اليد العاملة فيه كانت ضئيلة. فالوثائق الأثرية والنصوص الأدبية لم تحتفظ لنا بما يساعد على تصور حقول الزيتون وكأنها مشغل فسيح لليد العاملة من البدو، وبالتالي عامل استقرار لهم. بل إن اهتمام المزارعين الرومان بغراسة الزيتون جعلهم يمدون أيديهم إلى جميع المساحات القابلة للاستصلاح، فشملت حركة التسابق على اختيار الأرض، وبفضل القوانين الرومانية المشجعة لها، شملت على مساحات كانت رعوية من بين الأراضي التي كانت تتلقى منسوب كافي من الأمطار لإنضاج الزيتون، أو تتوفر به ينابيع الماء أو مجاريه، كبلاد الحضنة، فوقعت بذلك السهول الشمالية من الهضاب العليا في يد الخريطة الزراعية التي حظرت على الرعاة ارتيادها[1].

فمن النادر أن يغير الرحل نمط حياتهم إلا تحت الاكراه والاجبار، ومع ذلك توجد أمثلة لشعوب غيرت نمط عيشها من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار، مثلما كان حال السلتيين (les celtes) والجرمانيين (les germains) والسلاف (Slaves). إذ أن قيصر وسترابون أشارا إلى الجرمان كرحل، أما تاكيتوس (Tacite) فوصفهم كمستقرين، وأن عصر استقرارهم معروف مثل أسبابه، حيث أشار قيصر إلى تزايد السكان أجبرهم على الانخراط في الزراعة، إلا أن القادة أجبروا المزارعين على تغيير حقولهم في كل سنة، وليس على بناء مساكن مستقرة لتجنب أن يصبحوا مستقرين. وهناك مثال آخر في أروبا الشرقية، فالرحل قبا تحويل "المجر" وصلوا إلى غاية سفوح الألب، كما أن المجريون، شعوب السهوب توغلوا في ركن بين سلاف الشمال وسلاف الجنوب عبر سهل الدانوب، ثم استقروا بالأرض.

وعلى العكس من ذلك يمكننا تصور تطورات للبداوة تلحق بلدان زراعية قديمة، فليس لأن كل الشعوب لم تمر بالحالة الرعوية نتخيل بأنه يجب عليهم أن يرتقوا إلى الزراعة. إذ يوجد عدد كبير من المناطق على الكرة الأرضية ليست مسقية بشكل كافي، فتصبح الزراعة غير ممكنة، مثلما نجده في المناطق شبه الاستوائية (subtropicale) المجاورة للمنطقتين المعتدلتين، وتليهم نحو الإكوادور، حيث تسقط أقل من 400مم من الأمطار سنويا. هنا نجد التربة قاحلة تماما وغياب الأمطار، فيعيش الانسان من موارد عشوائية. لكن على حافة المناطق الزراعية والمناطق الصحراوية توجد أقاليم رغم عدم ملاءمتها للزراعة فإنها تسمح بالعيش على نطاق واسع من الحياة الرعوية والتدجين شرط أن يغادر المكان عندما يشتد البرد أو الجفاف ويقطعان النبات. فهذه المناطق السهبية الوسيطة بين منطقة الزراعة والصحراء هي المجال الفعلي للرحل، حيث

---

(1) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 308.

يعيشون مع قطعانهم من الجمال، الماشية، الماعز والأحصنة *باحثين عن مراعي للصيف وللشتاء مع خيامهم وعائلاتهم[1] .

فهذا التنقل مع هذه القطعان يميل باستمرار إلى توسيع مجال الرحل عموما في أي مكان وليس ظاهرة خاصة بشمال إفريقيا للاستفادة من مناطق أوسع وعلى نحو متزايد على حساب الأراضي الزراعية المجاورة لمناطق الانتجاع[2]، خلق صراعا دائم بين الراعي والمزارع منذ أقدم العصور التاريخية، لكنه جعل الباحثين الفرنسيين أمثال جوليان وقوتييه يعتبرانه أحد عوائق الوحدة السياسية ببلاد المغرب القديم. فجوليان اعتبر هذه الثنائية من الصراع الدائم بين البدو والحضر الذي لم ينته بفوز أحد على الآخر، وتعذر القضاء عليها، فإنها تعلل -حسبه- كيف أن بلاد المغرب كان لها دائما أسياد أجانب[3]. لكن هذا الصراع ليس سوى أمر طبيعي نتج عن هذه الثنائية في نمط العيش التي فرضتها الظروف المناخية والطبيعية فالبدو الرحل في بلاد المغرب ليست سوى مظهر يعبر عن تكيف الانسان المغاربي مع بيئته والتجاوب مع شروطها في سبيل العيش والاستمرار. أما قوتييه فاعتبر كبار الرحل الصحراويين بالخصوص يملكون التفوق السياسي، نتيجة تنظيم عسكري طبيعي، أي احتكار القوة التي مارسوها في سبيل المحافظة على مناطق انتجاعهم، ويعلل ذلك بعدم وجود مؤسسة عسكرية اصطناعية للدولة[4]. فغياب سلطة سياسية قوية بما يكفي لتحمي المستقرين من هجوم ونهب البدو الرحل[5]وتوسعهم خلال فترة انتجاعهم. فالجفاء الذي كان بين الطرفين ناجم عن مداهمة قطعان البدو للحقول الزراعية أحيانا، واتصاف بعض البدو بالنهب خاصة في سنوات الجفاف[6]. إذ أن البدو لا يعترفون بحدود تمنع قطعانهم عن الرعي، فوجودهم كان ولازال متعلقا بمشاعية الأرض وحرية الترحال. وهذا ما كان يتسبب في الاضرار بمزروعات الفلاحين المستقرين الذي تعلقت حياتهم بما تنتجه أراضيهم من غلال. هذه الخصومة كانت تنتهي في الغالب لصالح الرعاة الذين فرضوا وجودهم نتيجة ذلك على الفلاحين بواحات الصحراء، كما أجبروهم على تأدية إتاوات والرضوخ لتبعيتهم[7] .

وإن هذا النمط الاقتصادي-الاجتماعي الذي طبع العلاقة بين البدو والمستقرين في الشمال على الرغم من جفائه الذي يبدو ظاهرا، إلا أن هناك ايجابية لا يمكن أن ننساها ونجعل طابع الصراع هو الغالب على هذه الثنائية أو عائقا في وجه الوحدة الاجتماعية والسياسية، حيث كان لكل طرف مصالح مشتركة مع الآخر

(*) حول دور الحيوان في التدجين وضرورته للحياة البدوية أنظر: Daniel. Faucher, Géographie agraire. Types de cultures, éd. M. T. H. Génin libraire de médcicis, Paris, 1949, p. 167

(1) A. Bernard, N. Lacroix, Op. Cit, p. p. 5, 6.

(2) J. Despois, « Géographie et Histoire en Afrique du Nord », p. 188.

(3) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 34.

(4) E-F. Gautier, « le cadre géographique de l'Histoire », Histoire et Historiens de l'Algérie (1830-1930), librairie Félix Alcon, T. IV, Paris, p.26

(5) Alfred. Bel, Op. Cit, p.60.

(6) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج1، ص 34.

(7) محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 44.

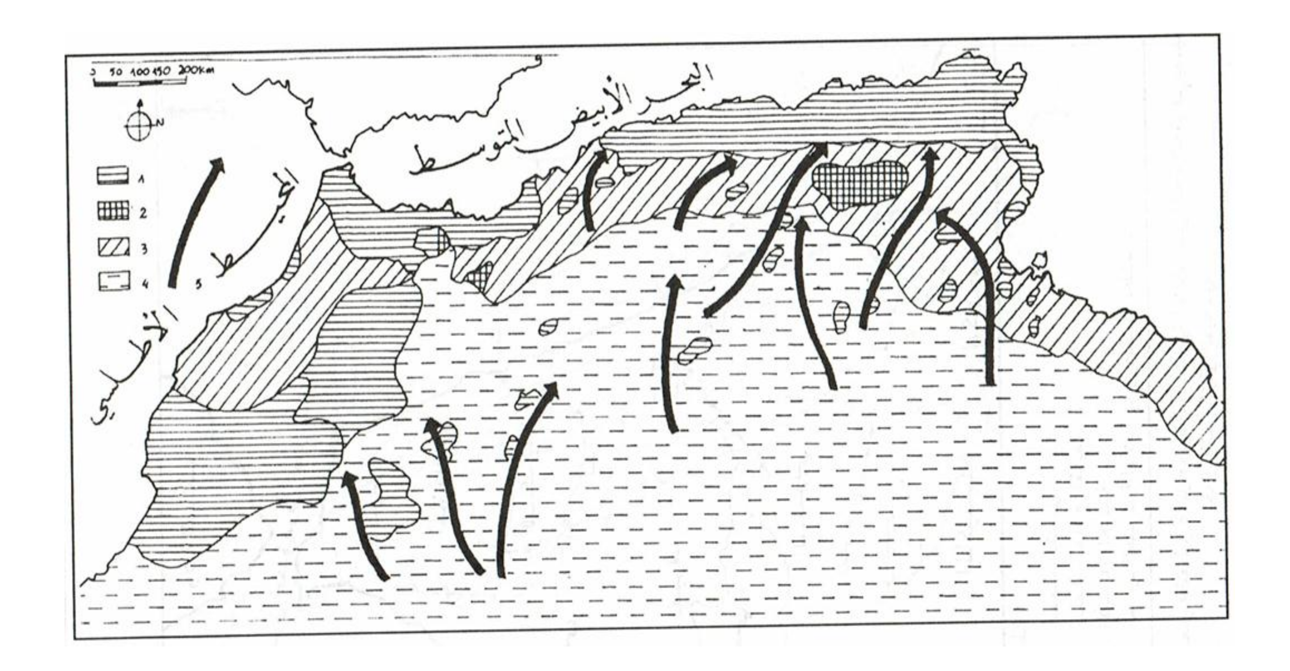
تبرز في تبادل المنتوجات، مما كان يتيح القيام بنشاط تجاري هام بين الشمال والجنوب. فالبدو كانوا يحتكرون قوافل التجارة أو يتقاضون عليها معاليم معينة شبيهة بما يسمى "الجمرك الجزافي" الذي يكون عادة في شكل هدايا يقدمها قائد القافلة لشيخ القبيلة الذي يقوم بدوره بإكرام أفراد القافلة إن رضي بالهدية ويوفر معها حراسا يرافقونها حتى تتجاوز منطقة نفوذه، وبفضل ذلك تمكن سكان الواحات من تبادل التمور، والرعاة بالسهوب بتبادل منتجات التدجين بالشعير والقمح والخضر التي تقدمها أراضي المستقرين الزراعيين بالتل(1).

وبفضل هذه الدورة الانتاجية كذلك، يعرض البدو قسما كبيرا من اليد العاملة على المزارعين لحاجتهم اليها في جني المحصول الزراعي، فموسم الحصاد وفير الثمار ويحل بصفة عاجلة فلا يقدر المزارعون على جمع محاصيلهم بمفردهم، مما يضطرهم إلى تأجير عمالة اضافية قد تتوفر في أوساط الريفيين فيستعينون بالبدو، كما يضطر أصحاب الحقول الفسيحة أحيانا إلى استئجار حيوانات الرحل للاستعانة بها في جمع ونقل المنتوج الزراعي. فالمناسبة هامة بالنسبة للبدو بشكل خاص. وقد تكرست هذه الروابط الانتاجية عبر العصور بفعل الحاجة المشتركة(2).

وهكذا فإن هذه الثنائية المتمثلة في البدو والمستقرين التي عرفها بلاد المغرب القديم واستمرت لعصور طويلة ليست صراعا منع الوحدة بقدر ما كانت ضرورة وحتمية فرضتها البيئة على الانسان المغاربي وجعلته يتكيف معها، ويوفر اتصالا بين الشمال والجنوب، فتحدى بهذا الحواجز الطبيعية والمناخية ليبرز كيانه على مر العصور. تلك البيئة التي كان المناخ، لاسيما منه التساقط، المؤثر على الغطاء النباتي وموارد الماء أحد أهم عناصره.

(1) J-Marie. Lassère, Op. Cit, p.350.

(2) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 306.



خريطة رقم9: أنماط المعيشة في بلاد المغرب القديم

1-المستقرون 2-الجبليون 3-أنصاف الرحل 4-كبار الرحل 5- اتجاهات تنقل الرحل الكبار

عن: مصطفى أعشى: نقائش معاهدات السلام، 2004، ص 83

الفصل الثاني: دور العامل الاثني واللغوي

أولا: انعدام الشعور الوحدوي لدى المغاربة

1-التعدد العرقي ومرده

2-عجز الانسان المغاربي عن الابداع اللغوي (تعدد المفردات اللغوية وعدم دقة الأفكار)

3 –انعدام الشعور بالوحدة وخصائص البداوة

ثانيا: النظام القبلي في بلاد المغرب القديم

1-مفهوم القبيلة

2- دور القبيلة في بناء هيكل المملكة النوميدية

3-قبائل العهدين الوندالي والبيزنطي

ثالثا: التدخل الأجنبي ودوره في إفشال الوحدة السياسية

1-محاولتي سيفاكس وماسينيسا ودور قرطاجة الأوليقارشية

2-محاولات يوغرطة، هيرباص، يوبا الأول، أرابيون وتدخل روما الاستعمارية

3- محاولات فترة الاحتلال الروماني (تاكفاريناس، ايدمون، فيرموس وجيلدون)

أولا: انعدام الشعور الوحدوي لدى المغاربة

1-التعدد العرقي ومرده:

إذا كان علم الآثار والأنثروبولوجيا قد أفرزا نتائج مهمة حول الأصول المحلية الماقبل تاريخية للإنسان المغاربي، فإن مؤرخي العصر الحديث خلقوا نظريات وتوجهات حول تلك الأصول، اعتمادا على المصادر القديمة والوسيطية تارة، وعلم الآثار وتشابهات الأسماء تارة أخرى، وانتقلوا إلى نسج حواجز تقف في وجه الوحدة الاثنية لسكان بلاد المغرب القديم، كوضعية المرأة في المجتمع المغاربي منذ العصر القديم، والحديث حتى عن شخصية المغاربي بكونها لا تتوافق وبناء وحدة لهذه المنطقة.

1-1/ الاختلاف العرقي:

تحدث مؤرخو المدرسة الاستعمارية وعلى رأسهم قوتييه (Gautier)، عن ما يسمى بالعجز الجنسي للبربر في التواجد جماعيا، أي في الوحدة، فهو في نظره ليس نوعا بشريا واحدا بل متعدد الأعراق[1]، وهو ما منعه من إقامة وحدة، مما جعل جوليان كذلك يحذو حذوه بالقول أنه منذ أوائل عصور التاريخ قد استقرت ببلاد المغرب شعوب شديدة الاختلاف، وأنه حتى إذا ما استثنينا الشعوب التي لم تمتزج بصفة عامة بالسكان الأصليين أو المندمجين، مثل الأوربيين الذين استقروا مع الاحتلال الفرنسي، أو اليهود الذين أتوا دفعات متتابعة منذ العصور القديمة، فإننا نلاحظ استيطان الساميين من الفينيقيين والعرب والهندو أوربيين من اللاتين والوندال واليونان، إضافة إلى الأتراك والزنوج، وبالتالي منع هذا التعدد من اقامة وحدة[2].

-تعدد الأعراق :

لتأكيد فرضية أولئك المؤرخين من استحالة أن تكون للإنسان المغاربي وحدة اثنية، ذهبوا لدراسة النوع العرقي للبربري والقول بأن هناك العمالقة والأقزام، والبيض والزنوج، فهم يشكلون إناء متنوعا، إذ أنه يجب توفر ما يسمى على حد رأي قوتييه "قرينة التفوق العرقي" لتكوين حضارة مثلما هو الحال في الحضارة الأوربية ذات الأغلبية لأناس مستطيلي الرأس بيض، وهو ما كان كذلك بالمشرق في الحضارتين المصرية والكلدانية من تفوق الجنس المتوسطي السامي رغم وجود القليل من أصحاب الدم الزنجي في تلك الحضارات، لكن هذا التفوق الجنسي لعرق على حساب آخر هو أمر غائب لدى المغاربة الذين يملكون خزانا للعروق، فعلى امتداد آلاف السنين حدث تغير للعرق البربري[3].

وبهذا أصبح البربر في نظر الباحثين والمؤرخين الغربيين مجموعات مختلفة جدا بواسطة خصائصهم الاثنية، فعلى الرغم من تشابه اللغة والعادات إلا أنه يستحيل قبولهم في نفس العائلة الاثنية[4] ، فهم سمر (Bruns)

---

(1) E-F. Gautier, le passé de l'Afrique du Nord, p. 18.

(2) شارل أندري، جوليان : المرجع السابق، ص 67 ، Rozet et Carette, Op. Cit, p. 8

(3) E-F. Gautier, Ibid, p. p. 23-24.

(4) Alfred. Bel, Op. Cit, p. 63.

وداكني اللون في الغالب، وإما بيض وذوو بشرة فاتحة حسب توزع مناطقهم، كما أن هناك قصيري القامة وهناك الطويلين جدا[1]. فالبربر ببلاد القبائل و الأوراس ذوو قوام متوسط أو صغير، من نوع مستطيل الرأس، يحتوي عددا من البيض والحمر بعيون زرقاء أو فاتحة مع قصار القامة، ونوع آخر سميك من المزابيين القصيري الرأس بعيون وشعر أسود، أو مع التوارق الذين نجدهم مستطيلي الرأس وطويلي القامة[2]. فالبربر لا يشكلون بهذه الصفات كلا متجانسا، فهم يختلفون بعضهم عن الآخر من خلال الصفات الجسدية، مثلما نميز في المغرب الأقصى –على غرار ما ميزناه بالجزائر– الريفيين عن الشلوح مثلما ميزنا القبائلي عن المزابي[3] ، وينضاف اليهم تمايزهم حسب الوسط الجغرافي ونمط الحياة إلى رحل ومستقرين[4] ، وبين هذين الحدين القصويين توجد أشكال شبه الرحل، فالبربر ينتمون بهذا إلى مجموعات اثنية متباينة بشدة[5] في رأيهم، رغم أن هذا الاختلاف ما هو إلا تنوع في نمط الحياة ولا يمثل حدا اثنيا أو اختلافا عرقيا.

هذه الرؤى حول الاختلاف العرقي تمخضت عن شبه اتفاق بين الباحثين على وجود عروق للبربر يمكن إجمالها في ما يلي:

–أحدها الأكثر انتشارا، هو ذو قامة قصيرة بجمجمة طويلة، بواجهة قصيرة ومستديرة، وبأنف واسع جعل الباحثين يشبهونه بالعرق المتوسطي الموجود في اسبانيا، ايطاليا وفي جزر صقلية وسردينيا وكورسيكا.

–الثاني كبير، ذو أنف نحيف، يشبه الفلاحين الحاميين لمصر القديمة.

–الثالث قصير وسمين، بوجه قصير واسع، مماثل لسكان الجبال الأوربيين.

–وفي الأخير نجد الأندر من بين تلك العروق، بجلد فاتح جدا وشعر أبيض وعيون زرقاء جعلته يكون قريبا من العروق النوردية[6]. وهذا ما فتح الطريق للقول بالأصول الأوربية للبربر وأنهم نزلوا من الغاليين أو من الجرمان أتوا مع الفيالق الرومانية أو مع الوندال، لكن هذا المنحى –الذي سنتكلم عنه بعد قليل– هو رأي ضعيف لأن البربر قد أشار اليهم المؤرخون الاغريق السابقين للاحتلال الروماني. فالسكان المغاربة كانوا مشكلين من عناصر متنوعة عاشت جنبا إلى جنب بشكل مختلط منذ عصر سابق جدا للعصور التاريخية نتيجة تقاطع –ربما– بين شعوب قادمة من أوربا وآسيا في عصور مختلفة، لكن قبل هذا، كانوا قد تشكلوا من عمق بدائي يمكنه أن يعود إلى ما قبل التاريخ[7]. فلاشك أنه قد حدث خلال عصور ما قبل التاريخ اختلاط كبير بين مختلف عناصر السكان، انبثقت منه النماذج الجسدية الحالية. فالبربري يستمد اصوله من عنصرين أساسيين هما إنسان مشتى العربي، والإنسان القفصي (ما قبل المتوسطي) .[8]

---

(1) Jérome. Carcopino, le Maroc antique, p. 22 ;Yves. Lacoste. A. Noushi. A. Prenant, Op. Cit, p. 67.
(2) Alfred. Bel, Op. Cit, p.63.
(3) A. Bernard, Afrique septentrionale et occidentale, p. 71.
(4) . E. Albertini. G. Marçais. G. Yves, Op. Cit, p. 33 ; J. Carcopino, Ibid, p. 22.
(5) Y. Lacoste. A. Noushi. A. Prenant, Ibid, p. 67.
(6) M. Rachet, Op. Cit, p. 19.
(7) Alfred. Bel ; Op. Cit, p. 63.
(8) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 68

إن هذه الأصداء حول مختلف الأصول وتعدد العروق جعلت مدرسة الاستعمار الأوربي الغربي عموما تنتج في العصر الحديث نظريات حول أصول البربر تجلّت في مدرستين، إحداهما مدرسة الأصول الشرقية الكنعانية الحميرية، والثانية هي مدرسة الأصول الهندو أوربية، الكلتية، الغالية، الفريجية، التراقية، وحتى أوربا الشمالية والهند[1]. ودعونا نعالج هذه النظريات كل واحدة على حدى ثم مقاربتها بالمعطيات الانتروبولوجية التي نملكها عن سكان بلاد المغارب.

1-2/ نظرية الأصول الشرقية:

اعتاد المؤرخون العرب والأجانب أن يبحثوا عن أصول السكان المغاربة أو البربر كما يسمونهم، من خارج هذه المنطقة، ذلك أنه لم يعرف عن تاريخ هذه المنطقة إلا القليل مما كتبه الأجانب الاغريق واللاتين، وما عرف منه ارتبط بالتواجد الفينيقي والاحتلال الروماني، الوندالي والبيزنطي ثم الفتح العربي، ثم الامتداد التركين فالاستعمار الفرنسي. ويمكن تصور أنه إذا كان تاريخ هذه البلاد مرتبطا بهذه الشعوب التي دخلت بلاد المغرب، فإن اصل الانسان المغاربي كان كذلك من خارج المنطقة[2].

فقد اعتمد المستشرقون على ما جاء في المصادر العربية وحاولوا اثبات الأصول المشرقية للبربر[3] ، أما اللغويون فقد اعتمدوا على ما جاء في المصادر الاغريقية واللاتينية، حيث حاول البعض منهم اثبات صحة ما جاء عند سالوست وبروكوب من أن الكنعانيين الفارين عبروا إلى افريقيا في سفن الفينيقيين واختلطوا بالليبيين الأوائل، وأنهم احترفوا الزراعة حيث أنهم هم الذين أشارت اليهم المصادر بالليبوفينيقيين. يضاف إلى هذا ان تطور علم المصريات يدعم فرضية الأصول الشرقية لأن البعض يعتقد بأن الهكسوس، وهم من سوريا وآسيا الصغرى قد أجلوا عن مصر فلجأوا إلى افريقيا وامتزجوا بالليبيين)[4]. إذ أثبت لنا تاريخ مصر أنه قديما كان مرتبطا بشكل وثيق مع تاريخ بلاد المغرب، فالفعل الحضاري المتبادل بين مصر وليبيا –ككل- القديم جدا، كان كذلك طويلا وعميقا لدرجة أنه يستحيل كشف ماذا اقترضت الأولى من الثانية أو العكس، لأنه إذا كان الهكسوس المطرودين قد عبروا بجزء إلى بلاد المغرب، فإن هذا التاريخ نفسه يخبرنا أنه نحو القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وتحت حكم السلالة التاسعة عشر أنه كان هناك من الرحل بعيون زرقاء وشعر أشقر قد أتوا من الغرب إلى مصر. فهاته الشعوب التي يدمجها المصريون بالليبيين ويسمونها التمحو (Tamahou)[5] يمكننا

---

(1)محمد الهادي، حارش: "أصول البربر من خلال معطيات ماقبل التاريخ والنصوص القديمة"، ص 50.

(2) عبد الكريم، غلاب: المرجع السابق، ص 33.

(3) Cauvet, « les origines orientales des berbères », p. 117

(4)محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص193 ; M. G. Olivier, Recherche sur l'origine des Berbères, imprimerie DAGAND, Bone-l'Algérie, 1867,p. 121.

(5) Gaid. Mouloud, les Berbères dans l'Histoire, de la préhistoire à la Kahina, T. I, éd. Mimouni, Alger, p. 40.

يمكننا التساؤل من أين أتوا؟ هل جاؤوا من أوربا، أم أنهم قد استقروا منذ وقت طويل ببلاد المغرب [*]حيث يراد بهذا التساؤل الوصول للقول بالأصل الأوربي للمغاربة قبل عبورهم إلى مصر.

وهكذا فإن هناك شبه اجماع بين المؤرخين بأن تعمير بلاد المغرب يقع أولا عن دفع حامي (chamitique)من الشرق إلى الغرب وأنه إلى هذا العمق الشرقي القديم قد جمع المغاربة قديما نواة تأثيرات ايجية ومصرية، فالخاصية السامية المنعكسة على لغة شمال افريقيا هي تقريبا ذات تأثير مصري ومن الشرق عموما، لكن يبقى الميل الكبير للمؤرخين نحو أوربا وارتباط الجنس المغاربي بهذه القارة. فقد اتجه أولئك الباحثون إلى دراسة الفخار المغاربي ومقاربته مع الفخار الذي كان مستعملا خلال الألف الثالثة قبل الميلاد في البحر المتوسط على جزيرة صقلية[1]. إذ أن الفخار البدائي في تونس الشرقية مثلا يعود إلى عصر الدولمن، وهو خاص بقبائل اغريقية ايجية، كما أن فخار جربة ونابل مستوحى من نماذج قبرصية[2]، وبالتالي كلها دلائل تقوم في نظر أولئك على إثبات الأصول الشرقية لسكان بلاد المغرب وارتباطهم به.

1-3/-النظرية الهندو أوربية:

أ- **الأصول الهندية**: حاول أصحاب هذه النظرة اثبات الأصل الهندي للبربر، حيث وجدوا في رواية سترابون ما يدعم آراءهم، وأن اسم "بربر" قريب من اسم شعب كان في هضبة الدكن اسمه "وارورا (warwara)"وهو مطابق لاسم مدينة "بربرة" في الساحل الصومالي، ولاسم البرابرة (Barabera) الذين ينتجعون ما بين الشلال الأول والرابع للنيل[3]. وإذا كان بعض الباحثين –على غرار محمد فنطر- اعتبروا هذا الكلام هذيانا، فإن أصحاب هذا الرأي أخذوا يحشون الأدلة لإثبات ذلك، منها أن هؤلاء الهنود قد أتوا مع هرقل، فقد اكتشفت قصائد قديمة تخص جنسا شغل جنوب آسيا في عصر ضاع مع ظلام الأزمنة، والذي يكون (هذا الجنس) قد هاجر لاحقا نحو الغرب باجتياز المحيط الهندي. فهذا العرق قد سمي " warwara"والتحول إلى "Barbara" ظهر من خلاله. وأن الخليج الذي يحمل اليوم اسم "عدن" جنوب البحر الأحمر كان يسمى في القديم Sinus-Barbaricus، فسواحل عدن وسواحل Ajan على الحد الأقصى الشرقي لإفريقيا قد حملوا اسم .Barbaria فقد مثلت هذه السواحل أشكال من المستودعات بالنسبة للسلع المتبادلة بين افريقيا والهند، ولم تفقد إلى اليوم أهميتها في هذا الجانب. فالسوق الأهم على ساحل عدن يسمى Barbara ، والSamalis على الاقليم الذي يتواجد فيه، هم بربر بوضوح، واذا كان انطلاقا من

(*) "يقول مارسيي بأن هذا التساؤل غير قابل للحل، لكن عندما نفحص العدد الذي لا يحصى للدولمن التي تغطي شمال افريقيا لا يسعنا إلا أن نرى هياكل هؤلاء الأشخاص ذوي اللون الأشقر أو بقاياهم، كما يجب ايضا أن نعرف التشابه الضيق الذي لا يوجد بين دولمان افريقيا وتلكم لإسبانيا. هذا الرأي يريد أن يذهب إلى أبعد من الأصول الشرقية، وهو الأصول الأوربية لسكان بلاد المغرب القديم" (للمزيد أنظر: E. Mercier, Op. Cit, p. XXIII

(1) Peyronnet. Raymond, Op. Cit, p. p. 11 3. 114

(2) محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص194.

(3) نفسه، ص 193.

الـ Samalis نصعد إلى الشمال نحو مصر، فإننا نجد شعوبا تنتمي إلى نفس الجنس الباربرة (Barbara) ، أخيرا وبمغادرتنا نهر النيل للدخول إلى الصحراء والتوجه نحو ليبيا القارة، فإننا نجد في كل خطوة شعوب بربرية، بحيث أنه من الهند إلى الحد الأقصى الغربي لشمال افريقيا نسجل على طول الطريق شعوبا من نفس الأصل. فهذه الهجرة الهندية شكلت الجنس الهندو أوربي الآري الأسمر الذي نجده حسب هذا الرأي في كل مكان من بلاد المغرب. وأنه استنادا إلى هذا، فإن أولئك القائلين بأن البربر قد أتوا من اليمن، من شبه الجزيرة العربية نسوا اضافة أن هذا المكان لم يكن سوى معبر للهنود نحو بلاد المغرب[1]

ب- الأصول الأوربية :

سعى مؤيدو هذه الفرضية إلى القول بالأصول الأوربية لسكان بلاد المغرب معتمدين في ذلك على آثار القبور خاصة، وكذا على المقاربات اللغوية للأسماء الجغرافية بين ضفتا البحر المتوسط الأوربية والافريقية للقول بأصول سلتية غالية، أو نوردية، أو أنها ايبيرية.

أصول سلتية (غالية): نسجت هذه الفرضية الأصول السلتية (celtique)نتيجة البقايا التي عثر عليها في عدة مواقع من شمال افريقيا المشابهة حسبهم إلى تلكم التي نجدها في أوربا، وبمناطق كانت مأهولة في القديم من طرف السلتيين، حيث لوحظ ببلاد المغرب وجود عدة مدافن كالمنهير، الكروملش (التحويطات) والدولمن[2]، دالة على عبادة درويدية (druitique) مثلما في بريطانيا، والتي تكون أصلا لهذه المدافن في شمال افريقيا، كما أضافوا إلى جانب هذا غزوات أولى حدثت نحو 2000 سنة ق.م أمكنها أن تعبر البحر المتوسط وتحمل لليبيين كتلة قوية من العرق الآري[3]، أو ربما أن هذه المعالم الميغاليتية تعود للغاليين الذين كانوا يعملون في الفيالق الرومانية، أو حتى إلى الوندال. فقد كان هدف أصحاب هذه الفرضية من الأثريين خصوصا هو البحث عن أثريات متطابقة في البلاد المطلة على البحر المتوسط بدافع إثبات وجود سلتي قديم يبرر وجودا فرنسيا حديثا في الجزائر[4].

أصول أوربية شمالية (نوردية): حيث ظهرت فرضية أخرى تقول بالأصل الأوربي دائما لساكنة بلاد المغرب، وهي أن قبور الدولمن في هذه البلاد تعود إلى فترة سابقة للسلتيين أو الغاليين، حيث استمروا في اعتبار هذه الدولمن نتاج حضاري أوربي، وإن لم يكن من فرنسا فهو من شمال أوربا، كما دعموا هذا الرأي بمعطيات الدراسات العروقية (الاثنولوجية)، مثل تميز بعض أفراد القبائل باللون الأشقر والعيون الزرقاء ويتمركزون خصوصا بالمناطق الجبلية، كمنطقة القبائل والأوراس، ضمن المجموعات الناطقة بالبربرية[5].

(1) Gaid. Mouloud, Op. Cit, p. 40.
(2) Peyronnet. Raymond, Op. Cit, p. 113.
(3) Gaid. Mouloud, Ibid, p. 42.
(4) محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص 194.
(5) نفسه، ص196.

أصول ابيرية: نظرا للموقع الجغرافي لشبه الجزير الابيرية من بلاد المغرب وإمكانية الاتصال معا منذ ما قبل التاريخ، فإن دعاة الأصل الأوربي للإنسان المغاربي حاولوا ايجاد مقاربات لغوية بين أسماء الأعلام الجغرافية في الضفتين، كأسماء أنهار أو مدن ترتكز مع اللغة الباسكية (Basque)، مثلما مفردتي "بربر" و "إيبر (Ibère/ Berbère)"، فهما كلمتان متقاربتان اسميا أكثر منها جغرافيا. ولأن العصر القديم حسب كامبس قد عرف أيضا ابيريين في القوقاز، فقد رأى البعض في هذا الأخير أجداد الابيريين بالغرب، ومن ثم أصلا آخر للبربر(1). فهناك عروق بيضاء من الشمال (أوربا) قد اجتازت مضيق جبل طارق، وهي نتيجة حتمية في نظر دعاة هذه الفرضية لتلك التشابهات الكثيرة الموجودة بين شمال افريقيا واسبانيا، من مناخ وتربة، والروابط بين المنطقتين منذ العصر القديم خلال فترة التجارة القرطاجية ومن بعدها الرومانية، اضافة إلى المد والجزر الموري-الاسباني خلال العصر الوسيط، وكذا حتى الهجرة الاسبانية في المغرب الأقصى وفي وهران في العصر الحديث. فكل هذه القرائن سمحت لأولئك الباحثين بافتراض أن جماعات اجتازت المضيق منذ ما قبل التاريخ(2) وساهمت في إعمار بلاد المغرب. أو أن هناك رأيا آخر لكتّاب زائفون علميا، مثلما يقول كامبس، يجدون حلا يسيرا لإشكال أصل البربر عندهم، وهو كون المغاربة آخر سكان قارة الأطلنتيد (les Atlantides)، لأن هذه القارة كانت واقعة في جزء من المحيط الأطلسي القريب من ليبيا، وأن جزر الكناري كانت مأوى لهم، وحيث أن السكان الأوائل لهذه الجزر وهو الغوانش(les Guanches) ألم يتكلموا البربرية؟(3). وهكذا لم يبق أي مكان من العالم لم يثر فضول الباحثين في كونه أصلا لسكان بلاد المغرب.

1-4/ الوحدة الاثنية والأصل المحلي:

إن مختلف النظريات السابقة حول الأصول، والتي تعكس توافدا بشريا أجنبيا إلى بلاد المغرب منذ أقدم العصور، وبمختلف الطرق، سلمية كانت أو عسكرية استعمارية، نجد بأنها قد اختفت بدون أن تنجح في إحداث تغيير محسوس في اثنوغرافية البربر. فاللمسات الفينيقية، الاغريقية، الرومانية، الوندالية أو العربية الباقية في بلاد المغرب قد انصهرت بشكل كلي في هذا الجنس البربري القوي، فقد امتصتهم طاقته وحيويته(4). فأولئك الوافدون المهاجرون، أو المحتلون أو الفاتحون على اختلاف الفترات التاريخية، أثروا الألوان الثقافية للبربر، لكن لا يبدو أن المساهمة الاثنية كانت كبيرة، إذ أن ظاهرة الدمج كانت تتم على مستويين، أولهما اثني، كان الوافدون يشكلون أقلية تنتهي بالذوبان في العنصر الغالب، وثانيهما ثقافي ،كانت المساهمة فيه أكثر تأثيرا لكن دون أن تتمكن من إلغاء الأساس القديم للبربر، فكل تلك العناصر الوافدة أسهمت في العمق الليبي القديم دون إلغائه(5)، فلاشك أن بلاد المغرب كانت مأهولة منذ أقدم العصور، مثلما كان أولئك الشرقيون أو

(1) G. Camps, les Berbères mémoire et identité, p. 49.

(2) Peyronnet. Raymond, Op. Cit, p. 115.

(3) G. Camps, Ibid, p. 50.

(4) L. Rinn, « Essais d’études linguistiques et ethnologiques sur les origines berbères », Rev. Afr, Vol. 25, 1881, p. 121.

(5) محمد الهادي، حارش: "أصول البربر من خلال معطيات ماقبل التاريخ والنصوص القديمة"، ص51.

أو الأوربيون الذين افترضهم المؤرخون كأصل لساكنة بلاد المغرب، كانوا أصليين في بلادهم، فكذلك الليبيون (البربر) كانوا أصليين في هذه المنطقة، لكن هذا لا ينفي أنهم ظلوا معاصرين في هذه الرقعة الواسعة من بلاد المغرب بين البحر والصحراء الكبرى، فقد أخذت هذه المنطقة نصيبها من الهجرات الممتدة من الشمال والجنوب والشرق، فهضمت أولئك الوافدين، وبذلك يمكننا إسقاط مقولة الأصل الأجنبي لسكان بلاد المغرب، لأنها ترتكز على دلائل علمية بقدر ما جاءت لتؤكد ضرورة الانتماء الاستعماري بالانتماء العرقي[1]، وأن المغاربة أو البربر أو الليبيين ما هم إلا امتداد لإنسان الأطلس وإنسان جبل إرحود، والإنسان المشتوي والاإنسان القفصي خلال النيوليتي وما بعده، فالفجر متوسطيون القفصيون يشكلون بكل تأكيد عمق شعوب بلاد المغرب الحالية.

(1) عبد الكريم، غلاب : المرجع السابق، ص ص 36، 41

2–عجز الانسان المغاربي عن الابداع اللغوي :

–تعدد المفردات اللغوية الليبية وانعكاسها على الوحدة:

ملك الليبيون ولازالوا لغة واحدة تمثل الأصل المشترك لكل اللهجات الحالية المتداولة، وبالرغم من الاختلاف الملحوظ في النطق والمفردات إلا أنها تبرز محليتها ووحدتها من خلال قرائن عدة، كأسماء المواقع الجغرافية التي تعود في أصلها إلى ما قبل الوجود البوني، وإلى ما ذكرته المصادر القديمة عن القبائل الليبية وكذلك أسماء الأعلام[1].

وفي محاولة لتتبع هذه القرائن في مفردات الأعلام والأماكن، ذهب قزال (S. Gsell) إلى القول أنه رغم كون النصوص القديمة قد أشارت إلى ألفاظ استخدمها الليبيون، إلا أننا يجب أن نأخذها بتحفظ، ذلك أن الكلمات يمكنها أن تكون قد تغيرت عن طريق نسخها شفويا أو كتابيا قبل أن تصل إلى الكتّاب الذين نقلوها الينا، كما أنه يمكن أن تكون رغم وضعها في شكل مخطوطات منسوخة، إلا أننا نجدها مزينة بنهايات اغريقية أو لاتينية أو حتى دخول التأثير اللغوي البوني فيها[2].

أما تفحصنا لأسماء الأعلام الليبية فهو أمر يدعو إلى الأخذ بقرينة رغم تعدد المفردات الخاصة بهذا المجال إلا أنها واحدة، رغم مرور الزمن ودخول تأثيرات كلمات أجنبية عنها، وهو ما يدعوا إلى القول بوحدة اللغة الليبية رغم ما طرأ عليها من نوائب الدهر. ومن الأمثلة التي راح قزال يعددها في أسماء الأعلام التي أوردها الشاعر كوريبوس، حيث حافظت تلك الأسماء على تطور ليبي (بربري)، وأن هذا الشاعر عوض أن يجعلها –باللاتينية مثلا– فقد نقلها لها في شكلها المحلي (الأصلي) باللغة الليبية، وهو ما يدل على تجذر هذه اللغة وفرض وجودها منذ ذلك الوقت. مثلا أسماء الأعلام التي تعكس كلها سمة وحدوية للغتها الأصلية الليبية عندما تنتهي كلها بالنهاية "an" :في أسماء الأعلام التي ذكرها كوريبوس Altisan, Imaastan, : Guenfan, Esputredan, Carcasan, Audiliman. وهي كلها سمة مشتركة لتركيبة اسم الفاعل في اللغة البربرية. وهذه الأشكال في أسماء الأعلام خلّدت وحدة التركيبة اللغوية لبلاد المغرب القديم رغم تعدد مفرداتها، ليس في العصر القديم فقط، بل وحتى في العصر الوسيط، الذي رغم دخول اللغة العربية إلى اللغة الليبية، إلا أننا نجد تلك المفردات اللغوية تعطي دائما رابطا مشتركا بينها معبرا عن وحدتها وأصالتها. ويعطي قزال أمثلة هنا لأسماء الأعلام الليبية في العصر الوسيط وكيف حافظت على أصالتها اللغوية في كل من: بولوغين (Bologguin)، تاشفين (Tachfin)، يغمراسن[3]. (Yarmoracen)

هذا عن أسماء الأعلام، وإذا جئنا إلى أسماء الأماكن باللغة الليبية نجد فيها كذلك ما يثبت وحدة مفردات اللغة الليبية ومعانيها رغم مرور الزمن وما ولج من تأثيرات أجنبية إلى المنطقة منذ العصر القديم وإلى

---

(1) مها، عيساوي: المرجع السابق، ص 72.

(2) S. Gsell, H. A. A. N, T. I, p.312.

(3) Ibid, p. 316.

اليوم. فهناك أسماء أماكن قديمة تتفسر إلى اليوم باللهجة الليبية، ف سترابون أعلمنا بأن البربر كانوا يطلقون كلمة "أطلس" على الجبل، وهي إشارة يؤكدها بلينوس الكبير كذلك، هذه الكلمة هي اليوم تسمى إدرارن) (Idraren، وهي مفرد أدرار (Adrar)، وجمعها ادرارن .((Adraren كذلك كلمة "تالة (Thala) "التي تعني مصدر باللغة الليبية، وهكذا كان الاسم القديم لموقعين يمثلن مصدران واقعان في تونس الحالية. ايضا لدينا كلمة "غيرChir "و Gher التي تعني مجرى الماء، وهي تتواجد في كلمة Ger الاسم الذي أعطي في القديم إلى أنهار صحراوية، وغيرها من الأمثلة العديدة التي تخص أسماء أماكن متناثرة في كل بلاد المغرب، ولكنها تدل على مفاهيم واحدة. وهذا ما جعل قزال يقر بأنه على هذا الفضاء اللبي الواسع هناك شيء ملفت للانتباه وهو انتشار مفردات اللغة الليبية في بلاد قد جزّأتها الطبيعة –على حد رأيه-[1]، فاللغة وحّدت سكان بلاد المغرب وكوّنت عاملا لانسجامهم واندماجهم في لغة واحدة وإن تعددت مفرداتها، فجعلت منها لهجات متعددة تعود كلها إلى اللغة الليبية الأم.

هذا التعدد في المفردات اللغوية الليبية راجع إلى احتواء هذه الأخيرة على عدد من المفردات من اللغات الاغريقية واللاتينية والبونية، وخاصة العربية، غير أن هذا لا يمكن أن يفهم منه فقر هذه اللغة في المفردات أو في التعبير الدقيق، ولكن السب يعود إلى الطابع الشفوي الذي لازمها قرونا طويلة[2]. فقد ظلت التعابير اللبية تتبنى عددا من المفردات الأجنبية فأصبحت تبدو وكأنها نفيذة للغزوات المعجمية على حد رأي كامبس[3]، وهو ما أدى إلى أن يطرح باسيي (H . Basset) تساؤلا مفاده: هل محكوم على هذه اللغة الليبية بالخضوع سلبا لكل التأثيرات الأجنبية؟. ثم يجيب بالنفي القاطع، لأن اللغة الليبية إذا كانت تستوعب مفردات من لغات أخرى بجرعة كبيرة فإنها تهضمها بسرعة، وإذا كانت تدخل كلمات أجنبية إلى الليبية بدون حساب، فإنها تجعل تلك الكلمات مفردات ليبية، فإذا كان الأمر يتعلق مثلا ب فعل، فإنه يصرّف لا إلى الفرنسية مثلا، ولكن إلى الليبية، فالإنسان البربري يجعل اقتراضات من لغات أخرى طبيعية. إذن اللغة الليبية هي لغة حية تماما، ورغم أنها تبدو وكأنها تتراجع يوما بعد يوم أمام اللغات الأخرى، كالعربية والفرنسية في العصر الحديث، وتراجعها قديما أمام البونبة ثم اللاتينية وإضعافها من طرف السيطرة الرومانية، فإننا نلاحظ بأن العادات والتقاليد الليبية لم تكن وحدها تظهر من جديد بأكثر حيوية يوما بعد يوم، ولكن اللغة ظلت كذلك حية على مر الزمن وكأنها تبعت مرحلتي المد والجزر في تقدم الحضارة، فقد ظلت تربطها علاقات بالتأثيرات الأجنبية، لكن هذه التأثيرات دفعت بقوة الإنسان المغاربي إلى أبعد من ذلك، فكلما ضعفت لغته، يظهرها من جديد، فتنتج تلك الحركات المتتابعة آثار طبقات للكلمات الأجنبية في اللغة الليبية، وكلما كانت الطبقة

([1]) S. Gsell, Op. Cit, p. 318

([2]) محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص 203

([3]) G. Camps, les Berbères mémoire et identité, p. 67 .

سميكة كان التأثير أحدث، أطول وأعمق من سابقه، مثلما نلاحظ طبقة بونية ، رومانية، عربية، وحتى فرنسية في العصر الحديث.

إذن يمكننا الوصول إلى القول أنه إذا كانت اللغة الليبية وليجة بلا حدود لتأثيرات المفردات الأجنبية التي طرأت على بلاد المغرب منذ العصر القديم، فإنها في الواقع موهوبة بحيوية مدهشة، فإصرارها على المقاومة كاف وحده لإثبات وجودها وبقائها[1]. فهي لغة ناحتة، لها قدرة على خلق الألفاظ الجديدة من الألفاظ القديمة، وأنها متّسمة بطابع الاستمرارية غير المتقطعة في الزمان، ولا أدل على استمراريتها كونها مازالت حية ترزق اليوم وتستعمل كأداة للتواصل من طرف كل المغاربة الناطقين بها [2].

---

[1] H. Basset, Essai sur la littérature des Berbères ancienne, p. 32-33.

[2] مصطفى، أعشي: جذور بعض مظاهر الحضارة الأمازيغية، ص 87

3-انعدام الشعور بالوحدة وخصائص البداوة:

أقر المؤرخون الأجانب بأن الوحدة الاثنية واللغوية لبلاد المغرب لم تتمكن يوما من تحقيق وحدة اقليمية وسياسية إلا خلال بعض العشريات، مثلما في العهد الموحدي، وتساءلوا عن مدى إدراك المغاربة لهذه الصلات الوحدوية، الاثنية واللغوية، ليخرجوا بنتيجة مفادها انعدام هذا الشعور الوحدوي عند المغاربة بسبب خصائص البداوة عند هؤلاء السكان، والتنافر البيئوي، أي توزعهم إلى رعاة رحل ومزارعين مستقرين، وهو ما لا يهل نمو هذا الشعور الوحدوي[1].

إذ أن بنية البلاد -حسب قزال- قد حافظت لكل سكانها على الاختلاف في السلوك والمصالح، وأن الحضارة والبدائية كانتا تعيشان جنبا إلى جنب، إحداهما في السهول والنجود، والأخرى في المناطق الفقيرة الجرداء، وبسلاسل الجبال التي تشرف على البوادي الغنية وتعزلها، وتترصد فيها الفرصة المناسبة لتنطلق للنهب، فهذا هو الشيء الذي منع من تكوين أمة بربرية سيدة مصيرها. فالمؤكد هو أن المغاربة كثيرا ما أضاعوا جهودهم في مناوشات ليس فيها مجد، وليس بها فائدة، منازعات الأشخاص، والأسر، والطوائف والقرى والقبائل، وكادت تنعدم لديهم في أغلب الأحيان مشاعر التضامن الواسع التي تكوّن الأمم[2].

فهذه المجموعات من البدو الرحل ومن المزارعين المستقرين، ومن أهل المدن كانت تبدو حريصة الحفاظ على استقلالها، وكان يفرق بينها أحوال من الحسد وحزازات قديمة تغذيها خصومات تتجدد دائما. إن لهم وطنا صغيرا ذا أفق ضيق، فهم لا يرون لهم وطنا كبيرا في هذه الدولة التي ينتمون لها بإكراه لا عن رضى، هذه الدولة التي كثيرا ما تتغير حدودها وتشمل عدة مناطق متناثرة وسيئة الاتصال فيما بينها، و تنفصم روح الطاعة والتقاليد المشتركة التي تطيل حياة الأمم الحقيقية، كما أن تعدد اللهجات يعرقل العلاقات ولا يبدو أن المعتقدات الدينية قبل انتشار الاسلام قد أنشأت بعض الروابط. فاليونانيون والغاليون كانوا برغم جميع اختلافاتهم يشعرون بأنهم إخوة، وليس الأمر كذلك بالنسبة للأهالي الأفارقة مثلما يرى قزال. فهم بصفة خاصة لا يشعرون بأية رغبة للالتفاف حول أي سيد يكون ملزما للحفاظ على سلطته بأن يلزمهم القيام ببعض التضحيات، فبوليب قد لاحظ كرههم للملكية. كما أن مزاجهم فوضوي ومصابون بمرض الحاجة إلى فتن لا تؤدي إلى نتيجة، أو لا تساوي المجهودات التي بذلت[3].

لا ريب في لأن الحجج التي يقدمها قزال هنا هدفها هو ضرب العناصر الاثنية واللغوية التي تجمع المغاربة وجعلها بصورة مفرقة لا وحدوية. لأن كل شعوب العالم قد تعتريها بعض هذه الخصائص ولكنها لا تمس بناءها الثابت، فمشاعر الحسد توجد لدى كل الأمم ولكن لم تمنعها من اقامة دولة وإن تجددت الخصومات بينها، ثم لماذا يجعل الوطن الذي ينتمي اليه المغاربة صغيرا ذو أفق ضيق وأنهم ينتمون له عن إكراه لا عن

([1]) محمد الهادي، حارش: قراءة تحليلية لبعض مظاهر الوحدة المغاربية في القديم، الجزائر، 2009، ص 4.

([2]) ستيفان، قزال: تاريخ شمال افريقيا القديم، ج1، ص ص 43، 45.

([3]) ستيفان، قزال: تاريخ شمال افريقيا القديم، ج5، ص 121.

رضى، إذا كان كذلك أين نجد في التاريخ القديم ملكا نوميديا أو موريا أجبر رعاياه على الدخول في صفه؟ فكل القبائل كانت حرة في اختيار الاقليم الذي تنتمي اليه منذ قرون سابقة لذلك حتى وان تغيرت حدود دولتهم وشملت مناطق سيئة الاتصال، فمملكة الماسيل ضمت كل القبائل المنتمية لإقليمها وإن اختلفت أنماط معيشتهم وصعبت سبل الاتصال الجغرافية بينهم، وكذلك الأمر بالنسبة للمازسيل أو المور، لأن ما يوحدهم أكثر مما يفرقهم، وهي السلطة السياسية التي كانت تجمعهم ويعيشون تحت طاعتها رغبا أو رهبا.

ثم لماذا ينكر قزال وجود تقاليد مشتركة لدى المغاربة في العصر القديم، حيث أن هذه التقاليد تجمع الأمم. فقد ظلت العادات والتقاليد والأعراف تجمع كل المغاربة إلى الوقت الحاضر رغم مرور مدة زمنية طويلة ورغم تعاقب التأثيرات الحضارية المختلفة من فينيقيين ورومان أو وندال، إلى الإسلام. ثم أن تعدد اللهجات التي ذكرها هذا المؤرخ لا تفرق المغاربة لأنها تنتمي إلى لغة واحدة، هي اللغة الليبية كما رأينا وإن اختلف نطق بعض المفردات من منطقة إلى أخرى، نظرا للتأثيرات الثقافية التي ولجت إلى المنطقة، ثم أنه لم يكن هناك تعدد لتلك اللهجات في العصر القديم، بل كانت هناك لغة واحدة هي الليبية، فلماذا يسقط قزال التاريخ الحديث على القديم؟

وكذلك الأمر بالنسبة للمعتقدات الدينية قبل الاسلام التي لا يظن قزال أو غيره بأنها أنشأت بعض الروابط بين المغاربة القدماء. فما قوله في الالهة تانيت التي عبدت في كل بلاد المغرب وكذلك الشأن بالنسبة للاله أمون المعبود الأول في كل بلاد المغرب، أليس هذا رابطا مشتركا في كامل المنطقة؟ ثم لماذا يشعر اليونانيون والغاليون رغم كل اختلافاتهم بالأخوة ولا يشعر بها المغاربة الذين نجد ما يجمعهم من صلات اثنية ولغوية أكثر مما يفرقهم؟ ثن إن أولئك اليونانيين الذين جعلهم قزال يشعرون بالأخوة لم يتمكنوا يوما اقامة وحدة سياسية في كامل بلاد الاغريق، وظل نظام الدولة–المدينة قائما في كل الجزر الاغريقية المنفصلة بعضها عن بعض، اضافة إلى وصول تلك الأخوة إلى إشعال حروب دامية في العصر القديم بين أثينا واسبرطا مثلا، وهي حروب البيلوبونيز، في حين أن المغاربة لم يصلوا إلى حد الاقتتال بدرجة تلك الحروب ، بل أن المناوشات حول الحدود السياسية للممالك النوميدية ومملكة المور ظل يغذيها تدخل الأجانب في الشؤون الداخلية للممالك.

وأخيرا كيف يصف قزال البربر بأنهم لا يشعرون بأية رغبة في الالتفاف حول أي سيد يلزمهم بالقيام ببعض التضحيات ونحن نجد في التاريخ القديم أكثر من دليل على التفاف المغاربة حول شخصيات تزعمت بناء ممالك أو إشعال ثورات كبيرة لصد الاحتلال. إذ نجد مثلا في دعوة الأمير ماسينيسا للماسيل(*) وهو قادم من شبه جزيرة ايبيريا لاسترجاع عرشه، عشية الحرب البونية الثانية، والتفاف وتأييد تلك القبائل له حتى عاد إلى السلطة دليلا واضحا على إمكانية اجتماع النوميد أو المور حول سلطة سياسية واحدة. وكذا نجد في تأييد كل النوميد والتفافهم حول الملك يوغرطة عشية حربه ضد روما (112–103 ق.م) دليلا آخر على ذلك.

(*) سنتطرق لهذه الأحداث السياسية بشيء من التفصيل في المبحث القادم حول محاولات الملوك النوميد في اقامة وحدة وتدخل الأجانب في ذلك.

وكذا ما نلاحظه في تلبية قبائل الموسولام والمور لنداء تاكفاريناس بالثورة ضد الاحتلال الروماني وسياسة الرومنة الاقتصادية والعسكرية في الجزء الشمالي الشرقي من بلاد المغرب القديم (17-24 م).

هذا عن ما ذهب اليه قزال حول انعدام الشعور بالوحدة لدى المغاربة كسبب يمنع من قيام وحدة سياسية واقليمية، ما النقطة الثانية التي يجعلها هذا المؤرخ، وحتى غيره من المؤرخين الفرنسيين، كعامل للتفرقة، هو خصائص البداوة عند المغاربة. إذ يشير قزال إلى أن القبائل التي تعيش بالجبال في مأمن من الرحل، فإنها هناك ايضا في مأمن من الملك الذي لا ضرورة تدعو لحمايته، وعصابات الفرسان الناهبين التي تنتشر بالسهول بغتة، تنسحب بنفس السرعة التي جاءت بها قبل توفر الوقت لمتابعتها. وبالنسبة لكبار الرحل، أي الجيتول الذين يغادرون البراري قاصدين التل في نهاية الربيع، فإنهم أقل خفة لأنهم يسوقون معهم عائلاتهم وقطعانهم، غير أنهم لضرورة الراعي أو حبا في النهب يفضلون أن يسيئوا إلى الضيافة التي ينالونها. وبعيدا إلى الجنوب لهم أماكن يخفون فيها سرقاتهم، ويصعب الوصول اليها واقتحامها. والتصرف بالفلاحين أهون لكن لابد مع ذلك أن تخشى منهم الاضطرابات، خصوصا في أشهر الصيف حيث تحمي الشمس الرؤوس، وحيث تجمع المحاصيل، فيكون الفراغ أسوأ ناصح، وحيث يطالب الملك بنصيبه من الحصاد الجديد، وبكل الجهات، فإن المدن والقرى والمآوي لها تحصينات طبيعية أو مصنوعة بيد الانسان، مما يساعد على طول المقاومة في هذه الحقب.

وهذه الأراضي التي يكون فيها القائمون بالحصار غالبا ما تعوزهم وسائل المباغتة بالهجوم، فكم من رئيس قبيلة أو عشيرة ينافس الملك ويطمح للحلول محله. وفي العائلة المالكة، بل في القصر نفسه، فإن من الأمراء من يفكر إلا بأن يسلب بالثورة او بالاغتيال وانتزاع السلطة من صاحبها. فالخيانة تحيط بهذا الأخير، وعند وفاته، فإن النظام المحكم في التولية أو القرارات التي اتخذها لا تطبق دائما، فتنطلق المنافسات وتندلع الحروب. وأن الحروب بين الدول المتجاورة كثيرا ما تقع، وسببها غزوات لا تلبث أن تتبعها غزوات انتقام، أو سببها العمل لتراجع الحدود التي لم يحسن تخطيطها، وربما بسبب دسائس بعض الثوار الذين يبحثون عن سند من الخارج، وأحيانا بسبب استحالة المحافظة على الحياد في الحروب التي تشنها قرطاجة أو روما على بعض الملوك الأهالي، أو بسبب الطمع في الاستفادة الواسعة من غنيمة الانتصار[1].

إن هذه البداوة التي اعتبرها قزال كعدو لا يروض للنظام والوحدة، لا تعود إلى تكوينات فطرية عقلية بقدر ما تعود إلى وضع اقتصادي مؤقت، حيث أن تحويل هذا الوضع يمكن أن يؤدي إلى استقرار الرحل، وهو ما فعله ماسينيسا، وبالتالي إلغاء احدى العراقيل الأساسية في طريق الوحدة[2].

فقد ملك ماسينيسا المدن البحرية في نوميديا، وعلى سواحل السرتين، وكانت خاضعة قبله لقرطاجة، كما ضم قسما من المنطقة البونيقية وكذا السهول الكبرى بمجردة ووسط تونس، وهي مناطق صالحة لزراعة

(1) ستيفان، قزال: تاريخ شمال افريقيا القديم، ج5، ص 122-123.

(2) محمد الهادي، حارش: قراءة تحليلية لبعض مظاهر الوحدة المغاربية في القديم، ص 4.

الحبوب، فهو بهذا قد ضم اليه عددا كبيرا من المزارعين، ولم يكن بحاجة لتلقي الدروس من خارج مملكته نفسها، ومن بين رعاياه، فالذين كانوا يريدون العمل في الزراعة كانت سلطته القوية تبعثهم على الأمل في أنهم لن يحرموا من قطف ثمار عملهم. ولاشك أنه اتخذ التدابير لتوسيع مجال الزراعات، وذلك بأن ضيق مجالات التنقل على الذين استمروا في العمل بتربية الماشية وحدها، وبأن ضمن للقبائل الممارسة للزراعة ملكية أراضي ذات حدود ثابتة، لا يدخلها الرحل إلا في أحوال معينة بصفتهم ضيوفا لا غزاة ناهبين[1].

اضافة إلى الأرض، نجد طول مدة حكم ماسينيسا، وما تخللها من استقرار سياسي، وكذا اهتمامه بالزراعة، مما كان وراء اتخاذ اجراءات عملية لإعطاء الزراعة المكانة اللائقة بها، وذلك بالحد من أراضي الرعي، والحد من تنقلات الرعاة، وفي هذا الصدد يتحدث بيكار عن اقامة ماسينيسا لقلاع بهدف الحد من تنقلات الرحل وتأمين حياة الاستقرار للزراع، فقد أراد أن يكون قدوة لرعاياه، حيث سهر بنفسه على استثمار الأراضي الواسعة التي ألحقها بالتاج، مما كان وراء الشهرة التي نالها العاهل في ميدان الزراعة والتي نجد صداها عند بوليبيوس[2]، وإذا كان هذا المدح مبالغا فيه.

ولكن إذا لم يكن ماسينيسا هو المعلم الأول، فإنه كان المروّج الحازم للحياة الزراعية في الدولة الشاسعة الأطراف التي عرف كيف يديرها، حيث وجد في ذلك مصلحته الملكية، ذلك أن الرعايا المرتبطين بالأرض، المتمتعين بالكثير من من اليسر، يصيرون أكثر هدوء وأكثر استعدادا لطاعة السيد الذي يستطيع معاقبتهم بإتلاف محصولاتهم، ويكونون أقدر على أداء الضرائب التي يفرضها، وبنظرة سامية لم تغب عن الملك الافريقي الكبير، فإن تنمية الزراعة كانت شرطا ضروريا للتقدم الحضاري. على أن الزراعة لم تكن لتستولي دفعة واحدة على جميع الأراضي التي كانت صالحة لها، إذ لاشك أن عمليات استصلاح الأراضي اقتضت زمنا طويلا، وأثناء القيام بها بقيت تربية الماشية ضرورة لازمة. ولا تعوز اليد العاملة في الأعمال التمهيدية، ولا في الأشغال السنوية الضرورية للزراعة، فالأهالي كان عددهم كبيرا، بحيث إذا قبلوا القيام بالمجهود الضروري، فلا داعي لتقوية عددهم بعناصر أجنبية. وبذلك يقر قزال بأن النتائج التي حصل عليها ماسينيسا تستحق الاعجاب، فقد أراد أن يكون بنفسه مثالا لرعاياه[3].

([1]) ستيفان، قزال: تاريخ شمال افريقيا القديم، ج5، ص 161.

([2]) محمد الهادي، حارش: التطور السياسي والاقتصادي في نوميديا منذ اعتلاء ماسينيسا العرش إلى وفاة يوبا الأول 203-46 ق.م، دار هومة، الجزائر، 1984، ص107.

([3]) ستيفان، قزال: تاريخ شمال افريقيا القديم، ج5، ص 162-163.

ثانيا: القبيلة مقوم للتماسك الاجتماعي أو أحد عوائق الوحدة

1- مفهوم القبيلة في بلاد المغرب القديم:

إذا كان المجتمع عبارة عن مجموعة أفراد تجمع بينهم روابط اجتماعية عديدة تحقق الانسجام والوفاق بين هذه المجموعة، حيث نشأت تلك الروابط الاجتماعية من خلال العادات والتقاليد التي تحولت تدريجيا إلى أعراف، وأن العادات والتقاليد قد نشأت بدورها من الاحتكاك اليومي بالبيئة الطبيعية والاجتماعية، ولذلك فإنها تختلف من منطقة إلى أخرى لأن تجارب الانسان تختلف باختلاف بيئته، كما تنشأ من العلاقة مع البيئة تراكمات تحتوي على خبرات وتجارب الانسان، ففي علاقة الانسان ببيئته الاجتماعية أخذت تتشكل ملامح المجتمع المنظم الذي تتحدد فيه الواجبات خصوصا، من الأسرة إلى العائلة الواسعة، أي القرية فالعشيرة ثم القبيلة.

فالقبيلة ما هي في الحقيقة إلا مجموعة أسر متحدة بوشائج القرابة، وهي كيان اجتماعي يقوم على القرابة بالدم والمصاهرة، ويمكن لهذا الكيان أن يتعزز بالمساكنة والمشاركة في مختلف النشاطات الاقتصادية، وهي أول صورة للنظام الاجتماعي الدائم[1]. فما مدى تطابق هذا المفهوم للقبيلة وتطوره في تاريخ بلاد المغرب القديم؟ وسيما وأننا كثيرا ما نقرأ في مؤلفات المؤرخين الاستعماريين لبلاد المغرب بأن تاريخ المنطقة إنما هو "تاريخ قبائل". ذلك أن أولئك المؤرخين التقليديين قد انطلقوا من مفهوم القبيلة العام، إما كفرضية قبلية أو كنتيجة استقرائية، معتبرين إيّاها الأساس الذي أنبنى عليه المجتمع المغاربي القديم، وإذا تخيلنا أننا نجدها على الصورة نفسها طوال حقب الماضي المغاربي، سنخرج بتحويل ذلك الماضي إلى تاريخ تحتاني غامض، لكننا سنحكم على أنفسنا –على حد رأي بعض المؤرخين المغاربة– في الوقت نفسه بأن لا نقتحم أبدا سر السيرورة المغاربية. ليس باستطاعتنا أن نفسر بمفهوم القبيلة الأحداث الماضية لأنها مصطلح واحد، لكننا نعبر به عن مضامين مختلفة، فهي كلمة مجردة من أي مضمون محدد.

إذ نطلق كلمة "قبيلة" في بلاد المغرب القديم عن تنظيم الرحل الجمّالة، أي على نظام اجتماعي شامل يلائم وحده المحيط الصحراوي الصرف، ونطلقها أيضا على سكان الجبال، أي على مجموعة قواعد تخص المعيشة والسلطة وتهدف بالأساس إلى ضمان التوازن بين الأسر، كما نطلقها على سكان السهول والهضاب، أي على تنظيمية أسامي ورموز تصلح فقط لتصنيف التجمعات السكنية[2]. فالقبيلة في بلاد المغرب القديم لا يمكننا تحديد مفهومها إلا من خلال نظرة واسعة تشمل الروابط الاجتماعية، الاقتصادية، وأخيرا السياسية التي

---

(1) محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص ص 167، 168.

(2) عبد الله، العروي: مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المملكة المغربية/ بيروت-لبنان، ص 99.

جعلت القبيلة المغاربية في القديم جهازا مهما تعدّى مجال استعماله الحتمية الاجتماعية إلى الظروف الاقتصادية، ومن ثمّ السلطة السياسية.

فإذا نظرنا إلى المفهوم الاقتصادي –إن صح القول- الذي إنبنت عليه القبيلة في بلاد المغرب القديم فإننا نجدها في الأصل مجموعة من الجيران يتجمعون لحماية أراضيهم فيصبحون مدافعين متضامنين لمنطقة ممتدة. إذ لا نتصور قبيلة بدون إقليم تحتفظ به أو تملكه على الأقل، بشكل مؤقت أو خلال فترة طويلة من السنة. وأن هذا التجمع يتشكل عموما بين أشخاص يعيشون نفس نمط الحياة ولهم بالنتيجة نفس المصالح التي يتوجب الحفاظ عليها. فحدود هذه القبيلة تتعيّن بواسطة هيئة الأرض[1]، كأن تكون أقاليم تمنح مراعي في كل فصل أو حقول غير مكتظة بالقطعان حتى لا تستنفذها بسرعة[2]، إذ نجد بين سهلين أو نهرين ينتميان إلى قبيلتين مختلفتين سلسلة مشجرة كانت مستخدمة كمنطقة حدودية، فلم تكن هناك حدود دقيقة بين قبيلتين. كما يلاحظ على حافة الأرض المستوية وبالجبل في مكان منحدر يمكن للقبيلة تشكيل مأوى لها تحتوي فيه مع قطعانها، إذا كان إقليمها قد اجتاحه أعداد أقوى منها، حيث كانت في الغالب قد أودعت ممتلكاتها والحبوب التي تكون اشترتها أو أخذتها بالقوة من غيرها. ذلك أن الانتقال من الحياة الرعوية إلى الحياة الزراعية هو إما مجهود نحو حياة أكثر رفاها، ونحو تواجد أكثر هدوء أو أنه تراجع ونزول، على الأقل مؤقت، يتوجب عليهم من خلاله إقالة المربين الذين فقدوا مواشيهم. ولأنهم في العادة منهزمين فإنهم سيتشبتون أين أمكنهم ذلك. أما القبائل الأخرى الزراعية فإنها تمتد بشكل مفضل في سهول أوسع وحقول مزروعة عن طريق حزام من المرتفعات تجثو القرى من خلاله، وتتطور عبره زراعة الاشجار وتغطيه بساتين أفراد تلك القبائل من المستقرين[3]، وهوما جعل القبائل في بلاد المغرب القديم تشكل "قبائل كبرى" في الهضاب العليا والجنوب، و"قبائل صغرى" بالساحل.[4]

هذا عن المفهوم المرتبط بالضرورة الاقتصادية للقبيلة، أما إذا ذهبنا إلى المفهوم السياسي لها، فإننا نجد فوق العائلة الأغنية (الوصية (d'agnats) (مجموعات من العائلات الرعوية، وهي جمهوريات قروية عبارة عن قبائل بمثابة دول صغيرة فدرالية تتشكل من أجل الدفاع أو الهجوم، فالمجموعات الدنيا (الصغيرة) ليس لها القوة الكافية لحماية نفسها بشكل معزول أو الحفاظ على وجودها، وحتى في سبيل تحقيق رغباتها في التوسع والسيطرة الناجحة أو الانتقام[5]. تلك الفدراليات كانت بحاجة إلى رئاسة تحتمي بها وتتصرف باسمها، ولأن النظام القبلي كان يقوم على المشيخة والزعامة، ولأن النزعات القبلية في بلاد المغرب بالقديم كانت من الخطورة بحيث تلتجئ كل قبيلة كبرى إلى زعيم تتوسم فيه الغلبة لها والزعامة على القبائل المنافسة ولو جاء من خارج

---

(1) S. Gsell, H. A. A. N, T. V, p. 68.
(2) S. Gsell, H. A. A. N, T. I, p. 241.
(3) S. Gsell, H . A. A. N, T. V, p. 69.
(4) J. Berque, « Qu'est-ce qu'une tribu Nord-africaine ? », Hommage à Lucien Febvre. Evantail de l'Histoire vivante, T. I, libraire Armand Colin, Paris, 1953, p. 261.
(5) S. Gsell, H. A.A. N, T. V, p. 66.

القبيلة، لأنه من خارج القبائل تلتجئ اليه مادام يضمن لها تحييد قبائل أخرى أو الغلبة عليها[1]، بحيث نرى أحيانا أحد القواد أو الرؤساء بما له من الحظوة والجاه، وما له من القوة يجمع تحت سلطته ونفوذه قبائل كثيرة، فتلتحم قبيلته مع تلك القبائل ويصير هذا القائد إقليدا (إغليد/ إكليد)، أي ملكا على مجموع هذه القبائل التي اندمجت فيما بينها، بحيث تتركز سلطة اتخاذ القرار في يد القبيلة النواة، فهي تمثل الأسرة الحاكمة، أي مجموعة الأحفاد المنحدرين من سلف واحد ومشترك، ولكن هذا لا يعني أن رؤساء القبائل ليس لهم دورهم في الحياة السياسية، بل على العكس تماما، إذ يمثلون ما يعرف بالإدارة المحلية[2]في ذلك الوقت. ويذهب قزال إلى القول أنه من الاعتباط أن يدّعي أولئك الذين يشكلونها أن يكونوا آباء بطريقة الأغنية (Agnats)، فالجد المشترك ليس سوى شخص أسطوري[3]–في منظوره-. فهذه القاعدة لم تستمر لأنها كانت تجعل السلطة في يد شيوخ منعدمي القوة البدنية والذهنية اللازمة لتأدية مهامهم، وهذا ما كان يدفع الأمراء الشباب الطموحين إلى الاستيلاء بالقوة على الحكم بدون حق، كما أن الملوك يفضلون ترك الخلافة لإخوانهم عوض أقربائهم إذا لم يوجد الأبناء[4]، والسهولة التي من خلالها تجمع القبائل عناصر جديدة تكفي لإبطال هذه الأبوة.

وإذا كانت القبيلة قد تشكلت بطريقة حازمة عند شعوب أخرى مثل الغاليين والجرمان، وتلاحمت عناصرها كالإسمنت في وحدة اقليمية، سياسية، ادارية، دينية واقتصادية، فإنها ليست لدى المغاربة سوى تجمع لقبائل تحتفظ بغيرة على استقلالها وشخصيتها المتفرّدة التي تنفصل بسهولة من قبيلة لتتعلق بأخرى عندما تدفعها مصلحتها إلى ذلك، فهي بشكل حصري تجمّع سياسي وعسكري ضد الأجنبي.

ومقابل هذان يشير قزال إلى وجود كونفدراليات ذات استمرارية أطول زمنيا، تضم عادة قبائل تعيش في منطقة ذات وحدة جغرافية واسعة بما يكفي، ككتلة جبلية كبيرة أو تتابع لسهول وأحيانا استخدام نفس اللهجة، خالقة نوع من التضامن الذي لا نراه مؤكدا سوى في صراعات ضد الأجانب لكنها تعتبر كونفدراليات دائمة وتتوضح بواسطة تسمية مشتركة، لكن روابطها فضفاضة أقل من أن نرى فيها زعيم احدى هذه القبائل لا يصل إلى توسيع نطاقها عن الأخرى، فالسلطة الشخصية تميل به إلى السيطرة أو إلى إلغاء التجمع الفدرالي[5].

وقزال يصل إلى هذه الاستنتاجات من خلال رؤيته الذاتية (الاستعمارية) التي لا تريد الاعتراف بإمكانية وصول تلك الكونفدراليات إلى سلطة سياسية قوية تتبلور في شكل دولة، وأن الدلائل التي وجدها تجمع تلك القبائل لمدة أطول، كالوحدة الجغرافية واللغوية والثقافية جعلها تبدو روابط فضفاضة في رأيه، وأن ما يجمعها

([1]) عبد الكريم، غلاب: المرجع السابق، ص 411.

([2]) أحمد، زاهد: "مؤسسة أكليد في ظل الممالك الأمازيغية"، تاريخ الأمازيغ:الندوة الدولية حول تاريخ الأمازيغ، ج1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، أكادير، 2000، ص47.

([3]). S. Gsell, H. A. A. N, T. V, p. 67

([4]) أحمد، زاهد: نفسه، ص 48.

([5]) S. Gsell, Ibid, p. p. 67, 77.

كان سياسيا أو عسكريا ضد الأجانب، لكن هذا حصل لأن تاريخها لم يكتب إلا عندما تصطدم بالأجانب، فتبدو في نظر المؤرخين أنها روابط زائلة بزوال دواعيها وليست أصيلة فيها، وهذا كله حتى يوحي (قزال) ويقنع قارئ تاريخ المنطقة بعجز سكانها على إقامة وحدة سياسية انطلاقا من هذا المقوّم الرئيسي وهو القبيلة، على غرار قبائل الغاليين والجرمان التي تلاحمت روابطها كالإسمنت.

ومع هذا، يمكن القول أن تلك الروابط القبلية في بلاد المغرب، والمعبّر عنها سياسيا بالكنفدراليات تخضع إذن إلى سلطة هرمية تعتلي قمتها أسرة ذات عصبية أقوى، إنها العائلة المالكة التي يحق لها توارث السلطة وممارسة السيادة على جميع القبائل المنضوية تحت هذا النظام، وذلك ببسط سيطرتها على جميع الأراضي التي تمثل موطنا لتلك القبائل، وهو ما يعرف بالمضمون الاقليمي للدولة[1]. وأن تجاوز سقف القبيلة إلى آفاق أوسع هي الوطن والأمة، أي الدولة[2]، هو انتصار لإرادة الأغلبية المعبّرة عن مصالح مشتركة، فالقبيلة انبثقت منها الدولة في شكلها الملكي على يد كنفدراليات قبائل كبرى، كل واحدة منها في حجم شعب[3]، وهو ما سنحاول معرفته من خلال دور القبيلة في بناء هيكل الممالك المحلية.

2- دور القبيلة في بناء هيكل الممالك المحلية (نوميديا وموريطانيا):

إذا كانت بلاد المغرب القديم قد شهدت انطلاقا من قبيلة تجمعات أوسع عرفت بالكنفدراليات، وإن كانت بقوة السلاح، مثل تلك التي شهدتها المنطقة لاحقا خلال العصر الوسيط، فذلك العدد الكبير للقبائل جعلها بمثابة مشاريع لتكوين دولة أو أمم[4]. إذ نلاحظ تطور المعنى الأولي لخاصية الأغنية (agnatique) الواضحة لما نسميه قبائل عند تقريبه في فترة الاحتلال الروماني بمصطلح"des gentes" ، وأنه فوق "gens " يلاحظ وجود أمم أوشعوب (populi) أوسع، وبهذا يفسر استمرار وجود تلك المجموعات القبلية إلى غاية العصر الوسيط[5]. فهذا الاستمرار لوجود نواة القبيلة ووصولها إلى السلطة في كل مراحل تاريخ المنطقة يجعلنا نتساءل عن أقدم إشارات النصوص الأدبية أو الأثرية حول وجودها كسلطة قبلية، ومن ثمّ الدور الذي لعبته في تأسيس دول أو ممالك خلال العصر القديم.

2-1/ أقدم الاشارات التاريخية حول وجود سلطة قبلية:

إن فرضية تنظيم اجتماعي سياسي معين في الشمال الافريقي خلال عصر الملاحين الفينيقيين الأوائل ليست مرفوضة، إذ يمكن للمؤرخ أن يجد آثار لسلطة ملكية أصلية منذ نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد، وخاصة في نصوص القرن الخامس قبل الميلاد. فقد كان هناك على رأس القبائل الليبية زعماء عرفنا من خلالهم سلطة

---

(1) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج2، ص 337.

(2) J. Berque, Op. Cit, p. 271

(3) محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص 169.

(4) S. Gsell, H. A. A. N, T. V, p. 77

(5) Maurice. Euzennat, « les structures tribales dans l'Afrique préhislamique », M. F. I. A. A. N. A. M, VI (colloque international (PAU octobre 1993-118ème congrès), éd. C.T.H.S, 1995, p. 248.

عليا خلال فترات الحرب من أجل مواجهة العدو، وفي فترات السلم من أجل إدارة شؤون القبيلة. وبفضل الوثائق الفرعونية نعلم بأن القبائل الليبية التي كانت تعيش بجوار مصر منذ نهاية الألف الثانية ق.م كانت موجهة بواسطة ملوك[1].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نلاحظ خلال القرن الخامس ق.م بأن هيرودوت كان يعرف ملوك ليبيين لم يكونوا راضين عن تأسيس "برقة (cyrène) "لأن الاغريق أرادوا التوسع أكثر في ليبيا وأن يشغلوا أقاليم أخرى، وهذا ما أشعل شرارة غضب الليبيين، وهذا ما وضحه في قوله: "الاغريق عادوا إلى برقة بعدد كبير واستولوا على مساحة معتبرة، الليبيون جيرانهم وملكهم "Adicran" رأوا أنفسهم مهانين ومجردين من أراضيهم من قبل القورينيين (cyrénéens) فلجأوا إلى ملك مصر "Apries" وقدموا أنفسهم له[2]، كما يشير في موضع آخر إلى وجود سلطة ملكية ليبية، عندما يتحدث عن قبائل الأديرماخيد (des Adyrmachides) الذين يتاخم اقليمهم مملكة الفراعنة، وذلك في إشارته إلى عادات هذه القبائل الليبية قائلا:" ها هو الترتيب الذي نجد من خلاله شعوب ليبيا انطلاقا من مصر، أول من نجدهم هم الأديرماشيد... هذه الشعوب هو الوحيدون الذين يقدمون بناتهم إلى الملك عندما يتزوجن"[3]. فهذين النصين يمكنهما أن يكونا شهادة تاريخية على وجود سلطة ملكية-قبلية ليبية في الأقاليم المجاورة لمصر وبجوار قورينة.(Cyrène)

أما في الفترة اللاحقة للقرن الخامس ق.م، وهي الفترة التي شهدت بدايات تحدث النصوص عن الممالك المحلية، النوميدية، الموريطانية، فإننا نلاحظ بأن مملكة الماسيل (Massyle)مثلا التي يفترض وجودها منذ القرن الرابع ق.م قد أشير اليها رسميا للمرة الأولى خلال الحرب البونية الأولى، أما بدايات مملكتي المازيسيل (Masaessyle) والمور (Maure)لازالت غامضة، لكن لا يمكن أن نستنتج عدم وجودها بسكوت النصوص عنها، لأننا نجد اشارات إلى ملوك مثل سيفاكس ملك المازيسيل الذي قال عنه تيت ليف بأنه كان الملك الأقوى في كل افريقيا، باغا (Baga) ملك المور الذي قدم لـ ماسينيسا مرافقة تتألف من 4000 رجل، لا يظهران كمغامران خالقان لممالك بدون غد لكنهما بالأحرى وريثا سلطة سياسية تشكلت خلال فترات غامضة[4].

اضافة إلى هذا، يشير كامبس إلى أنه خلال حرب الجند المأجور (241-237ق.م) التحق أحد الزعماء النوميد وهو "ناراواس" (نارافاس) بالقرطاجيين، وكان قبل ذلك قد حاربهم، وهذا الزعيم لم يعطه بوليب الذي روى الأحداث لقب ملك، ولكن أشار إلى أن شخصيته من مقام رفيع وأن لوالده علاقات

---

(1) F. Decret, M. Fantar, Op. Cit, p. 69.

(2) Hérodote, IV, 159.

(3) Hérodote, IV, 168.

(4) G. Camps, « Les royaumes du IIIème siècle avant J.-C », تاريخ الأمازيغ، الندوة الدولية حول تاريخ الأمازيغ، ج1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، أكادير، 2000، ص6.

صداقة مع القرطاجيين، ومن المحتمل أن يكون نجل أمير حليف لقرطاج، إذ يمكن أن النوميد الذين كان يقودهم لم يكونوا من رعايا قرطاج الليبيين، كما أن اقليمه كان خارج المنطقة التي كانت قرطاج تسيطر عليها مباشرة، وعليه فإنه من غير المستبعد أن يكون "ناراواس" هذا من أفراد العائلة الملكية لنوميديا الشرقية حتى وإن لم يكن ملكا[1].

2-2/ القبائل نواة ممالك القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد:

نلاحظ أنه مع فترة الحروب البونية أشارت النصوص الأدبية إلى وجود ثلاث ممالك كبرى في بلاد المغرب القديم، وهي: مملكة الماسيل، مملكة المازيسيل[2]أو ما يرادفها وهو نوميديا الشرقية الموافقة للماسيل، ونوميديا الغربية التي نعني بها مملكة المازيسيل، أما المملكة الثالثة في تلك الفترة فقد كانت مملكة المور.

أ- مملكة نوميديا:

إذا كان المؤرخون القدماء وحتى المحدثون قد اختلفوا في أصل تسمية نوميديا، حيث أخذها الكتّاب اللاتين خطأ عن هيرودوت الذي ذكر مصطلح "نوماد" وعنى به الرحل، أي تلك القبائل التي كانت تجوب الهضاب العليا مع قطعانهم، فهم "رعاة"[3]، أي شعوب تنضوي تحتها قبائل الماسيل والمازيسيل الذين اعتبرهم المؤرخون نوميدا، حيث لم يكن يوجد بالنسبة لهم مصطلح "نوميديا (Numidie) "لأنها تسمية رومانية أطلقها الرومان على البلاد المجاورة لقرطاج، اي البلاد التي تواجد بها النوميد[4]، سواء ماسيل أو مازيسيل.

فالمازيسيل الذين كانوا يشكلون مملكة نوميديا الغربية (مازيسيليا)، كانت تمتد عشية الحرب البونية الثانية على أراضي واسعة من وادي الملوية إلى رأس تريتون، مثلما أشار إلى ذلك سترابون في قوله:" اقليم الموريزي (Maurusii)الذي ينطلق من نهر مولوشا وينتهي عند رأس تريتون (Trétum) الحد المشترك بين المازيسيل والماسيل[5]، وعاصمتها "سيغا" بالنسبة لمازيسيل الغرب و"قيرطا" بالنسبة لمازيسيل الشرق، لكن قوة المازيسيل كانت تقع في المناطق الغربية، في الاقليم الوهراني حيث توجد العاصمة الحقيقية للمملكة، ومكّنتهم الفتوحات من مد حدودهم إلى ما وراء نهر تريتون والوادي الكبير (وادي الرمال/لامبساقا).

أما قبائل الماسيل الذين شكّلوا مملكة نوميديا الشرقية أو ماسيليا التي كانت محصورة بين الأراضي القرطاجية في الشرق ومملكة المازيسيل في الغرب، فيبدو أنها لعبت دورا هاما على غرار مملكة المازيسيل، وأحيانا حاسما على المسرح السياسي الافريقي عشية وغداة إقصاء قرطاجة. وقد اعتبر بعض المؤرخين المعاصرين الملك "ايليماس" كأقدم ملوك الماسيل، مما يسمح، اضافة إلى قبر المدغاسن الذي ينسب إلى هذه القبائل، والذي

(1) غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص 186.

(2) S. Gsell, H. A. A. N, T. I, p. 175.

(3) E-F. Gautier, « Le cadre géographique de l'Histoire », p. 22.

(4) L. Rinn, « Les royaumes berbèrs et la guerre de Jugurtha », Rev. Afr, N°. 29, 1885, p. 243.

(5) Strabon, Géographie, XVII, III, 9.

يؤرخ ما بين أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الثالث، باعتبار أن الأسرة التي ينتمي اليها "غايا" وابنه "ماسينيسا" والمنحدرون منهما، كانت في السلطة منذ أواخر القرن الرابع أو بداية القرن الثالث قبل الميلاد[1].

والواقع أن قلب المملكة الماسيلية يقع من جهة أخرى، على محور يمر عبر هيبون- تيفست، ففي هذه المنطقة توجد أغلب النصوص الأثرية الليبية، وعلى بعد نصف المسافة من هاتين المدينتين استمرت خلال الفترة الرومانية قبيلة نوميدية تسمت باسمها مدينة "توبورسيكو" (خميسة) وقدّمت نصا اهدائيا للملك "يمبسال" نجل الملك "غاودة" (غودا)، وبكل تأكيد احدى هذه العناصر يعود إلى فترة أقدم، مما يدفع إلى التفكير في أن هذه المنطقة كانت الموطن الأصلي للعائلة الماسيلية[2]. إلا أننا نجد قزال يلحّ على التسمية وعلى استمرار وجود قبيلة "نوميديا (gens numidarum) "بجوار توبورسيكو إلى عهد الامبراطور "نيرون". ويبدو أن اقليم هذه القبيلة كان شاسعا، ولأنه لا وجود لأي اسم لصيق لاسم هذه القبيلة، اقترح قزال أنها احتمالا هي التي تسمّى النوميد باسمها[3]، لكن كامبس يدعو إلى التفكير في هذه الحالة، فيما لو أن العائلة الملكية الماسيلية قد انبثقت من هذه المنطقة لكانت مدينة "توبورسيكو" قد لعبت دورا في التاريخ، وأن هذه المدينة الفخورة بأصولها النوميدية ستكون محل تنويه من العائلة الحاكمة، ولن تكتفي بمجرد اهداء بسيط للملك يمبسال[4].

ب- مملكة المور:

إذا كانت قبائل الماسيل والمازيسيل أو النوميد –الذي يطلق عليهما معا- قد تمكنت انطلاقا من نواتها القبلية ن إنشاء مملكة والوصول إلى السلطة وتكوين مملكتين، فإن قبائل المور في الجهة الغربية من بلاد المغرب القديم قد لعبوا نفس الدور. فقد ذكر بلين القديم بأن المور كانوا قديما عبارة عن أمة أعطت اسمها إلى مملكة موريطانيا، وأن أغلب رعاياها هم الموريزيون (Maurasiens) ،وأن حروبا طاحنة جعلتهم يتفتتون في عائلات أو قبائل صغيرة[5]. وإذا كان مصطلح) "N'Miden" نوميد) عند "Rinn" يعني في اللغة البربرية رعاة، وهم وهم سكان السهول، فإن لفظ "موري (Mauri) "يقابل "amour" بالمفرد و "Imouren"بالجمع في اللغة البربرية والتي تعني الجبل، والمعنى هو السكان الجبليون أي القبائل الجبلية[6].

ومهما يكن من اختلاف حول أصل تسمية هذه القبائل، محلية مرتبطة بالجبل، أو فينيقية "Mahorim"التي تعني الغرب أو سكان الغرب، فإن ما يهمنا هو أن قبائل المور شكلت المملكة المورية في العصر القديم. فالآثار والنصوص تسمح لنا بإعادة أصولها إلى القرن الرابع ق.م، فهذا يوستينوس (Justin

(1) محمد الهادي، حارش: التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري، ص ص 98، 99.

(2) غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص 210.

(3) S. Gsell, Khamissa. Madadaourouch. Announa, Adolphe Jourdan. Imprimeur-Libraire-Editeur, Alger, 1914, p. p. 13, 14.

(4) غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص 211.

(5) Pline L'Ancien, H N, V, I, 17.

(6) L. Rinn, Op. Cit, p. 244.

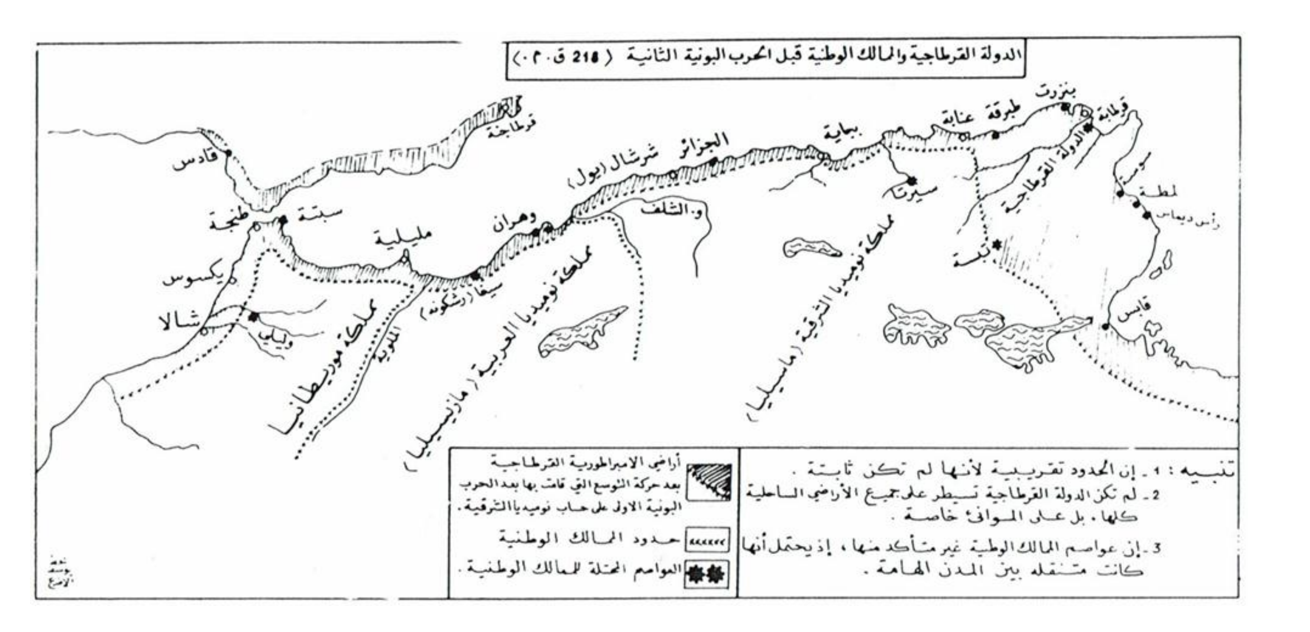
يتحدث عن ملك ماوري استعان به حانون عندما حاول الاستيلاء على السلطة في قرطاجة، وكذا بقايا ضريح سيدي سليمان الذي يؤرخ بأواخر القرن الرابع ق.م وأوائل القرن الثالث ق.م. اضافة إلى نقش يتحدث عن الشفطية في "وليلي" في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد. وفي اواخر هذا القرن كذلك كان وجود مملكة موريطاني حقيقة تاريخية، قدّم لنا التاريخ احد ملوكها: باغا (Baga) معاصر وحليف ماسينيسا في الحرب البونية الثانية[1].

وإذا كانت ممالك القرن الثالث قبل الميلاد: النوميدتين والمور، تحمل أسماء شعوب وقبائل، فإن هذه الأسماء قد عرفت نهايات مختلفة ذات علاقة بنهايات الممالك نفسها التي تحمل أسماءها. فبعد زوال مملكة سيفاكس[*] اختفى اسم مازيسيل من الاستعمال، وفي بلاد الماسيل، في شرشال اكتفى نص مكيبسا (Micipsa)الجنائزي بالإشارة اليه باسم ملك الماسيل لا غير. وبعد تسليمه يوغرطة، استلم بوكوس كل ماسيسيليا أو قسما منها، وبقي ملكا على المور، وسكان هذا الاقليم الذين لم يبقوا نوميدا ولا ماسيلا ولا حتى مازيسيلا تلقوا اسم مور[2].

([1]) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 102.

(*) " يتساءل كامبس فيما إذا كانت سياسة الطموح والفتوحات التي انتهجها سيفاكس هي السبب في تراجع الجهات الغربية؟. إذ يقول بلينوس بأن المور والمازيسيل قد تراجعت قوتهم وأصبحوا عبارة عن مجموعة عائلات لا غير في أعقاب الحروب، ذلك أن الكنفدراليات الحربية صانعة الامبراطوريات تنهار بسرعة تبعا لقاعدة عامة – حسب رأيه-، وهي قاعدة وصفها ابن خلدون، فبعد هزيمة سيفاكس واصل ابنه فيرمينا الحكم في قسم من مازيسيليا ثم جاءت حركة ارتداد، حيث وسّع ماسينيسا وخلفاؤه سلطتهم لتصل إلى حدود المور" (أنظر: غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص 205).

([2]) غابريال، كامبس: نفسه، ص 188.



خريطة رقم 10: حدود مملكتي نوميديا الشرقية والغربية، ومملكة المور

عن: محمد البشير، شنيتي: سياسة الرومنة في بلاد المغرب، 1982، ص 163

2-3/ سلطة الاقليد وعلاقته بالقبائل:

لقد رأينا في القبائل ببلاد المغرب القديم بأن الملك ميراث عائلة ترتبط شجرة نسب أفرادها بجد أعلى هو مؤسس السلطة (الدولة)، ومن تقاليد وراثة العرش عند هذه القبائل أن المترشح له يجب أن يكون أكبر أفراد الأسرة الحاكمة سنا، دون النظر في درجة قرابته بالملك السابق. ومن خلال بعض النقوش مثل نقيشة "دوقة"، فإن صاحب السلطة كان يسمى "إقليد" حيث استمر استخدام هذا اللفظ إلى العصر الاسلامي، فقد كان يطلق على كل شخصية مرموقة ذات سلطة أو نفوذ. ويبدو أن عبارة "إقليد/ إغليد" ظلت محلية التداول محدودة الاستعمال، بحيث لم ترد في وثائق الملوك النوميد أو المور أمثال سيفاكس (صفك) وماسينيسا (مسنسن)، وبوكوس، أو يوبا وغيرهم، إذ نجد بدل "أغليد" عبارة "ملك" في الكنعانية: (صفك حمملكت)، (مسنسن حمملكت)، اي الملك سيفاكس، الملك ماسينيسا. نجد هذه الصيغ الكنعانية منقوشة عادة في عملاتهم، إذ يبدو أن لفظ "أغليد" لقب شرفي وليس اسما وظيفيا مثل لفظ "ملك" لما فيه من معاني السمو والرفعة والتملك بدل "أغليد" ذو المعنى المحلي المحدود(1).

وإذا اكانت القوة التي فرضت بها قبيلة سلطتها على قبائل أخرى لتشكيل دولة أو مملكة، حيث يبدو عامل القوة الميزة الغالبة في تأسيس تلك الممالك، فإننا نلاحظ في وقت لاحق مشاعر أخرى تقوّي الروابط الشخصية بين الملك ورعاياه. إذن ليس مفاجئا أن نجد على طول التاريخ السياسي والعسكري، خاصة الممالك النوميدية والمورية دلائل إخلاص وارتباط ليست شخصية ولكنها جماعية، تتوجه أكثر إلى الشخص الملكي أكثر منه إلى الفرد السائد، وأكثر من ذلك إلى الأمير الشرعي أكثر منه إلى الزعيم الحالي. فقد كان يكفي ماسينيسا المنهزم والملاحق من طرف رجال سيفاكس، أن يقدّم نفسه للماسيل حتى يجمع 10000 رجل في أيام فقط. كما يمكننا ملاحظة الاضطرابات التي أشعلتها قبائل المور على إثر اغتيال ملكهم بطليموس. إذ يعتقد كامبس هنا أنه ليس لدينا أي سبب للاعتقاد بأن هذا التعلق للبربر بشخصية الملك منشأها العاطفة، بل هي ذات أصل ديني أو سحري(2) ، ففي كل المجتمعات البدائية يكون الملك كاهنا بقدر ما هو قائد، ومن المحتمل أن يكون للملوك النوميد أو المور في ذلك الوقت وظائف دينية موازية ويتمتعون خارج هذه الوظائف بحماية سحرية حقيقية وبكرامات ورثها عنهم الأولياء المسلمون في الشمال الافريقي، هذه الكرامات وهذه القوة السحرية تعرف باسم "البركة" في العصر الوسيط وما بعده، وأن هذه الخاصية المقدسة للملكية قد أهملت عموما، إذ يبدو أنها لعبت دورا معتبرا فيما يسمى بعبادة الذات الملكية.(3)

(1) محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 138.

(2) G. Camps, « Les royaumes du IIIème siècle avant J. –C. », p. 7.

(3) غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص 189.

هذا عن الاقليد ومكانته بين رعاياه من القبائل المكوّنة للمملكة، لكن مقابل هذه المكانة المرموقة التي حظي بها الاقليد آنذاك ألا يحق لنا التساؤل عن العلاقات التي ربطته بمختلف تلك القبائل، سيما وأنها تختلف في نمط معيشتها وربما حتى في الاقليم الجغرافي الذي تنتمي اليه كل قبيلة.

إذ يستشف من نصوص بوليب الذي كان معاصرا للإقليد ماسينيسا، أن العلاقة بين المملكة والقبائل الضاربة في أعماق الريف والسهوب والصحراء كانت مرنة بحيث تضمن استمرار ولاء تلك القبائل للعرش وتجعلها تنهض بمسائل الأمن والاستقرار وتؤمّن للمملكة حاجتها من الرجال المقاتلين عند الاقتضاء. ويظهر أنه كان على رأس كل قبيلة شيخ يمثلها فيزكّيه الملك، وهو يرأس مجلس أعيان المجموعة، فقد كان ذلك المجلس أشبه ما يكون بالجماعة "تاجماعت" الوارد ذكرها في المصادر بلفظ "مزراح(M z r h) "، إذ كان هؤلاء الأعيان أو الشيوخ سادة قومهم وممثليهم، فيقومون بدور الوساطة بين الملوك والأقوام التي يرأسونها في أقاليمهم[1]

إذ تظهر حيوية القبائل خلال الفترة النوميدية في الدور السياسي الذي يحاول الأمير المحلي أن يلعبه، وقد نلاحظ أن المصاعب التي واجهت ماسينيسا مع زعماء القبائل، هؤلاء المقدّمون (princepu) الذين يريدون أن يكونوا شركاء لا رعايا، فلكل واحد قوة مادية هي رجال القبيلة المسلحون، وأخرى معنوية هي مساندة القبيلة، وفي هذه الحالة لا يستطيع الملك فرض "قايد" من اختياره ينبغي أن تكون القبيلة هي التي تقبله، وفي نهاية المطاف تكون مساندة المملكة قائمة على مرونة الحاكم طالما أن الجيش ما هو إلا وحدات مقدمة من القبائل. ولذلك يشير كامبس بأننا نرى على سبيل المثال زعيما نوميديا هو "بيثياس (Bithyas)" يخرج عن جيش غولوسا سنة 147 ق.م وينضم إلى قرطاج ومعه 800 فارس من قبيلته[2]، لكن كامبس يريد أن يصل بهذه الأمثلة إلى القول بهشاشة الصلة التي تربط القبائل بالسلطة المركزية، وأن القبيلة ليست نواة قوية أمكنها أن تصل باتحادها مع قبائل أخرى إلى تأسيس مملكة، بل أنها جهاز هش قد ينكسر في أي لحظة وبالتالي تزول المملكة بزوال تلك القبائل أو خروجها عنها إلى صف آخر، ونسي كامبس السبب الرئيسي في تلك الأمثلة وهو وجود سلطة أجنبية في بلاد المغرب ضاغطة أحيانا على تلك القبائل، ومغرية إيّاها بآمال أوسع أحيانا أخرى.

هذا عن علاقة الملك بالقبائل وعن ضرورة تنظيم تلك العلاقة لما لها من أهمية على السلطة المركزية في تثبيت ركائزها والمحافظة على أمنها واستقرارها، ولكن ما الفائدة والضرورة التي كانت تدعو القبائل مقابل هذا إلى التمسك بتلك السلطة؟ وهل كانت تلك القبائل فعلا بحاجة اليها؟. فالقبائل المستقرة التي تستوطن السهول أو الهضاب المشرفة على السهول أو التي تعيش ببعض الكتل الجبلية وعلى ضفاف الأودية وببعض

([1]) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 142.

([2]) غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص 294.

الواحات والممارسة للزراعة وتربية الماشية هي التي كانت تشملها سلطة المدن، وبالتالي سلطة الملك لحاجة هؤلاء إلى قوة تحميهم لأنها كانت مهددة أيضا من قبل أنصاف الرحل الذين ينزلون شتاء من أعالي الجبال.

ومن جهة أخرى، كان الرحل ينطلقون من المناطق الجافة إلى الهضاب وأراضي الرعي شمال الأطلس الكبير بمملكة موريطانيا، وشمال الأطلس الصحراوي بالمملكة النوميدية، لذلك كانوا في حاجة إلى سلطة الملك أو حاكم المدينة المجاورة لهم من أجل حمايتهم وحماية ثرواتهم، وبالمقابل تمثلت مصلحة الملوك وبالتالي حكام المدن، في نمو القطاع الزراعي واتساع مجاله لأنه كان سيدّر عليهم أرباحا معتبرة عن طريق الضرائب على المحصول. كما أننا نلاحظ مقابل حاجة تلك القبائل إلى حماية الملك شيئا آخر، وهو كون تربية الماشية تكثر في المناطق التي يكون فيها سطح الأرض فقيرا أو تقل بها الأمطار، فلا يمكن زراعتها، لكن ذلك لا يعني أن تربية الماشية قد اقتصرت على هذه المناطق فقط بل نلاحظها في مناطق أخرى ملائمة لزراعة الحبوب، وعلى اعتبار أن مناطقهم تتوفر على تحصينات طبيعية، فلم يكونوا بحاجة إلى قوة تحميهم، لذلك يبدو أن ارتباطهم بسلطة الملك المتمثلة في سلطة المدن القريبة منهم لم يكن يتجاوز الولاء الشخصي أو الظرفي أحيانا، لهذا اضطر أولئك الحكام إلى فرض نوع من الحصار على تلك القبائل الجبلية لإجبارها على التعايش مع قبائل السهول المستقرة، فسياسة أولئك الملوك اتجاه القبائل كانت تتمثل في المحاباة أحيانا والضغط أحيانا أخرى[1].

/4-2علاقة القبيلة بالتدخل الأجنبي في بلاد المغرب القديم:

كون القبيلة لدى النوميد كما هي لدى المور والجيتول، الوحدة السياسة الأساسية، جعلت جل المؤرخين يقولون بأن جزء كبيرا من تاريخ بلاد المغرب إنما هو "تاريخ قبائل"، إذ تأخذ إحداها في كل مرة زمام الأمور لا لمصلحتها الشخصية بقدر ما هي بهدف ضمان انتصار قضية ليست مقتصرة عليها بالضرورة، وهذا أمر ايجابي برأينا، في سبيل بناء وحدة المنطقة، لكن أولئك المؤرخين يركزون أكثر في دراساتهم حول القبيلة على الدور الذي تحتّم عليها أحيانا القيام به، والذي وإن ظهر سلبيا لهم، فإنه ولاشك كان آخر حل تلجأ اليه تلك القبائل على الأقل لبقاء كيانها. ولعل هذا ما دفع كامبس مثلا إلى القول بأن سيفاكس وشعبه المازيسيلي قد انحاز كطرف إلى جانب القرطاجيين، وبذات البساطة سيكون ماسينيسا والماسيل بطل قضية رومانية[2]، وتكرّر الوضع خلال القرون الوسطى[*].

([1]) ماجدة، بنحيون : " انتفاضة القبائل الأمازيغية ضد الرومان"، كتاب أضواء جديدة على تاريخ شمال افريقية وحضارته، ط1، المملكة المغربية، 1428/ 2007، ص ص 269، 272.

([2]) غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص 203.

(*) " إذ يشير هنا إلى أن قبيلة زناتة نجدها تحارب تحت لواء المذهب الخارجي، في حين أمّنت كتامة النصر للمذهب الشيعي، أما صنهاجة الصحراء ففتحت المغرب الأقصى واسبانيا باسم أصالة الاسلام ووحدّته، ثم جاء دور مصمودة الأطلس التي بسطت سيطرتها بغرض الاصلاح الموحدي" (أنظر: غابريال، كامبس: نفسه، ص 203).

فقد أشار أولئك المؤرخون كثيرا إلى ظاهرة الانقسام والصراع الداخلي، وهي فكرة الصف التي بنى عليها ابن خلدون نظريته حول العصبية، المصاحبة للنظم الاجتماعية ببلاد المغرب القديم على مستوى الفرقة والعشيرة والقبيلة إلى مستوى أوسع هو الكنفدرالية أو الاقليم والجهة، وهي فكرة صراع وتناحر دائم تؤدي إلى فوضى شبه دائمة ومدمرة في كثير من الأحيان، خاصة إذا استغلها الأجنبي، حتى وصل البعض إلى القول بأن كل الفاتحين دخلوا المنطقة وتمكنوا من السيطرة عليها من هذه البوّابة. فالقرطاجيون ضربوا الماسيل بالمازيسيل، والرومان ضربوا يوغرطة ب، بوخوس الأول (أي ضربوا النوميد بالمور)، مثلما ضربوا يوبا الأول بـ بوكوس الثاني، إلى درجة أنهم يؤكدون بأن هذه البلاد لن يسيطر عليها إلا من يحسن استخدام طرف ضد آخر[1].

سنحاول في الصفحات التالية معرفة مدى صحة هذه الرؤى، سيما وأن الرومان والقرطاجيين قد سلكوا سياسة التحالف مع قبائل بلاد المغرب القديم تارة واثارتهم ضد بعضهم البعض تارة أخرى مستغلين هذا التركيب القبلي، ولهذا كانت بلاد المغرب القديم عرضة لآثار التقلب السياسي الذي كان بين قرطاجة والرومان، وغالبا ما كانت هذه القبائل وبلاد المغرب عموما تتحمل سلبيات النزاع الدائر بينهما.

([1]) محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص 169.

3-قبائل العهدين الوندالي والبيزنطي

مثل النظام القبلي أحد العوامل الأساسية المفرقة لوحدة بلاد المغرب القديم في نظر المدرسة الغربية، وبعد استعراضنا لمفهوم هذا النظام القبلي ودوره في بناء الممالك النوميدية، فإننا نود في هذه الصفحات معرفة مدى استمرار هذا الدور القبلي خلال العهدين الوندالي والبيزنطي، ذلك أن المؤرخين الأجانب ركزوا على كون تاريخ بلاد المغرب في هذه الفترة قد تميز بالحروب بين القبائل والتجمعات القبلية، وحتى أشاروا إلى المكائد والتعاون مع الاحتلال ضد الأشقاء.

ذلك أن ظلت بلاد المغرب القديم عامة تواجه الاحتلال الأجنبي خلال عدة قرون من العصر القديم، الاحتلال الروماني، الوندالي فالبيزنطي. حيث قاومت الاحتلال الروماني طيلة مدة وجوده سياسيا واجتماعيا، مثلما فعلت ذلك مع الوندال خلال القرن الخامس ميلادي، وكذلك مع محاولة البيزنطيين دخول بلاد المغرب واسترجاع الممتلكات الرومانية بها سنة 533م، ومن هنا يحق لنا التساؤل عن موقف المور من الصراع الوندالي البيزنطي؟ وما رد فعلهم اتجاه السياسة البيزنطية الادارية، العسكرية والاقتصادية والاجتماعية؟ ثم ا انعكاس الثورات التي شهدتها بلاد المغرب القديم على المور والاحتلالين الوندالي والبيزنطي؟

1-تطور مصطلح المور:

قبل الاجابة عن تلك التساؤلات، علينا أن نفهم أولا ماذا يعني مصطلح المور في الكتابات التاريخية القديمة. فالمور في الأصل كانوا يمثلون أحد شعوب شمال إفريقيا المتواجدة في المنطقة الأطلسية للمغرب الأقصى قبل الاحتلال الروماني، وبالضبط من نهر مولوشا إلى المحيط الأطلسي، مثلما أوردته مصادر تلك الفترة أمثال "تيت ليف" عند حديثه عن الحرب البونية الثانية وجيش القائد القرطاجي "أصدروبال" بأن معظم أفراده كانوا نوميد أو مور[1]. أما بقية بلاد المغرب فقد كان يشغلها النوميد. لكننا نلاحظ أنه بعد ثورة "يوغرطة" (112-103 ق.م) بدأ اسم نوميد يختفي ببطء وامتد مقابل ذلك اسم "المور" تدريجيا نحو الشرق، فهذا الاتساع للمصطلح كان مرتبطا بالتقلبات السياسية لإفريقيا. ذلك أنه مع الاحتلال الروماني لبلاد المغرب نجد بأن الارتباط الطويل لنوميديا بمقاطعة أفريكا الرومانية جعل اسم نوميديا يختفي ويصبح مقتصرا على قبيلة صغيرة حول مدينة "Thubursicu Numidarum"[*]. أما تسمية "مور" فقد استمر في تطور مجال استعماله نحو الشرق، وأنه انطلاقا من القرن الثالث ميلادي أستخدم هذا المصطلح لتمييز مجموع الأشخاص (les gentes) الذين لا تحكمهم الادارة الرومانية، ثم لاحقا عني به كل الأفارقة غير المترومنين من المحيط

---

(1) Tite Live, Histoire romaine, XXII.

(*) لقد أحتفظ بهذا الاسم خاصة لتمييز هذه المدينة (طبرسقة النوميدية) عن مدينة " Thubursicu Bure " (أنظر: G. Camps, « L'inscription de Béja et le problème des Dù Mauri », p.253.

الأطلسي إلى خليج السرت[1]. وهو المعنى الذي انتهى اليه المصطلح الموري خلال القرن الرابع فالخامس والسادس ميلادي، أي جميع العناصر غير المترومنة سواء انتمت أم لا إلى القبائل المستقرة داخل التراب الخاضع للسلطات السياسية الأجنبية[2]، أي الذين كانوا خارج السيادة الرومانية فالوندالية، ثم البيزنطية. فقد عم مفهوم المور سكان المناطق الفالتة من أيدي حكام المقاطعات في كل من موريطانيا القيصرية ونوميديا منذ القرن الرابع ميلادي. حيث تكرر الاسم لدى "أميانوس ماركيلينوس"[3] عند حديثه عن ثورة فيرموس وجيلدون ضد الرومان، وورد في النقوش دالا على الأقوام المتمردة على الرومان بما فيهم الأمراء المور والعشائر الحليفة التي انتفضت وناوأت السيادة الرومانية. ثم تردد هذا اللفظ على لسان الأساقفة الكاثوليك المعاصرين للعهد الوندالي، أمثال "فيكتور دي فيتا" عندما تحدث عن سياسة الوندال الدينية بعد الاحتلال[4]، ثم على لسان بروكوب الذي استعمله بصفة دائمة للدلالة على حلفاء الوندال من الأهالي دون تمييز بين أسماء الأقوام العديدة. فالمور بالنسبة لبروكوب هم سكان الأوراس، الحضنة، السهوب والمرتفعات الموريطانية الوسطى والغربية على السواء[5]. ولم يكن يميز بين سكان المقاطعات الافريقية سوى من حيث درجة العلاقة بالسلطة المركزية الممثلة في المدن. فسكان المدن والمزارعون التابعون لهم كان يدعوهم بروكوب بالأفارقة دون تمييز بين أعراقهم وطبقاتهم الاجتماعية ونحلهم الدينية، بينما دعا جميع الأهالي الذين لا يندرجون تحت هذا الوصف بالمور[6]. وقد حذا حذوه الشاعر كوريبوس[7](Corippe). بل إن أولئك المور قد اتخذوا ألقاب سامية مثل أمير أو قائد أو ملك، ففي القرن السادس ميلادي تشكلت على يد تلك القبائل المورية نواة مؤسسات سياسية يرأسها قادة موريون اتخذوا في بعض الأحيان اللقب الملكي، وهذه المؤسسات ليست مؤسسات محدثة ناتجة عن اندحار سلطة الوندال، بل تعود إلى بداية تراجع الامبراطورية الرومانية عن أجزاء هامة من شمال إفريقيا، ومع سقوط الوندال اتسعت حركة استقلال القبائل المورية في مناطق واسعة من نوميديا، بيزاكينا، وموريطانيا القيصرية وغيرها. ويبدو أن كوريبوس حينما أشار إلى استقلال القبائل المورية نعت زعيم الموريين بلقب لاتيني وهو "Princeps" الذي يعني الأول بين أقرانه ويترجم عادة بالأمير. أما بروكوب فقد استعمل مصطلح "أرخون"

---

(1) G. Camps, Op. Cit, p. 253.

(2) " ويقابل مصطلح "موري" في ذلك الوقت مصطلح "الروماني"، الذي كان يقصد به من خلال المصادر كل عنصر أثبت انتماءه للحضارة الرومانية. فالفصل بين العناصر المترومنة والموريين كان قائما على اختلاف نمط الحياة لدى كل منهما، فيكون الروماني هو ذلك الشخص المخلص للحياة الحضرية وجميع المظاهر الرومانية التي انتشرت بشمال إفريقيا، وعلى رأسها اللغة اللاتينية والدين المسيحي، أما الموري فهو من بقي مخلصا لتقاليده القبلية ومحافظا على أعرافه المحلية"(أنظر: جميل، حمداوي، المقاومة الأمازيغية عبر التاريخ، منشورات المعارف، الرباط- المملكة المغربية، 2013، ص269-270)

(3) Ammien Marcellin, Histoire de Rome, XXIX, 5.

(4) Victor. Evèque de Vita, Histoire de la persécution des vandales, I, VIII.

(5) Procope, Guerre des Vandales, I, VIII, 3.

(6) محمد البشير، شنيتي، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج2، ص 443.

(7) Corippe, Johannide, chant V, T. VII, Revue tunisienne, 1900, Tunis.

الاغريقي الذي يقصد به أحد الحكام التسعة في أثينا، ويستعمل أحيانا تفاديا لاستعمال مصطلح "ملك"، أي أن كل من "Princeps" و"أرخون" يستعملان في معان تندرج من القائد الأعلى للحرب إلى الملك، لأن القبائل المورية كانت تحتفظ باستقلالها في تسيير شؤونها الخاصة، وهي لم تكن لتلتف حول زعيم أعلى تفوق سلطته شيخ القبيلة إلا في ظروف الحرب، لذلك يظهر الملوك الموريون في النصوص التاريخية كمحاربين وقادة للجيش[1].

فقد دون أحد الملوك المور ويدعى "مازوناس" (Masuna) في إحدى النقائش اللاتينية في "ألتافا" (Altava)[*] يحمل لقب "Rex gentium" و "Romanorum"، أي أنه ملك شعبي المور والرومان في نفس الوقت[2]. حيث تحمل هذه النقيشة تاريخ 508م، أي أن هذا الملك عاصر"تراسموند" (Trassamond) ملك الوندال، إذ كان لمملكته أحواز وقلاع ومدن على رأسها حكام أقاليم نصت على أسمائهم هذه النقيشة.

كما وثق زعيم موري آخر وجوده في منطقة الأوراس، وهو المدعو "مستياس" [**](Masties) وذلك في نص نقيشة تذكارية تم العثور عليها في "أريس"، جاء فيها أنه حمل لقب قائد امبراطور، وأنه كان أثناء حكمه متصفا بحسن السلوك والعدل إزاء رعاياه المور والرومان، وعاصر ملوك وأمراء آخرين حكموا أقاليم مختلفة كبلاد الحضنة، وجنوب شرق الأوراس ، إلى تخوم طرابلس[3] التي كان يسيطر عليها أمير القبائل الرحل "غباوون" (Gabaon) الذي كان ذو تجربة كبيرة في القتال كما ذكر بروكوب[4].

2-مقاومة المور للاحتلال الوندالي:

فهذه المعطيات حول ممالك المور نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس ميلادي، المعاصرة لنهاية الحكم الوندالي في بلاد المغرب القديم، تجعلنا نتساءل عن نوعية العلاقة التي ربطت أولئك المور بالوندال[5]. حيث أن ما يمكننا استنتاجه من خلال المصادر أمن أوضاع المور كانت متغيرة مع الوندال من حيث المصالح، فقد مرت العلاقة بينهما في بداية الأمر بحالة مسالمة قامت على احترام مصالح الطرفين، إذ لم يعترض المور

([1]) جميل، حمداوي: المرجع السابق، ص271.

(*) ألتافا هي ولاد ميمون الواقعة شرقي تلمسان بالغرب الجزائري.

([2]) G. Camps, Op. Cit, p. 254.

([**]) هذا النقش عثر عليه سنة 1942 في أريس بباتنة، كتب باللغة اللاتينية حيث يقول نص النقيشة: "إلى الاله Manes. إنه أنا Masties، دوق (Dux) لمدة 67 سنة وامبراطور لمدة 40 عام..." (للمزيد أنظر: J. Carcopino, « Encore Masties l'empéreur maure inconnu », Rev. Afr, Tome 100, 1956, p. 340.)

([3]) محمد البشير، شنيتي: الجزائر. قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 244.

([4]) Procope, Guerre des vandales, I, VIII, 3.

([5]) " توجه الوندال إلى إفريقيا سنة 429م، كان أول نزولهم بطنجة ثم تتبعوا مسيرة حملتهم باتجاه الشرق، حيث اصطدموا بالرومان على حدود البروقنصلية، ثم أخذوا "هيبون" التي سقط خلال حصارها القديس أوغسطين، ودخلوا قرطاج سنة 439م" (للمزيد أنظر: Claude Bourgeois, « Vandale et vandalisme en Afrique »n Antiquité Africaine, Tome. 16, By Creative Commons, 1980, p. 216.

سبيل الحملة الوندالية المتوجهة إلى مركز السلطة الرومانية في قرطاجة[1] سنة 455م، كما شاركوا في الحملات الموالية، وقد أوكلت لهم مهمة الدفاع عن سردينيا بعد احتلالها من طرف الوندال[2]. لكن الظروف تغيرت على ما يذكر بركوب بوفاة "هونوريق" (Honoric) (477-484م) بعد 8 سنوات من الحكم، إذ خرج مور الأوراس عن السلطة الوندالية وصرحوا باستقلالهم، وأنه منذاك لم يستطع الوندال اخضاعهم لأن المنحدرات الحادة والمحززة لجبل الأوراس منعتهم من نقل الحرب اليها[3].

فهذه الثورة كان سببها ما أحدثه الاحتلال الوندالي من تصدع في اقتصاد بلاد المغرب القديم، مما نتج عنه اضطراب في النظام الاجتماعي واستغلال الفلاحين للقلاقل التي حدثت خلال القرن الخامس للميلاد مثلما ذهب اليه جوليان، لإعلان تمردهم –إن صح القول- بعدما قاموا به من استغلال الملاكين الفاحش وتعسف رجال السلطة الذين كانوا يعملون السيف في الدوناتيين والمتمردين على حد سواء. فلم يقف زحف تلك الثورة بالأوراس إلا على حدود قسنطينة[4]. فثورة الأوراس هذه تعد حدثا أساسيا في مملكة الوندال، لا لأنها مست الوندال في قوتهم الأساسية، ولا لأنها سببت لهم هزيمة كبرى، لكن لأنه معها بدأت الممالك المورية تنمو في إفريقيا المستقلة، ومنها مملكة الأوراس التي كل ما نعرفه عنها في عهد الاحتلال الوندالي هو استيلاؤها على تاموقادي وباغاي، الذي يبين لنا نزول سكان الأوراس إلى السهول، وكذا استيلاؤها على المناطق الخصبة والغنية غرب الأوراس والمجاورة لمملكة الحضنة[5].

وإذا كان بروكوب قد اعتقد في هذا الصدد بأن المور كانوا شديدي الحذر من الوندال أو أي احتلال أجنبي آخر لدرجة أنهم قاموا بتدمير هذه المدن لكي لا يسمحوا للأجنبي بالاستقرار بها، فإن الأبحاث الأثرية تثبت أن العمارة المدنية خلال القرن الخامس والسادس كانت متراجعة في نوميديا الجنوبية، وأن مدنا مثل تيمقاد، باغاي أو لامبيز قد فقدت أساس ازدهارها السابق، فمن التهور أن نجعل المور الجبليين مسؤولين عن تهدم هذه المدن، لأن الآثار لم تستخرج أبدا أثرا لهذا التحول العمراني، وأن الأسباب الحقيقية لهذا التراجع يعود ربما للتحولات الاقتصادية أو السياسية أواخر الامبراطورية الرومانية والتي ساهمت في انحطاط الحياة العمرانية[6].
العمرانية[6].

([1]) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 255.

([2]) محمد الهادي، حارش: التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الاسلامي، ص 246.

([3]) Procope, Guerre des vandales, I, VIII, 1. ، فالأوراس في نظر بركوب يقدم مظهرين مختلفين، الأول منهما كونه بمثابة جنة بالنسبة للقاطن به أو لمن يجتازه مسالما، ولكنه ضد العدو الذي يجتاحه يمنح لساكنته مصادر تحصينه وترسانة كاملة من الفخاخ" (أنظر: Michel. Janon, « l'Aurès au VI siècle. Note sur le récit de Procope », Ant. Afr, T. 15, 1980, p. 346.

([4]) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 347.

([5]) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص247.

([6]) Michel. Janon, Ibid, p. 346.

والواقع أن بلاد المغرب كلها كانت تشتعل بالثورات المحلية ضد الوندال ولم تقتصر على الأوراس فقط، كزحف القبائل البدوية القادمة من الجنوب الشرقي بقيادة "غباوون" (Gabaon) والتي استعملت الجمل في تنقلاتها وفي القتال، فسميت بالقبائل الجمالة[1]، وكذا ثورة "أنتلاس"[*] الذي كان ملكا على المزاق. فتلك الثورات لم تتوقف بوفاة "هونوريك"، بل تزايدت في عهد خليفته "قوثاموندوس"، وقد تكون غاراتهم وراء اختفاء لوحات ألبرتيني في وقت لاحق (21 أفريل 496م)، وهي الفترة التي كان على الملك أن يدافع فيها أيضا على السكان الذين كانوا يتعرضون للنهب. لكن هذه الغارات كانت من الشدة لدرجة أن القديس "فولجانتيوس" (Fulgence) اضطر لمغادرة المونستير (Monastere)إلى منطقة المدينة القديمة (Thelepte) (قفصة). ويبدو أنه بعد ذلك بقليل لم تفلت من هذه الثورة غير المناطق الساحلية للمزاق. وأمام هذا الخطر المتزايد قرر "هلدريك" إرسال قوات تحت قيادة "هيلديمير" (Hildimir) الذي برهنت هزيمته على أن " أنتلاس" كان سيد الموقف، ولم يعد بإمكان الوندال التصدي لثورات المور التي عمت متلف المناطق وحصرت الوندال في البروقنصلية ومناطق محدودة من المزاق، وهو ما سهل دخول البيزنطيين[2].

3- السياسة العسكرية للإحتلال البيزنطي:

وجد البيزنطيون جميع البلاد الواقعة على تخوم المقاطعات من طرابلس إلى الأوراس ونوميديا الجنوبية مستقلة في شكل إمارات قوية كانت تبسط سيطرتها على معظم الأراضي الموالية لها، سواء برضا الوندال أو من غير رضاهم، ولعل الكثير من تلك الامارات كان حليفا لملوك الوندال الذين أحسوا بالضعف فاحتموا بهم من جهة الجنوب ليأمنوا شرهم. ومن بين الملوك المور المشهورين في كتابات ذلك العصر نجد "يبداس" (Ibdas) الذي كان باستطاعته أن يجمع 30 ألف فارس حوله، مثلما ذكر بركوب، كما كان إلى جانبه ملك الحضنة وجنوبي الأوراس المدعو "أورتياس" (Orthias)، كما كانت موريطانيا كلها تحت قيادة ملك سماه بروكوب "مستيغاس" (Mastigas) باستثناء مدينة قيصرية. أما غرب القيصرية فقد أنشأ الملك "مازونا" (Masuna) منذ أوائل القرن الخامس مملكة واسعة الأرجاء ضمت مدنا شهيرة مثل "تيهرت" و" فرندة" و"ألتافا" (ولاد ميمون) مثلما ذكرنا[3].

([1]) محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 256.

([*]) "أنتلاس (Antalas) من أهم ملوك الفركسيس (الفرشيش) التي كانت تتواجد بجبال الظهر التونسية، ابن الزعيم الموري "كوينيفان" (Guenefan)، ظهر أنتلاس في القرن السادس ميلادي، حيث حارب الوندال والبيزنطيين مدة طويلة إلى أن وسع نفوذه في الكثير من المناطق بليبيا وتونس ونوميديا. تقع مملكة أنتلاس في قلب ولاية بيزاكينا (المزاق) بجبال الظهر التونسية، في المثلث الذي يجمع بين تالة، قفصة (Thelepte) (المدينة القديمة)، وتبسة (Théveste). فداخل هذا المثلث نشأت النواة الأولى لمملكة الفركسيس (Frexes)." (للمزيد أنظر: جميل، حمداوي: المرجع السابق، ص 242).

([2]) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 248.

([3]) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج2، ص 411.

والواضح أنه مثلما أورد مصدرنا بروكوب الذيساير الحملة البيزنطية على بلاد المغرب، أن المور التزموا الحياد في الصراع بين الوندال والبيزنطيين، واعتبر ذلك خبثا ومكرا منهم خلافا للبعض الآخر الذي اعتبره تكتيكا عسكريا تعود عليه الأهالي عامة، فقد رأوا في هذا الصراع استنزافا لقوة الخصمين[1]، وهو ما توضح عندما حاول "بيليزار" استمالة أولئك المور وتثبيتهم على مجال نفوذهم، باعثا اليهم صولجان من فضة مذهبة، وإكليل من فضة مزخرف وبرنس أبيض أقفاله من ذهب، ومئزر مزركش وأحذية مطرزة بالذهب، إضافة إلى كمية وافرة من النقود، وهذا بعد ما أرسل مور بيزاكينا (المزاق)، نوميديا وموريطانيا سفراء إلى "بيليزار" (Bélisaire) مثلما أشار بروكوب، ليقدموا اليه دعم أسلحتهم وتأكيد خضوعهم للامبراطور، لكن لا أحد من أولئك الأمراء المور منحه فيالق عسكرية في حملته ضد الوندال، بل التزموا الحياد الصارم وانتظروا نهاية الحرب[2].

فتلك البروتوكولات التقليدية لم تعبر بصدق عما كان يضمره كل طرف إزاء الآخر. ف "بيليزار" كان عليه تنفيذ أوامر الامبراطور بالاستيلاء على المقاطعات الرومانية سابقا، بينما أمراء المور كانوا حريصين على الاحتفاظ بإماراتهم وممتلكات رعاياهم بمعزل عن أسياد إفريقيا الجدد. ومن ثمة كان الصدام أمرا حتميا بين الطرفين، وهو ما سيحدث عندما يتحرك البيزنطيون نحو الداخل[3]. فبمجرد إقلاع "بيليزار" في مراكبه قاصدا القسطنطينية مطمئنا إلى حياد المور، إذا بهم يثورون في المزاق ونوميديا، هذا ما عزاه بركوب إلى الحقد الدفين الذي كان يكنه المور نحو الغاوين وإلى تحول طباعهم وتقلبات مزاجهم، ومهما يكن فإن البيزنطيين قد واجهوا منذئذ حربا مزمنة ضد القبائل المورية[4]، لأن هؤلاء الأخيرين رفضوا الانصياع للأمر الواقع الناجم عن سقوط الوندال وانتصاب البيزنطيين بدلهم في بلاد المغرب، سيما وإدراكهم أن هؤلاء لن يكتفوا بأملاك الوندال، وأنهم عازمون على استعادة السيطرة العسكرية المباشرة على المقاطعات الرومانية السابقة دون الاهتمام لتغير أوضاع هذه البلاد في عهد الاحتلال الوندالي، خاصة وأن أهلها ذاقوا طعم الاستقلال والحرية وعدم التقيد بإرادة الأجانب في تسيير شؤونهم الاقتصادية والدينية[5]، كما أن الوعود التي قطعها البيزنطيون على أنفسهم لم ينفذوها ولم ينل المور عموما من البيزنطيين غير الدمار. فالحروب أثرت على الانتاج الزراعي، إضافة إلى عودة الاضطهاد الديني والضرائب، وهي كلها عوامل تدعو إلى حمل السلاح. والجدير بالذكر أن تفوق الأسلحة البيزنطية والقواع التكتيكية لن تجدي نفعا مع أولئك الثوار المور، لأنه في مواجهة خفة الفرسان المور تبدو

([1]) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 270.

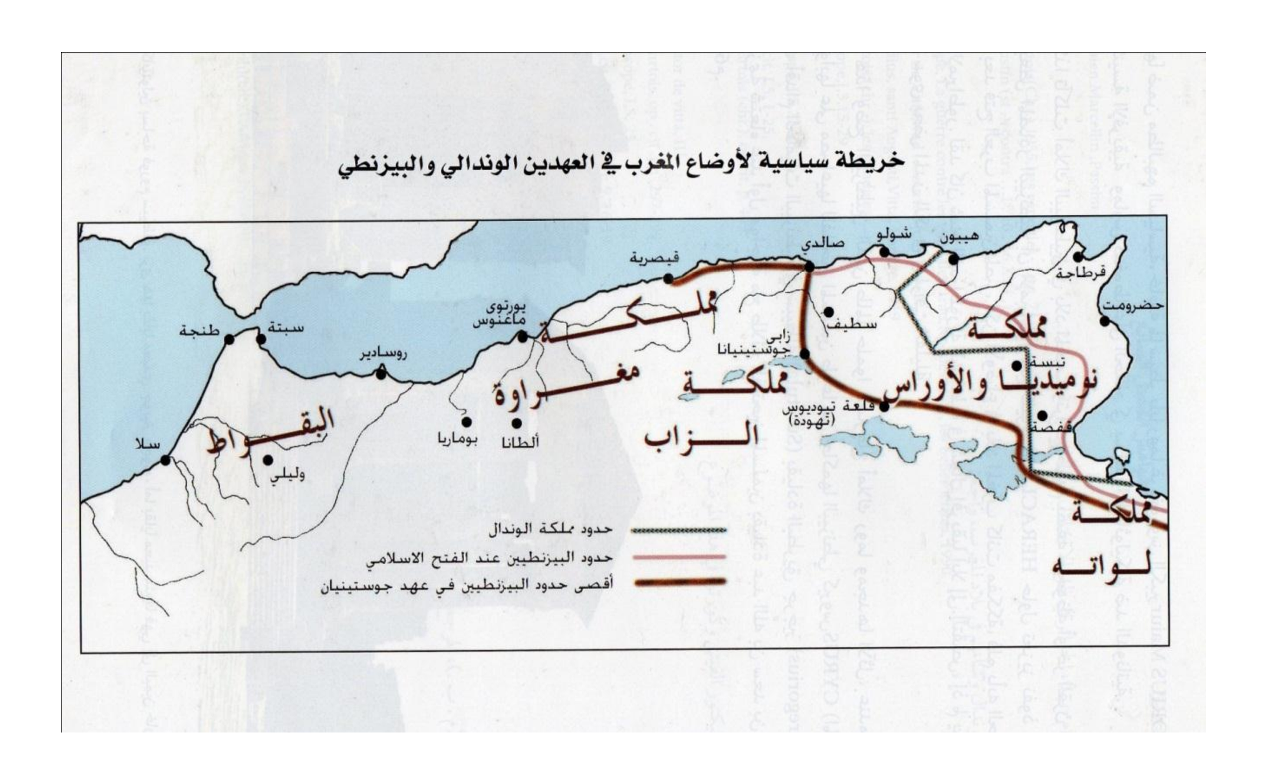
([2]) Procope, Guerre des vandales, I, XXV, 2.

([3]) محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 260.

([4]) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 365.

([5]) محمد البشير، شنيتي: نفسه، ص 260.

الجيوش البيزنطية ثقيلة وبطيئة الحركة، وتعجز خطط المعارك المنظمة التي تعود عليها القادة البيزنطيون أمام أسلوب الكر والفر والكمائن لدى المور[1].



-خريطة رقم 11-

عن: محمد البشير، شنيتي، الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، 2013 ، ص 265

وهذا ما تشهد به حدود السيطرة البيزنطية في بلاد المغرب، رغم اختلاف آراء المؤرخين حول حدود خط الليمس البيزنطي[2]، الذي يراه جوليان غير مخالف تماما لليمس الروماني في طرابلس والمزاق ونوميديا[3]، على خلاف البعض الآخر الذي رأى بأن البيزنطيين لم يتمكنوا من الوصول بحدودهم إلى الحدود الرومانية. والواضح من النصوص والأحداث التاريخية أنهم لم يسترجعوا كل ما كان بأيدي الرومان سابقا[4]. فقد كان الحاكم العسكري يعتمد على التحصينات أكثر من اعتماده على الجند، ولأن الوندال هدموا أو أهملوا البناءات

---

(1) محمد الهادي، حارش: نفسه، ص 279.

(2) Ch. Courtois, « De Rome à l'Islam », Rev. Afr, Vol. 86, 1942, p. 39.

(3) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 363.

(4) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 277.

الرومانية، وجب ترميمها وتشييد مباني جديدة، وهو ما قام به "صولومون" (سليمان) الذي وطد وعمم السياسة الدفاعية التي كان يطبقها "يوستينيانوس" في كامل الامبراطورية[1]، وذلك بإحاطة إفريقيا البيزنطية بحزام من القلاع بعد وصوله إلى قرطاجة مباشرة. ورغم أن الحروب لم تمهله في الفترة ما بين 536-539م لاستكمال مشروعه، إلا أنه استأنفه عند استتباب الأمن وسيطرة الجيش البيزنطي على الوضع العسكري داخل المناطق المحتلة عموما، حتى قيل أن هذا القائد بنى أكثر من 150 مدينة إفريقية، أي أعاد تعميرها، وهو ما يشير إلى انعدام الأمن الناتج عن العداء بين البيزنطيين والمور الرافضين للانصياع للوضع الجديد الذي رأوا فيه تكرارا للاحتلال الروماني[2].

ففي مقاطعة نوميديا[*]، يعتقد جوليان أن الليمس كان يمر جنوب الأوراس لا بشماله، لكنه كان يميل قليلا إلى الغرب. فالحدود تتجه من "تودة" (Thouda) إلى الشمال الغربي نحو شط الحضنة، ومنه إلى الشمال، ووجود قلعتي "زابي جوستينيانا" (Zabi Justiniana) قرب المسيلة، و "تاملولا" (Thamallula) قرب راس الواد يدعو إلى التفكير في أن الحدود كانت تحاذي تقريبا وادي القصب، ومن المرجح أنها تصل إلى بجاية[3]. لكن الطرف الآخر من المؤرخين يرى خلافا لذلك، مذكرا بدخول "يبداس" الأوراس بعد 7 سنوات فقط من حملة "صولومون" (سليمان)، وكذا اشتراك سكان الحواف الجنوبية للأوراس، وسكان الحواف الجنوبية للشطوط في الثورة سنة 546م، وهو ما لا يشهد على سيطرة بيزنطية فعلية، وأن البيزنطيين على هذا الأساس لم يتمكنوا من مد الليمس، لا في نوميديا، ولا في المزاق، أكثر مما كان عليه الليمس الروماني في القرن الأول للامبراطورية، باستثناء منطقة الحضنة[4].

وهكذا غطت خريطة المنشآت المناطق الحدودية المتاخمة لمرتفعات الأوراس شمالا (قلعة تيمقاد-تبسة-أميدارا(حيدرة)، وجنوبا بادياس-تبوديوس (شمالي سيدي عقبة -بسكرة-)، بغرض محاصرة مملكة الأوراس والتصدي للقبائل الرحل. ثم مرتفعات بلزمة والحضنة (قلعة تاملولا- باغاي) من الجهة الشمالية، و"زابي جوستينيانا" من الجنوب، على نقطة حدود استراتيجية تحمي الجنوب النوميدي ومدخل مقاطعة نوميديا السطايفية في آن واحد. فجهود "صولومون" اقتصرت على إقامة تحصينات تمكن الجيش البيزنطي من السيطرة

---

(1) شارل أندري، جوليان: نفسه، ص362.

(2) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج2، ص 414.

(*) " أعيد تقسيم المقاطعات الافريقية بعد الاحتلال البيزنطي إلى سبع مقاطعات إدارية هي: 1-زوغيتانا (زغوان) (Zeugitana)، وتضم شمالي الأراضي التونسية على وجه التقريب. 2- بيزاكينا (المزاق) (Bisacena)، وتشمل الجزء الجنوبي من تونس. 3- تريبوليتانا (طرابلس) (Tripolitana)، تضم المناطق المحاذية للبحر من بيزاكينا إلى السرت الكبير بليبيا الحالية. 4- نوميديا، وتضم ما بقي من نوميديا الرومانية نظريا. 5- موريطانيا السطايفية. 6- موريطانيا القيصرية. 7- سردينيا (أنظر: محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 260).

(3) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 363.

(4) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 279.

على معابر البدو نحو بلاد التل الزراعي، وذلك بإنشاء مدن محصنة تشرف على الطرق المعتادة بين الحضنة والسهول الشمالية عبر وديان ومرتفعات بلزمة، وجبال الحضنة، منها أنه تم تحصين "طبنة" و "زراريا" و "تاملولا"، وربط بينها بمراكز حراسة تشرف من خلالها الحاميات العسكرية على الطريق الواصل بين الحضنة وسهول سطيف[1]. وقد ذكرت النصوص التاريخية بأن القبائل الضاربة جنوبي الشطوط (ملغيغ والجريد...)، والتي اجتهد البيزنطيون في إبعادها قد عادت من جديد واستقرت في السفوح الجنوبية لمنطقة الأوراس ابتداء من سنة 546م، وهذا ما يؤكد بأن الاحتلال البيزنطي قد كان ضعيفا، وهو ما مكن المور من السيطرة على الوضع والتحكم في المسالك الرابطة بين بلاد التل والصحراء، وبذلك تقلصت السيطرة البيزنطية في الشمال فتخلت عن الأوراس مكتفية بالسفوح الشمالية منه، حيث شدد البيزنطيون تواجدهم بالقلاع والحصون المنتشرة هناك قصد التحكم في الاقليم الزراعي بالسهول العليا القسنطينية[2].

4-مقاومة المور للاحتلال البيزنطي:

هذه المراقبة الشديدة للبيزنطيين على حدود خط الليمس كان ناتجا عن ثورات المور التي اشتعلت في كل المناطق بمجرد انتهاء الحملة البيزنطية، بما فيها منطقة الأوراس سنة 535-536م، بقيادة "يبداس". لكن قبل ثورة الأوراس نجد بأن "كوتزيناس" (Coutsinas) قد ثار بالمزاق سنة 534م، وإذا كان الشاعر اللاتيني "كوريبوس" (Corippe) قد عبر بصمت عن ثورة هذا القائد الموري، لأنه اعتبره دائما حليفا للإمبراطورية البيزنطية، فإن بروكوب قد أعطى رأيا مخالفا لذلك من خلال ما أورده من أن كوتزيناس كان إلى جانب الثوار في بيزاكينا، كما أصر على مشاركته في انقلابين متعاقبين[3]، ف "كوتزيناس" تمكن رفقة ثلاثة من زملائه على رأس 50 ألف من المور من إفناء الوحدات البيزنطية التي جاءت لنجدة المنطقة بقيادة "إيقانوس" (Aigan)، و "روفانوس"(Rufin) ، وهوما دفع "صولومون" إلى الاسراع إلى المزاق حيث دارت معركة "ماما" (Mamma) الكائنة بين سبيبة والقيروان، والتي فقد فيها المور 10 آلاف مقاتل حسب بروكوب، لكن تحدث هذا المؤرخ عن تلقي صولومون نبأ انتشار المور في المزاق على إثر وصوله إلى قرطاجة يدل على مبالغة مؤرخ الحملة، التي توضحت أكثر حينما تحدث عن المعركة الثانية في ضواحي جبل "برقوان" سنة 535م، والتي فقد فيها المور –حسبه- 50 ألف مقاتل دون أن يفقد البيزنطيون أحد[4].

ويبدو أنه في الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الأحداث بالمزاق، نزل "يبداس" (Iabdas) ملك الأوراس صيف 535م على رأس 30 ألف مقاتل يجوب الهضاب العليا النوميدية حتى وصل حدود التل دون

---

(1) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج2، ص 416.

(2) نفسه، ص 430.

(3) Yves. Modéron, « Corippe et l'occupation byzantine de l'Afrique : pour une nouvelle lecture de la Johannide », Ant. Afr, T. 22, 1986, p. 202.

(4) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 272.

أن تتمكن الحاميات البيزنطية من صده[1]، حيث يذكر بروكوب أنه اجتاح نوميديا وسجن الكثير من الأشخاص[2]، حينها قرر صولومون أواخر سنة 535م غزو الأوراس بعد أم آمن جانب "أورتياس" (Orthaias) ملك الحضنة، و"ماسوناس"[3](Massonas)[*] . هذين الأميرين الموريين حدثنا بركوب عن أسباب تحالفهما مع صولومون ضد "يبداس". ف ماسوماس كان يتهم "يبداس" بمقتل والده "Méphanias" إثر خيانة، رغم أنه قد تزوج بإحدى أخواته. أما "أورتياس" فكان دافعه هو التحالف السابق بين يبداس وماسوناس ملك مور موريطانيا بهدف طرده رفقة المور التابعين له من المنطقة التي كان يحكمها (مملكة الحضنة)[4]. لكن الحملة فشلت بعد أزيد من أسبوع في مخانق الأوراس، اضطر سليمان (صولومون) بعدها إلى العودة إلى قرطاجة على أمل أن يعاود الكرة في الربيع الموالي (536م). لكن انقلاب القائد العسكري "ستوتزاس" (Stotzas) تسببت في إبعاده وعودته إلى القسطنطينية[5]. وحسب جوليان فإن انقلاب "ستوتزاس" سنة 536م راجع إلى أن سليمان كان فظا غليظا يعامل جنوده معاملة العبيد، مما أدى إلى كره ضباطه وجنده له على حد السواء، وهو ما أدى إلى استبعاد سليمان واستقدام ابن عم الامبراطور "جوستينيان" وهو " جرمانوس". لكن سليمان أستقدم مرة أخرى سنة 539م بعد القضاء على التمرد[6].

وإذا كانت المرحلة الأولى لثورة الأوراس (535-539م) قد انتهت بفشل البيزنطيين بسبب تمرد الجيش البيزنطي والطرق الوعرة في جبال الأوراس، وقلة الماء، وأيضا بسبب استخدام مور الأوراس للتحصين، ومعرفتهم الجيدة بالمنطقة، وكذا استعمال حرب العصابات ونهج سياسة الكر والفر، إضافة إلى استدراج البيزنطيين إلى المناطق الوعرة بغية مراقبتهم وتطويقهم عسكريا[7]، فإن الحملة الثانية التي قادها سليمان سنة 539م ضد الأوراس، وقصد حسب بروكوب الجبال الممتدة جنوبي خنشلة وتيمقاد ولمباز[8]، قد أسفرت في البداية عن

([1]) نفسه، ص 273.

([2]) Procope, Guerre des vandales, II, XIII, 1.

([3]) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 272.

(*) أن إفريقية في عهد الامبراطور "هيراكليوس (Héraclius) (توج إمبراطورا في 5 أكتوبر 610م)، الذي أوكل أمرها إلى ابن عمه قد عرفت في عهده فترة من الهدوء، وأن المسيحية والسلطة الامبراطورية انسجمتا وسجلتا بعض التقدم في الجريد والأوراس والزاب، وإن لم تقم الحجة على هذا التقدم فهناك على الأقل دليل على تغلغل المسيحية في موريطانيا بـ "بني جدار" يتمثل في 13 ضريحا تعود إلى القرنين السادس والسابع ميلاديين تقع في الجنوب الغربي من تيارت. فهذه القبور تدل على وجود روابط معنوية على الأقل بين عائلة حاكمة مورية قوية دينها المسيحية، وبين الامبراطورية البيزنطية. وقد افترض الباحثون أن "ماسوناس" (Massonas) الذي ذكره بركوب ولمح إلى علاقاته الطيبة مع سليمان ينتمي إلى هذا البيت، وهو نفسه الأمير الموري الذي نجده في نقائش ألتافا (Altava) سنة 508م تحت اسم "ماسونا"(Masuna) الذي كان يسيطر على كامل مقاطعة وهران وحتى على الأوراس" (أنظر: شارل أندري، جوليان، المرجع السابق، ص 381).

([4]) Procope, Guerre des vandales, II, XIII, 2

([5]) محمد الهادي، حارش: نفسه، ص 272.

([6]) شارل أندري، جوليان: نفسه، ص 369.

([7]) جميل، حمداوي: المرجع السابق، ص 274.

([8]) شارل أندري، جوليان: نفس المكان.

انتصار يبداس الذي أحسن التحكم في منابع مياه وادي "أبيقاس"، حيث أغلق جميع مجاري النهر باستثناء المجرى المتجه نحو مدينة باغاي، أي نحو المعسكر البيزنطي الذي غمرته المياه، مما دفع القائد الروماني "قونتاريس" (Guntharis) إلى الفرار مع الجيش متجها نحو سليمان الذي غادر قرطاجة وعسكر بجيوشه كاملة[1] في أسفل جبل "بوروغل"(Bou Roughal)، ومنه انطلق فهزم يبداس، حيث نهب المحاصيل الزراعية حول تيمقاد ثم تعقب ملك الأوراس ورجاله البالغ عددهم 20 ألف حتى حصن "زربولة"(Zerbula) ، ولكنه يم يتمكن من دخوله إلا بعد فرارهم، ثم نجح بعد عناء شديد في اقتحام تحصينات "تومار" (Toumar) العجيبة المقامة فوق جبل أوراس، وبعدها تحصينات صخرة "جمنة" (Geminianus) المنيعة، وقد تكون في فج واد مسرور، أين أودع يبداس كنوزه والنساء تحت حراسة شيخ[2]. ويبدو أن انتصار البيزنطيين راجع إلى تمكن أحد القادة البيزنطيين والمدعو "كنزو"(Genzo) من تسلق جبل الأوراس والاقتراب من معسكر الأوراسيين وقتل ثلاثة من أتباع يبداس، مما ساعد على اندفاع باقي أفراد الجيش لبيزنطي على هذا الممر. فكانت وسيلة الأوراسيين للخلاص هي الفرار، خاصة بعد اصابة يبداس في ذراعه وفراره كذلك عبر الطريق المؤدية إلى موريطانيا، فتحقق لسليمان بذلك السيطرة على منطقة الأوراس[3]. كما أسفرت حربه عن نجاح باهر دعمه ببناء سلسلة من التحصينات المنيعة في قلب الأوراس، وفي نوميديا وموريطانيا القيصرية، مما جعله يحافظ على السلم طيلة أربع سنوات[4].

ورغم انتهاء الثورة بالأوراس إلا أن بقية مناطق بلاد المغرب ظلت الثورات بها بين الحين والآخر، مثلما حدث بعد انقضاء أربع سنوات من ثورة الأوراس، وهي ثورة قبيلة لواتة سنة 544م، والتي شارك فيها أمير الأوراس يبداس. ذلك أن تعيين "سرجيوس" (Sergius) دوقا على إقليم طرابلس تسبب في ثورة قبيلة لواتة التي هاجمت لبدة. ورغم تمكن القوات البيزنطية من صدها، فإن ثورة إقليم طرابلس دفعت "سرجيوس" إلى الفرار نحو قرطاجة ليستنجد بسليمان الذي خرج لملاقاة المور عند حدود نوميديا–المزاق، ورغم تمكنه في اللقاء الأول من تحقيق انتصار جزئي في ضواحي تبسة، فقد هزم في معركة "كيليوم" (Cillium) التي لقى فيها مصرعه سنة 544م[5].

وبعد مقتل سليمان وتعيين "سرجيوس" خلفا له استغل الأمراء المور فرصة تمرد الجيش البيزنطي بقيادة "ستوتزاس" سنة 544م، فتحالف "أنتلاس" ملك المزاق رفقة قادة مور آخرين مع المتمردين، حيث تمكنوا من السيطرة على المقاطعات البيزنطية كالمزاق وحضرموت (سوسة) حتى وقفوا على أبواب قرطاجة. فكاد

([1]) جميل، حمداوي: المرجع السابق، ص 275.

([2])شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 369

([3]) جميل، حمداوي: نفسه.

([4]) شارل أندري، جوليان: نفسه، ص 370.

([5]) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص ص. 273، 274.

جوستينيان أن يفقد إفريقيا جراء هذه الأحداث، مما جعله يوفد اليها قائد جيوش الشرق الامبراطوري المحنك والمتمرس "يوجنا تروقليتا"(J. Troglida) سنة 546م، حيق تمكن هذا الأخير من إخضاع الجنود البيزنطيين المتمردين وقتل قائدهم ستوتزاس، ثم استطاع أن يفك الحصار على أهم المدن، لكنه لم يقو على إزاحة المور إلا بالاستعانة بأمراء مور آخرين لم يشاركوا في قتال البيزنطيين من " أنتلاس" بسبب خلافات قديمة حول الزعامة أو الحدود، فبقوا على الحياد، لكن "تروقليتا" استمالهم إلى جانبه مقابل مكتسبات اقليمية، إضافة إلى اعتراف الامبراطور بهم كأسياد على ممالكهم، حيث كان من بينهم قائد ثورة الأوراس يبداس، وكذلك الأمير "كوتزيناس"[1] الذي كان يسيطر على مناطق من نوميديا بالجوار من مقاطعة بيزاكينا. هذا التحالف الذي جعل النصر حليفا للبيزنطيين سنة 548م[2].

وهوما كان وراء الهدوء الذي نعم به البيزنطيون على مدى 14 سنة على الأقل، ليتجدد بعدها إثر مقتل كوتزيناس في قرطاجة سنة 563م، وكذا آخر الثوار المور المدعو "غرمول" (قسمول) سنة 579م بتواطؤ من أمراء مور منافسين له أرادوا الاستفادة من مهادنة البيزنطيين[3]، فإن هؤلاء الأخيرين قد تعذر عليهم التحكم في أوضاع المور عموما، فاكتفوا بمهادنتهم أحيانا ومحاولة التصدي لطموحاتهم نحو مزيد من المكاسب الاقليمية على حساب البيزنطيين أحيانا أخرى. إذ نجد في وصول المور إلى أبواب قرطاجة يعد ثورة 598م ما يدل على هشاشة الوجود البيزنطي وتراجعه. فالاحتلال البيزنطي رغم نجاحه ظاهريا، إلا أنه يخفي مساوئ كثيرة وحروبا شرسة ضد المور،حيث ظل فتيل الثورة مشتعلا في كل بلاد المغرب إلى سقوط البيزنطيين على يد الفاتحين المسلمين.

ويمكننا في نهاية هذا العرض لأهم إمارات المور خلال فترة الاحتلالين الوندالي والبيزنطي، أن نخرج ببعض الملاحظات حول الدور الذي لعبته هذه الأخيرة في تاريخ المنطقة خلال هذه الفترة، وهل كرّس التفرقة والوحدة أكثر مما مثّل المقاومة وأبرز الخصوصية المغاربية التي عبّرت دائما عن رفضها للأجانب؟

إذ شكل التقزم السياسي خلال هذه المرحلة ميزة العصر، فأصبحت كل الأطراف المقيمة على تخوم الامبراطورية، لا تسعى فقط لتوسيع رقعتها وتأصيل نفوذها، بل محاولة تبني هذا الإرث كذلك، فمقابل صورة الملك أو الامبراطور التي أبرزتها النصوص الأثرية من خلال شخصيتي ماسونا وماستياس، يمكن الوقوف على نموذج آخر متمثل في مجلس القبيلة أو الكنفدرالية القبلية، فقد رأينا أن بروكوب أوضح بأن بيليزاريوس في بداية الاحتلال قد استقبل وفدا من الامارات المورية التي أعلنت ولاءها له مقابل اعترافه باستقلاليتها، وتوج هذا الاتفاق بالحصول على مجموعة من الهدايا والمنح. وفي حديثه عن الحرب المورية الكبرى، ذكر أن الدوق سرجيوس قد استقبل وفدا من الأعيان يمثل القبائل، فضلا عن تحالف أنتالاس مع القبائل الطرابلسية، كما

---

(1) Yves. Moderon, Op. Cit, p. 202.

(2) محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 264.

(3) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 277.

تحدث كوريبوس عن تحالف أنتالاس بقبائل لواتة، ومناقشات شيوخ القبائل بعد تلقيهم اقتراحات جون تروقليتا. وهو ما يتجلى من سلسلة التحالفات التي أبرزتها مراحل الصراع مع البيزنطيين، مثل الذي قاده كاركزن أيضا. فقد اعتبر بعض الباحثين، في ضوء هذه النصوص أن التحالف القبلي خلال سنوات 544-548 م جعل أغلب القبائل تنصهر ضمن تسمية واحدة، وهي لواتة، وهو أمر ينطبق على التركيبة القبلية الكونفدرالية، وبالتالي فقد كرست المصادر اللاتينية صورة أقرب منها إلى المصادر العربية، التفاعلات القبلية، تحالفاتها وعناصرها، فبدت سهلة التشكل، وفي نفس الوقت سريعة الذوبان، مما يوحي بالتفكير في هذه المرونة بعيدا عن مركزية سياسية، بل في شكل نواة سياسية أميرية سرعان ما يتعاظم نفوذها بانضمام القبائل الأخرى اليها، إلا أن سرعة اصطدامها بالقوة العسكرية البيزنطية قد يحد من نفوذها، مثلما كان الأمر لمملكة أنتالاس، أو ييداس، إن لم يؤدي الأمر إلى انقراضها نهائيا[1].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى بأن أحداث القرن السادس للميلاد قد لعبت دورا كبيرا في بلورة وتكريس تصور تشابه المور في سلوكاتهم وردود أفعالهم بالسلوكات النوميدية قبلها. فهذه الرؤية سرعان ما اعتمدها أغلب الباحثين، فبع ديل (Diehl) الذي اشار إلى الانعدام التام للوحدة في أوساط هؤلاء البربر، أخذت الفكرة منعرجا جديدا من طرف كورتوا الذي تحدث عن "يوغرطة الأبدي"، مؤكدا أن الحضارات المتعاقبة لم تكن سوى طلاء خارجي، وأن البربر ظلوا أنفسهم، وبمجرد تراجع القوة المهيمنة أو ضعفها سرعان ما تمحى، ليعود كل ما يميز هؤلاء البربر إلى السطح، معتبرا أن مسؤوليتهم كبيرة في اضمحلال الحضارة الرومانية بالمنطقة. وقد شاعت هذه الفكرة في أوساط أدبيات ما بعد الاستقلال. كما تكرست أيضا من خلال ما أسماه ديل بالعجز الأبدي للبربر على الوحدة الدائمة، أو ما وصفه قزال بـ "ذهنية الصف"، ليعطيها قوتييه وكورتوا لاحقا ابعادا أوسع، ويجعلانها قاعدة لتتبع مختلف مراحل التاريخ النوميدي أو الموري —مثلما رأينا-.

وبقدر ما تظل الفرضية الأولى —حسب الباحث عيبش- شديدة الإغراء، بحكم ما تسمح به من بلورة خطاب "ثوري" أو "وطني" يعتمد على فكرة استمرار المقاومة، فهي تضعنا أمام إشكالية خطيرة. ذلك أن القول بتمسك البربر بشخصيتهم، وعدم ذوبان معالمهم بحكم تعاقب الحضارات يظل حديثا شديد الاغراء، إلا أنه يفترض خاصة جمودا حضاريا، وعقما، بل عجزا عن التطور. فكيف نصف المجتمع الذي لا يتأثر بالثقافات المهيمنة، هل عامل المقاومة يظل أبديا؟[2]. إلا أن هذا التمسك للبربر بشخصيتهم ورفضهم الذوبان مع الاحتلال الأجنبي، ليس جمودا حضاريا بقدر ما هو رفض للاحتلال الذي يريد الاستغلال والسيطرة،

([1]) يوسف، عيبش: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لبلاد المغرب أثناء الاحتلال البيزنطي، أطروحة دكتوراه دولة في تاريخ وآثار المغرب القديم، إشراف محمد البشير شنيتي، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة منتوري-قسنطينة، 2006-2007 م، ص ص 245، 246.

([2]) نفسه، ص ص 256، 257.

وإبراز لهوية المغاربة المستقلة تماما عن الاحتلال الاجنبي، وإلا كيف نفسر قبول المجتمع المغاربي للفينيقيين والتبادل الحضاري معهم في مختلف المجالات، ثم ترحيب المغاربة بدين الاسلام وثقافته وتبنيه والدفاع عنه فيما بعد ، وبقائه إلى اليوم ، لأن الفينيقيين الذين اعتبرهم البعض احتلالا غير مباشر للسواحل الليبية، والاسلام، مختلفان تماما عن الرومان أو الوندال، ولهذا اختلف موقف المغاربة من هذا التأثير الوافد أو ذاك حسب اختلاف الطريقة والرسالة التي جاء بها كل مد حضاري، وبالتالي لم يسجل جمودا إزاءها، بل رفضا ومقاومة للمستغل ، وترحيبا وتبادلا ثقافيا للمسالم منها.

ثالثا: التدخل الأجنبي ودوره في إفشال الوحدة السياسية

توطئة:

تميز تاريخ بلاد المغرب القديم في الفترة الممتدة ما بين القرن العاشر قبل الميلاد إلى القرن السابع للميلاد بحقبة دخل أثناءها إلى هذه المنطقة الفينيقيون والاغريق والرومان والوندال، بعضهم يزور السواحل فقط (الفينيقيون والاغريق)، والبعض الآخر يقيم ويتوغل داخل البلاد، وهذا ما جعل معرفتنا بتاريخ هذه الحقبة لا يتعدى أن يكون من خلال الآداب اليونانية واللاتينية، نتعرف على المغاربة الأصليين من خلال ما يقوله عرضا جغرافيون ورحّالة وهم يتكلمون عن شعوب أخرى، حيث أننا نستقي معلوماتنا عن المغاربة القدماء عبر واسطتين: نراهم من خلال أنظار القرطاجيين، ونرى هؤلاء من منظور الرومان، فيظهرون لنا وكأنهم أشخاص ثانويون يشاهدون من بعيد ما يقع على أرضهم من المآسي.

ورغم أن هذه الوضعية إنما هي ظاهرة عامة تتكرر في تاريخ البشر وليست خاصة بالمغاربة، وبالتالي من العبث التحسر عليها، إلا أنها تترك بصماتها في كل ما يكتب عن تلك الفترة[1]، ولعل هذا ما جعل كامبس مثلا يصف البربر بأنهم في كل العصور "المنسيون في التاريخ" بسبب تلك النظرة لدى جل المؤرخين الذين لا يرون في الاستمرارية الافريقية سوى تتابع لتأثيرات أجنبية: فينيقية، رومانية، وندالية وبيزنطية[2]. ولكن هذا التفكير في الحقيقة، إنما هو نوع من الهجو الشعري لدى الباحثين الغربيين المهتمين بتاريخ بلاد المغرب القديم انطلاقا من فكر استعماري، وإن لم يكن "استعماريا" بالمفهوم السيء للكلمة، لأنه كان منطلقا من رؤية حديثة لشعب قديم لم تكن ظروفه أقل سوءا أو تخلفا من ظروف شعوب أوربية قبل عصر الحضارات البارزة[3]. فنجد جوليان مثلا في هذه الرؤية يقول: "مهما رجعنا إلى تاريخ افريقيا الشمالية لاحظنا أن الأمور تجري كما لو أنه كتب على هذه البلاد أن تبقى قاصرة قصورا وراثيا عن التمتع باستقلالها، فقد بقيت دائمة خاضعة لمدنيات واردة من الخارج، وفي بعض الأحيان اقترن مصيرها بمصير هذه المدنيات. فالمدنيات المتتابعة التي طرأت من الخارج لم تكن بالنسبة إلى البربري إلا ثيابا متنوعة تستر جسدا وروحا لا يتغيران"[4].

وهناك فريق آخر من أولئك الباحثين من انطلق من تفكير استعماري متميز جعلهم يصلون إلى أن كل قيمة حضارية لبلاد المغرب القديم قد جاءت من الخارج، سواء السكان أو اللغة والثقافة أو غيرها من المقومات الحضارية اليت أتت من الشرق مع الفينيقيين أو من الشمال مع الرومان، وحينما لا تسعفهم الأدلة في ذلك يلجؤون إلى الشك مثلما فعل قزال (Gsell) وهو يقول: "إن السكان الأصليين لهذه المنطقة لم ينتظروا قدوم التجار السوريين لممارسة التدجين والزراعة"، ويضيف متسائلا: "هل كان مرد بعض خطواتهم نحو التقدم إلى

([1]) عبد الله، العروي: المرجع السابق، ص57.

([2]) G. Camps, « les Numides et la civilisation punique », Ant. Afr, T. 14, 1979, p. 43.

([3]) عبد الكريم، غلاب: المرجع السابق، ص96.

([4]) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 65.

مبادرتهم الذكية؟" إننا نجهل ذلك"[1]. ويتنامى هذا التفكير الاستعماري عند كامبس لكن بطريقة أخرى، فهو ينفي التأثير الفينيقي المباشر ويعتمد على المعطيات الأثرية بالقول أنه عند قدوم الملاحين الفينيقيين الأوائل، لم يكن الليبيون حينها مجرد فقراء بائسين منغمسين في بدائية ما قبل التاريخ، لأنه منذ قرون سبقت التواجد الفينيقي على السواحل المغاربية، كانت هناك مبادلات مع شبه الجزر المتوسطية والجزر الأوربية مثلما مع المناطق الشرقية لإفريقيا، هذه المبادلات قد أدخلت مبادئ حضارة متوسطية بقيت في معظم حضارتها المادية في الكتل الجبلية الساحلية، مثلما في جبال الريف. لكن كامبس بهذه المعطيات يريد الوصول لا إلى أصالة المغاربة وحضارتهم، بل إلى جعل الحضارة البونيقية حضارة استعمارية وأنه يمكن للمدرسة المغاربية التاريخية الشابة –على حد رأيه– أن تستنكر هذا التاريخ الملوث بالاستعمار[2]، لكن فكره استعماري بدوره، فهو يريد الوصول إلى ربط تاريخ بلاد المغرب بالقارة الأوربية من خلال تلك الشواهد الأثرية.

فهذه الشواهد الأثرية بدورها تنقسم إلى صنفين، منها ما يسهل تأريخه وتأويله، وهو قسم لا يغير شيئا من المعلومات التي نستقيها من الأدبيات اللاتينية والاغريقية، وقسم آخر نتوقع أن نجد فيه معلومات جديدة، لكنه قسم يصطدم بعدم اتفاق الباحثين على حقيقة ومعنى محتواه. لهذا نجد أنه لصعوبة تأريخ آثار بلاد المغرب القديم، وكون جل مؤرخيه قد درسوا في البداية تاريخ روما، فإن كل اكتشاف أثري في المنطقة يعزى إلى الرومان مثلا، فهو يبرهن باستمرار على إمكانية التأثير الروماني لا عن حقيقة التأثير الروماني. ولهذا فالمؤرخ المعاصر –مثلما يقول العروي– كونه يعتمد بالأساس على الوثيقة المكتوبة يجد نفسه مضطرا للبحث عن تاريخ شعب ما في تاريخ شعب آخر، وإذا لم يجهد نفسه ليتحرر من المنظور الذي تفرضه عليه هذه العادة السيئة فإنه يحكي بدون شعور تاريخ الأجانب وهو يظن أنه يروي تاريخ المغاربة، سيما إذا كان تاريخ الأجانب ملحمة باهرة، فيترك بالضرورة في ذهن القارئ الانطباع بأن المغاربة أشخاص عارضون يمثلون في تلك الملحمة الجانب السلبي[3].

ولهذا كان هذا الفصل محاولة منا لا لسرد مقومات الوحدة السياسية لبلاد المغرب القديم من خلال تاريخ قرطاجة أو تاريخ الرومان، فنجد أنفسنا في نظرية "الظل الأبدي" التي صاغتها المدرسة الاستعمارية، وهي حاجة المغاربة إلى العيش في ظل الأجنبي، بل سنحاول معرفة تلك المقومات، نشوئها وتبلورها، تطورها ومصيرها في ظل تلك القوى المتعاقبة والمتنافسة على فرض وجودها في بلاد المغرب، ودور كل واحد منها في كسر شوكة محاولات الوحدة السياسية التي ظل الملوك المغاربة –النوميد– يحاولون تحقيقها وقاومت من أجلها القبائل من بعدهم. ولهذا الهدف سنحاول دراسة القبيلة أولا، باعتبارها النواة الأولى لنشوء الممالك المحلية، نوميديا وموريطانيا ومعرفة مدى مساهمتها في بناء أو إعاقة تلك الممالك، ثم إلى أي مدى نجحت محاولات الملوك النوميد في تحقيق الوحدة السياسية للمنطقة أو الحفاظ على كيانها أمام القوى المتصارعة في المنطقة، قرطاجة والرومان من بعدها، وكيف

[1] عبد الكريم، غلاب: المرجع السابق، ص 96.

[2] G. Camps, Op. Cit, p. 43.

[3] عبد الله، العروي: المرجع السابق، ص ص 57، 58.

وقف كل منها أمام طموحات أولئك الملوك مثل سيفاكس وماسينيسان ثم يوغرطة ويوبا الأول من بعدهما. كما أننا سنحاول في نهاية الفصل معرفة موقف القبائل بعد الاحتلال الرسمي للمنطقة وأهم مقاوماتها لطرد الاحتلال الروماني أولا، والوندالي ثم البيزنطي لاحقا.

1/-محاولتا سيفاكس وماسينيسا في توحيد نوميديا والتحدي القرطاجي

1-1/ عمق التأثير القرطاجي في بلاد المغرب القديم:

يرى بعض الباحثين بأن التواجد الفينيقي على سواحل بلاد المغرب القديم كان بمثابة تحدي الشرق للغرب، لأنه تحدي منهم لهذا الغرب الافريقي الذي لاشك أنهم عرفوا سكانه الليبيين في رحلاتهم الاستطلاعية، عرفوا قوتهم وتمسكهم بأرضهم ودفاعهم عنها، كما عرفوا بالمقابل صعوبة الأرض بتضاريسها، وعرفوا أيضا أنه قد يأخذ منهم أكثر مما يعطي، ولكن حاسة التاجر المتجوّل فيهم استطاعت أن تخلق مجالا واسعا للتبادل بإشاعة روح الاستهلاك في الشعب الذي تتعامل معه[1].

ومن جهة أخرى، ينسب أغلب المؤرخين الغربيين كل تطور حضاري في بلاد المغرب القديم إلى القرطاجيين أو الرومان من بعدهم دون أن يكون للمغاربة رأي يذكر. فقد ذهب الكثير من هؤلاء المؤرخين إلى تصديق أن الفينيقيين قد لقّنوا المغاربة زيادة على التعدين، كلا من الزراعة وغرس الأشجار واستعمال العربة والكتابة والتنظيم المدني، لكننا نلاحظ بأن الأدلة التي تساق للبرهنة على الدور القرطاجي إنما هي أدلة لغوية لا تثبت للفحص، إذ تشير إلى أصل شرقي دون تخصيص. أما الآثار فإنها بالعكس تدل على أن المغاربة كانوا يزرعون القمح ويغرسون الزيتون والتين قبل أن يتصلوا بالفينيقيين، وأنهم انتقلوا من البداوة إلى الحضارة قبل القرن العاشر قبل الميلاد[2]، ومقابل ذلك نلاحظ أن المغاربة قد شاركوا في إمداد الحضارة القرطاجية بالفكر والعمل والانجاز والمواد الأولية الحيوية، فقد لعبت دورا مهما في التجارة التي يمكن أن نقول بأنها عالمية نظرا للموقع الجغرافي والاستراتيجي، وللمواد الأولية التي استغلتها في بلاد المغرب والتي استوردتها من جنوب البحر المتوسط وسوّقتها في شماله، ورغم الموقع الجغرافي الضيق الذي احتلته فقد كانت تراقب السواحل المغاربية، وبذلك استطاعت تنمية النشاط التجاري.

فهناك إذن فاعلية لامتصاص الجانب الايجابي في التحدي الفينيقي، حيث تبرز هذه القابلية بالأخص في إسهام المغاربة في بناء وتسيير والدفاع عن قرطاجة والتمتع بكل طيبات الحضارة فيها، وكذا في المراكز التجارية والحضارية التي أسهموا في اقامتها في مجموع الشواطئ المغاربية. وهناك جانب آخر من التحدي وهو التحدي الثقافي الذي يبدو في اللغة التي أصبحت مزيجا من اللغة الليبية والفينيقية، كما يلاحظ كثير من المؤرخين بأن الممارسات المدنية والدينية كانت واحدة لا نفرق فيها بين الليبي والفينيقي[3]. ولكن إلى أي مدى يمكننا تطبيق

---

[1] عبد الكريم، غلاب: المرجع السابق، ص 61.

[2] عبد الله، العروي: المرجع السابق، ص 74.

[3] عبد الكريم، غلاب: نفسه، ص ص 63، 105.

هذه المرونة في التأثير والتأثر على الجانب السياسي الذي ربط قرطاجة بالممالك النوميدية، سيما في ظل صراعها ضد روما من أجل البقاء في الحوض الغربي للبحر المتوسط؟

1-2/ دور قرطاجة السياسي في الخلافات النوميدية:

يظهر أن أبرز عامل ساعد على نمو الخلاف وتعميقه بين مملكة نوميديا الشرقية والغربية خلال الحرب البونية الثانية، كان يتمثل في عدم قدرة الدبلوماسية القرطاجية على التوفيق في محالفة المملكتين معا وإقامة سياسة من التوافق بين العرشين، لأن الصراع السياسي بين النوميديتين قد ظهر بوضوح منذ أن تحولت سياسة قرطاجة إلى الحوض الغربي للمتوسط في إطار استراتيجيتها الجديدة بعد الحرب الأولى التي هزمت فيها، وأن هذا التحول في سياسة قرطاجة حتّم عليها استمالة نوميديا الغربية بتحسين علاقاتها معها.

وبحكم موقع هذه الأخيرة وقربه من شبه جزيرة ايبيريا التي كانت جيوش قرطاجة تعسكر فيها استعدادا للحرب البونية الثانية، أبدت قرطاجة ميلا نحو سيفاكس ملك نوميديا الغربية الذي أشاد مؤرخو العصر القديم بقوته وغناه، وإلى شجاعته واتساع مملكته[1]، بهدف تأمين خط الرجعة أمام جيوشها وحماية ظهر هذه الجيوش وكذا ضمان امدادها من أقرب الطرق. غير أن "غايا" ملك نوميديا الشرقية قد أعلن الحرب فجأة ضد قرطاجة سنة 220 ق.م، وهي حرب لا تزال أسبابها مجهولة، تمكن من خلالها من اجتياح مساحات واسعة من الأراضي القرطاجية الخصبة في منطقة "باجا" (Vaga) وما جاورها في حوض مجردة (Bagradas) الأعلى. فأصبح الوضع العسكري لقرطاجة بذلك حرجا لأنها مقبلة على خوض حرب كبرى ضد الرومان وليس من صالحها أن تتسع جبهة القتال لتشمل ضفتي الحوض الغربي للمتوسط شمالا وجنوبا، سيما وأن جيرانها المغاربة في وضع يؤهلهم لأن يكونوا في صفها وليس ضدها نظرا لما يربطها بهم من علاقات الجوار الطويل والمصالح المشتركة.

وتفاديا لمصاعب خطيرة قد تنتج عن مواصلة الهجومات النوميدية على أراضي قرطاجية أذعنت لمطالب الملك غايا الاقليمية وأخذت تعمل على استمالته والتحالف معه، غير أن هذا السلوك القرطاجي أحدث رد فعل من جانب سيفاكس فأعلن الحرب ضد القرطاجيين مما حتّم على "عزربعل" (Hasdrubel) أن يوجه قسما من جيشه الموجود في شبه جزيرة ايبيريا لإخضاع مملكة سيفاكس، وهنا تبدو علامات إخفاق السياسة القرطاجية اتجاه جيرانها النوميد[2]، فكيف كان تصرف الملك سيفاكس اتجاه هذا التحرك القرطاجي؟

أ- تحالف سيفاكس مع روما:

انتهزت روما فرصة هذه الأحداث بين سيفاكس وقرطاجة فكلفت قائد جيشها في شبه جزيرة ايبيريا بإجراء اتصالات مع سيفاكس في شأن التحالف معه ضد الملك غايا وقرطاجة وتنفيذا لهذه الخطة حل الوفد الروماني المفاوض على الملك سيفاكس أثناء اشتداد الأزمة بينه وبين القرطاجيين حيث تمكن الوفد من اقناع سيفاكس بالقيام بعمل مشترك هدفه تحطيم كل من قرطاجة والملك غايا. ولعل هذا ما نستشفه من نص أبيانوس في قوله:

(1) Silius Italicus, les puniques, XVI.

(2) محمد البشير، شنيتي: سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا القيصرية، ص 21-22.

"...لطالما حلم سكيبيو بأن يكون جنرال على افريقيا، لهذا بعث "Laelius" رفقة خمسة سفن إلى افريقيا في مهمة إلى الملك سيفاكس من أجل تقديم هدايا له وتذكيره بصداقة عائلة سكيبيو وطلب منه الانضمام إلى الرومان إذا ما قام هو ببعثة إلى افريقيا"[1]، وكذلك ما رواه تيت ليف في هذا الشأن، وقد نجح المفاوضون الرومان في ذلك فانحاز سيفاكس إلى صداقة الرومان. وعملا باتفاقية التحالف التي تمت بين الطرفين، اجتاز سيفاكس البحر إلى جزيرة ايبيريا على رأس جيش ليشارك في الحرب الجارية هناك إلى جانب الرومان. ويذكر المؤرخون أن أول اصطدام له مع ماسينيسا كان هناك، عندما كان هذا الأخير يقاتل إلى جانب القرطاجيين على رأس الفرسان النوميد.

ومن جهة أخرى، يبدو أن سيفاكس كان حريصا على تمتين العلاقات بينه وبين الرومان، إذ بعث بوفد إلى مجلس الشيوخ الروماني يذكره بما كان قد تم بينه وبين القائد سكيبيو (Scipion)، وليتأكد من وعود هذا الأخير، ومن ثم تكتسب اتفاقية التحالف التي تمت بينه وبين الممثلين الرومان طابعا رسميا[2]. وقد لقي وفد سيفاكس استقبالا حسنا من طرف مجلس الشيوخ الذي بعث مع الوفد عند عودته ممثلين خاصين يحملون هدايا إلى الملك رمزا للصداقة وتمتينا للعلاقات بين الطرفين[3].

ب- انقلاب سيفاكس لصالح قرطاجة:

أدركت قرطاجة خطأ سياستها اتجاه الملك سيفاكس الذي بدأ يميل نحو أعدائها الرومان فعدّلت خطتها السياسية وتراجعت عن مساعدة من الماسيل واقتربت أكثر من سيفاكس[4]. وقد حاول سيفاكس بعد ذلك أن يحسن إلى قرطاجة، فأعاد اليها الأملاك التي اقتطعها منها غايا اثناء حروبه معها سنة 220 ق.م -كما ذكرنا- ثم حاول من جهة أخرى أن يتوسط بينها وبين روما في النزاع القائم. وإن نجاح سيفاكس في وساطته تلك كان يتطلب منه المحافظة على التوازن بين القوتين اللتين كانتا تتسابقان على كسب تحالفه وذلك لأهمية مكانة مملكته جغرافيا، فهي تتوسط بين شبه جزيرة ايبيريا والمنطقة التي سيختارها الرومان لمعاركهم الأولى بغية إرغام حنبعل على العودة إلى بلاد المغرب.

وقد استطاع سيفاكس بذكائه السياسي أن يجمع القرطاجيين والرومان في أول مؤتمر دولي شهده القرن الثالث ق.م حول تقرير مصير الحوض الغربي للبحر المتوسط، وذلك في مدينة "سيغا" (Siga) عاصمة مملكة المازيسيل[5] سنة 206 ق.م. كما حاول سيفاكس من جهة أخرى أن يناصر القرطاجيين على الرومان لأنه أدرك مسبقا بأن مصير بقاء مملكته مرتبط بانتصار القرطاجيين على الرومان الذي بدأت أطماعهم تمتد إلى شمال افريقيا. حيث كان سيفاكس يعتبر القرطاجيين حلفاءه الطبيعيين من حيث الامتزاج الثقافي وكذا التسلسل

---

(1) Appien, Iberique, V, 29.

(2) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 23.

(3) Tite Live, Histoire romaine, XXIV, XLIII.

(4) Polybe, Histoire général, XV, 3.

(5) Strabon, Géographie, XVII, III, 9 ; Pline l'Ancien, H N, V, I, 19.

الحضاري الذي تعود بذوره الأولى إلى وصول الفينيقيين إلى الحوض الغربي للمتوسط وتأسيس المستوطنات الباكرة على امتداد سواحل بلاد المغرب.

ولكن مؤتمر سيغا الدولي الذي جمع كل من القائدين الروماني سكيبيو، والقرطاجي صدربعل في ضيافة الملك سيفاكس، وتفاوض الثلاثة في شؤون إنهاء العداوة التقليدية والحرب بين روما وقرطاجة حول السيادة على الحوض الغربي للمتوسط لم يخرج بأية نتائج نهائية، فقد تفرق الجميع دون ايجاد حل لتلك الحرب لأن القائد الروماني سيبيون صرّح بأنه لا يكنّ أي عداوة شخصية للقائد صدربعل القرطاجي المتفاوض معه، لكنه لا يستطيع البت في قضية يعود الحل والعقد فيها إلى مجلس الشيوخ والشعب الروماني[1].

لذلك اجتمع صدربعل بن جيسكون وسيفاكس مرة ثانية في سيغا لدراسة نتائج المؤتمر الدولي حول تقرير مصير الصراع الدائر وبداية تحركات ماسينيسا بعد وفاة والده غايا محاولا الوصول إلى كرسي العرش، ومن أجل ذلك بدأ يتقرب من الرومان. كل ذلك أدى إلى إمضاء اتفاقية بين القرطاجيين والملك سيفاكس التزم فيها هذا الأخير بانه في حالة مهاجمة الرومان لبلاد المغرب فإن الجيش المازيسيلي سيحارب إلى جانب قرطاجة، ومن جهتهم، قرر القرطاجيون تزويج سيفاكس بالأميرة "صوفونيزبه" ابنه صدربعل التي خطبت من قبل إلى الأمير ماسينيسا عندما كان ضابطا في الجيش القرطاجي بإسبانيا. وقد عدّ المؤرخون ذلك الزواج سياسيا[2]، وأنه يعتبر تخليا عن ماسينيسا من قبل قرطاجة وايذانا منهم بإطلاق يد سيفاكس في نوميديا الشرقية[3].

([1]) محمد الصغير، غانم: مقالات وآراء في تاريخ الجزائر القديم، دار الهدى، عين مليلة-الجزائر، 2005، ص ص 133، 137.

([2]) Diodore de Sicile, Bibliothèque historique, XXVII, 7.

([3]) محمد الصغير، غانم: نفسه، ص 140.




صورة رقم 37: الملك سيفاكس على وجه العملة، على الوجه الآخر سيفاكس (صفك) يمتطي جواده

عن: محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة، 2013، ص 145



صورة رقم 38: على اليمين: عملة الملك سيفاكس ، على اليسار عمل ابنه الأمير فرمينا

عن: محمد البشير، شنيتي، الجزائر قراءة، 2013، ص 146

1-3/ ماسينيسا في مواجهة سيفاكس وقرطاجة:

يبدو أن تلك المصاهرة السياسية قد أثارت مشاعر الأمير ماسينيسا الذي قيل أنه كان يرغب في الزواج من الأميرة القرطاجية صوفونيزبه، وأنه وعد بها قبل سيفاكس. والظاهر أن ماسينيسا نظر بعمق لأبعاد الحوادث الجارية وما يمكن أن يترتب عنها من تغيرات سياسية وتقلبات في ميزان القوى بين القرطاجيين والرومان، خاصة وأن هؤلاء قد نجحوا في التخلص من الطوق الذي فرضه عليهم القائد القرطاجي حنبعل في ايطاليا، وأخذوا يقومون بهجومات معاكسة، فظهر للأمير ماسينيسا أن يستفيد من التحولات الجديدة بالتعامل مع الرومان لكي يتمكن من تحقيق مطامحه السياسية في عرش نوميديا، خاصة وأن منافسيه في المملكة قد ارتبطوا بالجانب القرطاجي. وقد كان لموقف ماسينيسا أثر واضح على الصراع الدائر بين قرطاجة والرومان، إذ ساهم في نقل ميدان المعركة من شبه جزيرة ايبيريا وايطاليا إلى الشواطئ الجنوبية من البحر المتوسط، أي إلى منطقة النفوذ القرطاجي[1]. أما الأسباب المباشرة لهذه التغيرات المفاجئة في علاقة قرطاجة بالممالك النوميدية فتعود إلى ما أعقب وفاة الملك غايا من حوادث حول استخلافه.

فعلى إثر وفاة هذا الأخير، لم يؤل العرش إلى ابنه ماسينيسا، بل آل –وفق ما تقتضيه التقاليد النوميدية– إلى "أوزالاس" (Aezalees)شقيق غايا الذي يكبر ماسينيسا سنا سنة 207 ق.م، لكن الموت عاجله في السنة نفسها، فخلفه ابنه "كابوسا" الذي يكبر ماسينيسا سنا أيضا، لكن "مازيتول" (Mazaetule)أحد الضباط الكبار أطاح به، استولى على العرش الذي ولى عليه الشاب "لاكوماز" (Lacumazes) شقيق الملك المبعد (كابوسا)، وهو أصغر سنا من ماسينيسا، وبالتالي ليس له الحق في وراثة العرش قبل ماسينيسا.

عندما كانت تجري هذه الأحداث في نوميديا كان ماسينيسا في شبه جزيرة ايبيريا على رأس فرقة نوميدية تحارب إلى جانب قرطاجة، ولما علم بمقتل كابوسا وتولي لاكوماز العرش، وقد تبين له أن لقرطاجة وسيفاكس يدا فيما حدث، قرر الاتصال بالقيادة الرومانية في اسبانيا التي كانت تسعى هي الأخرى للبحث عن حليف لهان خاصة بعد أن تخلى عنها سيفاكس الذي تقرّب من قرطاجة، فوقع الاتصال بين ماسينيسا وسكيبيو ايميليانوس ربيع سنة 206 ق.م، حيث تضمن الاتفاق بينهما على خطة للعمل العسكري المشترك[2]. وبنزول القوات الرومانية بإفريقيا ودور ماسينيسا في مجريات الحرب، اعترف سكيبيو ومن ورائه روما بماسينيسا عاهلا على مملكة نوميديا بعد انتصاره على سيفاكس في ضواحي قيرطا 23 جوان 203 ق.م.

وتجدر الاشارة إلى أنه عشية معركة السهول الكبرى في منتصف أفريل 203 ق.م والتي كان النصر فيها حليف ماسينيسا وسكيبيو، والتي كان سيفاكس يدخل فيها لأول مرة إلى جانب قرطاجة، أن مملكة نوميديا بجزأيها الغربي والشرقي كانت حدودها تمتد من نهر مولوشا غربا إلى الأراضي القرطاجية شرقا. غير أن ذلك لم يدم

([1]) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص ص 24، 25. محمد بن مجدوب." الملوك الموريون"، التارخ القديم قضايا وأبحاث، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، عين الشق–الدار البيضاء، 2005، ص212.

([2]) محمد الهادي، حارش: دراسات ونصوص في تاريخ الجزائر وبلدان المغرب في العصور القديمة، ص 231-232.

طولا بحيث أنه بعد معركة سيرتا –المذكورة أعلاه- سنة 203 ق.م وإلقاء القبض على سيفاكس، تم القضاء عليه في روما[*]، تعود المملكة إلى التقسيم والحروب من جديد بين شطريها الغربي والشرقي، وتستمر الأمور على ذلك إلى أن يوحدها ماسينيسا[1]. إذ كرّست معاهدة زاما سنة 201 ق.م التي عقدت إثر معركة زاما التي لعب فيها ماسينيسا الدور الحاسم، كرّست حقه في استرداد كل ممتلكاته وممتلكات أسلافه، وهو ما مكّنه من أن يصبح سيدا على كامل نوميديا، من نهر الملوية إلى خليج السيرت الكبير شرقا، هذا بعد أن وحّد شطري نوميديا واسترجاعه الأراضي التي استولى عليها القرطاجيون وضم قرطاجة نفسها لولا تدخل روما. وإذا كانت نوميديا الموحدة قد تمتعت في عهده (201-148 ق.م) بالأمن والاستقرار فقد أشار مؤرخو عصره كذلك بالتحولات الاقتصادية والاجتماعية العميقة التي عرفتها نوميديا على عهد هذا الاقليد[2].

1-4/ سياسة ماسينيسا اتجاه قرطاجة بعد الحرب البونية الثانية:

بعد أن وطّد ماسينيسا سلطته على كامل نوميديا بدأ يوجه أنظاره شرقا نحو الأراضي القرطاجية، خاصة أن معاهدة زاما 201 ق.م لم تحدد بشكل نهائي الحدود الفاصلة بين مملكة ماسينيسا والممتلكات القرطاجية، بل أكثر من ذلك تخوّل له حق المطالبة بما ملكه أسلافه حتى داخل الأراضي القرطاجية. إذ انتهز ماسينيسا أول فرصة أتيحت له وهي تمرد "أفتير" (Aphter) وفراره إلى طربلس ليطلب من قرطاجة السماح له بمتابعته عبر أراضيها، ورغم رفض قرطاجة فإن الملك اخترق اقليم الأمبوريا(Emporia) سنة 193 ق.م بدعوى ملاحقة أفتير واستولى على المنطقة الممتدة بين "لمطة" (Leptis minor)وطرابلس وفرض غرامة على بعض مدنها[3].

ويشير كامبس في حديثه عن توسعات ماسينيسا هذه أن وقائعها جرت في تأني وبطء، وأن كل عملية للتوسع كانت تنفصل عن سابقتها بمدة منظمة تساوي عشرية. فبعد حملته على اقليم الأمبوريا سنة 193 ق.م، نجده يستولي على الاقليم الذي كان سيفاكس قد سلّمه للقرطاجيين، ثم يأتي بعدها سنة 171-174 ق.م واستيلائه على 70 مدينة قد تكون في تونس الحالية، وبعدها يلاحظ وضع يده نهائيا على اقليم الأمبوريا سنة 162 ق.م، كذلك يستولي سنة 152-153 ق.م على السهول الكبرى وعلى توسكا. ويبدو أنه في كل مرة عندما يتوسع ماسينيسا اقليميا يأخذ الوقت الكافي لضم المقاطعة الجديدة إلى المملكة ودمجها داعما قوته لضمان النتائج المكتسبة قبل استئناف العمل اتجاه آخر، وهي سياسية مكللة بالنجاح دائما[4].

(*)"يروي ديودور الصقلي بأن سكيبيو قد ذرف الدموع على مرأى سيفاكس المجلوب أمامه لأنه كان يفكر في مصير هذا الملك... لقد أمر بنزع القيود عن السجين، أعاده إلى خيمته ومنحه عبيده، ولم يجعل عليه سوى حراسة خفيفة فقد عامله بإنسانية، وكان غالبا ما يدعوه إلى طاولته" (أنظر: Diodore de Sicile, Bibliothèque historique, XXVII, 6)

(1) محمد الصغير، غانم: المرجع السابق، ص 143.

(2) محمد الهادي، حارش: دراسات ونصوص في تاريخ الجزائر وبلدان المغرب في العصور القديمة، 233.

(3) محمد الهادي، حارش: التطور السياسي والاقتصادي في نوميديا منذ اعتلاء ماسينيسا العرش إلى وفاة يوبا الأول 203-46ق.م، ص26.

(4) غابريال، كامبس: المرجع السابق، ص 231.

لكن عدم سكوت قرطاجة على هذه التوسعات التي اعتبرتها استيلاء لأراضيها وتماديا من مملكة نوميديا على حساب قرطاجة، جعل الصدام بين الطرفين أمرا حتميا، وهو ما جعل روما تتدخل في الأحداث الجارية بالمنطقة بحجة خرق قرطاجة لبند من بنود معاهدة زاما 201 ق.م التي تحظر على قرطاجة اعلان الحرب في افريقيا أو خارجها إلا بإذن روما. وقد تغاضت روما في البداية عن الصراع الدائر في افريقيا بين ماسينيسا وقرطاجة لأنه كان يخدم المصالح الرومانية، وأما أن يحسم لصالح الحليف ماسينيسا فهذا ما كان يخشاه الرومان، لأن معنى ذلك قيام دولة افريقية قوية قد تقف في وجه المصالح الرومانية، فيكون تدخل روما بذلك هدفه وضع حد لطموح ماسينيسا، خاصة وأنها كانت تدرك أن قرطاجة ستقع لا محالة بين أيدي ماسينيسا، إذ أن تدخل الرومان بهدف الوقوف في وجه هذه القوة الجديدة المتنامية وليس في وجه قرطاجة المنهارة[1].

يمكننا أن نستنتج في نهاية هذه الوقائع التاريخية التي عاصرت الحروب البونية، سيما الحرب البونية الأولى، حول الواقع السياسي لبلاد المغرب القديم بأنه لا يجب قراءته مثلما نجده في كتابات المدرسة الغربية، وهو عظمة وشدة القوتين المتصارعتين: قرطاجة وروما في الحوض الغربي للمتوسط، مقابل وجود ممالك محلية متنازعة على الحدود حينا، وعلى وراثة العرش حينا آخر، ودورها الثانوي في تلك الحروب التي جعلت معظم المؤرخين يوجهون أقلامهم إلى السياسة التي اتبعتها كل من قرطاجة وروما إزاء الممالك النوميدية، وهي التحالف مع احداها لتحقيق مصالحها في الحرب أو ضرب مملكة بأخرى لتحقيق غاياتها في التوسع المستقبلي في المنطقة، يجب علينا بالأحرى النظر إلى السياسة التي انتهجها كل من سيفاكس وماسينيسا بصفتهما عاهلا ممالك سياسية مستقلة تحظى بوجودها وبكل مقوماتها الحضارية في الحوض لغربي للمتوسط، وأنها دخلت تلك الحروب البونية كطرف ثالث للضرورة الاقليمية والسياسية التي فرضتها وقائع الحرب، بحيث توجب أخذ موقف فيها والحفاظ على وجود تلك الممالك أمام الصراع القرطاجي الروماني، وليس دخولهما كحلفاء ثانويين إما لصف قرطاجة أو لصف روما بغية تحقيق مصالح شخصية. فذلك الهدف الذي لا يقل شأنا عن هدف قرطاجة في الحفاظ على وجودها وممتلكاتها في الحوض الغربي للبحر المتوسط، أو هدف روما في التوسع أكثر وكسر شوكة قرطاجة، وهو الحفاظ على استقلال الممالك النوميدية وأمنها ووحدتها اتجاه الخطر الروماني في رأي سيفاكس، الذي اختار التحالف مع قرطاجة لضرورة اقليمية وللروابط التاريخية والحضارية التي جمعت قرطاجة بالمغاربة خلال قرون عدة، واتجاه خطر قرطاجة في رأي ماسينيسا الذي اختار التحالف مع الرومان لأن الظروف أجبرته على ذلك، فقد رأى من بعيد وهو في اسبانيا، أزمة وراثة عرش نوميديا الشرقية وكان لقرطاجة وسيفاكس يد فيها، ولعل ما عمّق من رؤيته تلك هو وجود القنصل الروماني سكيبيو ايميليانوس معه في شبه جزير أيبيريا و وإقناعه بكل الحجج الوقوف إلى صف روما، فلم يجد ماسينيسا حلا آخر وهو بعيد عن مملكته ومسلوب لعرشه سوى اختيار الطرف الروماني. ولعل أبرز دليل على رؤية ماسينيسا هذه هو ما قام به بعد انتهاء الحرب البونية الثانية من توحيد نوميديا كلها واسترجاع الأراضي

([1]) محمد الهادي، حارش: التطور السياسي والاقتصادي في نوميديا منذ اعتلاء ماسينيسا العرش إلى وفاة يوبا الأول، ص ص 29، 30.

التي سلبتها قرطاجة منها في وقت سابق (بعد معركة هيميرا)، وكذا تحقيق الازدهار الاقتصادي والاجتماعي الذي ذاع صيته في كل حوض لمتوسط شرقه وغربه، وكذا تحقيق الوحدة السياسية التي جسدها شعار "افريقيا للأفارقة".

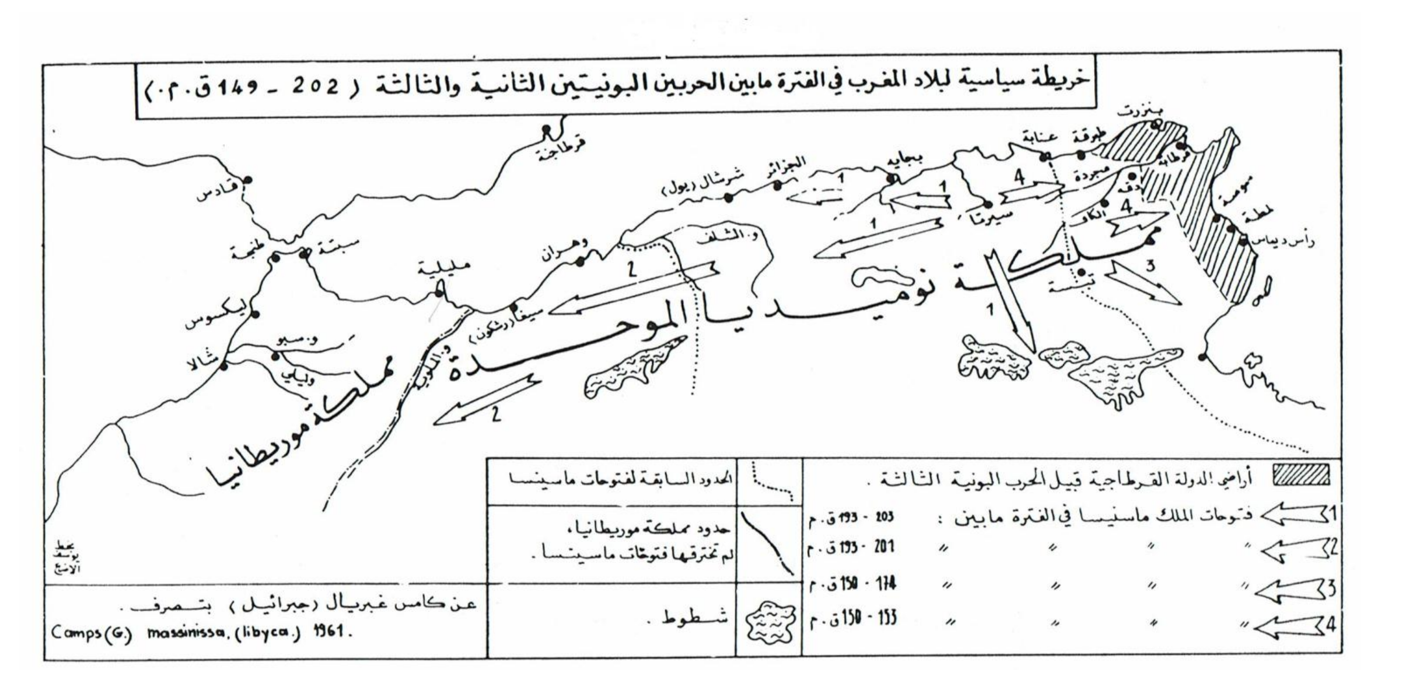


صورة رقم 39: عملة الاقليد ماسينيسا





صورة رقم 40: ماسينيسا على وجه العملة، وعلى وجهها الآخر الحصان النوميدي



الخريطة رقم 12 : توسعات ماسينيسا على حساب قرطاجة بعد الحرب البونية الثانية

عن: محمد البشير، شنيتي، سياسة الرومنة في بلاد المغرب، 1982، ص 165

2- محاولات الحفاظ على الوحدة السياسية والكيان النوميدي في ظل التدخل الروماني لبلاد المغرب القديم (يوغرطة، هيرباص، يوبا الأول، أرابيون)

على غرار تحدي الشرق للغرب الذي قام به الفينيقيون في سواحل بلاد المغرب القديم، نلاحظ تحديا آخر واجه المنطقة المغاربية قديما، وهو التحدي الشمالي الذي بدأ لأول مرة وبصورة جدية وخطير للجنوب، فقد انهزمت قرطاجة أمام الرومان إثر الحروب البونية فسقطت بذلك معالم المدينة التي قادت امبراطورية عظمى في التاريخ، قوامها العلم والمعرفة والفن والحضارة، وبذلك فتحت الأبواب أمام التدخل الروماني في كل بلاد المغرب القديم.

وإذا كانت روما تعتد بإمبراطوريتها شرقا حيث توجد اليونان بلاد الحضارة والفكر، فينيقيا وفارس التي طمحت إلى احتلالها، وتعتد بإمبراطوريتها في الغرب الأوربي حيث الثروة الزراعية والمساحات الشاسعة، فإنها بعد اصطدامها بقرطاجة والحروب المدمرة بينهما أصبحت تعتبر الجنوب من أهم المراكز التي يمكن أن ترتكز عليها في بناء امبراطوريتها[1].

2-1/ محاولة يوغرطة في الحفاظ على وحدة نوميديا (112-105 ق.م):

بعد تدمير قرطاجة سنة 146 ق.م تحدث وقائع كثيرة في بلاد المغرب القديم، لكنها في الحقيقة جزء لا يتجزأ من الحروب الأهلية الرومانية التي انتهت بانهيار النظام الجمهوري. إذ نرى مجلس الشيوخ الروماني يفصل في قضية خلافة ماسينيسا وتوزيع السلطة بين أبناء الملك الثلاثة، فيتسبب هذا الحل بعد 30 سنة في أزمة تؤدي إلى سقوط المملكة النوميدية وإلى حرب يوغرطة. ونقرأ عند سالوست أطوار هذه الحرب الطويلة الشاقة، فنجدها تعبر عن تناقضات الجمهورية الرومانية بقدر ما تروي حرب يوغرطة. فقد يكون هذا الأخير قد خطط لوحدة بلاد المغرب وطرد الرومان لكن يستحيل أن نجد لهذا الهدف صدى عند المؤرخ الروماني الذي يذكر أعمال يوغرطة لغرض واحد، وهو اصدار أحكام قاسية على زعماء روما وهي في دور الانحطاط. ولأن كتاب سالوست هو المصدر الأساسي عن حرب يوغرطة، فإننا لا نقول أن سكوت سالوست يدل على عدم وجود أي مشروع توحيدي وتحريري في ذهن يوغرطة، بل يمكننا القول أن هذه الوثيقة الرومانية المكتوبة لا يمكن أن تسوق الأخبار من وجهة نظر مغاربية[2].

ولعل ما يهمنا أكثر في شخصية يوغرطة هو دوره السياسي خاصة بعد وفاة عمه مكيبسا وحربه ضد الرومان التي تمخضت عنها نتائج مهمة حول مصير بلاد المغرب القديم. كان مسيبسا (أو مكيبسا/ مكوسن) في بداية الأمر يحب ابن أخيه يوغرطة ويرى فيه الشخصية القوية التي ستشرّف العائلة المالكة، غير أنه بعد أن أنجب

(1) عبد الكريم، غلاب: المرجع السابق، ص 70.

(2) عبد الله، العروي: المرجع السابق، ص ص 60، 61.

أطفالا وتقدم به السن ثم تأمّل صغر سن ابنيه: أذربعل وهيمبصال، أيقن بأن ابن أخيه يشكل خطرا عليهما[1]، وحتى يتخلّص مسيبسا من خطر يوغرطة فكّر في الكيد له وقتله، لكن خشيته من النوميد الذين كانوا ملتفين حول يوغرطة إعجابا بفتوته جعله يقدّر عاقبة الأمور التي ربما ستعود وبالا عليه، وبذلك يحرم ابنيه من وراثة العرش النوميدي أو ربما يتمرد عليه قومه لصالح ابن أخيه يوغرطة الذي كانت له مكانة مرموقة بينهم. لذلك نرى بأن الملك مسيبسا يعمد إلى خطة فيها كثير من الدهاء والخبث للتخلص من ابن أخيه يوغرطة تمثلت في ارسال هذا الأخير على رأس جيش لمساعدة الرومان في حروبهم بإسبانيا ضد سكانها من الايبريين، وكان هدف مسيبسا من وراء ذلك هو كسب ود الرومان من جهة، وتعريض حياة الشاب الطموح يوغرطة للخطر المهلك في تلك الحرب من جهة أخرى، غير أنه حدث عكس ذلك[2].

ففي سنة 134 ق.م وأثناء حرب نومانس كان قد أرسله عمه مكيبسا على رأس قوات نوميدية لمؤازرة سكيبيو ايميليانوس، اطّلع هناك على ما يذكر سالوست بفنون القتال لدى الرومان، وقد حاز يوغرطة في نومانس على إعجاب الكثير من الشبان الرومان، اضافة إلى كسبه ثقة سكيبيو الذي أصبح يكلفه بأعسر المهمات. وقد عاد يوغرطة من اسبانيا عزيز الجانب محمّلا برسالة من سكيبيو إلى مكيبسا تشهد له بجدارة انحداره من السلالة الماسيلية. توفي مكيبسا في سن متقدمة وكان قد مرض قبل وفاته بحوالي خمس سنوات، ولما اشتدّ به المرض وشعر بدنو أجله ارتأى أن يشرك يوغرطة في الملك مع ابنيه الصغيرين" عزربعل وهيمبصال، فتبنى يوغرطة سنة 120 ق.م، وفي سنة 118 ق.م توفي مكيبسا وخلفه أبناؤه الثلاثة بعد أن أوصاهم على التعاون والاتحاد.

غير أن يوغرطة سينفرد بالحكم بعد حوالي ست سنوات من الاشتراك فيه مع عزربعل الميّال إلى مسالمة الرومان خلافا ليوغرطة الذي كان يسعى وراء سياسة تحررية مدركا أبعاد السياسة الرومانية في المنطقة. ونتيجة لذلك عمل على التخلص من عزربعل، فزحف على قيرطا التي حاصرها لمدة خمسة أشهر عمل خلالها على خرق أسوارها واقتحامها، وكانت الجالية الايطالية بالمدينة قد صممت على الدفاع عنها بعدما رأس في سياسة يوغرطة الوطنية خطرا يهدد مصالحها في بلاد المغرب، لكن يوغرطة دخل المدينة سنة 112 ق.م ولم يرحم هذه الجالية التي لم تتورع عن الوقوف في وجه سياسته الافريقية بمساندتها لعزربعل. وهكذا أصبح يوغرطة بدخوله قيرطا سيّد نوميديا كلها، وكان تنكيله بالجالية الايطالية قد أثار غضب الرومان، مما تسبّب في نشوب الحرب بين نوميديا وروما التي جنّدت لهذه الحرب أحسن قادتها بدءا بـ "بستيا"(Bestia) وانتهاء بـ "ماريوس"(Marius) من (112- 105 ق.م)[3].

وحسب سالوست الذي كان منحازا للرومان، فإن الجيش الروماني كان ينتصر في جل المعارك المشار اليها على النوميد، وذلك بفضل تنظيمه المحكم وشجاعة قائده ماريوس والنقيب سولا (Sulla) الذي عيّن مساعدا له

(1) Salluste, Guerre de Jugurtha, VI.

(2) محمد الصغير، غانم: المرجع السابق، ص 165.

(3) محمد الهادي، حارش: دراسات ونصوص في تاريخ الجزائر وبلدان المغرب في العصور القديمة، ص 244-246.

سنة 106 ق.م. فقد استطاع سولا بفضل حنكته السياسية والعسكرية أن يلعب دورا مهما في احباط معنويا بوكوس الأول ملك موريطانيا، مما جعله يتخلى عن مساندة صهره يوغرطة، ومقابل ذلك كان يوغرطة هو الآخر بحكم تجربته وخبرته العسكرية يخطط لإلقاء القبض على الضابط الروماني سولا خشية من أنه سيؤلب عليه بوكوس في يوم ما، وعليه فقد أرسل بدوره أحد مساعديه ويدعى "أسبار" الذي حاول اقناع بوكوس بإلقاء القبض على سولا وتسليمه إلى يوغرطة. لكننا نرى في الأخير بوكوس الذي أدرك ببداهة رجاحة كفة ميزان القوة لصالح الرومان يتآمر على صهره يوغرطة ثم يلقي عليه القبض في مؤامرة دنيئة ثم يسلمه إلى الرومان غير مكترث بعلاقة القرابة والجوار والمصير المشترك.

وهكذا نرى يوغرطة يذهب ضحية محاولة الوقوف في وجه المد الروماني في جنوب غربي البحر المتوسط، وهي الخيانة التي باركها بوكوس، فتبدأ بذلك مرحلة الضعف وتقسيم نوميديا إلى ثلاثة أجزاء، بحيث أعطي الثلث الموالي منها لموريطانيا إلى الملك بوكوس الأول نتيجة مشاركته في مؤامرة إلقاء القبض على العاهل النوميدي ونال مقابل ذلك لقب حليف وصديق الشعب الروماني، كما نصّب في الثلث المحاذي لإفريقيا الرمانية الأمير غودا (Goda) وهو شقيق يوغرطة، لكنه كان ضعيف الشخصية، أما الثلث الأوسط من نوميديا فقد منح حسب رأي مصادر تلك الفترة إلى مجهول، والراجح أن هذا الثلث كان منطقة محايدة تفصل بين مملكة غودا شرقا ومملكة بوكوس الأول غربا[1].

(1) محمد الصغير، غانم: المرجع السابق، ص ص 178، 186.





صورة رقم 41: عملة الملك يوغرطة، يوغرطة على وجه العملة، والحصان على وجهها الآخر



صورة رقم 42: يوغرطة على وجه العملة والفيل النوميدي على الوجه الآخر

2-2/ محاولة هيرباص (Herbaces) (86-80 ق.م):

كانت بلاد المغرب القديم من أبرز المناطق التي تعرضت لنماذج متنوعة من أوجه السياسة الرومانية الممهدة للاحتلال، فالتحالف الذي يكون يمثل أولى خطوات الرومان نحو فرض سيطرتهم على بلاد الأحلاف قد نجح مجلس الشيوخ في استغلال ميزاته مع الملوك المغاربة منذ عهد مبكر، حيث كان التحالف أقوى سند للدبلوماسية الرومانية في القضاء على القرطاجيين، كما كان هذا التحالف أقوى العوامل التي سهلت على الرومان تهيئة الجو المغاربي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا لتوسع النفوذ الروماني في البلاد بأقل التكاليف[1].

والجدير بالذكر، أنه بعد حرب يوغرطة نلاحظ سكوت المصادر عن الفترة التي تبعتها، وهو ما يترجم معرفتنا القليلة حول ما بقي من الممالك المحلية مع تموضعها وحدودها الدقيقة، خاصة وأن هذه الحدود قد تغيرت مرات عدة في القرون التي سبقت الاحتلال الروماني الرسمي. وكل ما نعرفه هو وجود مقاطعة أفريكا (Africa) الرومانية، ومملكة نوميديا المستقلة إلى بدايات القرن الأول ميلادي والتي يوجد على رأسها غودا[2]، ومن بعده ابنه هيمبصال الثاني وماسينيسا الثاني، كما أن كل ما وصل إلى المؤرخين فيما بعد هو أخبار وقائع وأحداث الصراع بين أنصار سيلا (أو سولا) وماريوس، وذلك بعد وفاة هذا الأخير (غودا) سنة 86 ق.م[3]. ونتيجة لسياسة التحالف التي سلكها الرومان في علاقاتهم مع بلاد المغرب القديم، فقد كانت هذه الأخيرة معرضة لآثار التقلبات السياسية الرومانية بشكل مباشر. كما كانت تقحم في الصراع الحزبي الروماني -الذي ذكرناه أعلاه- وتتحمل النتائج السلبية لذلك الصراع. وعلى الرغم من أن محاولات تحررية عديدة قام بها المغاربة خلال الهزات السياسية الرومانية، فإن الرومان كانوا يتجنبون خطر هذه المحاولات ويفوّتون على أصحابها فرص النجاح. ولعل أبرز تلك الثورات التحررية ثورة الأمير النوميدي "هيرباص" الذي استغل الخلاف الناشب بين ماريوس وسيلا[4] وقام بما يشبه حركة العصيان على الكيان الروماني العام، واستطاع عن طريق حركته أن يفتكّ الحكم من الملكين هيمبصال وماسينيسا الثانيين وأن يوحد نوميديا تحت حكمه بعد أن ضمن لنفسه مناصرة أنصار حزب ماريوس في بلاد المغرب القديم.

غير أنه بعد عودة سيلا من المشرق وإعلانه ديكتاتورا في نهاية سنة 82 ق.م، أرسل قائده "بومبي" (C. N Pompeius) للقضاء على بقايا أنصار حزب ماريوس في شمال افريقيا بما فيهم الأمير النوميدي هيرباص[5]،

(1) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 59.

(2) Mounir. Bouchenaki, « Relation entre le royaume de Numidie et la république romaine au 1er siècle avant J.-C. », R. H. C. M, Juillet 1969, Faculté des lettres d’Alger, imprimerie de la service d’impression de l’institut pédagogique national, p. 7.

(3) محمد الصغير، غانم: المرجع السابق، ص187.

(4) محمد البشير، شنيتي: نفسه، ص 60.

(5) محمد الصغير، غانم: نفسه، ص 189.

حيث أسر وأرجع الوضع إلى إلى ما كان عليه سابق بأن أعاد سيلا المملكة النوميدية إلى ماسينيسا وهيمبصال الثانيين[1].

2-3/ محاولة يوبا الأول (60-46ق.م):

اعتلى يوبا الأول العرش النوميدي حوالي سنة 60 ق.م، وهو الابن الأكبر لـ هيمبصال الثاني، وقد شارك هذا الشاب في الحياة السياسية بصفته أميرا وكلف بمهام دبلوماسية لمرات عديدة، وعندما اعتلى العرش كان قد تمرّس على الحكم. وقد كان يوبا الأول محبا للظهور بالمظهر اللائق، كما يفهم من بعض المؤرخين بأنه كان محافظا على عادات وتقاليد نوميديا، وهو ما تدعمه بعض الأعمال التي قام بها بمجرد اعتلائه العرش بعد وفاة والده هيمبصال الثاني، فقد قام بحملات كبيرة ضد القبائل المتمردة، كما قام باجتياح أراضي لبدة المتحالفة مع الرومان. لم يكتف يوبا الأول بتزيين عاصمته "زاما ريجيا" بالبنايات الفاخرة كالقصور والمعابد، بل جعلها أيضا مكانا حصينا تحيط به أسوار تضمن له ملجأ منيعا وقت الحاجة[2].

ونتيجة الصراع السياسي في روما بين بومبي وقيصر وامتداده إلى بلاد المغرب القديم كان لابد أن يكون للملك يوبا الأول موقف اتجاه هذا الصراع الذي سيطال ولاشك الوحدة السياسية لنوميديا، وهو موقف هدفه الأول والأخير الحفاظ على الكيان النوميدي ووحدته من التوسع الروماني. لن قيصر كان يعلم مسبقا بأنه كي يضمن مواصلة توسعاته في بلاد الاغريق والمشرق لابد من وضع يد حزبه على شمال افريقيا بهدف تموين روما ومجهوده الحربي بالقمح الصلب، ولهذا الغرض أرسل أحد قواده وهو "كيريون" (Curion) إلى بلاد المغرب القديم. وإن السبب الذي جعل يوبا الأول ينحاز إلى البومبيين (أنصار بومبي) ضد قيصر وقائده كيريون، هو أن يوبا الأول ومن ورائه الكثير من النوميد كانوا قد أدركوا منذ الوهلة الأولى لبداية الحرب الأهلية في مدينة روما مدى مطامح وأهداف حزم العوام التوسعية والذي كان يقوده قيصر، ولذلك اختاروا عن طواعية أخف الضررين للدفاع عن المملكة النوميدية من خلال مناصرتهم لحزب البومبيين الذين كانوا يدافعون عن أهداف مجلس الشيوخ المتشكل معظمه من الأرستقراطيين. ولكي يضمن أنصار بومبي النوميد إلى جانبهم عمدوا إلى تقديم وعود إلى يوبا الأول عند انتصارهم على قيصر، منها تسليم مقاطعة أفريكا الرومانية إلى يوبا الأول في حالة انتصارهم. كما قاموا بمساعدة يوبا الأول على سك عملة خاصة سنة 49 ق.م تحمل على احدى وجهيها صورة الملك وعلى الوجه الآخر الاله الافريقي (ربما كان بعل أمون)، كما قام هؤلاء الأنصار بلفت انتباه يوبا الأول للأخطار التي ستهدد نوميديا بانتصار قيصر وأتباعه في الحرب الأهلية.

وأمام شدة الحرب في بلاد المغرب ضد القيصريين عزم يوليوس قيصر على القدوم ليقود الحرب بنفسه ضد النوميد ويوبا الأول بعد نجاحهم في المعركة ضد قائده كيريون في كل من أوتيكا وحدرموت (Hadrumété)

---

[1] محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 60.

[2] محمد الهادي، حارش: دراسات ونصوص في تاريخ الجزائر وبلدان المغرب في العصور القديمة، ص 255.

(سوسة)[1] مثلما اشار إلى ذلك مؤرخو تلك الفترة، أمثال فلوروس[2] وقيصر في كتابه[3]. فقد أبحر قيصر إلى بلاد المغرب القديم ونزل في حدرموت أين اتصل بالنوميد والجيتول الفارين من جيش القائد سيبيون Q. S) (Métellus scipion صهر بومبي الذي كان يعسكر بالمنطقة التي نزل بها قيصر. ومن جهة أخرى، حاول قيصر ايجاد حلفاء يقلقون نوميديا من الناحية الغربية، حيث اتصل بكل من بوكوس الثاني ملك موريطانيا الذي كان يخشى هو الآخر على مملكته من انتصار البومبيين وحليفهم يوبا الأول، كما عمد قيصر كذلك إلى استقطاب المرتزق الايطالي سيتيوس(P. Sittus) الذي كان يقود مجموعو من المرتزقة القراصنة في البحر المتوسط. وعندما اجتمعت لقيصر كل الظروف أعطى اشارة إلى قوات بوكوس الثاني وسيتيوس لتنفيذ الخطة المتفق عليها مسبقا، وما هي إلا أيام من مغادرة يوبا الأول لمملكته بعد جمعه لقوات كبيرة من الفرسان النوميد لمواجهة قيصر في معركة تابسوس (Thapsus) سنة 46 ق.م بشمال شرقي تونس (رأس ديماس)، حتى بلغته أخبار محاصرة بوكوس الثاني وسيتيوس لمدينة سيرتا أهم مدن المملكة النوميدية، وهو ما دعى يوبا الأول إلى الانسحاب من المعركة للدفاع عن مملكته، وبذلك انفرد الامبراطور الروماني ببقايا أنصار بومبي، فقضى على آخر فلولهم وفتحت أمامه كل مدن تونس بما فيها مدينة زاما (Zama) عاصمة يوبا الأول التي أوصدت أبوابها[*] في وجهه نتيجة الهزيمة التي تلقّاها[4].

كانت هزيمة تابسوس سنة 46 ق.م عواقب وخيمة على نوميديا التي ألحقت بالممتلكات الرومانية وأصبحت تكوّن ولاية رومانية جديدة هي "أفريكا نوفا" (Africa Nova)بعد وفاة الملك يوبا الأول الذي فضّل الانتحار في ضواحي زاما ريجيا على الوقوع في أيدي الرومان[5]. واضافة إلى ذلك، نجد من نتائج انتصار قيصر كذلك على يوبا الأول أن نفّذ قيصر وعوده اتجاه حليفيه، فقد منح للمغامر الايطالي سيتيوس سنة 46 ق.م الركن الشمالي الشرقي من نوميديا والمتمثلة في روسيكادا، شولو (القل)، ميلاف (ميلة) وسيرتا ليكون ذلك ما عرف في تاريخ المنطقة بالاتحاد السيرتي، كما نال الملك بوكوس الثاني نصيبه من الغنيمة فألحق بمملكته موريطانيا الجانب الغربي من نوميديا، بحيث أصبحت حدودها الشرقية تلامس مصب النهر الكبير (لامبساقا)[6]. ويمكننا القول أنه قد توفرت مجموعة عوامل دفعت الملكين: يوبا الأول وبوكوس الثاني إلى اتخاذ موقفين متناقضين —على

([1]) محمد الصغير، غانم: المرجع السابق، ص 190-192.

([2]) Florus, Guerre civile de César et de Pompée, IV, II.

([3]) César, Guerre civile, II, 2, 25.

(*)"كان الملوك النوميد حريصين على وضع رجال أكفاء ومخلصين لهم على رأس المدن، وخاصة تلك التي انتزعوها من أيدي القرطاجيين، لكن يبدو أن حكام المدن النوميدية لم يكونوا كلهم دائما في مستوى ثقة ملوكهم، إذ يظهر أن بعضهم كان يضعف أمام اغراءات الأعداء فيتآمر معهم ويشق عصا الطاعة على الملك. فهذه زاما إحدى عواصم نوميديا يشق أهلها عصا الطاعة لملكهم يوبا الأول وأوصدوا أبوابها في وجهه عند عودته منهزما من معركة تابسوس" (أنظر: محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 141).

([4]) محمد الصغير، غانم: المرجع السابق، ص ص 193، 194.

([5]) محمد الهادي، حارش: دراسات ونصوص في تاريخ الجزائر وبلدان المغرب في العصور القديمة، ص 257.

([6]) محمد الصغير، غانم: نفسه، ص 195.

غرار سيفاكس وماسينيسا- أديا إلى ذلك المصير السيء نتيجة الانقسام والاقتتال بدل الاتحاد والثورة ضد التوسع الروماني، الذي كانت الثورة المتلاحمة تمثل أبلغ خطر عليه في تلك الظروف الصعبة[1].



صورة رقم 43: على اليمين عملة الملك يوبا الأول، حيث يظهر يوبا الأول على وجه العملة وقد اتخذ من قرني آمون شعارا على رأسه، وعلى الوجه الآخر للعملة نرى صورة للفيل النوميدي واسم يوبا أعلاها. على االيسار تمثال يوبا الأول

عن: محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة، 2013، ص 151

(1) محمد البشير، شنيتي: سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا، ص 64.

2-4/ محاولة أرابيون (44 ق.م):

بعد يوغرطة، هيرباص ويوبا الأول، نجد الأمير النوميدي "أرابيون" (Arabion)، وهو ابن ماسينيسا الثاني يحاول من جديد استرجاع ما سلب من الأراضي النوميدية وإعادة بناء الكيان النوميدي حينما يستغل فرصة تنازع حاكمي الولايتين الافريقيتين: القديمة(Africa vetus) والجديدة (Africa Nova)على تجميع سلطة الولايتين في يد أحدهما، أين كانت حاجة كل منهما إلى النوميد من أجل الانتصار على خصمه. فكانت بداية هذه المحاولة النوميدية عندما طلب سيكتيوس(Sextius) حاكم افريقيا الجديدة يد المساعدة من أرابيون، وكان مجلس الشيوخ قد جرّده من مهامه كحاكم للولاية الجديدة، لأنه أعلن انضمامه إلى الحكم الثلاثي (Triumvirat) المناهض لمجلس الشيوخ والذي أخذ يعمل على توحيد الولايتين تحت حكمه بأمر من مجلس الشيوخ.

تحرك الأمير النوميدي أرابيون لخوض الحرب إلى جانب الحاكم سيكتيوس حيث التف حوله الفرسان النوميد، وركز نشاطه العسكري ضد إمارة المرتزقة التابعين لـ سيتيوس وتمكن من إبعاد المعمرين السيتيان (مرتزقة سيتيوس) عن منطقة سيرتا وأن يقضي على رأس المرتزقة سيتيوس في احدى المعارك. كما استطاع النوميد بقيادة أرابيون إزاحة جيش بوكوس عن الجزء الغربي من مملكة نوميديا القديمة، فأحيا أرابيون بهذه الانتصارات السريعة كيان نوميديا الغربية.

لكن تلك الانتصارات أثارت مخاوف حليفه سيكتيوس الذي رأى بأن أرابيون قد أصبح قوة لا يستهان بها وأن وطنيته قد تدفعه إلى الانقلاب ضده بعد أن يقوّي أركان المملكة التي أحياها، لذلك قرر سيكتيوس أن يضع حدا لنشاط الأمير النوميدي قبل أن يستعصي أمره، فأوعز باغتياله مدّعيا أنه اشتبه في أمره وأنه تأكد من تعامله مع عدوه "فانغون"(Fangon) حاكم افريقيا الجديدة الجديد. وقد اتخذ المؤرخون من هذا الادعاء سببا وحيدا لعملية اغتيال أرابيون من طرف سيكتيوس دون النظر إلى المساهمة النوميدية في تلك الأحداث على أنها ظاهرة وطنية تحررية، فأبعاد عملية الاغتيال لم تكن بسبب شخص أرابيون المشتبه به، وإنما كانت اغتيالا للحركة الوطنية التي حمل لواءها أرابيون، ذلك أن سيكتيوس كان حريصا على الاحتفاظ بنتائج حملة قيصر على افريقيا، وأنه لم يستعن بالنوميد إلا بهدف الكسب المزدوج لقضيته التي تمرد من أجلها على مجلس الشيوخ، والمتمثلة في الاحتفاظ بسلطته على افريقيا من جهة، والمحافظة على أقصى مكاسب الرومان في بلاد المغرب من جهة أخرى[1].

[1] محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 68-70.

3-البعد السياسي للثورات المحلية ضد الاحتلال الروماني

-محاولات فترة الاحتلال الروماني

واجه الرومان طيلة فترة وجودهم ببلاد المغرب القديم أشكالا عدة من المقاومة والدفاع عن استقلال المنطقة تباينت بين الحرب النظامية مثلما رأينا مع يوغرطة ويوبا الأول، وبين المقاومة المنظمة التي قادها زعماء القبائل المتضررة من توسع الرومان في أراضيها مثل ثورة تاكفاريناس وانتفاضة ايدمون مثلما سنرى، اضافة إلى الاضطرابات والتمردات التي أنهكت جهود الرومان حينا، وعطّلت مشروعهم في بسط سيطرتهم الكاملة على المنطقة حينا آخر.

والواقع أن أسباب متعددة كانت وراء هذه التمردات، بدءا بالوضعية التي أصبحت عليها موريطانيا بعد وفاة بوخوس الأول سنة 33 ق.م، والتي تمثلت في إنشاء مستوطنات رومانية بالبلاد، وإلى دور يوبا الثاني وبطليموس في إرساء وتكثيف الوجود الروماني في البلاد. وقد تكون الأسباب التي حالت دون ضم موريطانيا إلى باقي الولايات الرومانية (بعد حرب قيصر سنة 46 ق.م)، هي ضعف الوجود الروماني بها وعجزها عن الدفاع عن مجالات شاسعة بشمال افريقيا، ثم ضرورة تهدئة وتسوية أوضاع نوميديا، خاصة وأن الأمن لم يكن قد استتب بعد بهذه الولاية، فقد حافظت قيادة المقاطعة القيصرية على ذلك المنظور السياسي في معاملتها لسكان المقاطعة سواء كانوا داخل الحدود أو على التخوم، وذلك باعترافها للقبائل المورية بالاستقلال الذاتي من حيث النظم الداخلية والقوانين والأعراف التي درجت على التعامل بها داخل القبيلة أو فيما بين القبائل والامارات، واكتفت السلطة الرومانية بالسيطرة على قادة المور وأمرائهم فجعلتهم خاضعين لإرادتها مقابل اعترافها بسلطتهم على أقوامهم ومنحها شارات الامارة أو القيادة وألقابا سلطوية رومانية مثل حاكم القبائل (Praefectus Gentis). ولقد بررت طبيعة الوجود الروماني تلك السياسة لأن الاحتلال كان استيطانيا اعتمد على المجال الحيوي المتمثل في الأرض الصالحة للاستغلال، وهو ما سمح بتواصل التشكيلات القبلية المستقلة بالمناطق التي لم يشملها الاستيطان كالمرتفعات والسهوب، مشكّلة وحدات سياسية مستقلة نسبيا وصفها كورتوا بالجزر العائمة في محيط روماني[1]، كناية عن اجتياح الاستيطان الروماني للسهول وبقاء الجبال ممتنعة عنه تعتصم بها القبائل النازحة من السهول، وقد ظلت تلك الجزر مصدر تهديد لأمن المدن والأرياف الخاضعة للاستيطان طيلة الوجود الروماني[2].

ذلك أنه مع إنشاء المستوطنات طرأ تحول على المجالات الزراعية والرعوية وكذا على توزيع السكان، حيث أن استيلاء المستوطنين على أراضي المزارعين واستقرارهم بالأحواض السهلية وعلى طول الأودية ومصادر المياه، قد

(1) Ch. Courtois, les vandales et l’Afrique, p. 332.

(2) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج2، ص ص 337، 338.

دفع قبائل المستقرين إلى مناطق هامشية بحواشي السهول الخصبة وإلى المرتفعات والتلال وأعالي الأودية، وهو الذي كان بالتأكيد وراء العديد من الانتفاضات التي قامت بها هذه القبائل ضد المستوطنين والمستوطنات الرومانية[1].

1-ثورة قبائل الجيتول (3-6م):

نجد نصوص المؤرخين القدماء في سردهم للتاريخ العسكري الروماني ببلاد المغرب اشارات عديدو حول الثورات القبلية بالمنطقة ضد سياسة الاستيطان التي بدأ الرومان في ممارستها منذ بداية القرن الأول ميلادي، وإن هذه الانتفاضات القبلية برابنا هي دفاع لا عن المجال القبلي الذي كانت تملكه كل قبيلة، بل هو مقاومة لسياسة الرومنة الاستيطانية ورفض للتدخل الروماني في سبيل استقلال المجال الحيوي لكل قبيلة الذي هو استقلال لبلاد المغرب وليس رغبة بالعيش في ذلك "الظل الأبدي".

ومن أولى المقاومات القبلية الرافضة لسياسة الاستيطان الرومانية نجد تلكم التي قام بها الجيتول بين سنتي (3-6م)، فجيتول الصحراء كانوا من أشد المقاومين لسياسة الرومنة في توطينها للمزارعين الايطاليين الذي أفلستهم الحرب الأهلية، وكذا لإجراءات الكنترة (المساحة) وشق الطرق في مناطق انتجاعهم[2]، حيث يتحدث ديون كاسيوس عن ثورة الجيتول ضد يوبا الثاني قائلا أنهم رفضوا طاعة الرومان، فخربوا الاقليم المجاور وقتلوا العديد من القادة الرومان الذين وقفوا في وجههم[3]، وهو يقصد هنا الثورة التي امتدت ما بين سنتي 3-6 م والتي أعقبت ثورة الغرامنت (19 ق.م)، حيث انتصر القائد كورنيليوس بالبوس على القبائل التي تحالفت مع الغرامنت ضد يوبا الثاني وابنه بطليموس، وإن كانت الشهادات الرسمية للروماني قد احتفظت بنصره فقط على الفزانيين والغرامنت، فإن بلين القديم أشار إلى اختراق الجيتول لهذه الحملة[4]، حيث بقيت ثورتهم مستترة خلال فترة الهدوء المؤقت الذي أعقب انتصار كورنيليوس بالبوس على الغرامنت، لتعود في عهد البروقنصل " L.Passienus Refus" ، الذي بدأت مهامه سنة 4 ق.م، وذلك منذ سنة 3 م، فكان من بين القادة الذين قتلوا في هذه الثورة البروقنصل "Cossus Cornelus" في حملته ضد الجيتول المتمركزين ما بين صبراتة والسرت الكبرى. فهذه الثورة هددت كامل منطقة الحدود الجنوبية لأن قبائل الموسولام المتمركزة بالأوراس قد شاركت إلى جانب الجيتول في السرتين الكبرى والصغرى، وامتدت شرقا حتى لبدة، وشملت غربا كل القبائل التي تعيش جنوب موريطانيا ونوميديا[5].

وبهذا نلاحظ أنه قد كان أمام الجيش الروماني عقبات عسكرية كان عليه تذليلها، منها مقاومة قبائل الجيتول ومن يسندهم من القبائل الجبلية وأقوام الصحراء وعلى رأسهم مملكة الغرامنت (جرمة). كما كان على قادة الجيش الروماني بافريقيا التخطيط لحرب تشمل عملياتها العسكرية البلاد الممتدة من خليج السرت الكبير شرقا إلى

(1) ماجدة، بنحيون: المرجع السابق، ص ص 276، 277.

(2) محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص 165.

(3) Dion. Cassius, Histoire romaine, LV, 28.

(4) H. Lhote, « l'expédition de Cornelius Balbus au Sahara en 19 av. J.-C. », Rev. Afr, Vol. 98, 1954, p. 42.

(5) Marcel. Bénabou, Op. Cit, p. 64.

جنوب موريطانيا غربا، ومن نوميديا شمالا إلى بلاد الغرامنت جنوبا، كما أن مقاومة قبائل الجيتول هذه ما هي إلا رد فعل قوي ما لبث أن أصبح دائما عندما ثبّت الرومان احتلالهم هناك بتحصينات دائمة[1]، وهو ما نلمسه من رد فعل قبائل الموسولام بالأوراس بقيادة تاكفاريناس.

2- ثورة تاكفاريناس (17-24 م) :

انتفضت القبائل النوميدية من جديد بعد ثورة الجيتول والغرامنت منذ السنوات الأولى لبداية حكم تيبريوس(Tibère)، زعيم هذه الثورة تاكفاريناس[2](Tacfarinas) كان يعمل في البداية كمساعد في الفرق الرومانية ولكنه ترك الجيش الروماني فيما بعد[3]. ويبدو أن السياسة اتجاه المغاربة كانت وراء اندلاع ثورة تاكفاريناس التي استغرقت مدتها 7 سنوات والتي وصفت بأنها حرب شرسة ذات أهداف تحريرية والتي قوبلت بها سياسة الرومنة في نوميديا[4]، بدليل الصلات الدبلوماسية التي أقامها تاكفاريناس مع القبائل المجاورة قبل اندلاع الثورة، كالتحالف مع المور في الغرب والكنتيين في الشرق، اضافة إلى الاحساس بضرورة مجابهة سياسة الرومنة التوسعية في بلاد المغرب القديم، وهذا يتضح من اندلاع الثورة على إثر اقامة الرومان خط قابس-حيدرة مرورا بقفصة، مع اقامة مركز الفرقة الأوغسطية الثالثة في حيدرة بهدف مراقبة قبائل الموزولامي والحد من تحركاتها.

كما تتجلى الدوافع الاقتصادية للثورة في النداء الذي وجهه قائد للثورة تاكفاريناس للامبراطور تيبريوس المتمثل في ضرورة إعادة الأرض إلى أصحابها مقابل ايقاف لهيب الثورة، إذ يشير بعض المؤرخين إلى عمليات توزيع الأراضي التي قام بها الامبراطور أوكتافيوس أغسطس، ومن بعده تيبريوس على النازحين من ايطاليا، وهي -ربما- الأراضي التي طالب تاكفاريناس بإرجاعها إلى أصحابها كشرط لإيقاف الثورة، فتكون هذه المشاريع الاستيطانية بذلك من بين الأسباب التي أدت إلى اندلاع الثورة[5]. لأننا نلاحظ في نص تاكيتوس، وهو المؤرخ الذي روى أحداث هذه الثورة بالتفصيل بأنه حاول الاساءة إلى ثورة تاكفاريناس فذكر بأن هذا الأخير لم يكن يسعى إلى طرد الاحتلال الروماني من بلاد المغرب وإعادة توحيد نوميديا، بل كان يسعى إلى حمل الرومان على احترام أراضي القبائل النوميدية التي كانت تناصره، كما كان يهدف إلى إعطاء الحرية الكاملة لقبائل الموزولام غير المستقرين في التنقل عبر المنطقة الطبيعية بمواشيهم.

وعلى هذا الأساس عهدت روما إلى قنصلها "بليزوس" الذي عرف بحنكته العسكرية بالقضاء على ثورة تاكفاريناس، فعمد بليزوس إلى تقليد خطة القائد النوميدي بحيث قسّم جيشه إلى ثلاث كتائب عهد اليها بمراقبة كامل المنطقة التي تتحرك فيها جيوش تاكفاريناس بداية من سيرتا حتى خليج السرت، ثم جزّأت تلك الكتائب

---

(1) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج1، ص 50.

(2) Tacite, Annales, II, LII.

(3) René (Louis Victor). Cagnat, l'Armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire del'Afrique sous les empereurs, imprimerie nationale : E. Leroux, Paris, 1913, p. 9.

(4) محمد الصغير، غانم: المرجع السابق، ص 211.

(5) محمد الهادي، حارش : دراسات ونصوص في تاريخ الجزائر وبلدان المغرب، ص ص 57، 58.

نفسها إلى فرق خفيفة يرأس كل واحدة منها قائد المائة (centuriom)، وحتى يسهل على القادة الرومان محاصرة الثوار والحد من حركتهم عمدوا إلى تجميد الكتائب المساعدة من الأهالي وتقديم مغريات تجعل الأخيرين يجدون في إلقاء القبض على تاكفاريناس نفسه.

واضافة إلى ذلك نجد بأن الرومان قد استعانوا بقوات يوبا الثاني ملك موريطانيا القيصرية، إلا أن وفاة هذا الأخير جعل مهمة مواصلة الحرب الرومانية ضد تاكفاريناس صعبة للغاية، ذلك أن ابنه بطليموس الذي اعتلى العرش بعده كان ضعيف الشخصية وتنقصه الخبرة الادارية، اضافة إلى سمعته السيئة بين المور الذين كانوا يتعاطفون مع ثورة تاكفاريناس، ومع ذلك فقد اعتمد على بعض القادة من الأهالي الذين كانوا يخلصون لوالده، فجمع هؤلاء الأخيرين جيشا كبيرا من الأهالي وضعوه تحت قيادة القنصل "دولابيلا" (Dolabella) الذي أوفدته روما بعد فشل القنصل السابق في مهمته[1]. ولأن القنصل دولابيلا شعر في البداية بفشل خططه الرامية إلى القبض على تاكفاريناس، فقد لجأ إلى أسلوب النوميد في الحرب وهو حرب العصابات، وذلك بتقسيم فيالقه إلى فرق عديدة وكل فرقة إلى كتائب لتقوم بمحاصرة تاكفاريناس أينما حل من غير أن يهمل أساليب الوعد والوعيد والاغراء التي سبقه اليها بليزوس، وهي الأساليب التي برع فيها الرومان والتي أدت إلى مقتل تاكفاريناس في ضواحي أوزيا، حيث عسكر في حصن بال، ففاجأه دولابيلا مع طلوع الفجر وانقض على جنود تاكفاريناس الذي رمى بنفسه في المعركة مفضلا الموت على الوقوع في أيدي الرومان[2].

3-ثورة ايدمون (40-42 م):

كان لإبقاء الرومان على مقاطعة موريطانيا القيصرية ضمن الأقاليم الخاضعة لسلطة الامبراطورية، أمر جعل من هذه المقاطعة عرضة لإرادة وكلاء الامبراطور، فساسوها بأساليب مختلفة كان للعلاقة بأعيان الأهالي وأمرائهم دخل كبير فيها، لأنه لم يكن متأتيا لأولئك الحكّام أن يمدوا نفوذهم على تلك القبائل المتحركة عبر مجال جغرافي مترامي الأطراف، دون استخدام ذوي الأمر والنهي منهم. ولاشك أن هؤلاء كانوا يدركون أهميتهم في تلك العلاقة الهشة، ويظهر أت تلك القيادات القبلية تمتعت بثقة العشائر التي مثلتها وحازت اعجابها وطاعتها، وهو ما يفهم من قدرتها على تحريض الناس على الثورة ضد الرومان، وجمع أعداد كبيرة من المقاومين في زمن قصير، فضلا على قيادة المعارك بشجاعة وعقد التحالفات مع قبائل أخرى لإكثار عدد المقاتلين وتوسيع مجال المقاومة، وهي أمور تدل على شعبية أولئك الأمراء المتأتية من ولاء قومهم التقليدي، وقد اتضح ذلك في المقاومة التي قادها ايدمون (Aedemon) بعد مقتل الملك بطليموس (Ptolémée) بانضمام القبائل إلى تلك الحرب[3]، وهي قبائل رعوية في السهوب العليا ورفاف الصحراء. وقد كان ايدمون أحد مساعدي الملك الغتال بطليموس، كما احتفظت النصوص باسم أحد زعماء القبائل الريفية أو الرعوية الثائرة ويدعى "سبعل" (Sabal) وكان يلقب

(1) محمد الصغير، غانم: المرجع السابق، ص 213.

(2) محمد الهادي: حارش: المرجع السابق، ص 62.

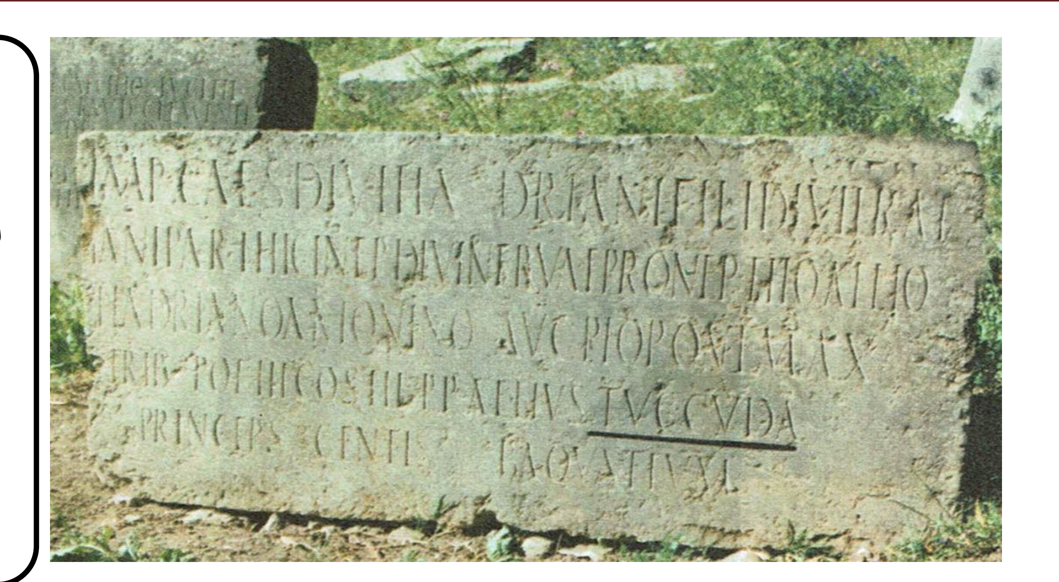
(3) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج2، ص 330.

بالملك، مما يدل على أن القبائل التي مثلها كانت مستقلة عن الحكم المركزي في موريطانيا القيصرية أثناء عهد يوبا الثاني وابنه بطليموس، وأنها كانت تقدم ولاءها للملك وتتمرد ضده أحيانا[1].

ولأن هذه المقاطعة كانت تعيش حالة مضطربة مزامنة لاعتلاء الامبراطور كلوديوس[2] العرش، فقد حذت بهذا الأخير إلى تعيين قنصل يحمل لقب قائد "Lagatus" مهمته اخضاع البلاد وتثبيت الاحتلال، ويظهر أن هذا القائد قام بعمليات عسكرية شاملة استحق عليها شارات النصر، غير أن البلاد كانت لاتزال ثائرة سنة 42 م عندما عيّن عليها الامبراطور قائدا آخر يدعى "C. Suetonius Paulinus" الذي كان من صف بريتوري[3] (Prétorien)، والذي وصل بحملاته العسكرية ضد المقاومين المور إلى ما وراء جبال الأطلس[4]، فكان بذلك أول روماني يبلغ ذلك العمق الجغرافي في أراضي موريطانيا الشاسعة حتى وصل وادي "غير" الذي يشق الصحراء الغربية جنوبي مرتفعات الأطلس الخلفي. ومع ذلك يتمكن من إحراز نصر نهائي لصالح الاحتلال، وذلك أنه كان على خلفه "هوزيديوس جيتا" (Hosidius Geta)أن يبذل جهودا قصوى في منازلة ملك المور سبعل ومتابعة تحركاته وتعقبه إلى الصحراء[5].

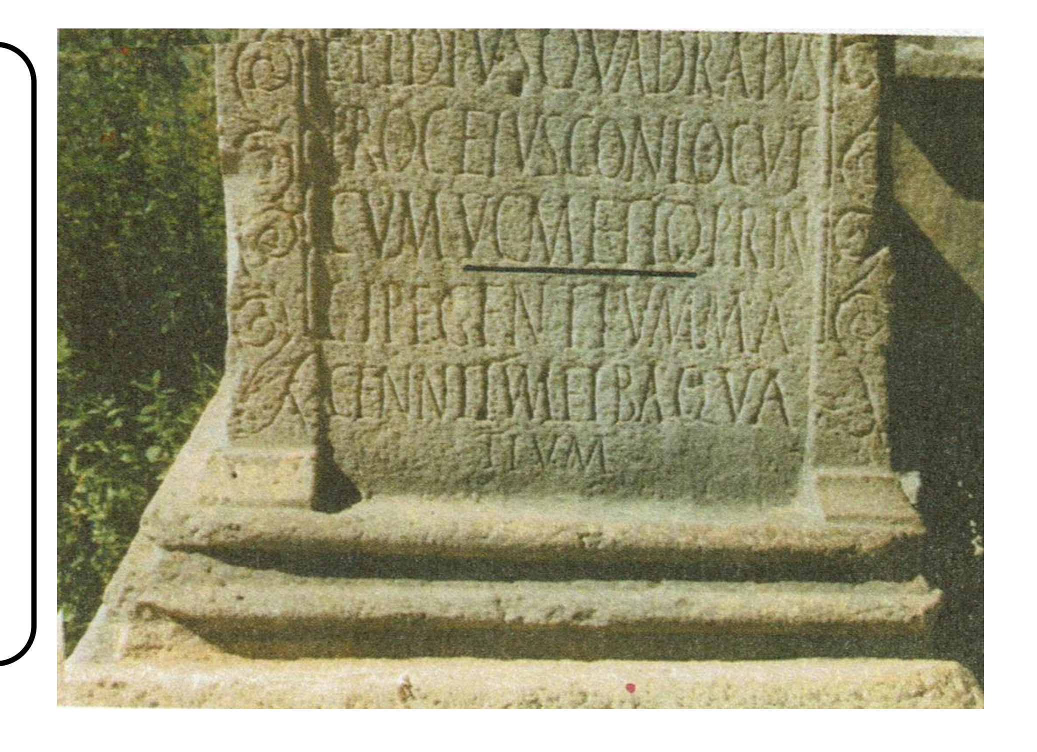
والواضح أن النتائج التي تلت مقاومة ايدمون تمثلت في إلحاق آخر الممالك الوطنية التي بقيت شبه مستقلة بالسلطة الرومانية، ودخول بلاد المغرب القديم في الاحتلال الروماني الرسمي وما تلى ذلك من تنظيم موريطانيا اداريا وعسكريا، فأسست بها مقاطعتان: القيصرية والطنجية ووضعت إدارتها تحت وصاية الامبراطور مباشرة باعتبارهما مقاطعات عسكرية. لكن هذا لن يمنع قبائل بلاد المغرب القديم من الاستمرار في المقاومة طيلة فترة الاحتلال مستغلين الفرص السانحة لذلك، مثلما فعلت قبائل البوار والحلف الخماسي وكذا البقواط، ولا أدل على ذلك مما نجده في مختلف النقوش اللاتينية المنتشرة في بلاد المغرب القديم، والدالة على معاهدات السلام بين القبائل الثائرة والسلطة الرومانية، على غرار معاهدات السلام بين البقواط والرومان في موريطانيا الطنجية.

(1) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج1، ص ص 61، 62.
(2) Dion. Cassius, LX, 8.
(3) R. Cagnat, Op. Cit, p. 30.
(4) Dion. Cassius, LX, 9.
(5) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج1، ص 63.



صورة رقم 44: **نقيشة معاهدة سلام وقعها الزعيم البقواطي توكودا مع الرومان**

عن: مصطفى، أعشي، نقائش معاهدات السلام، 2004، ص69



صورة رقم 45: **نقيشة معاهدة السلام التي وقعها أوكميت زعيم قبائل الماكنييت والبقواط مع الرومان**

عن: مصطفى، أعشي: نفسه، ص 70



صورة رقم 46: نقيشة معاهدة السلام بين الأمير البقواطي ايليلاسن مع الرومان

عن: مصطفى أعشي، نقائش معاهدات السلام، 2004، ص 72

Genio Imp(eratorum duorum) / L(cii) Septimi(i) Seueri Pii Pertinacis/ et Marci Aurel(ii) Antonini/ et P(ublii) Septim(i) getae Caes(aris) Aug(ustorum), C(aius) Sertorius Cattianus, proc(urator)/ eorum, conlocutus cum Ilila/sene, Princ(ipe) gentis Baquatium[1066], filio Ureti, Princ(ipis) g(entis) eiusdem, prid(ie) nonas Mar(tias), Victorino et Proculo co(n) s(ulibus).[1067]

Date : 6 mars 200.

إلى جني الإمبراطورين لوكيوس سِبتيميوس سِيويروس التقي، الصارم[1068]، وماركوس أوريليوس أنطونينوس الأوكوستيين و(إلى جني) بوبليوس سِبتيميوس كيتا القيصر (قدم الإهداء) كايوس سيرتوريوس كاتيانوس وكيلهما والمتفاوض مع إيليلاسن، وجيه قبيلة إبقوين و ابن أوريت وجيه نفس القبيلة، يوم بارحة تواسع مارس (أي 6 مارس) تحت قنسلية[1069] ويكتورينوس و بروكولوس.

شكل رقم 7: نص معاهدة السلام بين الزعيم البقواطي ايليلاسن والرومان

عن: حليم، غازي، نقائش لاتينية لماوريطانيا التنكية، 2011، ص 207، 208



صورة رقم **47**: نقيشة على لوحة حجرية مكسرة تتحدث عن تجديد السلام بين زعيم بقواطي والرومان

عن: مصطفى، أعشي، **2004**، ص **74**

241.

Pro salute Impe/ratoris Caesaris/ M(arci) Aureli(i) Antonini Aug(usti) Armeniaci, / Medici, Parthici, /Germanici max(imi,)/ Epidius Quadratus,/ proc(urator) eius, conlocut(us) cum Ucmetio, principe gentium Ma/ cennitum[1029] et Baqua/tium.[1030]

Date : 173 –175.

من أجل سلامة الإمبراطور قيصر ماركوس أوريليوس أنطونينوس أوكوستوس[1031]، الأرميني[1032]، الميدي[1033]، البارثي[1034]، الكرماني[1035] الأعظم. (أقام النصب) إيبيديوس كوادراتوس، وكيله والمتفاوض مع أوكماتيوس، وجيه قبيلتي إمكناسن و إبقوين.

شكل رقم8 : نصين لنقيشتي معاهدتين للسلام بين البقواط والرومان في موريطانيا الطنجية، عن: حليمة، غازي، 2011، ص 202، 204

Genio Imp(eratoris) [L(ucii) Aurel(ii) Commodi]/ Aug(usti), Sarmatici, Germanici,/ Principis Juventutis,/ D(ecimus) Veturius Macrinus, / Proc(urator) Aug(usti), conlocutus cum Canarta, Principe con/stituto Gentis Baquatium/ (ante diem) III (tertium) idus octobres Praesente /II(iterum) et Condiano co(n)s(ulibus).[1043]

Date : 186.

إلى جني الإمبراطور لوكيوس أوريليوس كومودوس أوكوستوس[1044]، السرماتي[1045]، الكرماني[1046]، أمير الشبيبة، (أقام المذبح) ديكيموس ويتيريوس ماكرينوس، وكيل أوكوستوس، المتفاوض مع كانارتا الوجيه، المعيّن (أو المتفق عليه) لقبيلة إيبقوين، في اليوم الثالث قبل أواسط أكتوبر(أي 13 أكتوبر) تحت القنسلية[1047] الثانية لبرايسينس و(الأولى) لكونديانوس.

4-ثورات قبائل القرن الثالث ميلادي:

وبعد الجيتول والموسولام لا يمكننا في هذه الدراسة أن نتجاوز قبائل البوار التي لعبت دورا هاما في مقاومة الاحتلال الروماني. إذ أن الخارطة التقريبية لهذا الشعب الكبير (GENTIS MULTUS)، امتدت من التل الوهراني إلى جبال بابور، فهم بهذا التحديد قوم جبليون مزارعون ومربو مواشي، في حين يرى آخرون أنهم بدو متنقلون عبر السهوب، من نهر الملوية إلى جنوبي سطيف[1]. فبعد استعراضه لنقوش عديدة دالة على ثورات البوار (BAVARES)في كامل مقاطعة موريطانيا القيصرية، توصل كومس إلى أن هناك مجموعتان كنفدراليتان تحملان نفس الاسم، إحداهما في أقصى الغرب والأخرى في أقصى الشرق، وهما البوار الغربيون الذين ربطتهم علاقة مع قبيلة المازيس (MAZICES)في الورشنيس والبقواط في الأطلس الأوسط، والبوار الشرقيون الذين يتوزعون من الصومام إلى الوادي الكبير، شاغلين بذلك مناطق: سطيف، كويكول، ميلة، وخاصة جبال البابور(وربما أعطته اسمها)، فهم شعوب جبلية في الشرق كما في الغرب. وقد هددوا على الدوام ، خلال قرون السلم الروماني(PAX ROMANA)، هدوء السهول لأنها كانت مراعيهم الشتوية[2]. إذ نجد نقوش عديدة تسجل انتصارات القادة الرومان على البوار الثائرين، منها نقش مليانة (ZUCCABOR)المؤرخ في 1 جانفي 263م، والمهدى إلى حاكم مقاطعة موريطانيا القيصرية، الذي لقب آنذاك بالمدافع PROTECTOR) (EIUS، فهو يعكس فترة الثورات التي اشتعلت بإفريقيا بداية النصف الثاني من القرن الثالث، حيث امتدت مابين(253-262م)، وشملت كنفدرالية مكونة من البوار المعتصمين في كتلة البابور، وقبائل أخرى .

وقد أصبحت مدينة أوزيا (AUZIA)خلال هذه الاضطرابات مركزا للدفاع الروماني، حيث قام الدفاع الروماني من الوادي الكبير إلى الملوية بوضع حواجز على كل النقاط التي هددها اجتياح الجبليين في الهضاب والسهول، وبعد معارك ضارية طوال تلك السنوات(253-262م)، حل السلم في موريطانيا القيصرية. وقد ذهب كاركوبينو إلى القول بأن تاريخ إفريقيا في هذه المرحلة، قد تبع الوضع العام في روما، لأن سنة 253م تزامنت مع ضعف هذه الأخيرة، بسبب انقسامها إثر الخلاف بين VALERIEN وEMILIEN ، وهو ما هيج القبائل الإفريقية على الثورة، وبعودة الهدوء إلى روما سنة 262م، عاد السلم إلى إفريقيا[3]، ولكن إلى أي مدى يمكن أن نصدق هذا التحليل؟ لأننا نلاحظ في نهاية القرن نفسه، مابين 290-293م، ثورة أخرى للبوار الشرقيين الذين نزلوا من جرجرة لمهاجمة أوزيا، حيث نقشت تخليدات نصر للقادة الرومان في قيصرية (CAESAREA)وأخرى في صلداي[4] (SALDAE) ، وهو ما يوحي بأن تلك القبائل لم تتوقف عن المقاومة سعيا منها لاسترجاع أراضيها. هذا عن البوار الشرقيين.

([1]) محمد البشير، شنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب، ص 162.

([2]) G. Camps, « Les Bavares peuple de Maurétanie césarienne », Rev. Afr, Vol. 99, 1955, p. p, 266.

([3]) J. Carcopino, « l'insurrection de 253 », Rev . Afr, Vol. 60, 1919, p. 369.

([4]) M. Bénabou, Op. Cit, p. 235.

ولم يكن البوار الغربيون في منأى عن هذه الثورات، إذ أن هناك نقش يشير إلى منطقة ZUCCARBAR(مليانة)، يخلد انتصار حاكم موريطانيا القيصرية، وهو AELUS AELIANUS على إحدى قبائل البوار، مابين 284-289م، حين دارت هذه الثورة في الجنوب الغربي لنهر الشلف أو الورشنيس.

ويبدو أن اختفاء كنفدرالية البوار الشرقيون كان سريعا، إذ لم يرد اسمهم في النصوص الأدبية اللاحقة لنهاية القرن الثالث، مما يوضح اضمحلال دورهم الثوري، وأما البوار الغربيون، فإنه يصعب تحديد تاريخه، لأن كل الأفارقة غير المترومنين قد حملوا في وقت معين اسم المور، مع أن لا شيء يثبت اختفاء الاسم المحلي لتلك القبائل[1]. لكن الجدير بالذكر أنه في نفس فترة ثورة قبائل البوار، نجد قبيلة أخرى تقاتل إلى جانبها، وهي قبيلة الحلف الخماسي(QUINQUEGENTIANI)، التي ذكرت المصادر اللاتينية بأنها كنفدرالية قبائل متمركزة في المنطقة الجبلية، مابين دلس و بجاية. اشتهرت بمقاومة الاحتلال الروماني خلال القرنين الثالث والرابع للميلاد، بالمرتفعات الشمالية لحوض الصومام[2]. إذ كان لها دور مهم ضد الرومان مابين 259-260م، اعتمادا على نقش أوزيا المؤرخ في 25 مارس 260م، والذي حمل إهداء إلى حاكم هذه المقاطعة Q. GARGILUS MARTIALIS الذي قاد معركة ضد "فراكسن" زعيم قبائل الحلف الخماسي، وانتصر عليه[3]. وتأخذنا النقوش إلى الإستدلال على ثورة أخرى للحلف الخماسي، بداية من سنة 289م في وادي الساحل وانتشرت ببلاد القبائل الحالية حتى وصلت إلى الحضنة، وبسبب عدم تمكن الوالي من تهدئة الاضطرابات، قدم الإمبراطور مكسيميانوس (MAXIMINUS) بنفسه، وقاد حملة عسكرية سنة 296م عن طريق اسبانيا، مختارا لها أفضل الفرق العسكرية الرومانية المرابطة بأوربا. ومع ذلك لم يتمكن الإمبراطور من إخضاع الثوار إلا بعد سنتين من القتال، إذ تحتم عليه أن يعسكر طويلا بموقع "TUBOSUETU" (غربي عنابة) لمنازلة الثوار، ولما إطمئن بنفسه على الانتصار، اتجه إلى قرطاجة (مارس 298م) في موكب نصر فخم[4]. وإن كان كومس قد أشار هنا إلى الوضع الخطير الذي عاشته كامل موريطانيا القيصرية، بسبب سلب ونهب قبائل الحلف الخماسي والبوار والفراكسينانس(FRAXINENSES)، بعض مناطق نوميديا[5]، فإن هذه لا يعدو أن يكون استرجاعا لبعض الحقوق -لا كلها- التي سلبها الرومان منهم، وأصبحوا متمردين في نظره، لا أصحاب أرض مطرودين.

---

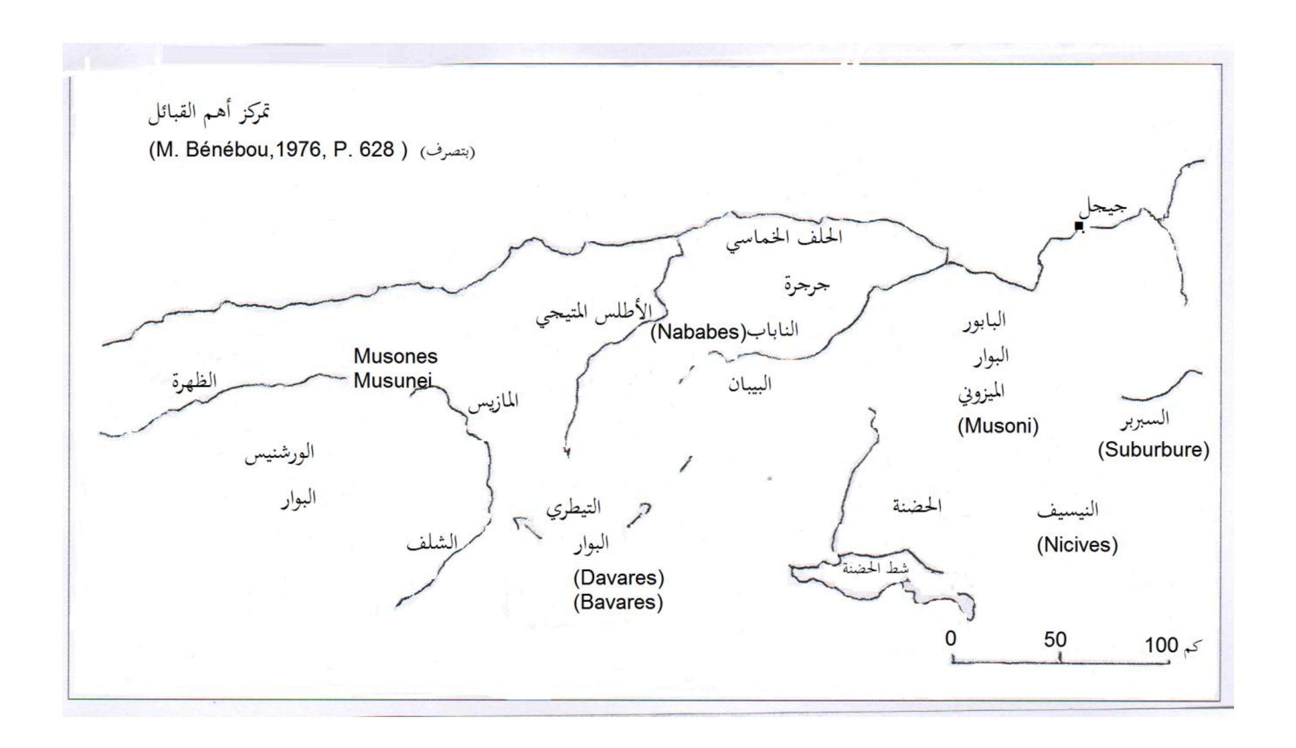
(1) G. Camps, Op. Cit, p. 269.

(2) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 306.

(3) M. Bénabou, Op. Cit, p. 227.

(4) محمد البشير، شنيتي: المرجع السابق، ص 307.

(5) G. Camps, Ibid, p. 257.


تمركز أهم القبائل
(M. Bénébou,1976, P. 628) (بتصرف)
جيجل
الحلف الخماسي
جرجرة
الأطلس المتيجي
النabab(Nababes)
البابور
البوار
الميزوني
(Musoni)
Musones
Musunei
الظهرة
المازيس
البيبان
السبربر
(Suburbure)
الورشنيس
البوار
التيطري
البوار
(Davares)
(Bavares)
الشلف
الحضنة
شط الحضنة
النيسيف
(Nicives)
0 50 100 كم

-خريطة رقم13-

I(oui) [O(ptimo) M(aximo)]/ceterisq(ue) diis d[eabus(que) immortalibus, pro salute et incolumit(ate)]/ et uictoria Imp (eratoris) C[aes(aris) M(arci) Aureli Seueri Alexandri Pii Felicis / [A]ug(usti), Q(uintus) Herenni[us Hospitalis?,u(ir) e(gregius), proc(urator) eius, Prolegato colloquium /cum] [A]u[r]elio [..... principe gentis Bauarum et Baquatium pa]cis firmand[ae gratia habuit /aramq(ue) posuit et dedicauit idibus sep] tembribus, I[mp(eratore) Seuero Alexandro Aug(usto) II (bis), Aufidio Marcello II (iterum) co(n)s (ulibus) ?].[1149]

Date : 226.

إلى يوبيتير الأفضل (أو الأطيب)، الأعظم و الى باقي الآلهة و الإلاهات الأَزلية من أجل سلامة ووقاية[1150] و نصر الإمبراطور قيصر ماركوس أوريليوس سِيويروس ألكساندير التقي، المحظوظ[1151]، أوكوستوس[1152].أقام المذبح ووضع كلمة الإهداء وكيله ،هيرينيوس هوسبيتاليس، الرجل البارز، الذي، كقائمقام الوالي، أسندت له مهمة الحوار[1153] مع أوريليوس..... وجيه قبلتي الباوار و إبقوين من أجل توطيد (أو تثبيت) السلام، في يوم أواسط شتنبر(13 شتنبر)، تحت القنسلية[1154] الثانية للإمبراطور سِيويروس ألكساندير أوكوستوس ولأوفيديوس ماركيلوس كوانتوس.

[I(oui) O(ptimo) M(aximo) /ceterisq(ue) diis deabus(que) immortalibus, pro]salute e[t incolumit(ate)/ et uictoria Imp (eratoris) Caes(aris) M(arci) Aureli Seu]eri Alexandri [Pii Felici]s A]ug[usti,/ … ,u(ir) e(gregius), proc(urator) eius], Prolegato colloquium/ [cum …principe] gentis Bauarum et Baquatum/ [pacis firmandae gr]atia habuit /aramq(ue) po[suit et dedicauit]/ …Maxim[o…]m[… co(n)s(ulibus)] [1160]

Date : 223 ou 232-234.

إلى يوبيتير الأفضل (أو الأطيب)، الأعظم و الى باقي الآلهة و الإلاهات الأزلية من أجل سلامة ووقاية[1161] و نصر الإمبراطور قيصر ماركوس أوريليوس سِيويروس ألكساندير التقي، المحظوظ[1162]، أوكوستوس[1162]، أقام المذبح ووضع كلمة الإهداء وكيله.....، الرجل البارز، الذي، كقائمقام الوالي، أسندت له مهمة الحوار..... مع و جيه قبيلتي البَاوَار[1164] وإبقوين، من أجل سلام واجب إقراره (توطيده) يوم ..... . تحت قنسلية[1165] .....ماكسيموس و.....

شكل رقم 10: نصان لنقيشتان لاتينيتان تبرزان معاهدتي سلام بين الباوار والبقواط

عن: حليمة، غازي، نقائش لاتينية، 2011، ص 209، 221

5-ثورة فيرموس وجيلدون (372-375 م):

استغلت روما لتوطين سياستها في بلاد المغرب القديم الأسر ذات النفوذ السياسي والمعنوي لدى السكان فوطّدت العلاقة وعملت على تنمية مكانتها بين الناس لتكون واسطة بينها وبين الأهالي، حتى لا يلجأ هؤلاء الأخيرون إلى القيادات المستقلة عن إرادة روما فيحدث التمرد. ولعل أوضح نماذج هذا الأسلوب عائلة فيرموس التي برزت إلى سطح الأحداث في الثلث الأخير من القرن الرابع ميلادي(1)، والذي شهد ثورة فيرموس وجيلدون التي انطلقت في البداية من جبال جرجرة والبيبان ثم عمّت فيما بعد كامل منطقتي موريطانيا القيصرية والسطايفية.

ويلاحظ أن الأسباب المباشرة لهذه الثورة تمثلت في النزاع الداخلي الذي شبّ بين أفراد احدى العائلات النبيلة ذات الأصل الليبي والتي كانت تستقر بالوسط الجزائري حاليا حسب ما أشارات اليه بعض النقوش اللاتينية التي عثر عليها في المنطقة. أما الأسباب غير المباشرة، فتعود إلى أسلوب الرومان في تحريض المغاربة ضد بعضهم البعض، ولم يتردد أميان مارسلان(2) ومعاصروه في إلقاء مسؤولية هذه الثورة على الكونت رومانوس الذي يتهمونه بالتسبب في جلب هذه المصاعب للامبراطورية. وفقا لهؤلاء يكون رومانوس قد لجأ إلى سياسة التفرقة بين أبناء الملك "نوبل" على إثر وفاته، فساند "زاماك" (سماك/ Sommac في نصوص أخرى) ضد فيرموس، مما أدى بـ فيرموس إلى قتل زاماك، فكان ذلك سبب القطيعة بين فيرموس والامبراطورية.

لكن الأوضاع في افريقيا كانت مواتية لهذه الانتفاضة، بدليل الصراع الديني الذي قسّم افريقيا إلى معسكرين معاديين: المعسكر الأول من أتباع الكنيسة الكاثوليكية الرسمية، والثاني من الدوناتيين المنشقين الذين اعتبروا أعداء الامبراطورية. ورغم هذه الظروف المواتية للثورة، فإن فيرموس لم يسارع في اعلان الحرب إلا بعد عقد تحالفات مع بعض القبائل الموريطانية، فكان الاستيلاء على قيصرية وحرقها ايذانا ببداية هذه الثورة. ولم يتوقف فيرموس عند هذا الحد، بل استولى على ايكوزيوم ونهبها، كما حاصر تافزة (تيبازة) دون جدوى، واستولى أتباعه على كرتناس (تنس) وخرّبوها وبذلك سيطر على كل المنطقة الشرقية من موريطانيا القيصرية(3). عندما أحست روما بأن الوضع سيفلت منها، أرسلت قائدها "Flavius Théodosius" الذي عرف بحنكته الحربية، وعليه نزل هذا الأخير بجيجل وانضم اليه جيلدون (Gildon) أحد إخوة فيرموس الذي كان يعاديه، وقد انضم منذ الوهلة الأولى في الصراع العائلي إلى أخيه سماك (زماك) ضد فيرموس. استمرت الحرب لمدة ثلاث سنوات، كانت نتائجها سجالا بين النجاح والاخفاق بين الطرفين: الموري بقيادة فيرموس والروماني.

حاول فيرموس بعد أن أحس بنقص مؤونته وتراجع القبائل النوميدية عن مناصرته، حاول فتح مفاوضات مع القائد الروماني، وذلك اعتمادا على بعض رجال الدين المسيحي، غير أن القائد الروماني غالى في شروطه التي كان من بينها استسلام فيرموس نفسه وتقديمه للمحاكمة، باعتباره ارتكب جريمة قتل في حق أخيه ثم ألّف عصابة

(1) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج2، ص 330.

(2) Ammien Marcellin, Histoire, XXIX, 5, 2-55.

(3) محمد الهادي، حارش: دراسات ونصوص في تاريخ الجزائر وبلدان المغرب في العصور القديمة، ص 65.

شقت عصا الطاعة عن القانون الروماني. جعلت هذه الشروط فيرموس يرفض الاستسلام للرومان، اضافة إلى حادثة خيانة قام بها أحد اخوته، وهو "اغمازن" (Igmazen) الذي يبدو أنه كان اتصال بالقائد الروماني "تيودوسيوس"، غير أن إلقاء القبض على فيرموس لم يجعله يستسلم، فقد فضّل الانتحار على ذلك، وبذلك لم يرسل إلى معسكر القائد الروماني إلا وهو جثة هامدة[1]. وقد ساهم في إلقاء القبض على فيرموس تواطأ اغمازن مع الرومان والايقاع بشقيقه فيرموس طمعا في إمارة العائلة المورية من بعده، وهي الامارة التي سمحت لتلك العائلة الحليفة لروما من الاحتفاظ بمكانتها القيادية في المنطقة، خاصة وأن الامبراطور كان في حاجة إلى تهدئة أعيان المور وكسب موالاتاهم في بلاد المغرب القديم، مما جعله يكافأ أولئك المتعاونين بمنحهم قيادات عليا في المنطقة، فكان لإغمازن ما أراد من زعامة على قومه، بينما رقي جيلدون في سلم الوظائف العليا حتى أصبح حاكما أعلى للمقاطعات الافريقية برتبة "كومت"(Comes) سنة 386 م، وهو المنصب الذي أهله لأن يتطلع إلى دور أبرز في ما كان يجري من تطاحن بين روما والقسطنطينية حول اقتسام الامبراطورية.

قدّر جيلدون أن الفرصة كانت مواتية للاستئثار بإفريقيا واختيار الطرف الأكثر ملائمة لصالحه، فأعلن سنة 395 م تأييد لأركاديوس امبراطور بيزنطة، وهو وما يعني عصيانه لـ هونوريوس(Honorius) امبراطور روما وأتبع موقفه هذا بقطع الحصة السنوية من المؤونة على روما في السنة التالية 396 م، وحيث كانت تلك المؤونة معول روما الأساسي من الغذاء لأن تقسيم الامبراطورية بينها بين بيزنطة جعل موارد الغلال الافريقية من حصة روما، وهكذا أعلن مجلس الشيوخ في روما تصرف جيلدون يشكل عدوانا على الشعب الروماني، وأعلن الامبراطور هونوريوس الحرب ضده. وكما كان لجيلدون دور في انتصار تيودوز على أخيه فيرموس من قبل، جاء دور أخ آخر وهو "مقزيزيل" (Megzezel)في الاطاحة بأخيه جيلدون، حيث وكّل اليه الامبراطور قيادة الجيش المهاجم فهزم أخاه في موقعة "أميدارا" (حيدرة/Amaidara) وعاد إلى روما محتفيا بالنصر الذي جلب اليه عرفان شعبها[2].

تلك كانت أهم الثورات والمقاومات التي خاضتها قبائل بلاد المغرب القديم في وجه السياسة التوسعية والاستيطانية الرومانية، فإن اتسمت هذه الثورات بعدم الوحدة أحيانا والنجاح المحدود أحيانا أخرى رغم هدفهم المشترك في محاولة استرجاع أراضيهم وتقويض أركان السلطة الرومانية، فلأن هذه الأخيرة شكلت جدارا منيعا في سبيل ذلك، وانتهجت سياسة "فرق تسد" وضرب الأخ بأخيه لمنع تلك القبائل من تحقيق الوحدة السياسية واستغلال بلاد المغرب القديم، لكن مع هذا، استطاعت تلك القبائل تشكيل كونفدراليات مؤقتة وتحقيق استمرارية مستغلة ضعف الجيش الروماني تارة، والأزمات السياسية تارة أخرى، فشملت كل بلاد المغرب القديم، وإن تميز دورها خلال فترة الاحتلال الروماني بالمقاومة، فإنها حاولت إنشاء ممالك موحدة خلال فترة الاحتلال الوندالي والبيزنطي من بعدهم.

([1]) محمد الصغير، غانم: المرجع السابق، ص 218.

([2]) محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 232.



خاتمة

من خلال ما سبق في بحثنا الذي عالجنا فيه تلك العناصر الوحدوية و المفرقة لبلاد المغرب القديم، والمتمثلة في الجغرافيا بجبالها وسهولها وهضابها، ووديانها وتساقطها، ونمطية الحياة فيها التي حتّمتها هذه الظروف البيئية، فكانت عوامل تفرقة في نظر الكتابات الغربية (الاستعمارية) التي صاغت تاريخها وجعلتها نظرية متوارثة بتجزئة هذه الكتلة الجغرافية وعن وقوفها حاجزا في وجه وحدة المنطقة. واضافة إلى البيئة، عالج الموضوع جانب الانسان المغاربي القديم، ومختلف التسميات المطلقة عليه في المصادر القديمة، وكذا معرفة مدى صحة النظريات المصاغة حول أصل هذا الانسان، الأجنبي أو المحلي. ولم يتوقف الموضوع عند هذا الحد، بل عالج كذلك المقومات اللغوية لبلاد المغرب القديم التي ساهمت في وحدة المنطقة أو كانت عائقا في سبيل ذلك، وبالتالي معرفة اللغة التي تكلم بها ساكنة الشمال الافريقي القديم وأصولها وتطورها، ومدى استمراريتها. كما درس الموضوع مدى إسهام مختلف التطورات السياسية في المنطقة لما لها من أهمية استراتيجية وحيوية بالحوض الغربي للمتوسط، فكانت ذلك محل توافد الفينيقيين، ومن بعدهم الرومان والوندال والبيزنطيين في شكل احتلال مباشر، والتي جعلت من المدرسة الغربية تصيغ حولها نظرية "الظل الأبدي"، وحاجة الانسان المغاربي (الليبي/ الافريقي/ أو البربري) إلى العيش في ظل احتلال أجنبي متعاقب على المنطقة، دون النظر في خلفيات هذا الاحتلال وتداعياته، ومن ثم موقف المغاربة الذي هو بمثابة تعبير عن الرفض الدائم والمستمر للأجنبي بالمنطقة، رفض سياسي كما هو رفض لغوي جسدته استمرار اللغة الليبية، واثني عكسته شخصية المغاربي الثابتة عبر العصور وامتصاصه لكل عنصر اثني وافد، وجغرافي عكسته حماية البيئة لهذا الانسان واستغلاله لها بأحسن الطرق. من خلال كل تلك العناصر المعالجة، يمكننا إجمال استنتاجاتنا في النقاط التالية:

-حددت الجغرافيا بلاد المغرب القديم بالجزء الغربي من شمال القارة الافريقية الذي تربط بينه روابط مشتركة تحددها الطبيعة في مجموعات الجبال، السهول، الصحاري، الوديان والشواطئ المتوسطية والأطلسية، حيث أن ما يربط هذه العناصر هو الوحدة التي كوّنت وجود هذا الجزء من شمال افريقيا، فهو كتلة جغرافية واحدة صنعت تاريخها القديم وما بعده.

-الجبال ببلاد المغرب القديم هي أماكن طبيعية ملائمة نسبيا لحياة الانسان ومأهولة به، رغم منحدراتها الحادة وتربتها الفقيرة ومناخها القاسي، لكنها ذات تساقط كافي ونشيط فوق السهوب أو الصحراء أو سهول غير صحية من حيث وجود تطابق في نباتها وإمكانيات سقيها. فالجبال لعبت على مر التاريخ في بلاد المغرب القديم دور ملجأ لساكنتها، وإذا كان هذا الدور لازال قائما في المغرب الأقصى والجزائر، فإنها في تونس ليس لديها سكان جبليين مثلهما، فسكان الجبل بقوا بجزء كبير وفي كل العصور بعيدين عن الاحتلال الأجنبي الذي طال المدن والسهول وشكلوا عنصر المقاومة ضده مثلما تشهد على ذلك خطوط الليمس للقرنين الأول والثالث التي أقامها الاحتلال الروماني في وجههم.

-بغض النظر عن الأسماء المختلفة للسلاسل الجبلية في كل بلاد المغرب، مثل جبال بوناصر بوايبلان في الأطلس المتوسط والريف في الأطلس الكبير في المغرب الأقصى، والقصور وعمور والأوراس مثلا في الجزائر، والشعانبي في تونس، فإن هذه الجبال تكوّن رابطة قوية من الغرب إلى الشرق بين أجزاء بلاد المغرب، وهي لا تمزق هذه البلاد وتعزل مناطقها، ولكنها تفسح المجال لربط شمال بلاد المغرب بجنوبها وغربها بشرقها. وتنتهي هذه الجبال في شمالها وجنوبها بالهضاب والسهول التي تعطي للحياة طابعا حضاريا أكثر، سواء بصلة هذه البلاد بالبحر المتوسط، وخاصة في تونس والجزائر ثم في المغرب، أو بصلتها بالمحيط في المغرب الأقصى، أو بتمكينه من مراكز الاقامة والاستقرار الحضاري في السهول المتسعة في كل بلاد المغرب.

-تعطي سلاسل الجبال المشتركة لساكنتها طبيعة الانسان الجبلي في ارتباطه بالأرض وفي دفاعه عن نفسه، وفي قوة شكيمته وصعوبة انهياره أو استسلامه.

-منحت السهول والوديان حياة هذا الشعب المشتركة مصدرا مهما للعيش، ومكنته من تنوع حياته بين مظهري الأمن والخوف، فالجبل يحميه ويمكنه من الدفاع، والسهول تمنحه الحياة عندما يأمن ثم تمنحه الغذاء والكساء وحرية التنقل، فخلف ساحل بلاد المغرب الذي قيل عنه غير مضياف، قد انجذب الانسان المغاربي وشيد مدنا منذ القديم، لأنه خلف هذا الساحل توجد سهول وتسهيلات للحركة ، منابع مياه للزراعة، تربة منتجة مثل "الحمري" الطيني –الرملي أو "التير" (Tirs) العالية جدا والصالحة لزراعة الحبوب.

-بالنسبة للمياه والدور الاستراتيجي الذي يمكن أن يلعبه الماء في الحياة اليومية السياسية والعسكرية والاقتصادية في بلاد المغرب، فإننا نلاحظ عن الخارطة الهيدروغرافية لشمال افريقيا بأن لها مجاري مياه عديدة ومهمة، وبحيرات معتبرة، لكن هذه المجاري المائية هي وديان، وتلك البحيرات هي شطوط وسبخات، وأن التبخر يقلّل من كمية التساقط الذي يقود إلى مجاري الماء. هذه الأخيرة وبحيرات الشمال الافريقي هي في معظمها دورية مثل الأمطار وليست دائمة.

-رغم اعتماد الانسان المغاربي على تلك الموارد المحدودة من المياه التي تتساقط على أرضه وتجري في أنهاره، ولا تأتيه من مصادر أخرى، إذ أن موارده محدودة وكثيرا ما تتصف بالجفاف، ولكنها في محدوديتها تبعث على النشاط والحيوية والترقب والحذر وتخزين نتاج الصيف للشتاء. إذ تمكن من الاستقرار والسكن والمعمار، وكذا الزراعة والتنقل واستغلال المياه في الأنهار التي تتكوّن من منابعها الجبلية فتخترق البلاد وتصب أخيرا في البحر.

-أن مجال شمال افريقيا إنما هو مجال خصب عموما، تميز بكمية كافية من الأمطار وبوفرة الأنهار والسهول التي تتيح إمكانيات كبيرة للعيش السهل، كما تمكن من تفادي الاحتكاك بين العناصر المكوّنة لساكنة بلاد المغرب القديم، ففي هذه المنطقة لم يرغم الانسان على الاستقرار في مجال معين، فجميع الأماكن وفرت إمكانيات كبيرة للاستقرار، مما نتج عنه تشتت الجهد الحضاري للإنسان المغاربي، فظهرت بلاد المغرب

القديم من الناحية الحضارية دون مستوى الحضارات القديمة الأخرى، كحضارة بلاد الرافدين مثلا التي تجمّع سكانها حول نهري دجلة والفرات، أو الحضارة المصرية، ذلك أن نشوء الحضارة على نهر واحد هو أمر بديهي. فمصر التي تتميز معظم أراضيها بكونها صحراء قاحلة يخترقها نهر واحد هو النيل، عرفت تكدس الانسان حول هذا المجرى، فأدى هذا التكتل إلى ظهور كثافة سكانية معتبرة حول النهر في مساحة ضيقة، فكان لزاما لتفادي الصراع أن توضع القوانين والأعراف لاقتسام هذا المجال الخصب والضيق، وهو ما أدى إلى نشوء حضارة متركزة حول مجرى النيل.

-في هذه الكتلة المغاربية التي قيل عنها مجزأة بواسطة تضاريسها تنفتح معابر طبيعية سمحت منذ ملايين السنين بمسارات وطرق للاتصال، إذ نجد في الغرب السهول الأطلسية تنتظم من جهة، ومن جهة أخرى الهضبة المركزية المغربية، حوض السبو مثلا ينتظم كذلك بمثلث على المحيط ونهر أم الربيع، فيسمح بالوصول إلى غاية قلب الأطلس المتوسط. وفي الجنوب الغربي نجد الخنادق العميقة للتانسيفت والسوس تربط الساحل بالأعناق الكبرى للأطلس الأعلى، وفي الشمال الشرقي السهول الساحلية تسمح بالولوج إلى الوديان في منحدر هادئ ذو اتجاه شرق-جنوب غرب.

-تنضاف إلى الجبال والسهول، الصحراء التي لم تكن عامل عزل ومحاصرة بقدر ما كان للبحر الواسع الأفق المأمون الجانب، أكثر من أمن البحر في الشمال والغرب. فالصحراء الشمالية هي الوحيدة التي تساهم في الحياة الاقتصادية لبلاد الأطلس لأنها في مركزها عبارة عن هضبة حجرية، فحمّادة تادميت موجودة بين منخفضين، احداهما ممتدة بشكل مستطيل من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي حسب منحدر واد الساورة، والثانية ممتدة بالمنحدر المعاكس نحو الشمال الشرقي، فهذين المنحدرين درّبا قديما مياه الأنهار الكبيرة خلال الزمن الرابع، هي اليوم أحفورية مثلما واد ميا، واد ايغارغار، واد ريغ، إلى غاية حوض الوصول في شط ملغيغ في مستوى أدنى من مستوى سطح البحر، بين الاثنين توجد منطقة الكثبان الكبيرة للعرق الغربي في بني عباس، وفي "El-Goléa" حيث حفرت أنهار مزاب، وأن الممر الكبير لـ قورارة يجعلها في اتصال، وأنه هنا تتواجد الطرق الرئيسية للجزائر عبر الصحراء باتجاه السودان، وحيث أن هذه الطرق مصطفة مع إمكانية الزراعة على أطرافها، وأن السكان كثافتهم كبيرة بهذه المنطقة الصحراوية.

-رغم جبالها المعقدة والمتشابكة، فقد ربطت بلاد المغرب القديم علاقات مع مصر وغرب آسيا، ومع الصحراء وافريقيا السوداء، ومع بلدان العالم المتوسطي، ونظرا لكون السهول والهضاب المفتوحة على البحر واسعة جدا، وبالتالي يسهل اختراقها، فلم يقف جبل طارق مثلا في الغرب حاجزا في وجه المواصلات مع شبه الجزيرة الايبيرية، بل مكّن البحارة عند رسوّهم قرب مرسى طنجة من ربط المغرب الأطلنطي بالحياة المتوسطية، ومكنت الممرات على حدود الهضاب العليا كما في السلاسل الماقبل-صحراوية السكان والمنتجات والحضارات من الانتشار من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي، ومن المناطق الساحلية نحو الصحراء.

-هذا بالنسبة للتضاريس، أما بالنسبة لثنائية البدو والحضر، فيمكننا القول بأن كل الشعوب كانت في البداية من فئة الصيادين، ثم مروا إلى الحياة الرعوية بتقدمهم في الحضارة، ويرتقون أخيرا إلى الحياة الزراعية. فالبداوة هي في الحقيقة تلك الهجرة الدورية والمنتظمة التي حتّمتها ضروريات الرعي، وأن البدو الحقيقيين يمكنهم أن يكونوا هم أنفسهم في درجة مرتفعة بما يكفي في سلم المجتمعات الانسانية. فالبدو في بلاد المغرب القديم هم مثل أي مجتمعات أخرى يعيشون نمطية عادية ومنتظمة تتعايش مع الظروف البيئية، مثلما هم البدو في جبال الألب مثلا، الذين ينتقلون صيفا لاستعمال مراعي الجبال العالية، وينزلون بالضرورة إلى السهول عندما يقيّدهم الشتاء، وبالتالي هذه الثنائية في نمط المعيشة ببلاد المغرب القديم ليست عائق وحدة، بل هي نمط معيشة يساهم في تقدم الحياة الاقتصادية.

-ولأن المناخ أجبر الكثير من الرعاة على الانتجاع، فإن تدجين بعض الحيوانات جعل العلاقات أكثر تواترا وانتظاما، ذلك أن رحل الجنوب كانوا بحاجة إلى الحبوب المحصودة من طرف مزارعي التل، وأن أولئك الرحل يجلبون معهم صوف قطعانهم وتمور واحاتهم.

-إذا كانت بلاد المغرب شبه جزيرة كما روّج لذلك المؤرخون الاستعماريون، يتحكم فيها وضع جغرافي البحر والصحراء بعض سماته، والجبال أكثر مظاهره مناعة، فإنه لم يكن جزيرة محدودة الأفق كما كانت جزر أخرى مثل مصر التي كانت متجمّعة حول النهر لأنه مصدر الحياة، وأنه بسبب هذا الموقع اجتاح الأجانب البلاد طامعين في فرض حضارتهم، إلا أنهم لم يحتلوا أبدا كل البلاد لأنها تحتوي على ملاجئ طبيعية صعبة الاختراق هي الجبال.

-أن هذه الجغرافيا التي منحت الانسان المغاربي التنوع في تكوّنه، لأنها فتحت أبواب بلاد المغرب في الجنوب على الصحراء وما وراء الصحراء، حيث أن الصحراء لم تكن جدارا عازلا، وفتحت الجغرافيا كذلك أبواب شمال بلاد المغرب على البحر، والبحر بدوره لم يكن عازلا، سواءً للمغاربة أو للأجانب الوافدين، وكان البحر في أضيق آفاقه سبيل اتصال بأوربا، وفي أوسع آفاقه لم تكن تفصل يابسته الجنوبية عن الشمالية والشرقية غير بضع أيام في حساب الملاحة القديمة، وبذلك لم يكن أيضا جدارا عازلا كما كانت المحيطات في القرون القديمة، كما أمدت الجغرافيا بلاد المغرب بانفتاح على الشرق سبيله الصحراء (بحر العرب) والشمال، وهي طريق هجرة القبائل العربية.

-إن معظم تسميات شعوب بلاد المغرب القديم، من ليبيين، أفارقة، نوميد، مور، جيتول وبربر وغيرها، لا يجب أن تمنع من رؤية الوحدة الأساسية للشعب الذي يحملها، فقد استخدم هذا الاسم أو ذاك حسب ما كان يراد منه، من شرق أو غرب شمال افريقيا، من المنطقة الساحلية أو من الأراضي الداخلية. وإذا كان تنوع المناطق التي شغلتها تلك الشعوب وكذا تنوع نمط معيشتها، فتمايزت احداها عن الأخرى من خلال العادات

أو الفروع المختلفة لسكان بلاد المغرب القديم، فإن هؤلاء السكان لم يشكلوا سوى كتلة واحدة، وإن اختلفت تسمياتها.

-فالمغاربة الحالين الذين أسماهم مؤرخو العصر القديم والوسيط من بعدهم بالليبيين أو الأفارقة أو البربر، يمكننا أن نرى فيهم ذرية الانسان الأطلسي وإنسان المشتى، أو إنسان قفصة الذين وجدوا بشمال افريقيا منذ العصر الحجري القديم، حيث مازالت بقاياهم محفوظة ضمن الشعوب البربرية الحالية المنحدرة منهم.

-مهما كان هذا العمق البربري القديم الذي كان موجودا في بلاد المغرب القديم منذ ما قبل التاريخ كتركيب لم يتوقف عن الاثراء عن طريق مساهمات اثنية وثقافية لم يتوقف التاريخ عن نقلها الينا، إلا أن هذا الاثراء لا يجب أن يروّج لفكرة المدرسة الاستعمارية، وهي أن أولئك المغاربة الأولون كانوا رحلا إلى أن جاء الفينيقيون ومن بعدهم الرومان ليعلموهم الاستقرار وبناء السكن، فهذا ما تكذّبه الدلائل التاريخية والأثرية التي تبين أن سكان بلاد المغرب القديم الأوائل كانوا يسكنون منازلا ومدنا مسوّرة بالمفهوم القديم لحجم المدينة، كما أن استقرارهم بالمدن يدل على معرفتهم وممارستهم للزراعة والتدجين، حيث وصلت هذه الزراعة مستوى من الازدهار جعلت الملوك النوميد والمور يتباهون بنقش رموزها من سنابل القمح وعناقيد العنب وخيول وبقر على نقودهم، وقد حصل كل هذا قبل مجيئ الرومان.

-من الشواهد الأثرية التي تدل على وجود الانسان المغاربي واستقراره وممارسته للزراعة كذلك منذ العصر الحجري الحديث وفجر التاريخ، هو دراسة الطقوس الجنائزية التي تسمح بالتعرف على وجود سكان مستقرين مزارعين في مختلف جهات الشمال الافريقي، خصوصا في الجزء الشرقي منه، الذي يطابق بلاد الماسيل، وكذلك في سهول المغرب الأطلسية أين تركزت نواة السلطة المورية. كما أن آثار فجر التاريخ تقدم دليلا على وجود بنية اجتماعية متطورة، بحيث يقتضي بناء قبور معتبرة وضخمة وجود تجمع هام من العمال متطوعين أو مستقرين، رعايا أو أسرى حرب.

-يتبين من دراسة قبور فجر التاريخ ببلاد المغرب القديم، بأن بلاد البربر الشرقية هي بلاد الحوانيت والمصاطب موطنا للماسيل، وأن معظم هذه المدافن قد ظل مستعملا طيلة الفترة التاريخية ولم يختف إلا باعتناق المور والنوميد للمسيحية ثم الاسلام في مطلع القرون الوسطى.

- تعددت نظريات أصول السكان بلاد المغرب القديم والتي نادت بامتزاج أولئك السكان الأصليين الموجودين بالمنطقة منذ ما قبل التاريخ ببعض القادمين من آسيا الصغرى، من الهند الذين طردوا من أراضيهم، أو الفارين من الكوارث الطبيعية التي لم تتحملها بلادهم الأصلية اضافة إلى ميديين وفرس وأرمن، فريجيين إلى ايبيرو-قوقازيين وإلى سلتيين الفلسطينيين، إلى الهنديين العابرين اليمن والبحر الأحمر ليعمروا الصومال وباربارة، وأن كل تلك الشعوب المهاجرة إلى افريقيا الشمالية هم من يشكلون الشعب البربري.

-لكن مقولة التعدد العرقي هذه تسقط عموما لأنه ليس من أمة أو شعب يمكن أن يعود به التاريخ إلى عرق محدد، خاصة بعد أن اجتازت الانسانية عصور العزلة، ودخلت في عصور الانفتاح على العالم والهجرات المتوالية للأسباب الدافعة اليها، وهي أسباب اقتصادية واجتماعية وأمنية، فكرّست بذلك الامتزاج وتكوين شعوب جديدة من شعوب متعددة، ويتفق ذلك ولا يختلف في كل الشعوب والأمم التي أنشأت حضارات متنوعة، وقد يكون ذلك التنوع في العرق والاختلاط في الجنس من أسباب إبراز عقبة الشعوب وانطلاقها الحضاري، وليس ظاهرة خاصة ببلاد المغرب القديم وعائقا في وجه وحدته الاثنية.

-أن الفينيقيين والرومان والعرب أثروا كثيرا الألوان الثقافية للمغاربة، ولكن المساهمة لا يبدو أنها كانت كبيرة من الناحية الاثنية، فكلما تمت ظاهرة الدمج، كانت تتم على مستويين، أولهما على المستوى الاثني، حيث كان المهاجرون يشكلون أقلية تنتهي بالذوبان في العنصر المغاربي الغالب، وثانيهما على المستوى الثقافي، حيث كانت المساهمة أنشط وأكثر تأثيرا لكن دون التمكن من إلغاء العمق الليبي القديم.

-أمام تعاقب تلك الأجناس على بلاد المغرب القديم، وتعاقب لغاتهم وثقافاتهم وحضاراتهم، فإن الانسان المغاربي بقي يمثل وحدة لا تتجزأ، طبعتها لغته الليبية (الأمازيغية) التي بقيت محتفظة بمقوماتها وقيمتها مثلما تشهد على ذلك المعالم الحضارية والفكرية لمناطق بلاد المغرب القديم، من عمارة وفن وآداب وعادات وتقاليد، فاللغة الليبية هي المرجع الأساسي لتحديد الشخصية والانتماء الحضاري والفكري لساكنة بلاد المغرب.

-وجدت اللغة الليبية في بلاد المغرب القديم والصحراء منذ 10000 سنة مثلما تؤكد ذلك الشواهد التاريخية والأثرية واللسانية التاريخية، ولا أدل على ذلك من شساعة الرقعة الجغرافية للمنطقة الناطقة بالليبية قديما.

-أن اللغة الليبية تتميز باستقلاليتها رغم وجود علاقات تربطها بلغات أخرى معروفة متولدة عن اللغات الأفرو آسيوية (الأفراسية) إلا أنها تبقى بعيدة عنها.

-أن اللغة الليبية لغة ناحتة، فهي قادرة على خلق ألفاظ جديدة من الألفاظ القديمة، وهذا ما يجعلها لغة مستقلة من الدرجة الأولى، وأن النحت فيها ليس أقل أهمية من الاشتقاق. فاللسانيين يلتمسون الدلائل على أن اللغة الليبية لغة جديدة انطلاقا من البنى الصرفية لها هي نفسها مقارنة مع لغات أخرى حية أو ميتة، وهذه الميزات تؤكد خصوصيتها وأنها لغة قائمة بذاتها، لها أساليبها في وضع اللفظ.

-هذه اللغة الليبية تأكد وجودها بالأبجدية الليبية، وهي أبجدية أصيلة لا يمكن أن تكون منحدرة من ألفباء أخرى، مثلما قيل أن أصلها من الألفباء الفينيقية، لأن الأبجدية الفينيقية ظهرت بين 1300 و1200 ق.م، وهو التاريخ الذي ظهرت فيه الكتابة الليبية كذلك وأخذت مكانها، ومن هنا لا يمكن تصور أن الكتابة الليبية مشتقة من الفينيقية أو من البونية.

–تمثل الكتابة الليبية–البربرية وحدة أكيدة عن طريق أسلوبها وميكانيزماتها، وأن هذه الوحدة لا تستثني اختلافات عدة في الشكل أو في قيمة الحروف، حيث أن تسمية الكتابة الليبية–البربرية (Libyco-Berbère) أصبحت متداولة في أوساط الباحثين المهتمين بعلم الكتابات القديمة، وهي تنطبق على مجموع الكتابات الليبية المكتشفة في شمال افريقيا، ومجمل النصوص المنقوشة والمرسومة في الأطلس الصحراوي والصحراء الوسطى، وهي تسمى عموما بكتابات التيفناغ في الأوساط الصحراوية.

– تحتل الكتابة الليبية–البربرية رقعة واسعة من بلاد المغرب، حيث تمتد من واحة سيوة شرقا إلى جزر الكناري غربا، ومن البحر المتوسط شمالا إلى الساحل الافريقي جنوبا، حيث قسّمها المختصون إلى أربع مجموعات على أساس اختلافات معدودة في الحروف، وهي: الليبية الشرقية، الليبية الغربية، الليبية الصحراوية والتيفناغ، هذه الأخيرة هي نمط معاصر ناتج عن الليبية الصحراوية القديمة.

– ليس هناك قاعدة ثابتة في اتجاه الكتابة الليبية، حيث تستعمل جميع الاتجاهات، أي الأفقية من اليسار إلى اليمين والعكس، والعمودية من الأعلى إلى الأسفل و العكس، وأحيانا نجد كتابات في شكل تموجي. ومن حيث عدد الحروف المستعملة في كل نوع، فهو يختلف باختلاف المنطقة التي تتواجد بها، وكذلك باختلاف مقابل الحروف الخاصة بها عند قراءة الكتابات المزدوجة.

–دخلت بلاد المغرب القديم الفترة التاريخية تزامنا مع تطور نظام اجتماعي يقوم على الأسرة، ونظام عقائدي جسدته المقابر كالدولمن والبازيناس، ونظام اقتصادي تمثل في الزراعة منذ نهاية النيوليتي، وفني في الرسوم الصحراوية المنتشرة في كل بلاد المغرب، حيث أن هذه الرسوم الصخرية هي التي أوصلت المغاربة الأوائل (الليبيين الصحراويين) إلى ابتكار الكتابة.

– أن هذا الشكل من التنظيم الاجتماعي وصلت اليه بلاد المغرب القديم على امتداد مراحل تاريخية طويلة نتيجة تراكمات اجتماعية في السلم والحرب، وأن هذه التراكمات من التجارب والوقائع هي التي عززت روح التضامن بين أفراد القبيلة، حيث يجد الفرد والجماعة في القبيلة الاطار الذي يحمي المصالح المشتركة، وفي حال تحول الروح القبلية إلى نزعة تغذي التناحر والصراع الذي يضعف النسيج الاجتماعي ويحول دون تخطي سقف القبيلة إلى فضاء الأمة.

– كوّنت القبائل وحدات سياسية أساسية في المملكة النوميدية، بعضها كان يضم عددا من العائلات المجتمعة حول قرية، وبعضها الآخر كان أقوى من ذلك حيث كان على رأس كنفدارليات قارة أو تكون بشكل شعوب مثل النوميد المور، الجيتول، الموسولام.

– إذا كان نصيب بعض الملوك في حياة القبائل وإدارتها ضعيفا، فإنه منذ عهد الملك ماسينيسا تكون سياسة رسم المعالم الحدودية قد فرضت بعض الاكراهات على القبائل، لكن الشيء المؤكد هو أن كل قبيلة كان لها اقليمها، حيث تختلف تلك الأقاليم في الاتساع حسب قوة القبيلة وتعدادها.

– شكلت القبيلة نواة الممالك النوميدية ومملكة المور، وقد تمكنت تلك الممالك من الاستمرار لوقت طويل رغم الحروب والتقسيمات بفضل امتلاكها لهذا الجهاز وهو القبيلة، التي تعتبر قوة داخلية. وإذا كانت هذه النواة قد لعبت دورا لصالح المملكة عموما، فإن ذلك لا يعني أن بعضها لم يكن محل ردود أفعال البعض الآخر، حيث تتعارض في كثير من الأحيان، ذلك أن القبائل التي كانت في خدمة الملوك النوميد، لم تكن كلها عناصر متماسكة حقيقة في واقع الأمر، فقد كان يتعين على الملوك وممثليهم على رأس كل قبيلة أن يستعملوها بكثير من المرونة لتفادي الصدامات الضارة بوحدة المملكة.

– إذا كان نطاق الفرص الملكية في بلاد المغرب القديم لدى النوميد مثلما عند المور، متسعا ومنفتحا أمام شخصية الحاكم، فإنه في النهاية يؤول إلى حساب واحد، وهو أن المشروعية في اعتلاء العرش يجب أن تكون مستمدة من الاعتراف بها حسب نظام السلالة الملكية العائلية التي تؤول بالعائلة المالكة إلى جد مشترك في نظام وراثة العرش النوميدي.

– إذا كان الملاحظ أحيانا وجود سلطة متذبذبة بين الملك ورعاياه من مختلف القبائل تحت سلطته، فذلك راجع –ربما– إلى كونه حاكم ذو طابع عسكري فرض نفسه بالقوة بنفوذه وهيبته وشخصيته على رؤساء قبائل غيورين على استقلالهم، تجمّعوا في ما يسمى بالكنفدرالية، وبالمقابل يلاحظ وجود آثار سلطة ملكية دينية في بلاد المغرب القديم التي تجعل الملك وسيطا بين القوى الطبيعية والانسان، حيث أنه لدينا من الدلائل ما يكفي للقول بولاء القبائل أو الشعب عموما لشخصية الملك التي ارتقت مع ماسينيسا لدرجة إله، وإذا أمكن للمغاربي أن يخون بعض الشخصيات القيادية في حالة الحرب أو الانقلابات، فإن ولاءه ووفاءه للملوك تجاوز بكثير هذ الخيانات المحدودة، التي جعلها المؤرخون الاستعماريون عائقا في وجه الوحدة السياسية.

– استمرت المقاومة ورفض الاحتلال الأجنبي ببلاد المغرب القديم مع الاحتلال الوندالي والبيزنطي، وهذا ما تجلى في وجود ممالك مورية مستقلة عن الاحتلال الوندالي أو البيزنطي لاحقا، والثورة التي قام بها زعماء تلك الممالك المورية من حين لآخر كلما سمحت لهم الظروف.

–إن فكرة اللاوحدة الثابتة عند المغاربة، والتي روجها المؤرخون الغربيون، تعود أصلا إلى طبيعة تشكل التحالفات القبلية، لأنها كثيرا ما برزت اثناء فترات الصراع الغير متوازي القوى، الأمر الذي جعل طبيعيا صورة التقزم والتشتت في مثل مراحل النمو البدائية هذه دون أن تكون صفة ثابتة الديمومة متجذرة متأصلة في الزمان والمكان.

– بدخول الفينيقيين إلى بلاد المغرب القديم وتأسيس قرطاجة، انفتح أمام المغاربة تأثير الحضارات الشرقية، سيما الفينيقية أو بقاياها التي استمرت عند القرطاجيين، وانفتح بعد ذلك نحو الشمال على إثر الاحتلال الروماني.

– مهما تكن الآثار الايجابية أو السلبية لوجود الفينيقيين على سواحل بلاد المغرب القديم، فإن الشخصية المغاربية عبّرت عن نفسها أثناء وجودهم وبعد انهيار قرطاجة، إذ لم يكن الانسان المغاربي القديم غائبا أثناء هذا الوجود، فقد كانت هناك فاعلية لامتصاص الجانب الايجابي في التحدي الفينيقي من خلال إسهام المغاربة في بناء وتسيير والدفاع عن قرطاجة، وفي التمتع بكل مقومات الحضارة فيها وفي المراكز التجارية والحضارية التي أسهموا في اقامتها في مجموع السواحل المغاربية، اضافة إلى التحدي الثقافي بين القرطاجيين والمغاربة الذي تبدو فيه اللغة مزيجا بين اللغة الليبية والفينيقية، حيث يلاحظ أن الممارسات المدنية والدينية كانت واحدة ولا نفرق فيها بين ما هو قرطاجي أو ليبي.

– مقابل هذا القبول الذي فرضته قرون من الاختلاط والعمل المشترك بين قرطاجة والممالك النوميدية أو مملكة المور، فإنه لم تكن هناك قابلية لتحمل سلبيات التحدي الفينيقي، وهو رفض الاحتلال والتحكم والاستغلال الاقتصادي أو الظلم.

– أسهمت بلاد المغرب القديم في الحضارة القرطاجية لأنها لم تكن تعزل نفسها عن المشاركة، حيث كانت لها مبادرات مهمة شجعها عليها طبيعة التعامل والاندماج الذي عرفته المنطقة بين الوافدين الفينيقيين والمغاربة الأصليين، تجلى هذا الاندماج في التعاون سلما وحربا، وقد كانت مرحلة دخول الفينيقيين إلى بلاد المغرب مهمة في تاريخ بلاد المغرب القديم، لأنه بقدر ما استفاد المغاربة من الفينيقيين برزت قابليتهم لإنشاء حضارة مغاربية متميزة في جانبها السياسي بتكوين دولة منظمة واعتماد ملكية مستقلة أو التجمع الحضاري والعمراني وبناء المدن والمراكز التي لعبت دورا سياسيا واقتصاديا وعسكريا.

– إذا كانت قرطاجة قد عمّقت الفروق بين مملكتي نوميديا الشرقية والغربية، فإن الرومان من بعدهم فجرّوها من الداخل، حيث أنه طوال قرنين ونصف، وهي المدة التي بقيت أثناءها الممالك النوميدية والمورية مستقلة، أوقفت روما بوعي أو بلا وعي اتجاه بلاد المغرب الطبيعي نحو الوحدة، لأنه إذا كانت المؤسسة الملكية وسيلة لتوحيد الجهود في محاولة ايجابية لمعارضة الأجنبي، فإن إخفاق المؤسسة كان مؤشرا على اضمحلال المملكة، حيث عملت روما بطريقة مباشرة على تفتيتها ثم استغلت التنافس بين المملكتين النوميدية والمورية فطوقتهما بمعمريها وتجارها وجنودها، وضمتهما أخيرا اليها.

– اصطدم الاحتلال الروماني بمواجهة هامة من طرف المغاربة، تجلت في الثورات المتعددة التي أسهمت إلى حد بعيد في القضاء على الامبراطورية الرومانية وعلى وجودها في بلاد المغرب القديم، وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا بصدد مشروعية هذه الثورات أو الانتفاضات ككل، ومنها ثورة تاكفاريناس مثلا، فإن الشيء الملاحظ هو أنها كانت انتفاضات مختلفة لا رابط بينها، قام بها على التوالي المور والغرامنت والموزولام والجيتول، بينما نلمس في الحقيقة أنها تشكل كلها حركة ثورية واحدة نشبت سنة 25 ق.م ولم تخمد إلا سنة 6 م، لتندلع من جديد وبشكل أكثر شمولية سنة 17 م في ثورة تاكفاريناس، وأن الاحتفال في روما بانتصار قائد روماني في

الشمال الافريقي وتعويض قائد بآخر لا يعني بالضرورة تهدئة الأوضاع السياسية والاجتماعية فيها بصفة نهائية بقدر ما يعني فقط الخروج من حرب والدخول في حرب أخرى.

– إذا كانت مختلف تلك الثورات في وجه الاحتلال الروماني أو الوندالي والبيزنطي من بعده، هي مقاومة ودفاع مشروع عن أرض المغاربة ومحاولة استعادة الأرض المسلوبة، فإنها من وجهة نظر الرومان تمرد، لأن أغلب النصوص العسكرية الرومانية تسرد حملات القادة العسكريين محاطة برواية عقلانية، وبالمقابل يعرضون أعمال الثوار والمقاومين على أنها شكل فوضوي وتمردات عارضة دون النظر إلى أسبابها.

– إذا كان تغلغل الاحتلال الروماني في سواحل بلاد المغرب القديم لم يواجه مقاومة بالمناطق الساحلية التي انغرست فيها مستوطنات قدماء الجنود بالشدة التي كانت عليها المقاومة في المناطق الداخلية، فلأن ذلك راجع لتركيز السيطرة الرومانية التي دعمت سلطة الساحل، وفوّتت عليها فرصة القيام بحركة عسكرية مماثلة إلى التي كانت عند مختلف القبائل بالداخل.

قائمة البيبليوغرافيا

أولا: المصادر

1-المصادر العربية:

-**أبي القاسم عبد الرحمان بن عبد الله، ابن عبد الحكم**: فتوح مصر والمغرب، ج4.

-**عبد الرحمان، ابن خلدون**: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج6، منشورات دار الكتاب اللبناني، بيروت-لبنان، 1968.

-**الحسن بن محمد الوزان، الفاسي (ليون الافريقي)**: وصف افريقيا، ج1، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر،ط2، دار الغرب الاسلامي 1983.

– **الطبري**، تاريخ الرسل والملوك، ج1، ط2، ذخائر العرب –دار المعارف-المسعودي: مروج الذهب، ج1، 1984.

-**اليعقوبي**: تاريخ اليعقوبي، ج1.

2– المصادر الأجنبية:

-**Ammien Marcelin**,
Histoire de Rome. Collection des Auteurs latins publiés sous la direction de M. NISARD, Ammien Marcellin, Jornandès, ... , Paris Firmin Didot, 1860

-**Appien**,
La guerre d'Hannibal, I. traduit par Philippe Remacle
- Ibérique, traduction Combes-Dounous, imprimerie des frères Mame, Paris, 1808.

-César,
Guerre civil, II, traduction française de la collection Nisard, Paris, 1865.

-Claudien,
sur la guerre contre Gildon, 10, traduction française de M. Nisard, chez Firmin-Didot et C[ie]. Libraire Imprimeurs de l'institut de France, Paris.

-Corippe,
Johannide, chant I, Traduction française : J. ALIX, professeur au Lycée de Tunis, Revue tunisienne, 1900, Tunis.

-**Diodore de Sicile**,
Bibliothèque historique, III, traduction française : Fred. Hoefer, libraire de L. Hachette et C[ie], Paris, 1865.

-**Dion Cassius**,
Histoire romaine, Tome premier, traduction en français par R. Gros, Didot-frères libraire, 1845.

-Florus, livre IV, Guerre civile de César et de Pompée, V, traduction de Jules Pierrot, C. L. F. Panckoucke, Paris, 1826

-Hérodote,
Histoires, IV, traduction de Larcher, Charpentier. Libraire-Editeur, Paris, 1850.

-Justin,
Histoire universelle, XVIII.

-Juvénal,
Satire, X, traduction française par V. fabvre de Narbonne, Théophile Berquet. Libraire-Editeur, paris, 1825.

-Lucain,

La Paharsale, traduction française de M. Nisard, chez Firmin-Didot et Cie. Libraire Imprimeurs de l'institut de France, Paris
-Pline l'Ancien,
Histoire naturelle, V et III, édition d'Emil Littré, Paris, 1848-1850.
-Polybe, Histoire générale, traduit par H. Félix Bouchot, Charpentier. Libraire-Editeur, Paris, 1847.
-Pomponius Méla,
Géographie de la terre, I, traduit par M. Louis Baudet, C. L. F. Panckoucke. Editeur, Paris, 1843.
- Description de la terre, III, traduit par M. Louis Baudet, C. L. F. Panckoucke. Editeur, Paris, 1843.
-Procope,
Edifices, VI, libraire de Firmin Didot frères, Paris, 1856
-Guerre des vandales, I et II, libraire de Firmin Didot frères, Paris, 1852
-Salluste,
Guerre de Jugurtha, traduction Garnier, éd de François Richard, 1933.
-Silius Italicus,
Guerres puniques, II. traduction française de M. Nisard, chez Firmin-Didot et Cie. Libraire Imprimeurs de l'institut de France, Paris
-Solin,
Polyhistor, XVI, traduit en français par M. A. Agnant, C.L. F. Panckoucke, Paris, 1847.
-Strabon,
Géographie, XVII, traduction française Amédée Tardieu, Libraire de L. hachette et Cie, Paris, 1865.
-Tacite,
Annales, XV, traduction en français par J. L. Burnouf, libraire de L. Hachette et Cie, Paris, 1859
-Tite-Live,
Histoire romaine, traduction française par M. Nisard, Paris, 1864.
-Victor de Vita,
Histoire de la persécution des vandales

ثانيا: المؤلفات (المراجع)

1-المؤلفات العربية:

-ابراهيمي، ك: تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر، ترجمة محمد البشير شنيتي ورشيد بورويبة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ت).

-استيتينو، عبد الله: التاريخ الاجتماعي والسياسي لقبائل آيت عطا الله الصحراء إلى نهاية القرن الت19، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط –المملكة المغربية، 2011.

-أعشي، مصطفى:

.جذور بعض مظاهر الحضارة الأمازيغية خلال عصور ما قبل التاريخ، ط1، مركز طارق بن زياد-الرباط، ديسمبر، 2002.

.نقائش معاهدات السلام بين الباكوات الأمازيغ والرومان في موريطانيا الطنجية، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2004.

.أحاديث هيرودوت عن الليبيين، ترجمة وتعليق شرح مصطفى أعشي، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2009.

-بالو، ليونال: الجزائر في ما قبل التاريخ، ترجمة وتقديم محمد الصغير غانم، دار الهدى-عين مليلة، الجزائر، 2005.

-**جوليان، شارل أندري**: تاريخ افريقيا الشمالية، ج1، تعريب محمد مزالي والبشير بوسلامة، الدار التونسية للنشر، 1969.

-**حارش، محمد الهادي**:

. التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الاسلامي، الجزائر، 1992.

.دراسات ونصوص في تاريخ الجزائر وبلدان المغرب في العصور القديمة، دار هومة، الجزائر، 2001.

.التطور السياسي والاقتصادي في نوميديا منذ اعتلاء ماسينيسا العرش إلى وفاة يوبا الأول 203-46 ق.م، دار هومة، الجزائر، 1984.

-**حمداوي، جميل**: المقاومة الأمازيغية عبر التاريخ، الدار البيضاء_ المملكة المغربية، 2013.

-**خشيم، علي فهمي**: نصوص ليبية (هيرودوت، بلين الأكبر، ديودور الصقلي، بروكوبيوس القيصري)، منشورات دار مكتبة الفكر، طرابلس-ليبيا، 1967.

-**ساحد، عزيز طارق**: آثار فجر التاريخ في الجزائر، دار المعرفة، الجزائر، 2011.

-**سحنوني، محمد**: ما قبل التاريخ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999.

-**سعدي، عثمان**: الجزائر في التاريخ من العصور القديمة وحتى 1954، ط1، دار الأمة، الجزائر، 2011.

-**أبو السعود، صلاح**: تاريخ وحضارة الفينيقيين، مكتبة النافذة، ط1، مصر، 2011.

-**سعود، محمد التازي**: صفحات من تاريخ المغرب القديم، ط1، منشورات فكر، الرباط-المملكة المغربية، 2008.

-**شنيتي، محمد البشير**:

.التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني ودورها في أحداث القرن الرابع ميلادي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

.الجزائر في ظل الاحتلال الروماني, بحث في منظومة التحكم العسكري (الليمس الموريطاني) ج1، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون-الجزائر، 1999.

.الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، دار الهدى، عين مليلة- الجزائر، 2013.

. سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا (146 ق.م-40 م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

-**العروي، عبد الله**: مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب/ بيروت-لبنان.

-**عقون، محمد العربي**: الاقتصاد والمجتمع في الشمال الافريقي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008.

-**عياش، ألبير**: تاريخ شمال افريقيا القديم، ترجمة عبد العزيز بل الفايدة، ط1، منشورات أمل، المملكة المغربية، 2008/2007.

-**عيساوي، مها**: النقوش النوميدية في بلاد المغرب القديم، ط1، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009/ 1430 هـ.

-**غازي، حليمة**: نقائش لاتينية لماوريطانيا التنكية، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2011.

-**غانم، محمد الصغير**: مقالات وآراء في تاريخ الجزائر القديم، دار الهدى، عين مليلة-الجزائر، 2005.

-**غزال، ستيفان**: تاريخ شمال افريقيا القديم، ترجمة محمد التازي سعود، ج1، ج5، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سلسلة تاريخ المغرب، الرباط، .2007

-**غلاب، عبد الكريم**: قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي القديم والمعاصر، ج1، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت-لبنان، 2005.

-**كامبس، غابريال**: في أصول بلاد البربر ماسينيسا أو بدايات التاريخ، ترجمة وتحقيق محمد العربي عقون، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2010.
-**لحسن، رابح**: اضرحة الملوك النوميد والمور، دار هومة، الجزائر، 2007.

2-المؤلفات الأجنبية:

-Abdi. Hocine,
l'or de Jugurtha, 3ème éd, éd. Muller, France, 2003.
- Albertini. E, G. Marçais, G. Yves,
l'Afrique du Nord française dans l'Histoire, éd. Archat, Paris, 1937.
-Amosti et L. Foucher,
Africa, l'Afrique du Nord dans l'antiquité, éd. Libraire Hachette, Paris, 1961.
-**Basset. Henri**, essai sur la littérature des Berbères, ancienne maison bastide-Jourdan Jules Carbonel imprimeur-libraire Editeur, Alger, 1920.
-**Bates. Oric,** The Eastern libyans, published by frank cass and company limited, London, 1970.
-Bel. Alfred,
la religion musulmane en Berbèrie, T. I, libraire orientaliste, Paul Geuthner, Paris, 1938.
-Bénabou. Marcel,
la résistance africaine à la romanisation, libraire François Maspéro, Paris, 1975.
-Bernard Augustin, N. Lacroix, l'évolution du nomadisme en Algérie, Adolph Jourdan, Alger, 1906.
-Bernard. A,

- Afrique septentrionale et occidentale, T. XI, libraire Armand Colin, Paris, 1937.
- les confins algéro-marocains, Emil Larose libraire Editeur, Paris, 1911.

-Berthier. André,
l'Algérie et son passé, éd. A et J. Picard, Paris, 1951.
-**Berthier. A, Juillet. Jaque et René Charlier. Abbé**,
le Bellum jugurthinum de Salluste et le problème de Cirta, Attali imprimeurs, Constantine, 1949.
-Cagnat. René,
l'armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empéreurs, parti I et II, imprimerie nationale : E. Leroux, Paris, 1913.
-Camps. Gabriel,

- Monuments et rites funéraires protohistoriques, éd. S. A. P. H. O, Paris, 1962.
- Les Berbères mémoire et identité, éd. Barzakh, l'Algérie, 2007.

- **De Condolle. Alphe,**
origine des plantes cultivés, 3ème édition, ancienne librairie Germer Baillière et Cie-félix Algan Editeur, Paris, 1886.
-**Carcopino. Jérôme**,
le Maroc antique, 11ème éd. Gallimard, 1943.
-Cat. Edouard,
Essai sur la province romaine de Maurétanie césarienne, Ernest Leroux Editeur, Paris, 1891.
-Chabot. J-B,
Recueil des inscriptions libyques fascicule 2, imprimerie nationale, Paris, 1941.

-Courtois. Ch,
les vandales et l'Afrique, éd. Arts et métiers graphiques, Paris, 1955.
-Daumas. M et Fabar. M,
grande Kabylie. études historiques, éd. L. Hachette et C[ie] libraire de l'université royale de France, Alger, 1847.
-Decret. Fronçoit, Fantar. Mhamed,
l'Afrique du Nord dans l'antiquité, éd. Payot Rivages, Paris, 1998.
-Desanges. Jehan,
catalogue des tribus africaines de l'antiquité classique à l'ouest du Nil, publication de la section d'Histoire, N°.4, Dakar, 1962.
-Despois. J,
La Tunisie orientale sahel et basse steppe. Etudes géographique, société d'édition « Les belles lettres », Paris, 1940.
-Despois. Jean, **Raynal. René**,
Géographie de l'Afrique du Nord ouest, éd. Payot, Paris, 1975.
-Dupart. Pascal,
Essai historique sur les traces anciennes et modernes de l'Afrique septentrionale : Leurs origines, leurs mouvements et leurs transformations depuis l'antiquité la plus reculée jusqu'à nos jours, Jules Labitte. Libraire –Editeur, Paris, 1845.
-Faidherbe (Le Général),
collection complète des inscriptions numidiques, libraire A. Frank, Paris.
-Faucher. Daniel,
Géographie agraire, types de cultures, éd. M. T. H. Génin. Libraire de Médicis, Paris, 1949.
-Février. J-G,
Histoire de l'écriture, éd. Payot, Paris, 1959.
-De Fontaine. A de Resbecq,
Alger et les côtes d'Afrique, Gaume-frères. Libraire, Paris, 1832.
-Gaid. Mouloud,
Les Berbères dans l'Histoire. de la préhistoire à la kahina, T. I, éd. Mimouni, Alger.
-Gautier. E-F,
Le passé de l'Afrique du Nord. Les siècles obscurs, éd. Payot, paris, 1937.
-Flamand . G. B. M,
les pierres écrites (Hadjrat-Maktoubat) gravures et inscriptions rupestres du Nord-africain, Masson C[ie] Editeurs, libraire de l'académie de Médicis, Paris, 1921.
-Gsell. Stéphane,
.Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, (8 Vol), éd. Libraire Hachette, Paris.
.Khamissa. Mdaourouch. Announa, Adolph-Jourdan imprimeur-libraire-Editeur, Alger, 1914.
. Hérodote. Textes relatifs à l'Histoire de l'Afrique, Alger, 1915.
.Atlas archéologique de l'Algérie, éd. Adolphe-Jourdan, Alger, 1911.
-Hachid. Malika,
les premiers Berbères entre Méditerranée. Tassili et Nil, éd. Ina-Yas, Alger, 2001.
-Lacoste. Yves, **Noushi. André**,
Prenant André, l'Algérie passé et présent, édition sociales, Paris, 1960.
-Lacroix. M-L,
l'univers. Esquisse générale de l'Afrique ancienne. Carthage. Numidie et Maurétanie, T. III, 1844.
-Lassère. J-M,
Ubiqve Popvlus, peuplement et mouvement de population dans l'Afrique romaine de la chute de Carthage à la fin de la dynastie des Sévères (146 avant J.-C. -235 après J.-C.), édition du centre nationale de la recherche scientifique, Paris, 1977.

-Lespès. René,
Pour comprendre l'Algérie, publié sous les auspices du gouvernement générale de l'Algérie, 1937.
-Martin. A. G. P,
Géographie nouvelle de l'Afrique du Nord physique. Politique et économique, éd. Forgeot. C^ie^. Editeurs ; Paris, 1912.
-Maspéro. G,
Histoire ancienne des peuples de l'Orient, 13ème édition, libraire Hachette, Paris, 1921.
-Mercier. E,
Histoire de l'Afrique septentrional depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête français, T. I, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1888.
-Olivier. M. G,
Recherche sur l'origine des Berbères, imprimerie DAGAND, Bone-l'Algérie, 1867.
-Peyronnet. Raymond, le problème nord-africain, T. 1, Peyronnet et Cie Editeurs, 2ème édition, Paris, 1924.
-Picard. G-CH,
. les religions de l'Afrique antique, librairie Plon, Paris, 1954.
. la civilisation de l'Afrique romaine, librairie Plon, Paris, 1959.
-Rachet. Marguerite,
Rome et les Berbères. Un problème militaire d'Auguste à Dioclétien, latomus, revue d'Etudes latines, Bruxelles, 1970.
-Reygasse. Maurice,
contribution à l'études des gravures rupestres et inscriptions tifinar du Sahara central, imprimerie Jules Carbonel, Alger, 1932.
-Rouissi. Moncer,
population et société au Maghreb, cérès productions, Tunis, 1977.
-Rozet et Carette,
Algérie. Etat tripolitains. Tunis. L'univers ou Histoire et description de tous les peuples, Firmin Didot frères. Editeurs imprimeurs de l'institut, Paris, 1850.
-Shaw. Thomas,
voyage de M. Shaw dans plusieurs provinces de la Barbarie et du Levant, T. II, 1743. (traduit de l'anglais)
-Skounti. A, Lemjidi. A, Nami. E,
Tirra aux origines de l'écriture au Maroc, publication de l'institut royale de la culture amazigh (IRCAM), Rabat, 2003.
-Solignac. Marcel,
les pierres écrites de la Berbèrie orientale (Est constantinois et Tunisie), imprimerie J. Barlier et Cie, Tunis, 1928.
-Tissot. Ch,
exploration scientifique de la Tunisie. Géographie comparée de la province romaine d'Afrique, T. 2, imprimerie hachette et Cie. Libraire et Editeur national, Paris, 1888
-Toullote. Anatole,
Géographie de l'Afrique chrétienne (Numidie), topographie oberthur, Rennes-Paris, 1894.
-Toutain. J,
les cités romaine de la Tunisie. Essai sur l'Histoire de la colonisation romaine dans l'Afrique de Nord, libraire Thorin et Fil Albert fontemoing. Successeur, Paris, 1896.

ثالثا: الدوريات

1-المقالات العربية:

-**أسمهر، المحفوظ وآخرون**: "بعض مظاهر التنوع الثقافي واللغوي بالمغرب عبر التاريخ"، مجلة أسيناك (Asinag)، ع1، ط2، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2013.

- **البركانين عبد الحنين**: "من اللهجة الريفية نحو البحث عن فصحى أمازيغية"، مجلة تاريخ المغرب، إصدار جمعية الامتداد الثقافي، ع6، جمادى الثاني 1416 هـ/نوفمبر 1995 م.

-**بنحيون، ماجدة**: "انتفاضة القبائل الأمازيغية ضد الرومان"، كتاب أضواء جديدة على تاريخ شمال افريقية وحضارته، ط1، المملكة المغربية، 1428 هـ/ 2007 م.

-**الحسن، بودرقا**: "المجال والتاريخ مساهمة في تاريخ شمال افريقيا القديم"، كتاب أضواء جديدة على تاريخ شمال افريقية وحضارته، ط1، المملكة المغربية، 1428 هـ/ 2007 م.

-**حارش، محمد الهادي**:

–"أصول البربر من خلال معطيات ما قبل التاريخ والنصوص القديمة"، حولية المؤرخ، ع6، إصدار اتحاد المؤرخين الجزائريين، جويلية 2005، الجزائر.

-"أصول الزراعة في بلاد المغرب القديم"، الجزائر، 2009.

-"قراءة تحليلية لبعض نظاهر الوحدة المغاربية في القديم"، الجزائر، 2009

-**الركيك، عبد اللطيف**: "بعض ملامح التفاعل الثقافي بين اللغتين الليبية والبونية خلال الفترة القرطاجية"، مجلة أسيناك، ع1، ط2، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2013.

-**زاهد، أحمد**: "مؤسسة أكليد في ظل الممالك الأمازيغية"، تاريخ الأمازيغ، الندوة الدولية حول تاريخ الأمازيغ، ج1، أكادير 2000م، دار أبي رقراق للطباعة والنشر.

-**شنيتي، محمد البشير**: "لمحة عن التفاعل الثقافي في الجزائر القديمة"، مجلة الانسان، ج2، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1984.

-**عناوي، محمد**: "البيئة في المغرب من خلال بعض المصادر الجغرافية العربية في العصر الوسيط الاسلامي"، كتاب البيئة بالمغرب معطيات تاريخية وآفاق تنموية: منطقة درعة نموذجا، تنسيق محمد حمام وآخرون، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2005.

-**فنطر، محمد حسين**: "اللوبيون وحدة أم شتات قبائل وشعوب مختلفة"، Africa، مجلة الدراسات الفينيقية البونية والآثار اللوبية، ع12، المعهد الوطني للتراث، تونس، 2002.

-**قمش، خديجة**: "صورة مجال شمال افريقيا من خلال الجغرافية الأسطورية القديمة"، كتاب أضواء جديدة على تاريخ شمال افريقية وحضارته، ط1، المملكة المغربية، 1428 هـ/ 2007 م.

-**مجدوب، محمد**: "الملوك الموريون"، كتاب التاريخ القديم قضايا وأبحاث، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، عين الشق- الدار البيضاء، 2005.

-**واحدي، علي**: "جوانب من الجغرافية التاريخية لوليلي ومنطقتها في العصور القديمة"،كتاب التاريخ القديم قضايا وأبحاث، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، عين الشق- الدار البيضاء، 2005.

2-المقالات الأجنبية:

-Basset. H,

. « la parenté linguistique et le Berbère », Revue africaine, Vol. 76, 1935, Adolphe-Jourdan. Libraire-Editeur, Alger.

. « La Libye d'Hérodote d'après le livre de M. Gsell », Rev. Af, Vol. 59, 1918.

-Berque. J,

« Qu'est-ce qu'une Tribu nord-africaine ? », dans Hommage à Lucien Febvre, éventail de l'Histoire vivante, T. I, libraire Armand Colin, Paris, 1953.

-Bernard. Général,

« Montagnes d'Algérie. Mouzaia. Aurès. Djurdjura », B. S. G. A. A .N, (3ème année- 1910), T. XV, Agha-Alger, imprimerie agricole comerciale, 1911.

-Berthier. A,

.Tiddis cité antique de Numidie, mémoire de l'Académie des inscriptions et Belles lettres, T. XX, diffusion Bocard, Paris, 2000.

. « Du mot Numidia accolé au nom antique de Constantine », Ant. Afr, T. 3, 1969, By creative commons.

-Bertholon. L

« Essai sur la répartition des premiers colons de souche européenne dans l'Afrique du Nord moins la Tunisie actuelle d'après l'onomastique », Revue tunisienne, N. 22, Avril 1899, imprimerie rapide (Louis Nicolas et Cie), Tunis.

-Bertrandy. F,

« Approche géographique et historique de la Numidie antique », L'Algérie au temps des royaumes numides (Vème siècle av. j-c -1er siècle après j-c, Somogy édition d'art, Paris, 2003.

-Bilek. H,

« le libyco-Berbère ou le tifinagh : de l'authenticité à l'usage pratique », Actes du colloque international «le libyco-Berbère ou le tifinagh :de l'authenticité à l'usage pratique 22 Mars 2007 au centre de presse d'El-Moudjahid, Alger, H. C. A, 2007.

-Bouchenaki. M,

« Relation entre le royaume de Numidie et la république romaine au 1er siècle av J-C », Revue d'Histoire et de civilisation du Maghreb, Juillet 1969, faculté des lettres d'Alger, imprimerie de ma service d'impression de l'institut pédagogique national, Alger.

-**Boudribila. M-M**,

« Les anciens amazigh avant les phéniciens. Mode de vie et organisation social », Awal, N°. 29, 2004.

- Bourgeois. **Claude,**

« Vandale et vandalisme en Afrique », Antiquité Africaine, Tome. 16, By Creative Commons, 1980.

-Boyer-Banse,

« L'évolution du nomadisme en Algérie », B. S. G. A. A. N, 2ème année, 1907. T. XII, imprimerie typographique et lithographique S. Léon, Alger.

-Bujega,

« Le Djurdjura », B. S. G. A. A. N, 28ème année, 1er trimestre, N°. 93, 1923, Alger.

-Camps. G,

.«Les Bavares peuple de Maurétanie césarienne », Rev. Afr, Vol. 99, 1955.

. « Les Berbères », encyclopédie de la Méditerranée, des rives de la Méditerranée aux marges méridionales du Sahara, éd. Alif, Tunisie.

. « Les Numides et la civilisation punique », Ant. Afr, T. 14, 1979.

. « Les royaumes du IIIème siècle av J-C », تاريخ الأمازيغ الندوة الدولية حول تاريخ الأمازيغ ، ج1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، أكادير، 2000.

. « L'inscription de Béja et le problème des du Mauri », Rev. Afr, T. 98, 1954.

-Carcopino. J,
.«l'insurrection de 253 », Rev. Afr, T. 60, 1919.
. « Encor Masties l'empereur maure inconnu », Rev. Afr, T. 100, 1956.
-Cauvet. C,
.« Que sont devenus les libyens des anciens ? », Rev. Afr, Vol. 79 (1ère partie), 1936.
. « Les origines orientales des Berbères », B. S. G. A. A. N, 32ème année, 1er trimestre, N°. 109, 1927.
-Chabot. J-B,
« Note sur l'alphabet libyque », C. R. A. I, 61ème année, N°. 6, 1917/
-Chaker. S,
« l'écriture libyco-berbère. Etat des lieux et perspectives », Actes du colloque international «le libyco-Berbère ou le tifinagh :de l'authenticité à l'usage pratique 22 Mars 2007 au centre de presse d'El-Moudjahid, Alger, H. C. A, 2007.
-**Chaker. S,**
« Quelques considérations générales sur la langue des Touaregs », Libyca, T. XXV, Alger, 1977.
-Claude. B,
« Vandales et vandalisme en Afrique », Ant. Afr, T. 16, 1980.
-Colin. F,
« Le vieux libyque dans les sources égyptienne (du nouvel Empire à l'époque romaine) et l'Histoire des peuples libycophones dans le Nord de l'Afrique », B. A. C. T. H. A. N, nouvelle série 25, année 1996-1998, éd du comité des travaux historiques et scientifiques (C. T. H. S), Paris, 1999.
-Courtois. Ch,
« De Rome à l'Islam », Rev. Af, Vol. 86, 1942.
-Desange. J,
.« Les protoberbères »,In livre : Histoire générale de l'Afrique, T. II. Afrique ancienne, Unesco/ NEA, 1989.
. « Permanence d'une structure indigène en marge de l'administration romaine : la Numidie traditionnelle », Ant. Afr, T. 15, 1980.
-Despois. J,
. « l'Atlas saharien occidental d'Algérie : ksouriens et pasteurs », Cahiers de géographie, Vol. 3, N°. 6, 1959.
. « Géographie et Histoire en Afrique du Nord. Recherche à une thèse », Hommage à Lucien Febvre. Eventail de l'Histoire vivante, T. I, libraire Armand Colin, Paris, 1953.
. « La bordure saharienne de l'Algérie orientale », Rev. Afr, Vol. 86, 1942.
-Destaing. E,
« Essai de classification des dialectes berbères de Maroc », Etudes et documents berbères, N°. 19-20, la boite à document/ Edisud.
-Février. J-G,
« Que savons-nous du libyque », Rev. Afr, Vol. 100, 1956.
-Flamand. G. B. M,
« Note sur l'industrie pastorale en Algérie », B. S. G. A. A. N, 3ème année, 1898.
-Galand. L,
.« Les alphabets libyques », Ant. Afr, T. 25, By creative Commons, 1989.
. « l'écriture libyco-berbères », C. R. A. I, 142ème année, N°. 2, 1998.
-Gascou. J,
.« Le nom de l'oued Medjerda dans l'antiquité romaine », Ant. Afr, T. 17, 1981.

. « Le cognement Geatulus, Gaetulicus en Afrique romaine », Mélange d'archéologie et d'Histoire, T. LXXXII (82), Ecole français de Rome, éd. E de Boccard, Paris, 1970.

-Gautier. E-F,

.« Le cadre géographique de l'Histoire », Histoire et Historiens de l'Algérie (1830-1930), libraire Félix Alcan, T. IV, Paris.

. « Considérations sur l'Histoire du Maghreb », Rev. Afr, Vol. 68, 1927, office des publications universitaires, Alger.

-Ghaki. M,

.« Une nouvelle inscription libyque à Bordj Hellel », Africa, T. IX, institut national d'archéologie et d'art, Tunisie, 1985.

. « La répartition des inscriptions libyques », Africa, série Reppal, IX, institut national du patrimoine, Tunisie, 1995.

-Gsell. S,

« Le climat de l'Afrique du Nord dans l'antiquité », Rev. Afr, Vol. 55, 1911.

-Hachid. M,

« la diversité ethnique du Sahara au cours de la préhistoire et de la période paléo berbère. Identités et interactions socio-culturelles », Le Sahara, espace de communication et d'interaction civilisationelle dans les temps antiques, publications de l'institut des Etudes africaines, Rabat, 2002.

-Hadjilat. A,

«Reflexions sur l'évolution et l'aménagement de l'alphabet tifinagh », Actes du colloque international «le libyco-Berbère ou le tifinagh :de l'authenticité à l'usage pratique 22 Mars 2007 au centre de presse d'El-Moudjahid, Alger, H. C. A, 2007.

-Hamdoune. Ch,

« De Pline à Ptolémée, permanences et ruptures chez les peuples indigènes de Maurétanie tingitane », Monuments funéraires. Institution autochtones en Afrique du Nord antique et médiévale, VI, colloque international (PAU. octobre 1993- 118ème congrès), éd. C. T. H. S, 1995.

-Hodent. M-K,

« Le recensement des pâturages sur les Hauts plateaux algériens, les steppes présahariennes et le rôle de l'aviation », Journal de la société des africanistes, T. 17, 1947.

-Janon. Michel,

« l'Aurès au VI siècle. Note sur le récit de Procope », Ant. Afr, T. 15, 1980

-Joleaud. L,

.« Les grandes lignes directrices de l'orographie en Numidie », B. S. G. A. A. N, 1913.

. « Le canon de Constantine », B. S. G. A. A. N, 12ème année. 1907.- 3ème trimestre.

-Lacroix. F,

.« Afrique ancienne. Procédés agricoles », Rev. Afr, Vol. 14, année 1870, Adolphe-Jourdan. Libraire-Editeurs, Alger.

. « Afrique ancienne. Produits végétaux », Rev. Afr, Vol. 13, 1869.

- De Lartigue. Lt-colonel,

« Monographie de l'Aurès », B. S. G. A. A. N, année 1904, Alger, imprimerie typographique et lithographique S. Léon.

-Lassère. J-M,

« Remarques sur le peuplement de la colonia Lulia Augusta Numidica Simitthus », Ant. Afr, T. 16, 1980.

-Leveau. Ph,

.« L'aile II des traces, la tribu des Mazices et les praefecti gentis en Afrique du Nord », Ant. Afr, T. 7, 1973.

. « Un nouveau témoignage sur la résistance maure en Maurétanie césarienne centrale », Ant. Afr, T. 8, 1974.
- Lhote. H,
« l'expédition de Cornelius Balbus au Sahara en 19 av. J.-C. », Rev. Afr, Vol. 98, 1954.
- Masson. Olivier,
« Grecs et libyens en Cyrénaique d'après les témoignages de l'épigraphie », Ant. Afr, T. 10, 1976.
- Mercier. E,
« Ethnographie de l'Afrique septentrionale. Note sur l'origine du peuple berbère », Rev. AF, Vol. 15, 1871.
- **De Meynard. Charles-Barbier,**
« Rapport sur une nouvelle mission accomplie par M. Basset en Algérie, à la recherche des dialectes berbères », C. R. A. I, 30è année, N. 2, 1886
-Michel. Janon,
« l'Aurès au VI siècle. Note sur le récit de Procope », Antiquité africaine, T. 15, 1980.
- **Modéron. Yves**,
« Corippe et l'occupation byzantine de l'Afrique : pour une nouvelle lecture de la Johannide », Antiquité africaine, T. 22, 1986
- Odorico. Paolo,
« l'image des berbères chez les byzantins. Témoignage de Corippe », Awal. Cahiers d'études berbères, N°. 40-41, éd de la maison de l'homme, Paris, 2009-2010
- Ouazar- Merzou. Karima,
« La schématisation dans l'art rupestre et la naissance d'un système alphabétique », Actes du colloque international le libyco berbère ou le tifinagh, H. C. A, Alger, 2007
- Ouskounti, A. El-Madjid, E. Nami,
« les inscriptions libyco-berbères dans l'art rupestre présaharien », Le Sahara, espace de communication et d'interaction civilisationelle dans les temps antiques, Publication de l'institut des Etudes africaines, Rabat, 2002
-Peyras. J,
« Deux études toponymie et de topographie de l'Afrique antique », Ant. Afr, T. 22, 1986.
-. Pintado. Jorge Onrubia,
« les premiers berbérophones», ، تاريخ الأمازيغ، الندوة الدولية حول تاريخ الأمازيغ، ج1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، أكادير-المملكة المغربية،
-.Rinn, Ct,
. «Qu'est-ce que le Tell », Bulletin de la société de géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord, 8ème Année-1903, 1er trimestr
. « Origine des droits d'usage des sahariens dans le Tell », B. S. G. A. A. N, T. VII, 1902
. « Essais d'études linguistiques et ethnologiques sur les origines berbères », Rv. Afr, Vol. 25, 1881
. « Les royaumes berbèrs et la guerre de Jugurtha », Rev. Afr, N°. 29, 1885
- Rouire. M. le docteur,
« situation géographique comparé du lac triton et des Syrtes », C. R. A. I, 28ème année, N. 3, 1884
- Salama. P,
« le Sahara pendant l'antiquité classique », Histoire générale de l'Afrique, T. II. Afrique ancienne, UNESCO, NEA, 1989
- Souville. Ms Georges,
« contacts et échanges entre la péninsule Ibérique et le Nord-Ouest de l'Afrique durant les temps préhistoriques et protohistoriques », C. R.A.I, 142ème année, N. 1, 1998

-H.Tauxier,
. « Géographie libyenne », Rev. Af, Vol. 30, office des publications universitaires, Alger, 1886
. « Tradition sur les origines du peuple berbères, Rev, Afr, Vol. 6, 1862
. « Etude sur les migrations des tribus berbères avant l'islamisme », Rev. Afr, Vol. 7, 1863.
- Tejera. A,et A. Chausa,
« Les nouvelles inscriptions indigènes et les relations entre l'Afrique et les iles Canaries », Bulletin archéologique de C. T. H. S, Nouvelle série, 1996-1998, éd. C. T. H. S, Paris, 1998
- Tixeron. J,
« Reflexion sur l'implantation antienne de l'agriculture en Tunisie », Karthago, T. 10, 1959-1960
- Touji. Said,
« l'écriture libyco-berbère : origine et évolution récente », Actes du colloque international le libyco –berbère ou le tifinagh, H. C.A, Alger, 2007
-Trousset. Pol,
« Le franchissement des chotts du Sud tunisien dans l'antiquité », Ant. Afr, T. 18, 1982
-Werner. Vicichi,
« les Gétules de la maurétanie », Bulletin I. F.A.N, T. 17, série B, N°. 1-2, imprimerie Protat frères Macon, Dakar, 1955
- Yves. Janvier,
« La géographie de l'Afrique du Nord chez Orose », Bulletin archéologique de C. T. H. S, nouvelle série. 18, Année 1982, fascicule. B, Afrique du Nord, éd du C. T. H. S, Paris, 1988.

3–الأطروحات والرسائل الجامعية:

–عباسي، عبد الجبار: الكتابات الليبية البربرية في إطار الفن الجداري الصحراوي _دراسة أثرية لمجموعة من الكتابات الصخرية في محيطها الطبيعي والأثري بالتاسيلي نازجر_، رسالة لنيل شهادة الماجستير في علم الآثار، جامعة الجزائر، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم الآثار، 2005/2004.

– عيبش، يوسف: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لبلاد المغرب أثناء الاحتلال البيزنطي، أطروحة دكتوراه دولة في تاريخ وآثار المغرب القديم، إشراف محمد البشير شنيتي، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة منتوري–قسنطينة، 2006-2007 م

-Esslimani. Ahmed,
Carthage et les libyens. Thèse de Doctorat d'Histoire ancienne, sous la direction de Ms. Combet-Farnoux, 1980-1981, U. E. R de lettres et sciences humaines, Section d'Histoire, université de Nice, France.
-Monchicourt. Ch,
la région du Haut Tell en Tunisie (le kef, Téboursouk, Maktar, Thala), Essai de monographie géographique, Thèse pour le Doctorat es Lettre, présenté à la Faculté des lettres de l'université de Paris, Libraire Armand Colin, Paris, 1918

الفهارس

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

ج

ح

خ

د

ر

فهرس الشعوب والقبائل:

ن

و

ي

فهرس الخرائط والأشكال والصور:

أ- الخرائط

ب- فهرس الصور

ج- فهرس الأشكال والجداول:

فهرس المحتوى

الصفحة